

## الفصل الثالث والاربعون

### مصلحون قبل الاصلاح!

فتحت الفترة المضطربة للسبي البابلي في افنيون، والانشقاق الغربي (تعدد البابوات)، المجال امام تفتح الهرطقات: وحال ضعف الهيبة البابوية، وعدم معرفة من هو البابا الشرعي، ايام الانشقاق البابوي، القضاء عليها في مهدها.

وكان عدم القيام بالاصلاح الكنسي، كما رأينا، احدى المواضيع الكبيرة، التي كانت تثير الاستياء في النفوس. وللقيام بهذه المهمة، قام بعض الاشخاص، اتقياء وذوي اخلاق وسير حميدة، امثال جون ويكلييف، وجون هوس، وجيرولامو سفنرولا، بمحاولة تحقيق هذا الاصلاح، ولكن لانهم حاولوا فعل ذلك خارج، وايضا ضد السلطة البابوية، عملوا ايضا على هدم اسس ونظم الكنسية والدولة.

فتح جون ويكلييف وجون هوس، بنزعتهم الى الاستقلالية، وبمبادئهم الهدامة، الطريق الى البروتستنتية، وكانوا اجدادها الحقيقيين، لدرجة ان ما كان لزعماء ما يُدعى بالاصلاح، قرنا ونصف لاحقا، الا ان يغرفوا من عندهم كل عناصر تعاليمهم.

اثنان من رجال الكنيسة في القرن الرابع عشر يستحقان التفاتا خاصا: **جون ويكلييف** من انجلترا و**جون هس** من بوهيميا. كانا نوعا ما من سابقني ما يدعى بالاصلاح حين ذهبنا ابعدهم من أي من الاخرين في اثاره اسئلة اساسية، وتحديا البابوية في امور تتعلق باللاهوت والسلطة، فدفعنا ثمن موقفهما باصدار الحرمان على ويكلييف وبالموت حرقا على جون هس.

### 1- جون ويكلييف John Wyclif 1320-1384

ولد جون ويكلييف في هبسول القريبة من قرية ويكلييف، من اعمال مقاطعة يوركشير في حوالي سنة 1320. ودرس الفلسفة واللاهوت في جامعة اكسفورد - التي كانت تنافس جامعة باريس على الاولوية الثقافية وكان اساتذتها مشهورين بالفساد حتى التهور في كثير من المواضيع - واصبح فيها استاذا للاهوت، ثم رسم كاهنا، وظل يدرس في الجامعة. وبدأ ويكلييف عمله بداية سيئة، اذ تبني مبدأ الاوغسطينية المتطرف وبنى عقيدته على مبدأ الجبرية الخطير Predestination. وفي ذلك يقول ويكلييف:

"ان الله يمنح بركته ورحمته لمن يشاء، وقد كتب على كل انسان مصيره المحتوم في الازل قبل مولده، كتب عليه الخسران او النجاة الى الابد. وليست الاعمال الصالحة هي التي تنجي صاحبها، بل انها تدل على ان من يعملها قد تلقى رحمة الله ونعمته وانه ممن اختارهم وخصهم بهذه النعمة..." (قصة الحضارة).

وتبنى ويكلييف في عام 1356 ايضا اراء جماعة Joachim de Flore الرؤاوية Apocalyptique، واصدر كتابه الاول "عن آخر ازمة الكنيسة The last age of the Church"، وفيه يدعو الكنيسة الى الاصلاح بالعودة الى الفقر الانجيلي. وانضم في عام 1360 الى جامعة اكسفورد والى الاكليروس العلماني في نزاعهما مع الرهبانيات المتسولة التي اتهموها باستيلائها على مرافق الحياة في الكنيسة، وعلى الاستحواذ على الكثير من الشباب، فهاجم ويكلييف جمعية الفرنسييسكان واصفا اياها بطريقة لا ترضيهم متهما اياهم انهم "يدعون الى التمسك بالتقى، في حين انهم يجمعون المال ويكدسونه، وكان يرى ان بعض الاديرة ما هي الا مأوى للصوف، عششا للافاعي، وبيوتا للاحياء من الشياطين". وسئم رئيس اساقفة كونتربري ISLIP في عام 1365، النزاعات المستمرة مع جمعية الفرنسييسكان، فطردهم من جامعة Canterbury Hall التي انشأها في اكسفورد، ووضع ويكلييف مكانهم على رأس هذه الكلية. ولكن خليفة ISLIP اعاد الرهبان في السنة التالية واعفى ويكلييف من الرئاسة، مما اثار غضب ويكلييف الذي رفع امره الى البابا في افنيون، حيث خسر ويكلييف دعوته في عام 1370. مما دفعه الى اخذ مواقف معادي للبابوية وللرهبان.

### الاخوة الفقراء The Lollards

ظلوكليف يصدر المنشور تلو المنشور ضد الكنيسة، وانشأ طائفة من "الكهنة الوعاظ الفقراء" لينشروا اصلاحاته بين الشعب. وكان من هؤلاء "الاتباع" من لم يتلقوا من العلم الا اقله، كما كان منهم رجال من جامعة اكسفورد، وكانوا جميعا يرتدون اثوابا من الصوف الاسود ويمشون حفاة، كما كان يفعل "الاخون الاقدمون"، كما كانوا كلهم تعمر قلوبهم حماسة الرجال الذين تكشفت لهم من جديد حقيقة المسيح. وكانت عقيدتهم المتأصلة في

نفوسهم هي ان الكتاب المقدس لا يأتيه الباطل بخلاف تقاليد الكنيسة وعقائدها المعرضة للخطأ، وكانوا يصرون على ان يعطوا الناس بلغتهم القومية لا بالطقوس الغامضة التي تتلى عليهم بلغة اجنبية. وكتب ويكيليف الى هؤلاء الكهنة العلمانيين والى من يستمعون اليهم من المتعلمين بلغة انجليزية سهلة قوية خالية من التعميق ثلثمائة موعظة، وكثيرا من المقالات الدينية. وقد عرفوا هؤلاء فيما بعد باسم Lollards.

## الكنيسة تقاوم

وقرر كورتناي اسقف لندن ان يقاوم، فاتهم ويكيليف بانه مارق خارج على الدين. واستدعى الواعظ للمثول امام مجلس من الاحبار في كنيسة القديس بولس في شهر شباط عام 1377. واطاع الامر، ولكنه جاء ومعه حاشية مسلحة. ونشب نزاع بين الجنود وبعض مؤيدي ويكيليف، قام على اثره شغب، فرأى الاسقف ان من الحكمة تأجيل المحاكمة، وعاد ويكيليف الى اكسفورد دون ان يمسه سوء. الا انه واصل هجومه وتعليمه متكلا على دعم البلاط الملكي وبالخصوص عم الملك ادوارد الثالث، دوق دي لانكستر Duc of Lancaster.

فارسل كورتناي الى روما تقريرا نقل فيه اثنتين وخمسين عبارة من كتب ويكيليف ومن تعاليمه الشفوية الغير كاثوليكية. لما كان شهر ايار 1377 اصدر البابا غرغوريوس الحادي عشر مراسيم بابوية يطعن فيها على ثمانية عشر من اقوال ويكيليف، معظمها من رسالته "عن الحكم المدني"، وامر سدبري كبير الاساقفة والاسقف كورتناي ان يبحث الامر ليعرفا هل لا يزال ويكيليف معتنقا هذه الآراء، فاذا تبينا انه لا يزال يعتنقها فعليهما ان يلقي القبض عليه ويحتفظا به في الاغلال حتى تصدر اليهما تعليمات اخرى. الا انه بسبب دعم البلاط الملكي بقيت هذه الاوامر حبرا على ورق.

## ويكيليف انكلترا والسلطة البابوية

وكان ويكيليف في هذه الاثناء قد كسب تأييد طائفة كبيرة من الرأي وخصوصا من الطبقة النبيلة. وكان البرلمان الذي اجتمع في شهر تشرين اول مناهضا للكنيسة اشد المناهضة. وكانت فرنسا وقتئذ تستعد لغزو انكلترا، وكانت الخزانة الانجليزية تكاد تكون خاوية، وبدا ان من الحمق ان يسمح لوكلاء البابا ان يجمعوا الاموال من الابريشيات الانجليزية لبابا فرنسي وللمجلس من الكرادلة كثرته من الفرنسيين. وسأل مستشارو الملك ويكيليف:

"هل يحق لمملكة انكلترا شرعا، اذا كانت الضرورة تحتم عليها ان تعمل لصد ما يتهدها من الغزو الفرنسي، ان تمنع اموال الدولة من الوصول الى البلاد الاجنبية، وان طلبها البابا وهدد من يمنعه بالعقاب معتمدا في ذلك على وجوب طاعة اوامره؟"

واجاب ويكيليف عن هذا الاستفتاء بمنشور كان في الواقع دعوة لفصل الكنيسة الانجليزية عن البابوية وقد جاء في هذا المنشور:

"ان البابا لا يستطيع ان يطلب هذا المال الا على سبيل الصدقة... ولما كانت اهل البلاد اولى من غيرهم بهذه الصدقات، فان توجيه صدقات الدولة الى البلاد الخارجية اذا كانت البلاد نفسها في حاجة اليها، يخرج بها عن نطاق الصدقات ويجعلها حماقة وبلاهة".

ورد ويكيليف على الدعوة القائلة ان الكنيسة الانجليزية جزء من الكنيسة العالمية الكاثوليكية وان من واجب الكنيسة الانجليزية لهذا السبب ان تطيعها وتخضع لاوامرها، رد ويكيليف على هذه الدعوى ان اوصى باستقلال انكلترا الكنسي وقال:

"ان الدولة الانجليزية، بنص الكتاب المقدس، يجب ان تكون هيئة واحدة، وان يكون رجال الدين واللوردات، والسكان العاديون اعضا في هذه الهيئة".

وقد بلغت هذه الدعوى، التي استبق بها هنري الثامن من الجراة حدا جعل مستشاري الملك يطلبون الى ويكيليف ان يمتنع من الادلاء بآراء جديدة في هذا الموضوع.

وكان عام 1378 عاما مميزا في حياة ويكيليف، اذ انتقل في صراعه مع البابوية من المجال السياسي الى المجال

الديني.

## ويكيليف يهاجم البابوية

هاجم ويكيليف البابوية هجوما مباشرا، وقال ان الكنيسة ليست متمركزة في البابا والكرادلة، لكن في شركة المختارين يكون المسيح بالتأكيد راسها الوحيد، "ليس للبابا قوة في الربط والحل اكثر من أي كاهن". وقال: "انه عندي مسألة ايمان انه لا يجب على أي انسان ان يتبع البابا او حتى احد القديسين في السماء، الا عندما يقتدون بالمسيح". في كتاباته اللاحقة استخدم لغة عنيفة لدرجة انه سمى البابا عدو المسيح.

## ويكيليف يترجم الكتاب المقدس

واذ كان يحث الناس الى العودة الى المسيحية كما جاءت في كتاب العهد الجديد، فقد شرع هو ومساعدوه يترجمون الكتاب المقدس ليكون هو المرشد الوحيد المنزه عن الخطأ الى الدين الحق. اراد يكيليف ان يكون الكتاب المقدس في متناول كل انجليزي يستطيع القراءة. ويبدو انه هو نفسه قد ترجم اسفار العهد الجديد، وترك ترجمة العهد القديم لنقولاس هيرفور وجويبرني وقد تمت هذه التراجم كلها بعد عشر سنين من موت ويكيليف. وكان الاصل الذي ترجم الكتابان عنه هو ترجمة جيروم اللاتينية، لا الترجمة العبرية للعهد القديم او اليونانية للعهد الجديد. ولم تكن الترجمة نموذجاً يحتذى في النشر الانجليزي، لكنها كانت حدثاً خطيراً في التاريخ الانجليزي.

## ويكيليف وسري الافخارستيا والاعتراف

اختلف ويكيليف عن الموقف الكاثوليكي بالنسبة لسر الافخارستيا مستبقاً بذلك ما قام به لوثر وكالفن وتصدر اثنا عشرة بندا، ينكر فيهما فكرة الاستحالة الجوهرية (transsubstantion)، وان الخبز والخمر يتحولان الى جسد الرب ودمه. امن ويكيليف ان الجسد والدم كانا حاضرين حقا، لكن لم يكن هنا تحويل وتغيير في الخبز والخمر. ويقول ان المسيح كان يحضر حضوراً روحياً، حقيقياً، صادقا، قوي الاثر، ولكن حضوره هذا كان مع الخبز والخبز اللذين لم ينعدم وجودهما كما تدعي الكنيسة. اما كيف يكون ذلك فهو سر غامض. ودعى الى وجوب الشك بوجه عام في صحة العشاء الرباني الذي يقدمه الكاهن الآثم او الخارج على الدين، كما ان الكاهن، صالحا كان، او طالحا، لا يستطيع ان يجمل الخبز المقدس الى جسم المسيح ودمه. ولم يكن شيء يبدو ابشع في نظر ويكيليف من تفكيره في ان بعض من يعرفهم من الكهنة يستطيعون ان يأتوا بهذه المعجزة التي هي من صنع الله وحده.

وانكر ضرورة الاعتراف الجهري امام الكاهن، ونادى بالعودة الى الاعتراف الاختياري العام الذي كان يفضلهُ المسيحيون الاولون.

## رد الفعل على تعاليم ويكيليف

اثارت افكار وتعاليم ويكيليف هذه الخوف في بعض انصاره، فاسرع جون جونت الى اكسفورد، والح على صديقه ان يخفف من هجومه وخصوصاً على القربان الاقدس (1381)، ورفض ويكيليف نصيحته، وعاد فاكد آراءه في اعتراف له اصدره بتاريخ 10 ايار سنة 1381، مما اثار مشاعر كثير من مؤيديه. واسرعت جامعة اكسفورد وألفت لجنة لدراسة تعاليم ويكيليف، واعلنتها انها هرطوقية، فمنعت تعليمها في جامعتها. فرفع ويكيليف قضيتها ليس للاسقف ولا للبابا وانما للملك، الا ان الوصي على العرش وحامي ويكيليف اللورد لانكستر، رأى انه الدفاع عن ويكيليف الذي حامى عن حقوق المدينة للبلاد ضد البابا شيء والدفاع عن من يهاجم العقائد شيء اخر، فرفع عنه حمايته.

## ثورة الفلاحين

واندلعت نيران ثورة اجتماعية "ثورة الفلاحين" في انجلترا بعد شهر من ذلك التاريخ 1381، كان سببها كثرة الضرائب التي فرضت على الشعب وحالة البؤس التي كان يعيشها فلاحو القرى. ورأى الحكام في هذه الثورة من تأثير تعاليم ويكيليف. وارتبك ويكيليف وتخير بما ابداه من اعجاب به زعيم الثورة، فاصدر عنه منشورات يتنحى فيها عن العصاة، ويتبرأ فيها من كل آراء اشتراكية، فقام يفسر شيوعيته على انها يجب ان تؤخذ بمعناها المثالي، وان السلطات التي تقوم بمقتضاها هي التي نادى بها القديس بولس والتي امر بها الله ومن ثم كانت واجبة الطاعة.

## ويكيليف يفقد التأييد

ارتاع كل ذوي الاملاك من هذه المبادئ، وجعلتهم يقاومون كل مذهب فيه خطر على الملكية ايا كان شكلها، كنيسة كانت او علمانية. وخسر ويكيليف اذ ذاك معظم ما كانت تنفحه به الحكومة من تأييد، وكان اغتيال سدبري كبير الاساقفة على يد الثوار سببا في ارتقاء الاسقف كورتناي الد اعدائه الى منصب كبير اساقفة إنجلترا بدلا منه. فدعا في شهر ايار من عام 1381 مجلسا من رجال. واقنع كبير الاساقفة هذه الجمعية بان تستنكر اربعة وعشرين من آراء ويكيليف قراها هو من مؤلفاته، ثم بعث بأمر عاجل الى مدير جامعة اكسفورد ليمنع مؤلف هذه الكتب من الاستمرار في التعليم او الوعظ الا بعد ان يثبت تمسكه باصول الدين القويم. وازاف الملك رتشارد الثاني الى هذا امرا اصدده الى مدير الجامعة ان يطرد منها ويكيليف وجميع مؤيديه، وكان ذلك جزءا من الخطة التي انتهجها لمقاومة الفتنة التي كادت ان تطوح به عن عرشه. فما كان من ويكيليف الا ان انسحب الى املاكه في لتروورث.

## موت ويكيليف

قضى ويكيليف في لتروورث اخر سنتين من حياته، وفيها كتب كتابه Trialogus وفيه نشر اراءه بشكل كامل ولكن باعتدال، واعلن انه بوحدة مع الكنيسة. وفي عام 1384 دعا البابا اربان السادس ويكيليف للمثول بين يديه في روما، الا انه اصيب في الثامن والعشرين من شهر كانون اول عام 1384 بضربة شلل وقت ان كان يقوم بالقداس ثم وافته المنية بعد ثلاثة ايام من تلك الاصابة. ودفن في لتروورث. وبناء على قرار من مجلس كنستانس (4 ايار 1415) اخرجت عظامه من القبر والقيت في مجرى ماء قريب، ودار البحث عن كتاباته واييد ما عثر عليها منها.

## 2- جون هس 1415-1373 JOHN HUSS

### المسألة البوهيميا

لكي نفهم حركة جون هس، من المهم ان نتعرف اولا على البيئة البوهيميا التي ولدت فيها هذه الحركة. ومن المعروف ان بوهيميا ارتدت الى الدين المسيحي عل يد القديس متوديوس في القرن التاسع، وبأذن من روما ادخل الى هذه الكنيسة الجديدة الليتورجية البيزنطية مترجمة الى اللغة السلافية.

سريعا ما اثارت هذه الخصوصية حسد ومعارضة المرسلين الالمان، اثناء الاحتلال الالماني لبوهيميا، وطلبوا من روما منع هذه الليتورجية بحجة ان اللغات المقدسة هي العبرية واليونانية واللاتينية. فربحوا الدعوة، واضطرا السلاف مرغمين على قبول الليتورجية اللاتينية. وكان هذا احد الاسباب في نشر بعض الاضطرابات في بوهيميا، وزيادة المقاومة للسلطة البابوية من قبل مؤيدي الليتورجية البيزنطية.

هذه المعارضة من قبل السلاف زادت حدتها عندما بدأت جماعات الفودوا وغيرها من الحركات الهرطوقية، الهارين من فرنسا تصل الى بوهيميا للحماية، وجلبت معها بجانب ما تبنته من كره السلاف للالمان وللبابوية، افكارها التي تتخلص بثلاث نقاط:

- اصلاح الكنيسة بعودتها الى الفقر الانجيلي
- رفض معظم اسرار الكنيسة
- الحقد على البابوية

وصلت هذه المعارضة اوجها واثارت قلق المسؤولين، في بداية القرن الرابع عشر، اضطر على اثرها رئيس اساقفة براغ، استنادا الى قرارات مجمع فينا (1311-1312) على اقامة محاكم التفتيش الدينية. واصدرت هذه المحكمة اربعة عشرة حكما بالحرق على الوالدين، الا ان تعاليمهم وهرطقتهم لم تختفي، بل وقام وعلى مدى القرن الرابع عشر - ابان وجود البابوية في افنيون والانشقاق الكبير - عدد كبير من وعاظهم بالتجول في المدن والقرى، مبشرين بعودة المسيح الدجال، وداعين الى اصلاح الكنيسة. ومن اشهر هؤلاء الوعاظ :

**يوحنا ميلكز *Jean Milicz de Kremsier*** راع كاتدرائية براغ، الذي استقال من عمله للقيام بخدمة الوعظ بين الفقراء، وقد احرز عمله بينهم نجاحا كبيرا. وقد هاجم بلغة عنيفة نقائص الاكليروس. وفي عام 1367، توجه الى روما، وحاول ان يقنع البابا اربان الخامس، بان ضد المسيح قد جاء، وان المحيي الثاني للسيد المسيح قد بات

وشيكاً، لكن البابا طرده. ودُعي للمثول في افنيون امام البابا غريغوريوس الحادي عشر بتهمة الهرطقة، وفيها مات عام 1374 قبل ان ينتهي التحقيق.

**متياس اف جانو Mathias de Janow**، وكان تلميذا لميلكر، وحل محله في براغ. كان واعظاً بليغاً، وفي عظاته، كان يوجه انتقاداً مراراً لرجال الدين والرهبان، ويعرض بحالة الفساد الذي كان متفشياً بكافة المجالات، سواء في الاخلاق او العبادات.

### تأثير ويكيليف في بوهيميا

تزوجت الاميرة "انا" ابنة شارل الرابع ملك بوهيميا من رتشارد الثاني ملك إنجلترا، واصبحت مغرمة بكتابات ويكيليف. وجذبت جامعة اكسفورد الطلبة البوهيميون، وجاءوا للدراسة فيها، وعند عودتهم جلبوا معهم آراء ويكيليف الى جامعة "براغ". كما واعدّ جو الحماس الوطني والانتعاش الديني في بوهيميا البلاد الى قبول وتبني تعاليم جون هس.

### جون هس

بدأ حياته في قرية هوسينتز Hussinecz في بوهيميا (حاليا في سلوفاكيا)، حيث وُلد حوالي عام 1369، وعُرف باسم جون الهوسينتزي الذي اختصره فيما بعد الى هس. وجاء حوالي عام 1390 الى براغ وهو طالب فقير وكسب عيشه بالخدمة في الكنيسة، وكان أمله ان ينخرط في سلك الكهنة. وحصل عام 1396 على اجازة استاذ في الآداب، وبدأ يدرس في الجامعة، ورسم كاهنا عام 1401، وامتاز، بسبب علمه وتقواه وصلاح حياته، سمعة جيدة، جعلته يرتقي بسرعة الى المناصب العليا، فاختر عام 1402 عميدا لكلية الآداب، او بعبارة اخرى عميدا للدراسات الانسانية، وعيّن راعي لكنيسة بيت لحم، واصبح اشهر واعظ في براغ، وكان بين المستمعين اليه كثيرون من رجال البلاط، وقد عينته الملكة صوفيا واعظا ومعرفا لها. واخذ يلقي عظاته باللغة التشيكية، وعلم رجال كنيسته ان يسهموا بنصيب ايجابي في الصلاة بترتيل الاناشيد الدينية.

دخلت في هذه الفترة، وعلى اثر زواج الاميرة "انا" ابنة ملك بوهيميا من رتشارد الثاني ملك إنجلترا، اراء ويكيليف وانتشرت انتشارا سريعا، وكان لها الكثير من الانصار ومنهم جون هس. مع انه لم يوافق ويكيليف في ارائه المتطرفة حول الافخارتسيا، الا انه تحمس ليس فقط لكثير من ارائه الفلسفية التي يستشف منها الحلولية، والجبرية، وانما ايضا لارائه حول الكنيسة الروحية، وضرورة الاصلاح. فاستغل مركزه كراع لكنيسة بيت لحم وكاستاذ في جامعة براغ لنشر اراء ويكيليف، لدرجة جعلت القائمون على الادارة الكهنوتية في الكندراية يتقدمون الى اساتذة الجامعة بخمسة واربعين نصا محتارا من كتابات ويكيليف متسائلين: هل تمنع الجامعة هذه الاقوال؟ - فاجاب عدد من الاساتذة بينهم هس بالنفي، ولكن الاغلبية حكمت انه لا يجوز منذ ذلك الحين لاي عضو من اعضاء هيئة التدريس بالجامعة، ان يدافع او يؤيد بصورة علنية او سرية لقول من هذه الاقوال الخمسة والاربعين.

ولا بد ان يكون هس قد تجاهل هذا التحريم، بل قام بترجمة كتاب ويكيليف Trialogus الى اللغة التشيكية، مما اضطر رجال الدين في براغ الالتماس عام 1408 من كبير الاساقفة ان يبحث الموضوع ويضع حدا له. فاستجاب لهم كبير الاساقفة بحذر لانه كان وقتذاك على خلاف مع الملك. ولكن هس وبحماسة الملك ونسلاوس والملكة صوفيا، استمر في عطفه على اراء ويكيليف. ثم انقسمت جامعة براغ الى احزاب بين بوهيميين والمان، انفصل على اثرها الحزب الالماني ليكون جامعة ليبزغ ويسحب معه 2000 من الطلاب الالمان، واصبح هس رئيسا لجامعة براغ التي اصبحت الان جامعة صغيرة وضعيفة. وتابع وعظه وهجومه على السلطة الكنسية، الا انه هذه المرة، وبسبب تضافر جهود رجال الدين، واستاذة الجامعة الالمانية، وبرجوازية براغ الذين تأثروا بانفصال الجامعة وخروج الطلاب الالمان، اصدر عليه رئيس الاساقفة وعلى عدد من زملائه قرار بمنع الوعظ براء ويكيليف (1409)، وامر بأن تسلم اليه كل ما يوجد من كتابات ويكيليف في بوهيميا، واحضرت اليه مائتا مخطوطة، فاحرقها في ساحة قصره. فاستأنف هس القرار الى البابا المنتخب حديثا يوحنا الثالث والعشرين، واستمر في وعظه وهجومه على مفاسد على رجال الدين وضد منع حرية الوعظ. فاستدعاه ليمثل امام المحكمة البابوية، فابي ان يذهب، فصدر ضده الحرمان عام 1411، ونشر في جميع كنائس براغ.

## جون هس والغفرانات

ورغب البابا يوحنا الثالث والعشرون (بيزا)، في عام 1411 في الحصول على اموال للقيام بحملة صليبية على لاديسلاس ملك نابولي، الذي كان يناصر منافسه البابا غريغوريوس الثاني عشر، والذي خلعه مجلس بيزا. فاعلن عرضا آخر لصكوك الغفران. ولما اذيع ذلك في براغ اثار ذلك تمردا وفوضى في جامعة براغ بين مؤيدي ومعارضتي الغفرانات. وادعى هس "ان البابا لا يملك الحق ان يرفع الحسام باسم الكنيسة في وجه اعدائه، بل عليه ان يصلي من اجلهم وان يبارك لاعنيه... وان على الانسان ان يحصل على غفران خطاياها بندامة حقيقية وتوبة صادقة وليس بالنقود، وعلى كل، فاذا لم يكن الانسان من المختارين، فلا الغفرانات ولا التوبة ستساعده...". وناقش وجود المطهر، واحتج على جمع الكنيسة للاموال لاهراق الدم المسيحي. وهبط هس الى القدح فوصف البابا بأنه "نابش الاموال" وزاد على ذلك بأنه ضد المسيح. وشارك جانب كبير من الشعب هس في ارائه وعرض عمال البابا للسخرية والانتقاص، وحدثت بعض الاضطرابات الى حد جعل الملك يحرم كل دعوة او عمل بعد ذلك ضد صكوك الغفران. وخرج ثلاثة من الفتيان على هذا المرسوم، فاستدعوا الى مجلس المدينة، ودافع هس عنهم، واعترف ان دعوته اثارهم، فادينوا وقُطعت رؤوسهم.

وعمل البابا في تلك الفترة على توجيه حرمانه الى هس. ولما تجاهل الرجل القرار اصدر البابا يوحنا قرارا بجرمان أي مدينة يأوي اليها (1411). ورحل هس عن براغ مستجيبا لنصيحة الملك وظل معتزلا بالريف عامين. وكتب في هذين العامين اهم مؤلفاته، بعضها باللاتينية، وبعضها بالتشيكية وتكاد كلها تنطق بوحى ويكلييف. وانكر تكريم الصور والاعتراف السمعي. واعطى حركته صفة شعبية وقومية بالانتقاص من قدر الالمان والدفاع عن الصقلية، وادان الاتجار بالمقدسات ونعى على الكهنة اخذ اجرا على العماد والقداس والزواج والدفن، واتهم بعض رجال الدين في براغ ببيع الزيت المقدس، واخذ برأى ويكلييف في ان الكاهن الذي اقترف بيع المقدسات لا يجوز له شرعا ان يناول السر المقدس، اما رسالته De Ecclesia فقد اصبحت بمثابة دفاعه وسبب هلاكه في وقت واحد فان من صفحتها نقلت الهرطقة التي احرق من اجلها.

اتبع ويكلييف في القول بالجبر، وايد ويكلييف في ان الكنيسة يجب الا يكون لها ممتلكات دنيوية وعرف الكنيسة مثل كالفن من بعده بانها ليست هيئة رجال الدين ولا الجمع المسيحي باسره، ولكنها المختارين في السماء او على الارض الناجين من الخطيئة، وليس البابا رأس الكنيسة، ويجب ان يكون الانجيل لا البابا مرشد المسيحي. وليس البابا معصوما، حتى في العقيدة او الاخلاق، وقد يكون البابا نفسه خاطئا معتادا للخطيئة او هرطقيا. وختم هس كلامه انه لا طاعة للبابا الا اذا اتفقت اوامره مع شريعة المسيح، "وعصيان البابا الخاطيء انما هو طاعة للمسيح".

## الحكم على هس

رفع هس دعواه الى المجمع العام، ولما اجتمع مجلس عام في كنستانس عام 1414 لكي يخلع ثلاثة بابوات متنافسين ويضع برنامجا لاصلاح الكنيسة، بدا للعيان ان فرصة قد سنحت لاعادة الوئام بين الهسيين والكنيسة، فاقترح ان يتوجه هس الى كنستانس ويبدأ الصلح من ناحيته. منح هس من اجل هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر جواز الامان ال كنستانس وابداء رأيه على الملاء امام المجلس وحرية العودة في امان الى بوهيميا اذا رفض هس حكم المجلس. على الرغم من التحذير الملح من معاونيه فقد رحل الى كنستانس (اكتوبر 1414) يصحبه ثلاثة من النبلاء التشيكيين وعدد من الاصدقاء. وذهب الى كنستانس في الوقت نفسه تقريبا فريق من المعارضين البوهيميين لهس لاثامه امام المجلس.

ولما وصل، عومل اول الامر بحفاوة وتُرك حرا، ورفع عنه البابا يوحنا الثالث والعشرون الحرمان، الا انه منعه من اقامة ذبيحة القداس والوعظ. ولكن ما ان عرض معارضوه امام المجلس بيانا بهرطقته، حتى استدعاه اعضاء المجلس واستجوبوه واقتنعوا من اجاباته، بأنه هرطوقي كبير، امروا بزجه في السجن، فاعتلت صحته، واشرف في وقت من الاوقات على الموت، وارسل البابا يوحنا الثالث والعشرون اطباء من قبله لمعالجته. وفي نيسان نقل هس الى حصن جوتلين على نهر الراين ووضع هناك في الاصفاد.

وفي الخامس من تموز، سيق هس مكبلا بعد ان قضى في السجن سبعة اشهر امام المجلس، ومثل كذلك في السابع والثامن من الشهر نفسه. وسئل عن الآراء الخمسة والاربعين التي سبق ان اتهمت من مؤلفات ويكلييف فانكر معظمها وايد بعضها. ولما وجيه بفقرات من كتابه "عن الكنيسة" عبر عن رغبته في حذف ما ينكره الكتاب المقدس

(وهو بالضبط نفس الموقف الذي اتخذ لوتر في ورمس) واحتج المجلس ان الكتاب المقدس يجب ان يفسر بواسطة رؤوس الكنييسة لا بواسطة اجتهاد الافراد وطالب هس ان يسحب جميع تلك الاراء التي استشهد بها دون تحفظ. وناشده اصدقائه ومتهمونه ان يوافق ولكنه ابى وبعد ثلاثة ايام من الاستجواب والجهود التي بذلها الامبراطور والكرادلة لكي يسحب هس اراءه، اعيد الى محبسه وسمح المجلس له ولاعضائه باربعة اسابيع لدراسة الامر الذي كان معقدا النسبة للمجلس اكثر منه بالنسبة لهس.

وبذلت محاولات اخرى للحصول على شبهة عدول هس عن ارائه واوفد الامبراطور رسلا من لدنه للالحاح عليه. وكانت اجابته واحدة دائما، انه يتنازل، عن أي رأى من ارائه لا يؤيده الكتاب المقدس. وفي السادس من تموز عام 1415، اجتمع المجلس في كاتدرائية كنستانس وادان كلا من ويكلييف وهس، وامر باحراق كتابات هس وسلمه للسلطة الزمنية وجرده لته من منصبه الديني وسبق خارج المدينة الى موضع اعدت فيه اكداس من الحطب وطلب اليه للمرة الاخيرة ان ينقذ نفسه بكلمة تنبىء عن تنازله عن آرائه، ولكنه ابى، واكلته النار وهو يرتل الاناشيد<sup>1</sup>.

وبعد موته اصبح بطلا قوميا، واعلنت جامعة براغ انه شهيد، وجعلت يوم وفاته عيد احتفالي. واثارت ثورة شعبية من بعده، استمرت عدة سنين.

### 3- هراطفة اخرون من القرن الرابع عشر

بجانب اتباع ويكلييف وهوس، ظهرت في تلك الفترة ايضا، شيع اقل اهمية وخطورة، الا انها بتعاليمها ومبادئها ومهاجمتها للكنيسة والعقيدة المسيحية، حملت في ذاتها بذور مبادئ ما يُدعى بالاصلاح البروتستنتي. من بين هذه الشيع نكتفي بذكر شيعة "المجالدين Flagellants" وشيعة "اصدقاء الله Les Amis de Dieu".

#### شيعة "المجالدين Flagellants"

كانت فكرة تكفير الخطايا بالالم فكرة مسيحية اصيلة. لم يكفر المسيح عنا ويفتدينا بالعذاب والالام؟ لذلك، فليس من العجب، بانه ومنذ القرون الاولى للكنيسة، اخذ المتصوفون ونساک الشرق والغرب، بالفرض على انفسهم بعقوبات لضبط جسداهم وللتعويض للعدل الالهي عن خطاياهم. وكانت احدى الوسائل التي استعملوها لترويض اجسادهم والتكفير عن خطاياهم هي الجلد، أي اما بجلد انفسهم بانفسهم، او بالطلب من الاخرين بجلدهم بالسياط<sup>2</sup>.

وحتى منتصف القرن الثالث عشر، بقيت هذه الممارسات، تمارس في خفية الاديعة البيوت، الا انه وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر، بدأت تظهر في ايطاليا، مسيرات المجالدين processions de Flagellants، كانت تقوم خلالها جماعات التائبين بجلد انفسهم علنيا بالسياط.

لم يكن لهذه الجمعيات من ناحية المبدأ، أي عداء للكنيسة؛ ولكن رويدا رويدا، تحولت هذه الجمعيات الى شيع متطرفة، لم تكنفي فقط باظهار احتقارها للاكليروس، ولكن رفضوا ايضا الاسرار، وتكريم الصليب والصور المقدسة والقديسين، وأدعوا ان وحده الجلد وهو معمودية الدم، يمكن ان يمنح الخلاص. وأدعى بعض هؤلاء، وخصوصا من منطقة ويستفليا، الذين تطرفوا في تصوفهم، بانهم استلموا بواسطة ملاك، رسالة من العذراء مريم، جاء فيها انه لولا ممارستهم الجلد، لكان انتهى امر المسيحية.

وقام المجالدون ايضا باعمال ابشع من كلامهم. من ذلك، ان الشعب، امام وباء الطاعون وكوارثه، نسبوا الى اليهود سبب هذا الغضب الالهي، فقامت جماعة المجالدين بقتل الالاف منهم. ومن ناحية اخرى اثار عليهم، تصرفتهم المتطرفة: كالنهب، والاعمال المشينة، التي مارسوها اثناء اجتماعاتهم المختلطة، اثار الشك في صحة ممارساتهم. لذلك، ومنذ عام 1349، اصدر البابا كليمنطوس السادس مرسوما، امر فيه البابا الاساقفة بالقضاء

<sup>1</sup> يوجد قول مشهور منسوب الى هس في يومه الاخير: "اليوم تشوون اوزة، لكن بعد مائة عام من الآن سوف تقوم من رماد جثتي بجمعة لن تقدرنا على شوويها". سواء قالها لو لم يقلها، فانها نبوة مناسبة لما كان سيأتي في القرن السادس عشر.

<sup>2</sup> عكذا مثلا، كانت القديس اليزابيت الهنغارية تطلب من معرفها بجلدها على اكتافها. ومثلها القديس ونسلاس الاول، شفيع بوهيميا، والمملك لويس كانوا يجلدون انفسهم. وكان القديس لويس يطلب ايضا من مرشده بجلده بالسيط، وعندما كان هذا يحاول ان يخفف من الضربة، كان يطلب منه بضربه باقسي.

على هذه الجمعيات. فلاحقتهم محاكم التفتيش، فاختلفت هذه الجمعيات، ما عدا في منطقة التورانج Thuringe وفي ساكس Saxe، واستمرت حتى مجيء الاصلاح البروتستنتي.

### شبيعة "اصدقاء الله Les Amis de Dieu".

تألف في النصف الاول من القرن الرابع، في بعض مدن نهر الرين: كولونيا، ستراسبورغ وبازل الخ... جمعيات تقوية من العلمانيين، مارست بجانب حياة التأمل والتوبة، المساعدة والعون المادي والروحي، للشعوب التي كانت تعاني من الاضطراب الذي سببته الحروب في المانيا. واستجابة لقول المسيح: "لا ادعوكم بعد عبيدا، بل احباء" (يوحنا 15: 15)، اخذوا لانفسهم اسم "اصدقاء الله". خلق تطرف البعض منهم، في هذه الحركة نوعا من الكيتيزم quiétisme، مشابها للذي سيظهر في القرن السابع عشر. كانوا يتوقون الى اصلاح الكنيسة المنشود، ولكن امام عدم تحقيق هذا الاصلاح، ارادوا تحقيقه على طريقتهم: فانكروا كل تمييز بين الاكليروس والعلمانيين، وعلموا بأن المؤمن المتحد بالله، ما عليه سوى ان يسلم نفسه لارادة الله، دون ان يطلب ان يحصل على السماء او النجاة من جهنم.

### 3- مصلحون اخرون من القرن الخامس

لم يكن جون ويكلييف وجون هس الوحيدين، سابقين للاصلاح. يمكن ان نذكر ايضا، ومن هولندية، جون دي غوش Jean de Goch (+ 1475)، الذي لم يقبل، هو ايضا، من الحقائق الدينية الا ما جاء في الكتاب المقدس؛ وايضا جون ويسل Jean Wessel (+ 1481)، الذي حارب الغفرانات، واولوية اسقف روما ومسحة المرضى.



## الفصل الرابع والاربعون

### الاصلاح البروتستنتي

#### La Réforme Protestante

##### مقدمة

عدة قرون سنة تفصلنا عن عام 1500 الذي يخيّل لنا انه ماض بعيد، ومع ذلك فالواقع يظهر ان الكثير من حوادث ذلك العصر لا تزال مستمرة في يومنا هذا: الاتحاد الاوربي، ايرلندا الشمالية، صربيا، البوسنة، حودث واخبار تحتل الصفحات الاولى من الجرائد والمجلات ونشرات الاخبار.

كان اتحاد اوروبا حلم شارل الخامس Charles Quint في القرن السادس عشر، الذي اراد ان يعيد الحياة الى الامبراطورية الرومانية. يزداد الصراع الايرلندي الانكليزي حدة في هذه الايام، متخذا شكل حرب دينية بين الكاثوليك والبروتستنت. واحتلال صربيا من قبل الاتراك تم حوالي ذلك التاريخ ومشكلة صربيا تحتل اليوم صدر الاخبار.

لفهم هذه الحوادث، مهم ان نرجع الى ذلك الماضي، ولا سيما لنا نحن المسيحيين، الذين لهم سبب خاص للاهتمام بذلك العصر. فالمسيحيون، كاثوليك وبروتستنت وارثوذكس، لا يزالون يعيشون منفصلين، حتى وان ظهر مؤخرا بينهم روحا من الشوق الى معرفة الآخر وفهمه والتعاون معه على طريق العدل والسلام. فنحن مدعوون الى رحلة، رحلة الى الماضي، لنوضح الحاضر ولنكتشف جذورنا وغنى بعضنا البعض، ولنفتح مستقبلا جديدا. سَفَرٌ يتطلب اغترابا وتوقا الى الالتقاء، ويتطلب جهدا للدخول في عالم غير عالمنا وعقليات غير عقليتنا ومشاكل ليست مشاكلنا.

الاطلاع على ما اعتقده البعض في القرن السادس عشر امر مهم لدرجة انه دفعهم الى الدخول في مغامرة خطيرة دون معرفة النتائج. وما ظهر خطيرا لبعضهم لدرجة انهم لم يقبلوا اي تنازل او أي اتفاق او مساومة. في السير مع اولئك او هؤلاء، سنتعرف على رجال - كما يقول بعض المؤرخون اليوم - امتلكهم شغف الكنيسة، جمهرة من الرجال والنساء التزموا وعلى طول ذلك العصر ان يعطوا للكنيسة قوة جديدة وشبابا جديدا، لانهم آمنوا وفهموا وعرفوا ان في هذا فقط يتم خلاص البشر. وهذا لم يكن عمل بعض الشخصيات غير العادية، وانما ثمرة حركة عميقة يغذيها نفس الشغف.

ويقول مؤرخون اخرون اليوم - ان ما سبب هذه الحركة الكبيرة من الاصلاح، اولا الاصلاح البروتستنتي ومن ثم الاصلاح الكاثوليكي لم يكن، كما كان يعتقد الكثيرون، الفساد والشكوك والمساوىء التي ظهرت في اواخر كنيسة العصور الوسطى. فهذه المفاسد او الشكوك كانت موجودة منذ عدة قرون، ولم تسبب أي ردة فعل ثابتة ومستمرة. ومما يفسر الثورة التي بدأت ملامحها تظهر في ذلك الوقت، هو الايمان العميق لاشخاص تملكهم شغف الكنيسة. بدونهم لا نستطيع ان نفهم هذا الانقلاب. كرسوا حياتهم لتجديد واصلاح الكنيسة التي ارادوها امينة لمسيح الاناجيل. بدون هذا الشغف ما كان يمكن لما حدث ان يحدث.

لا نريد في هذا الفصل ان نبحث من كان على حق ومن كان على باطل. سنحاول ان نفهم، بقدر المستطاع من الداخل، ما الذي كان يحرك هؤلاء الاشخاص ليخاطروا هكذا على طريق غير معبدة حيث وضع البعض منهم حياته في خطر. انها لحظات من التاريخ تعج بالعنف، وبالعنف الكبير في بعض الساعات، كانوا يبحثون اثناءها، على ضوء الانجيل، عن معنى لوجودهم وحياتهم. كما اختبروا ساعات من الخوف والهموم والطموحات، التي جاءت تعترض او تهدم اجمل مشاريعهم.

بدأ هذا كله مع مارتين لوتر. وهو الذي اعطى اشارة البدء، وظهر كصوت نبوي والقي بكل ما يملك من ادراك وحسد، من اندفاع، من قوة تفكير وحتى تهوره في سبيل الاصلاح. انه الولد الرهيب الذي ما ان تملكته هذه الحركة حتى لم يستطع احد ان يصرعه، ونفث فيها روحه القوية.

# 1- اسباب ما يدعى بالاصلاح البروتستنتي

## الاسباب

لم يفهم المؤرخون بنوع عام اسباب ما يدعى بالاصلاح البروتستنتي.

اعتقد البعض - كما تقول النظرية البروتستنتية - ان المساويء التي انتشرت في الكنيسة هي التي اثارت استياء بعض محرضي الجماهير. الا ان محرضي الجماهير هؤلاء امثال لوثر وزفنجلي وكالفن لم يروا الامور بمذ المنظار، فلم تكن الشكوك والمساويء التي كانت قد انتشرت في اواخر كنيسة العصور الوسطى، والتي كانت موجودة منذ عدة قرون والتي لم تسبب أي ردة فعل ثابتة ومستمرة. انما السبب يعود، الى الانحرافات العقائدية الاساسية وغير المقبولة حول الخطيئة الاصلية والفداء والخلاص والنعمة وعلاقة الانسان الخاطيء والله، وحول وسائل تقديس النفس التي استحقها المسيح للعالم، وحول موقع عمل الانسان في المخطط الالهي في تجديد النفس الخاطئة والمقطوعة عن مصيرها الابدي. اذن هي عدم امانة Infidélité عامة وقديمة من قبل الكنيسة تجاه رسالتها الالهية التي اجبرت ودفعت رجال ايمان - هكذا سيدعون انفسهم به، وعلى الايمان سيبنون كل مبادئهم - الى التمرد ضد التجديدات البشرية، لاعادة البراءة والنقاوة الاصلية لوحي ورسالة المسيح، من كل ما تراكم عليها على مر العصور الجهل من انحراف وانحراف. وسيحاول المصلحون - وهذا ايضا ما سيدعون انفسهم به ايضا - اقناع العالم المسيحي انهم استلموا هم وحدهم، من الروح القدس المتكلم من خلال الكتاب المقدس، هذه المهمة السامية التي هي تقويم، واعادة ترميم العقيدة الخلاصية للمسيح من كل ما علق فيها وزيد عليها عبر القرون.

امام هذه الفرضية البروتستنتية - انحراف العقائدي - سيقف مجمع التردتيني، (1) وسيرفض ويدين نظرية الانحراف العقائدي في الكنيسة (2) وسيقبل الاصلاح في المساويء وفي النظم القانونية وليس في العقيدة.

البحوث الحديثة التي قامت بالتعمق في اسباب ما يدعى بالاصلاح، عرضت هاذين الطرحين: (1) الانحراف العقائدي (2) والانحراف المسلكي الاخلاقي، في اطار اسباب اكثر شمولاً، ونسبوا حركة الاصلاح الى (1) اسباب ثقافية (2 Intellectuelles) اسباب سياسية، (3) اسباب اقتصادية (4 Economiques) اسباب اجتماعية Sociales (5) واسباب دينية Religieuses.

## 1) الاسباب الثقافية Intellectuelles

### أ) الاوكامية: المذهب الاسمي Nominalisme وفرضية الكليات Les Universeaux

هل الكليات: الجنس، الالهية، الانسانية، غير المتناهي، الحق، الجمال، الخير، هي موجودة حقيقة ام مجرد تعابير؟

الاسمية تقول انها مجرد تعابير ولا ترتبط بحقيقة، بل هي مجرد استنتاجات ذهنية. وذهب اوكهام بهذا المذهب الى ابعاد ما يكون، حيث نفى وجود كليات في الاشياء، وحتى لو وجد لا يستطيع العقل ادركها ولا ان يعرفها. فالعقل لا يستوعب الا المحسوس. من هنا اصبحت الميتافيزقا التي هي علم الكليات بلا فائدة.

وبالتالي فان العقل لا يستطيع ان يقول لنا شيئاً عن وجود الله، والنفس، والحرية، والخلود، بينما علم توما الاكوييني ان العقل والايمان هما طريقان يقودان الى الحقيقة، وانكر اوكهام على العقل ان يوصلنا الى الايمان، لانه لا يعلمنا شيء عن حقائق التي يعلمها الايمان: الله والنفس...

كيف الوصول الى الايمان؟ فقط بواسطة الارادة. نؤمن بدون اثبات، دون تفكير. وعندها يصبح الايمان عملاً شخصياً، غير مثبت، وغير قابل للاتصال. نستطيع ان نرذل الايمان دون ان نخون العقل.

**وفي الاخلاق:** حسب الاوكامية الخير والشر لا يوجدان في جوهر الاشياء، بل يتعلقان بارادة الله الاعتبارية. بمعنى اخر لا يوجد شيء جيد او شيء سيء في ذاته وانما يصبح جيداً او سيئاً حسب قبول الله له. من هنا لا ضرورة للنعمة لكي تغير فينا وتجعلنا اهلاً للحياة الابدية، يكفي ان يقبل الله ان يجعلنا من المخلصين.

هذا المذهب وجد له في القرن الرابع عشر والخامس عشر الكثير من الاتباع ومنهم اساتذة في اشهر جامعات المانيا في بداية القرن السادس عشر. وعلى يد هؤلاء الاساتذة تعلم لوثر.

من هنا سيسند لوثر كل شيء على الايمان فقط. ومذهب لوثر الخلاص بالايمان وليس بالاعمال، انثق ايضا من هذه الخلفية الثقافية: اعمالنا لا خير فيها، لانها بحد ذاتها ليست جيدة او سيئة، وانما يتعلق كل شيء بقبول الله

لها. وزيادة على ذلك سيقول لوثر ان العقل والارادة تمت افسادتها الخطيئة الاصلية، ولا يستطيعان ان يعملوا الخير. ماذا يبقى لنا ليدلنا على الحقائق الالهية؟ الوحي المبني على الكتاب المقدس، المُفسر ليس من قِبَل الكنيسة وانما حسب الهامات الروح القدس للافراد.

## ب) النزعة الانسانية Humanisme

### فلسفة النزعة الانسانية

ستلعب "الحركة الانسانية" ابتداء من القرن الرابع عشر، واكثر قوة في القرن الخامس عشر لتزدهر في السادس عشر، دورا هاما في الاعداد للاصلاح. و"النزعة الانسانية" كفلسفة تعتبر الكائن الانساني مركزا لكل الدراسات. انما تضع الثقة في قوة الطبيعة الانسانية والامكانيات التي لا حد لها في الانجاز الانساني. و "النزعة الانسانية العصرية" تعتبر الله بلا مغزى وفي معظم المناسبات تنكر وجوده. ان النزعة الانسانية المتعلقة بالعصور الوسطى لم تكن ملحدا لكنها سارت يدا في يد مع "النهضة" معظمة ومعجبة بانجازات الرسامين، والمثاليين، والموسيقيين والمهندسين. كانت فترة اعادة اكتشاف العلوم اليونانية، وأفلاطون بنوع خاص، والكتاب من امثال "بيترارك" و "دانتي" القائلين ان هناك افقا جديدة للانسانية في الفن والموسيقى والادب. اما "بيكو ديلا ميراندولا Picco della Mirandola" من فلورنسا بايطاليا فقد رأى في انتعاش الافلاطونية وسيلة لتوحيد كل الاديان في البحث الارلي عن الله. طبيعي جدا ان يجد فلاسفة النزعة الانسانية في الكنيسة عائقا لتقدم الفلسفة الجديدة

### المسيحيون من ذوي النزعة الانسانية

لكن هناك فريق من ذوي النزعة الانسانية لم يقاوموا الكنيسة، بل سعوا الى اصلاحها من الداخل. آمنوا "بنزعة انسانية مسيحية" يمكنها بواسطة البحوث الدراسية والتعليم ان تأتي بنور جديد وحياة جديدة لمؤسسة قديمة. ويعبر عن ذلك احد الكتاب بقوله: "كانوا مهتمين بسلامة الاخلاق اكثر منهم باللاهوت، وبالتعليم اكثر من الايمان، وبالطبيعية اكثر من النعمة. ومع ذلك لم يجادلوا في العقيدة الاساسية للكنيسة. ولكي يحافظوا على تماسك المجتمع المسيحي في العصر الوسيط رفض معظمهم (اتباع النزعة الانسانية) ان يتبعوا البروتستانت في انفصالهم عن الكاثوليك"<sup>1</sup>

### تأكيدات النزعة الانسانية

كان لهذه الحركة الثقافية الجديدة "للنزعة الانسانية" تأكيدات عديدة: المعرفة والتعليم لكل انسان - اكتشاف الكتاب المقدس من جديد واستخدامه بشكل مسؤول - انتقاد الكنيسة الكاثوليكية على ضوء الكتاب المقدس الذي يؤدي الى الاصلاح، والاخلاق العالية المبنية على حياة تكريسية عميقة. ويضعها كاتب آخر بالنسبة لهم على هذا النحو: الجهل يتطابق مع الخطيئة، والمعرفة مع الاصلاح. يمكن التعبير عن العقيدة بطرق عديدة بالكشف عن الوثائق المزورة، بإنشاء نصوص كاملة الدقة ومصداق عليها، باعادة فحص هذه النصوص في نور المعرفة لاكتشاف معناها الكامل، وبأن تنزع من حياة الكنيسة وانشطتها كل المعتقدات والممارسات التي تنقصها سلطة الكتاب المقدس او مصادقة الكنيسة الاولى<sup>2</sup>.

## 2) السبب السياسي

مما يلفت النظر ان لا البابا ولا الامبراطور استطاعوا ان يخنقوا حركة التمرد هذه في مهدها، دلالة على ان سلطتهم فقدت من قوتها وهيبتها. وسيجد لوثر العون والمعاضدة القوية من قبل الطبقة البروجوازية ومن ثم من طبقة الامراء، وخصوصا، امير ساكسونيا، الذي سيواجه سلطة الامبراطور ويحمي لوثر حتى آخر حياته. بينما ستحمى المجالس البلدية والسلطات المحلية لبعض المدن زفنجلي وكالفن وبوسر وغيرها من من يدعون بالمصلحين.

## 3) السبب الاقتصادي

ستمثل ممتلكات وثروات الاديرة فريسة شهية لاقتصاد البلاد السيء وللأمراء والسلطات المحلية التي ستدعم حركة التمرد هذه والقائمين عليها.

<sup>1</sup> (Grimm, H.J., The Reformation Era, 1500-1650, p. 53).

<sup>2</sup> (Johnson, Paul - A History of Christianity, P. 269).

## 4) الاسباب الدينية

من اهم الاسباب الدينية التي اليها يعزى نجاح الاصلاح البروتستنتي، كانت الحالة التي وصلت اليها كنيسة ذلك العصر والمساوية المؤسفة التي انتشرت بين الاكليروس. نفس المساوية التي حاربها البابا غريغوريوس السابع في اواخر القرن الحادي عشر، هي نفسها انتشرت في كنيسة القرن السادس عشر وبصورة اكثر بشاعة. فالى السيمونية، والزنى، وفساد الاخلاق، اضيفت التجارة المخجلة لكل ما هو مقدس، حيث لم يكن يتم اعطاء سر من الاسرار الكنيسة او القيام بأي احتفال ديني الا مقابل مالي. كان الشعب يدفع لطلب قدايس لكل المناسبات: قدايس الموتى، لاستمطار نعم القديسين، للحصاد، لقطعان الماشية، لابعاد عين الحسد او الشر او الشيطان الخ... لذلك يعزو المؤرخون سبب كل مساوية الكنيسة الى الغنى الفاحش الذي انتشر في الكنيسة من الرأس وحتى اخر الاعضاء.

### حالة الكنيسة:

بعد قراءة الكتاب المقدس وانتشاره، بدأ الناس يلاحظون الفرق بين كنيسة العهد الجديد وبدايات الكنيسة، وبين الكنيسة في ذلك العصر. فقد انتشر الفساد في الرأس كما في اعضاء النظام الرئاسي في الكنيسة.

- الاساقفة - كانوا يشترون ويبيعون المناصب بلا ضوابط، بل ان الكثير منهم تمتعوا بمزايا ومناصب نالوا منها مرتبات مجزية دون ان يقوموا بأي من الواجبات او الاعمال المرتبطة بتلك الوظائف. بل ان بعضهم كان يشغل عدة مناصب مثل البرت دي ماينس Albert de Mayence رئيس اساقفة ماينس، الذي سيلعب دورا كبيرا في مشكلة صكوك الغفران والذي سيقاومه لوثر. وكان الاسقف يهمل ابناء ابرشيته، ولم يكن يقوم بالزيارات الاسقفية اللازمة للاشراف على رجال الكهنوت الخاضعين له.

- الكهنة: عاش الكثير من الكهنة في الخطيئة دون خجل واحتفظ البعض منهم بمحظية خاصة. واهمل الكثير منهم خدمات الوعظ او الزيارات مكتفين بتلاوة صلوات القدايس وكأنها طقس سحري يأتي بالبركة والنعمة على الاسخاص، واصبح تكريم الذخائر وبقايا القديسين نوعا من العبادة، وأصبحت الغفرانات سلعة تباع.

## 2- مارتن لوثر

### Martin Luther

#### مارتن لوثر

ولد مارتن لوثر في 10 تشرين ثاني عام 1483، في ايسلبان Eisleben بمقاطعة ساكسوني بالمانيا. وكان والده هانز يشتغل عاملا في مناجم النحاس، لم يترك له والده ورثة الا طبع "فلاح ساكسوني قاس"، كما كان يقول لوثر نفسه. اما مرجريت زيكلر فكانت سيدة بيت عاملة ونشيطة، فاضلة تقية. الا ان تقواها صبغت وتأثرت تأثرا عميقا بالخرافات والعقائد التي انتشرت في عصرها. فكانت تؤمن كما كان يؤمن الكثيرون من ابناء عصرها بالقوات الشيطانية والحسد "العين"، والارواح الشريرة، والاماكن المسكونة. وكانت تخشى من السحر وسلطانها، حتى انه يقال نحا نسبت موت ابنها الثاني الى سحر جارة من جاراتها!.

نشأ لوثر وترى في جو صارم كان نموذج التربية في ذلك الزمان. فكان هانز وماجريت، وعلى مثال العادات والمفاهيم التربوية المنتشرة في ذلك العصر، يؤمنان بالعصا والشدة والقسوة كوسيلة لتربية الاطفال وتقويم الاخلاق. ويذكر لوثر في كتاباته العقوبات التأديبية التي ذاقها فيقول: "لقد عاقبني ابي عقابا شديدا في يوم ما لدرجة اني هربت من امامه واختفيت، ولم استطع ان آنس اليه الا بعد وقت طويل". ثم يقول عن امه: "في يوم من الايام ضربتني أمي بالسياط حتى انفجر الدم من جسمي بسبب حبة جوز بائسة".

مما لا شك فيه، ان قسوة والديه في الطريقة التي اتبعها لتربيته وتعليمه تركت انطباعات كثيرة وتأثيرات نفسية عميقة في شخصية مارتن لوثر المرهف الحس، والرقيق الشعور، بل دفعت به ايضا الى نوع من الانطوائية ولاجل هذا كتب يقول: "كان والدي في غاية القسوة معي، الامر الذي خلق مني انسانا خجولا. كانت قسوتهما عاملا دفعني الى الالتجاء الى الدير لاصبح راهبا".

لا من شك ايضا ان صورة الرب التي نقلها له والداه عكست مزاجهما الخاص. اب قاس وقاض صارم يطالب بفضيلة، عبوس ويطلب استرضاءه دائما ويلعن الجانب الاكبر من البشر، ويدعو عليهم ان يخلدوا في النار. وكان والداه يؤمنان بوجود سحرة وعفاريت وملائكة وشياطين من فصائل متعددة وتخصصات متنوعة، وحمل مارتن معه حتى النهاية معظم هذه الخرافات.

وهكذا اسهم دين قام على الخوف في بيت صارم في تكوين شباب لوثر وعقيدته الدينية. اما الى اية درجة اثرت هذه الاختبارات فيما بعد على حياته الروحية، وتمرده ضد السلطات... هذه كلها كانت موضوع مناقشات ومساجلات كثيرة عند الدارسين والعلماء.

### شباب مارتن لوثر ودراسته

التحق مارتن لوثر في مدرسة المدينة مانسفيلد، وعلى ما يبدو فان حياته في هذه المدرسة كانت قاسية، نظرا الى ان نظام التدريس في ذلك العصر كان جافا قاسيا. كان الطلبة يتلقون فيها مزيدا من العصي وكثيرا من الوعظ، وجُلد فيها مارتن خمس عشرة جلدة في يوم واحد لانه اخطأ في اعراب اسم. وانتقل وهو في الرابعة عشرة من عمره الى مدرسة مجدبورج، حيث درس في مدرسة "اخوة الحياة المشتركة". ومع انه لم يمكث في هذه المدرسة الا عدة شهور، لانه اصيب بمرض اضطره للعودة الى مانسفيلد. الا ان اقامته في هذه المدرسة كان لها تأثير عميق جدا في حياته ومستقبله، ولعبت دورا هاما جدا في حياته الروحية. وفي عام 1498 تحول الى مدرسة سنت جورج في ايزيناخ Eisenach، وامضى ثلاث سنوات سعيدة نسيبا اقام فيها بمنزل السيدة كوتا. تعلم فيها في جو التقوى الكاثوليكي التقليدي. في هذه المدينة اكتشفت قدرات مارتن في الترنيم.

وبعد ثلاث سنوات في ايزيناخ ارسله والده الذي اصبح غنيا عام 1501 الى جامعة ايرفورت Erfurt ليتخصص في دراسة القانون. فدرس اولا فيها الفلسفة على ايدي اساتذة مشهورين كانوا من اتباع المدرسة الاسمية. ثم حصل على درجة "ليسانس" في الآداب سنة 1502. ثم ابتداء يعلم قواعد اللغة والمنطق، وفي نفس الوقت استمر في التحضير لدرجة الماجستير التي حصل عليها سنة 1505. ثم يبدو انه نزولا على رغبات والده التحق بكلية الحقوق. وفجأة، وبعد شهرين من هذه الدراسة، قرر الشاب ان يصبح راهبا.

### لوثر يدخل الدير

بينما كان عائدا يوما من بيت ابيه في ارفورت واجهته عاصفة رهيبة، ولمع البرق حوله، واصابت الصاعقة شجرة قريبة منه. وحُيِّل للوثر ان هذا انذارا من الله وانه ما لم يكرس نفسه للخلاص فسوف يفاجئه الموت ويلقى حتفه دون ان يسمع اعترافه وتطارده اللعنة. وفي رعبه استغاث بالقديسة آن Ste Anne واقسم اذا نجا بحياته ان يدخل الدير. وكان هناك عشرون ديرا في ارفورت فاختار واحدا عرف بالاخلاص في مراعاة قواعد الدير، وهو دير الرهبان الاوغسطينيين، ودعا اصدقاءه جميعا وشرب وغنى معهم في حقل قال لهم انه يقوم به لآخر مرة، وفي اليوم التالي استقبل في خلوة بدير كمبتدىء في الرهبنة.

### لماذا دخل لوثر الدير

حاول المتخصصون في الدراسات اللوثرية ان يجدوا جوابا لهذا السؤال، فقدموا نظريات كثيرة معقدة، اكتفى بعرض البعض منها:

(1) يقول البعض ان قرار لوثر بدخول الدير يعبر عن التناقض في خلقه، فقد كان قويا يفيض بالحياة الى حد الانغماس في الشهوات، وكان من الواضح انه خلق لحياة يرضى فيها الغرائز الطبيعية، مع انه لقن في البيت والمدرسة عن اقتناع ان الانسان آثم بطبعه، وان الاثم اهانة لاله قادر على كل شيء، شديد العقاب، فانه لم يوفق قط، في الفكر والسلوك، بين غرائزه الطبيعية وبين معتقداته المكتسبة. وكان مفهومه الذي لقنه عن الله لا يكاد يشمل أي عنصر من الحنان، ولم يكن لصورة مريم المواسية موضع كبير في اللاهوت القائم على الخوف، ولم يكن يسوع الابن المحب الذي لا يستطيع ان يرفض طلبا لاهمه، بل كان المسيح الديان.

(2) يعتقد البعض الاخر ان قرار لوثر دخول الدير لم يكن ابن يوم وليلة، بل كان نتيجة تفكير طويل وصلاة مستمرة وعميقة. الن يتأثر مارتن الشاب بحياة مدرسة مجد بورج؟ الم يترك ايضا الراهب الامير انطباعات عميقة في تأثيرها في فاعليتها على نفس الشاب المرهف الاحساس عندما كان يراه يجول متسولا في ثياب رثة وجسم نحيل ذلك كله لكي ينال الحياة الابدية عن طريق الرهبنة؟ فلم يدخل الدير اذن الا بعد ان فكر تفكيرا جديا عميقا.

3) يعتقد اصحاب النظرية الثالثة ان لوثر اتخذ هذا القرار بطريقة فجائية وبدون ترو او دراسة او تفكير. ففي اللحظة التي سقطت فيها الشجرة امام قدميه، وكادت ان تقضي على حياته، رأى ان حياته بلا قيمة وفي نفس الوقت رأى انه معرض للموت، فصرخ مدفوعا بهذا التأثير الوقتي قائلاً: "يا قديسة حنة اذا انقذتني ساكون راهبا بقية حياتي". فان هذا النذر الذي نطق به مارتن لم يكن نذرا مدروسا بطريقة واعية مدركة بل كان نذرا اضطراريا في ظرف يناسب بأي حال من الاحوال اتخاذ هذا القرار الذي كان يجب ان يتخذ في ظرف هادىء وعلى غير عجلة. ولتأيد فكرتهم هذه يرجعون الى كتب لوثر نفسه يقولون ان لوثر كان مضطرا، رغما عنه تحت ضغط الخوف من الموت لان ينطق بهذا النذر. ففي كتاب كتبه سنة 1521 وقد اهداه الى ابيه حاول لوثر ان يشرح في مقدمته السبب الذي من اجله نطق بهذا النذر فقال: "اتذكر.. ابي قلت لك ان دعوة مخيفة من السماء قد وجهت الي، فلم اصبر راهبا رغبة مني او مسرة في الرهبة بل دفعت بطريقة لا تقاوم للنطق بهذا النذر". والى ما كتبه في سنة 1539 عن حادث الصاعقة حيث قال انه ندم على هذا النذر. من هذه الشواهد السابقة يعتقد البعض ان لوثر اتخذ هذا القرار تحت تأثير الخوف من الموت الذي اثارته الصاعقة في نفسه. وبناء على ذلك كان يعتقد انه اضطر ان يوفي هذا النذر بلا رغبة ولا اقتناع.

4) يعتقد البعض الاخر ان لوثر لم يأخذ هذا القرار بطريقة عشوائية وبدون تفكير. صحيح انه نذر الترهب امام الصاعقة، ولكن لو كان لوثر لم يفكر قط قبل ذلك في حياة الترهب، ولو كان فعلا ندم على نذره الذي نذره تحت تأثير الخوف من الموت، لكان في استطاعته قانونيا ان يسحب هذا الوعد الذي وعد به، لان فترة الاختبار التي كانت تسبق الرسامة حُصِّصت لهذا الامر.

كان لوثر ابن عصره، ولقد اعتقد اهل ذلك العصر ان اسلم وضمن طريقة للحصول على الخلاص هي الترهب. وكان الناس في القرون الوسطى ينظرون الى الرهبان بكثير من الاحترام والتقدير، وخاصة الرهبان الذين اختاروا نظما قاسية للرهبنة. وبما ان لوثر كان يبحث عن الخلاص والهروب من غضب الله، فلا بد وانه فكر مرارا في موضوع الرهبنة قبل حادث الصاعقة، وهذه الاخيرة لم تكن هي السبب الاول والاساسي الذي دفعه لاتخاذ هذا القرار، بل كانت العامل الذي ساعده على ان يقرر قرارا لم يستطع حتى الآن ان يخرج به الى حيز الوجود. فرأى في حادث الصاعقة دعوة من الله، وشعر ايضا انه مرغم على ان يلي هذه الدعوة ولاجل هذا يقول في خطابه لابييه: "ان دعوة مخيفة من السماء قد وجهت الي فلم اصبر راهبا رغبة مني او مسرة فيها".

### لوثر راهب امين

وفي فترة الرهبنة كان مارتن راهبا مثاليا، وقام باحقر الاعمال في تواضع لا يخلو من الاعتزاز بالنفس، وتلا صلوات مرارا وتكرارا كمن تؤم نفسه تنويما مغناطيسيا، وتحمده جسده في مضجع بارد وصام وعذب نفسه، املا في ان يطرد من جسده الشياطين قال: "كنت راهبا ورعا اراعي احكام الجمعية التي انتمي اليها بشدة الى حد انه اذ قدر لراهب ان يدخل الجنة عن طريق الرهبنة فاني ادخلها لا محالة... ولو ان هذا الامر طال اكثر من هذا لكنت عذبت نفسي حتى الموت بالسهر والصلاة والقراءة وغيرها من الاعمال".

ولكن مهما كانت قسوة اختباراه لم يستطع ان يجد سلام الروح: "لقد حاولت بكل جهدي ان احافظ على القوانين. تعودت ان اكون منسحق القلب واجهز قائمة بخطاياي. اعترفت بها المرة بعد المرة بكل حرص، نفذت العقوبات الدينية التي عينوها لي. ومع كل ذلك ظل ضميري يدق ويقلقني، ظل يخبرني: انت قصرت هناك، انت لم تندم بما يكفي، لقد خصمت تلك الخطيئة من قائمة خطاياك".

### لوثر يرسم كاهنا

وفي سنة 1507 رسم كاهنا وقام بخدمة القديس لاول مرة. وكان هذا اختبارا مرعبا للوثر، لحمله بين يديه جسد ودم الرب المصلوب، فطغى عليه احساس بعدم استحقاقه الشخصي. لكنه وجد بعض المساعدة في توجيهات رئيس الجمعية جوهان ستوبيتز Staupitz الذي اصبح مرشدا روحيا له، ناصحا اياه في قلقه واضطرابه بان اله البر هو ايضا اله المحبة، وحول فكر لوثر من خطايا اله الى مراحم المسيح، ومن الناموس الى الصليب، ومن الفلسفات اللاهوتية الى دراسة الاسفار المقدسة. وفي وقت لاحق كتب لوثر الى ستوبيتز يقول: "انت قبل أي شخص آخر الانسان الذي جعل نور الانجيل يضيء في ظلام قلبي...".

## شخصية لوثر

- يعتبر لوثر من الشخصيات القوية في التاريخ، وقد وضع في خدمة افكاره ومبادئه، ذكاء لامعا، ومخيلة غنية، وحساسية مرهفة، وبلاغة حماسية خلاقة، وجلدا للعمل.

- كما كان لوثر يملك مجموعة من الفضائل الروحية: روح دينية مؤمنة ايمانا عميقا بعظمة الله، وثقة عظيمة بعمل المسيح الخلاصي.

- ومن ناحية اخرى، اتصف ايضا بنقائص كانت ظاهرة للجميع: خفة او بذاءة في اللغة، مما جعل احد مؤرخي البروتستنت يقول عنه: "اكثر الكتاب بذاءة gras في عصره" (Hausrath). يضاف الى ذلك حبه للاكل والمشروبات الكحولية.

- تعرض لوثر في فترات عديدة من حياته الى اكثر من ازمة داخلية، جاءت بالخصوص من شدة شعوره بالقلق، وتأنيب الضمير، وكثرة التجارب. كتب الى احد اصدقائه يقول: "كم ارجب بان اتحرق بعواطف الروح، واذ بي احترق بالجسد، بالتترف، والكسل والنعاس... لا اعلم اذا كان الله قد ابتعد عني، لانك لا تصلي كفاية من اجلي".

- ولايجاد السلام والهدوء الداخلي، التجأ لوثر الى الصلاة، كما والى بعض الوسائل الغريبة كما قال هو "كأس بيرة un bon coup de bière"، او الى توجيه المسبات والشتائم ضد البابا: "كان هذا يبرد الدم في عروقي، وتعود الحيوية الى نفسي، وتضعف التجارب".

- اظهرت تصرفات لوثر لديه نوعا من الانحراف النفسي، بميله الى الوسوسة والتشائم التي زادت فيه القلق والاضطراب. وهذه النقطة مهمة لفهم مأساة لوثر.

- كما يجب اضافة عنصرين هامين الى طباع لوثر اثرت على مواقفه:

- (1) اهماله لواجباته الرهبانية دون ان يكون راهبا فاسدا.
- (2) روح الكبرياء والعجب بالنفس، والاكتفاء الذاتي، وروح المعارضة والمناقضة. كان مقتنعا انه يتكلم باسم الله، وكثيرا ما نجد في كتاباته تعابير مثل: "الله اوحى لي هذا التعليم". لعب الايحاء الذاتي دورا كبيرا في حياة لوثر.

- بالرغم من ذكائه الحاد، كان لوثر شديد الحساسية، منغلقا، دائم التحليل، اراد ان يشعر ويجس الاشياء التي لا يمكن معرفتها الا بالايمان: حضور الله، مغفرة الخطايا... وكان الاعتراف يجلب له نوعا من الاحساس انه تخلص من خطايه، مما دفعه الى الاعتراف المتواتر.

- كما دفعته طبيعته المندفعة Bouillante، الى الكثير من المبالغة والتجسيم والتضخيم في التعبير عن ازماته وفي قول الحقيقة.

## 2- نحو الهراطقة (1510-1515)

### لوثر استاذ للدين

اثناء شتاء عام 1508 عُيِّنَ لوثر مدرسا للفلسفة في الجامعة الجديدة في وتنبرج، واستمر ايضا في دراساته. خلال تلك السنة حاز على درجة البكالوريوس في الدراسات الكتابية التي اهلته لتدريس الكتاب المقدس بدلا من الفلسفة. الا ان هذه الدراسات لم تفده الا في زيادة حدة صراعه الروحي. ثم وقعت في يده رسالة بقلم جون هس، فساورته شكوك عقائدية زادت من اضطرابه الروحي. وتساءل قائلا: "ترى لماذا احرق رجل استطاع ان يكتب بمثل هذه الروح المسيحية وبهذه القوة؟ لقد اغلقت الكتاب واشحنت بوجهي وقلبي جريح".

### لوثر في روما

في سنة 1510 اختير لوثر عضوا في وفد مرسل الى روما لعلاج مشكلة تتصل بالنظام الاوغسطيني. وانتظر لوثر ليحل مشاكله الروحية الشخصية بكنييسة ما، توقع ان يجد في روما المركز الحقيقي للكنييسة عمقا في الروحانية لم يكن موجودا في المانيا. وكان اول رد فعل عنده لدى مشاهدته المدينة رهبة مشوبة بالورع، فسجد ورفع يديه وهتف يقول: "سلاما عليك يا روما المقدسة!". وقام بكثير من الشعائر شأنه شأن أي حاج، وانحنى في اجلال امام ذخائر القديسين وصعد على السلم المقدس Scala Sancta وهو يسير على ركبته، وزار عشرين كنييسة وظفر بكثير من صكوك الغفران. وظل سنوات عديدة بعد القيام بهذه الرحلة دون ان يقوم بتعليق واضح جلي على حياة البابوات ورجال الدين الذي وجدها في روما، الا انه بعد عشر سنوات وصف روما بانها "تدعو للمقت" لم يجد الا العالميات

والرسميات وعدم الاكتراث الديني. لقد افزره عدم كفاءة الكاهن الذي اعترف امامه، وصدمة لاهمال الكهنة والسرعة التي تسابق بها الكهنة الايطاليون في اقامة القداس. رأى لوثر ايضا القوة الدنيوية في الادارة البابوية. عندئذ تحقق ان الامر كان اكثر جدا من اخطاء الكهنة الفردية التي كان يلزم تصحيحها انما النظام باكماله هو الذي كان يجب ان يجري اصلاحه.

### لوثر يدرس في ويتنبرج

ارتقى لوثر بسرعة في المناصب التعليمية بعد عودته الى ويتنبرج سنة 1511، ومُنح درجة الدكتوراة في اللاهوت. قام بالوعظ بانتظام في كنيسة الابريشية، والقى محاضرات في الكتاب المقدس جذبت الانتباه. تقاطر الطلبة واحتشدوا لسمعوه، لانه ترك الاساليب المجازية المنتشرة وقتئذ، مقدما التعليم البسيط للكتاب المقدس بقواعده اللغوية وتاريخه.

### مشكلة "التبرير"

كانت اكبر اهتمامات لوثر وفي كل فترات حياته هي حل المعضلة اللاهوتية "التبرير La Justification"، وبمعنى آخر قضية الخلاص. كان لوثر منذ طفولته يتمثل الله "كمعلم يحمل عصا"، وفكرة الحساب الذي عليه ان يؤديه يوما ما لهذا الاله، اقلقت مضجعه وجعلته يعيش في نوع من القلق القاتل.

وعندما اصبح راهبا ليوفي نذرا اتخذه في لحظة من لحظات هذا الخوف والارهاب، عمل على تهدئة غضب هذا الاله الديان عديم الرحمة بالتكثير من اعمال التقوى والتوبة، متعديا كل ما كان يفرضه القانون، الى ممارسات تقشفية قاسية، كان يقضي خلالها اياما دون ان يأكل او يشرب. سيقول في هذا لاحقا: "كانت حياتي عبارة عن صوم وسهر وصلاة وعرق، فقد كدت ان اقتل نفسي بالسهر وبالدراسة وبالصلاة وبالاعمال الكثيرة الاخرى"<sup>3</sup>.

يعتقد بعض المؤرخين ان لوثر بالغ في وصف هذه المرحلة من حياته تتوافق ومواقفه، الا انهم يقولون انه فاق جميع رفقاءه الرهبان بم في ممارسة اعمال التقوى والتقشف.

بالرغم من الارادة الحسنة التي اظهرها، وبرغم الامانات والتضحيات والاعمال الصالحة، لم يكن لوثر على يقين من خلاصه، ولم يجد راحة النفس التي كان يبحث عنها. وكلما زاد من اعمال التقشف زاد معها قلقه واضطرابه وشكوكه في الخلاص. وخيم على روحه الخوف الدائم من حكم الله. وكان هذا السبب وراء شعوره بالحزن. وكان يشعر دائما ان الله في ثورة ضده. وكانت تترأى له مرارا، وحوش مخيفة، وكان يعتقد انها مرسله من الشيطان لتجربته. وعلى حد قول صديق وكاتب سيرة حياته ملانكتون.

امام عدم قدرته على السيطرة على اهوائه وتجاربه، تساءل لوثر اذا ما كان الانسان الذي افسدته الخطيئة الاصلية، يملك حرية الاختيار Libre arbitre، ويستطيع ان يتم الشريعة. قاده قراءته ودراساته الفلسفية واللاهوتية منذ عام 1510، ومنها بالخصوص كتابات اوكهام، وجابرييل بيل، والقديس اغوستينوس وخصوصا الكتابات التي حارب فيها اغوستينوس البلاجيا، والتي فيها خفض من قيمة الارادة البشرية، كل هذه قاده الى نوع من الغنوصية. ثم جاء التطور الثاني بعد ان اكتشف مخطوطة المانية مجهولة المؤلف ايد ما فيها من التقوى الصوفية رأيه في اعتماد الروح الكلي في الخلاص على رحمة الله على حساب الاعمال الخارجية، الى حد انه اعددها للنشر وطبعها باسم "لاهوت الماني Theologia Germanica"، كل هذه قاده تدريجيا الى ان يشك ثم الى ان ينفي قدرة الارادة والاختيار الحر.

### 3- لوثر يتحدى البابوية: بيع صكوك الغفران

جلس البابا ليون العاشر على كرسي القديس بطرس سنة 1513 ونظرا لأنه كان من عائلة آل مديتشي العريقة فقد تمسك بحياة الرفاهية والبذخ وتعظم المعيشة والاسراف كما انه كانت شغوف ايضا بالفن والعمارة، ولذلك فقد عزم على اجراء بعض المباني والاصلاحات في كنيسة القديس بطرس. وتمويل هذا المشروع الضخم اصدر قرارا في 31 اذار سنة 1515 ببيع صكوك غفران كاملة. ولما رفضت بعض الولايات الالمانية هذا المشروع، عرضه البابا على البرت رئيس اساقفة ماينس Mayence ووعدته بنصف ثمن الصكوك. وكان البرت يمر في هذا الوقت بأزمة مالية شديدة لكثرة الديون التي تراكمت عليه. فقد كان طموحا يحاول الوصول الى المناصب الدينية والدنيوية في آن واحد.



وقد استطاع فعلا ان يكون رئيس اساقفة لثلاثة ابرشيات ومنتخبا لمقاطعة ماينس. وقد وصل الى بعض هذه المناصب بطرق غير قانونية وبدون حق. ووصل الى البعض الآخر عن طريق الرشوة. ودفع المبالغ الكبيرة من المال ولذلك فقد لجأ الى بنك فوجر Fugger الذي اقرضه المال بفائدة تبلغ 20%. لذلك قبل البرت عقد الصفقة مع البابا ليون العاشر في الرابع والعشرين من نيسان سنة 1516. واتفقا على ان توزع الاموال المجموعة من بيع صكوك الغفران بالطريقة الاتية: النصف للبابا في ايطاليا لبناء كنيسة القديس بطرس والنصف الباقي يدفع مباشرة لبنك فوجر لتسديد القرض وفوائده.

في يناير سنة 1517 اوكل البرخت مهمة الدعاية لصكوك الغفران الى "يوهانز تيتزل"، راهب دومنيكاني. بدأ تيتزل الرحلة في منطقة مجدبرج مقدما عرضا عظيما لصكوك الغفران. جماهير غفيرة من الناس كانوا يتجمعون ويتبعونه في الشوارع، حيث يتكون موكب مهيب بالاعلام، والاجراس، والشموع تتقدمه الى الكنيسة. هناك يعرض المرسوم البابوي على وسادة على المذبح العالي ومن تحتها الخزانة الحديدية لجمع النقود. وكان تيتزل يبشر مواعظه مثيرا لعواطف الشعب نحو الاقرباء الراحلين ومؤكدا لهم "انه بمجرد ان ترن العملة النقدية في الصندوق تقفز الروح من المطهر".

### لوثر ينتقد بيع صكوك الغفران

اعتبر لوثر بيع صكوك الغفران عملا خاطئا قائلا: "انه بسبب صكوك الغفران تعلم الناس شيئا واحدا هو ان يخافوا عقاب الخطيئة اكثر من الخطيئة نفسها". "وان صكوك الغفران تقف في طريق التوبة الداخلية الصادقة". ووجه اللوم الى المبشرين بصكوك الغفران لاستغلالهم سذاجة الفقراء. وفي رسالة عن صكوك الغفران نادى بان صكوك الغفران يجب رفضها ونبذها اذا كانت فقط للأمان الكاذب والخمول الروحي: "علينا ان نبحث عن نعمة الله الشافية بدون انقطاع".

### القضايا الخمس والتسعون

وفي 31 تشرين اول سنة 1517 اعدّ لوثر تقريرا من خمسة وتسعين احتجاجا ضد بيع صكوك الغفران وسمرها على بابا كاتدرائية ويتنبرج. ويعتبر هذا التاريخ فعلا بداية تاريخ ما يدعى بالاصلاح. ونكتفي باشارة الى بعض هذه الاحتجاجات او الاعتراضات:

الاعتراض الاول : "عندما قال ربنا وسيدنا يسوع المسيح "توبوا" اراد بذلك ان تكون حياة المؤمن كلها توبة مستمرة وقد قال لوثر في مكان آخر : "الؤمن هو البار الخاطيء".

الاعتراض الخامس: "لا يستطيع البابا - حتى لو اراد - ان ينقذ الانسان من عقوبة قانون الا ما سنه هو نفسه بمحض ارادته".

الاعتراض السادس: "ليس في سلطان البابا ان يزيح او يلاشي عن الانسان عقاب خطيئته او يغفرها له، وانما يعلن للخاطيء ان خطاياه قد غفرت".

الاعتراض الحادي والعشرون: "يضل الذين يقولون ان صكوك البابا تخلص الانسان من كل عقاب".

الاعتراض السابع والعشرون: "ضل الذين يقولون انه متى رنت النقود في صندوق الجمع تخلص النفس من المطهر منطلقة نحو السماء".

الاعتراض الثاني والثلاثون: "ضل الذين يتوهمون انهم في امان بسبب الغفران، فانهم مع تعاليمهم هالكون".

الاعتراض السادس والثلاثون: "ان المسيحي الحقيقي، الذي يترك خطاياه بقلب منسحق نادم تغفر خطاياه ولا حاجة له الى صكوك الغفران".

الاعتراض الثالث والاربعون: "على المسيحي ان يفهم حقيقة ان الذي يحسن الى مسكين او يقرض محتاجا يقوم بعمل افضل من شراء صك غفران".

الاعتراض الثاني والستون: "ان كنز الكنيسة الثمين هو انجيل نعمة الله ومجده المقدس".

ويمكننا ان نلخص محتويات هذه الاحتجاجات في الآتي:

الاحتجاجات من 1-29: مجموعة من الاحتجاجات ضد صكوك الغفران للنفوس المطهرة، حاول لوثر ان يبين فيها ان سلطان البابا لا يمتد لابعد من الارض وليس له سلطان على الارواح في المطهر، ثم يرجع الى متى 16: 19 ليبين ان سلطان الحل والربط نافذ المفعول هنا على الارض فقد وليس في السماء.

الاحتجاجات من 3-68: مجموعة اخرى يتكلم فيها عن الصكوك الخاصة بالاحياء، ويشرح ان الشرط الاساسي للحصول على الغفران هو التوبة الحقيقية.

الاحتجاجات من 79-90: يحذر المصلح الذين يرتكبون الخطايا والموبقات بدعوى انهم حصلوا على صكوك غفران، كما يتكلم عن المبالغة في سلطان البابا.

الاحتجاجات من 91-95: يختم هذه الاحتجاجات بتحذير الشعب من الانبياء الكذبة الذين ينادون الشعب بالسلام، ولا سلام حقيقي، ويعلن للشعب ان دخول السماء او الحصول على الخلاص ليس طريقا سهلا هينا لينا، يشتري ويبيع بالمال، بل كما هو مكتوب "انه بضيقات كثيرة ينبغي ان ندخل ملكوت السموات (اع 14: 22). ان دخول ملكوت السموات لا يتم بالوعود الكاذبة وغير الحقيقية، بل بالتوبة الحقيقية وانسحاق القلب وقبول الرب يسوع المسيح كمخلص.

### محاكمة لوثر (1518)

كانت غاية لوثر من كتابة "القرارات Résolutions" الدفاع عن وجهات نظره الشخصية والاعتراض على استعمال السيء للغفرانات. لم تكن غاية لوثر الانفصال عن الكنيسة او الخروج عنها، اذ ارسل الى روما بواسطة ستوبيتز Staupitz رسالته عن الغفرانات مع رسالة ملىء بالخضوع، ويطلب من روما ان تحقق في الموضوع وتصدر حكمها مؤكدا للبابا انه سيقبل هذا الحكم كأنه من المسيح: "ايها الاب الاقدس انني القى نفسي امام قداسكم خاضعا بكل ما لي بكل حالي، احيوي او اقتلوني، ارفضوا او اقبلوا قضيتي، واحكموا بخطأي او بصوابي كما تشاءون وانني اقبل صوتكم كما لو كان صوت المسيح متكلمًا عاملا فيكم. فان كنت استحق الموت فلن ارفضه.. لان للرب الارض وملؤها، فليكن اسم الرب مباركا، وليحفظكم الرب للابد، امين".

ارسل رئيس اساقفة ماينز هذه الاحتجاجات الى روما، كما ان الراهب تنزل، طلب من جامعة فرانكفورت ان تدرس هذه الاحتجاجات. وبعد دراستها اقروا انها تحتوي على 116 خطأ عقائديا، وبناء عليه رُفِع الامر الى روما بان لوثر هرطوقي يجب محاكمته.

ولما استلم البابا ليون العاشر رسالة رئيس الاساقفة مرفقة بالبند ال 95 للوثر، اعتقد على اثرها وفي البداية الى انها "معارك رهبان سكارى"، الا انه ادرك بعدها خطورة الموقف. واراد انهاء الموضوع بهدوء وسلام. فطلب من الرئيس العام للجمعية الاوغسطينية ان يصدر امره الى نائبه في المانيا ستوبيتز المسؤول المباشر عن لوثر، ان يقوم لوثر بالتراجع عن آرائه وان يعلن طاعته وخضوعه والا فلا بد من محاكمته في روما.

### مجمع هيدلبرج

أُطلع ستوبيتز لوثر على طلب روما، فرد عليه لوثر في 31 اذار سنة 1518 بانه لن يتخلى عن آرائه ما لم يقتنع بعدم صحتها على اساس الكتاب المقدس. وبناء عليه كان سوبيتز مضطرا ان يدعو لوثر للمثول امام مجمع من الرهبان، وتحدد تاريخ الاجتماع في 25 نيسان 1518 ومكانه في مدينة هيدلبرج.

انتهز لوثر هذه الفرصة ليشرح افكاره العقائدية ليس فقد فيما يخص صكوك الغفران والمطهر بل في مواضيع اخرى، ودعم حديثه باقتباسات من كتابات القديس بولس الرسول ومن كتابات القديس اغسطينوس الذي كان يعتبره المفسر الامين لبولس.

انتهى المجمع في جو هادي، ولم يستطيع لوثر ان يقنع معارضييه من الدومينكان، الا انه ترك تأثيرا عميقا في نفوس الرهبان الشباب، وكان مما تأثروا منه من الحاضرين مارتن بيسر Martin Bucer الذي سيصبح ايضا من المصلحين الكبار في ستراسبورج.

وكتب ستوبيتز تقريرا عن ما حدث في مجمع هيدلبرج وارسل الملف الى روما، فوصل اليها في نصف حزيران عام 1518، واحيل الى الكردينال بريرياس Priearias المسؤول عن الشؤون القانونية والمالية وقدم المسؤول القانوني تقريره الاتي: "كل من يدعي ان الكنيسة ليس لها الحق في ان تتصرف وان تسلك بالطريقة التي سلكت فيها فيما

يختص بموضوع صكوك الغفران فهو هرطوقي ويجب محاكمته". وبناء على هذا التقرير اصدرت روما في الاول من تموز امرها الى لوثر لكي يحضر للمحاكمة في خلال ستين يوما من استلامه الرسالة.

### لوثر امام الكردينال كاجيتان

كان البابا ليون ميالا للتسامح، حتى ان مؤرخا بروتستنتيا عزا انتصار الاصلاح الديني الى تسامح واعتدال البابا. ورفض لوثر الذهاب الى روما، وطلب من الامير المنتخب، بواسطة صديقه، امين سر الامير سبالاتن، ان يحمي الامير المواطنين الالمان من تسليمهم الى روما. ولما استبعد البابا مثل لوثر امام محكمة روما، رضي ان يمثل امام الكاردينال كاجيتان الموجود في اوسبورج. واصدر البابا تعليماته الى مبعوثه ان يعرض على لوثر صفحا كاملا اذا تراجع عن اقواله والا فانه سوف يطلب من السلطات الزمنية ارساله الى روما.

قابل لوثر كاجيتان ودخل الكاردينال في صلب الموضوع رافضا ان يناقش صحة اراء لوثر او خطاءها، وطالبا من لوثر فقط ان يسحب اقواله، وان يعد بالا يعلم مستقبلا مثل هذا التعليم وان يتعهد بالا يعكس صفو الكنيسة.

طلب لوثر من الكردينال ان يبين له اخطائه حتى يستطيع ان يتراجع عنها، فاعطاه الكاردينال بندين هما: انكاره كنز الكنيسة، أي ان الكنيسة ليس من حقها ان تتصرف في استحقاقات المسيح والقديسين الزائدة، ثم تمسكه بفكرة ان فاعلية الاسرار المقدسة متوقفة على ايمان الشخص الذي يقبلها، وليس على السر في حد ذاته. واعترض كاجيتان ايضا على مفهوم لوثر لعصمة البابا. فطلب لوثر امهاله يوما للتفكير.

وفي يوم الاربعاء 13 تشرين الاول، جاء لوثر يصاحبه رئيسه ستويتز، واربعة من النواب واثنان من المحامين، وكاتب قانوني. قرأ الكاتب اقرار لوثر بانه مستعد ان يتراجع اذا ما أُنقِع باخطائه على اساس الكتاب المقدس. وشدد الكاردينال على انه لا يريد الا تراجع لوثر واعترافه بانه مخطيء. واما لوثر فكرر بدوره ان لا يريد هو ايضا الا شيئا واحدا وهو ان يقتنع باخطائه قبل ان يعترف بها. وقال لوثر انه على استعداد لان يقبل حكم جامعة بازل او فريبورج او لوفان او باريس. وعندما سمع كاجيتان هذا الاقتراح لم يستطع ان يضبط نفسه ولا ان يحكم غيظه من هذا الراهب المتطرد العنيد، وصرخ فيه قائلاً: "انه لا يريد ان يتناقش معه، وانه لم يأت الى هنا لكي يتناقش بل لكي يسمع اعترافا ويرى ندما، وسأله ان كان مستعدا ان يعترف باخطائه؟". وخشى ستويتز ان تتطور الامور فتدخل واقتراح على الكاردينال ان يمنح لوثر فرصة اخرى يكتب فيها اعتقاداته ثم يفحصها. فقبل الكاردينال اقتراح ستويتز.

وفي يوم الجمعة 15 تشرين اول 1518، جاء لوثر وقدم للكاردينال كاجيتان اجابته مكتوبة. وفيها اجاب على النقاط التي اثارها الكاردينال (1) بالنسبة الى كنوز استحقاقات المسيح، اعترف لوثر ان كنز الكنيسة هذا مكون من استحقاقات المسيح الذي تكفي منه قطرة واحدة للتكفير عن خطايا البشري كلها، الا انه انكر ان هذا الكنز موضع تحت تصرف البابا. (2) وحول قضية التبرير، كرر لوثر مقولته المفضلة، ان الخاطيء يتبرر بالايمان فقط وليس بالاعمال، وعرض ان يبرهن ذلك استنادا الى اقوال الكتاب المقدس، وكتابات القديس اغوستينوس والقديس برناردس. فالقى الكاردينال نظرة سريعة واعاد طلبه الى لوثر ان كان مستعدا ان يسحب اقواله واحتجاجاته ويعترف باخطائه؟ وكان رد لوثر ان لم يثبت له من الكتاب المقدس ومن اقوال الآباء اخطائه فلن يتراجع. فصرخ الكاردينال في وجه لوثر قائلاً: "اختف من هنا ولا ترني وجهك الا اذا قررت الخضوع والاعتراف باخطائك".

وفي مساء نفس اليوم طلب الكاردينال من ستويتز ان يستعمل كل سلطته وتأثيره على لوثر لكي يتراجع. وطلب ستويتز الاب الروحي من لوثر الاعتدال وعدم المخاطرة واطهار روح الخضوع. وقيل لوثر ارضاء لاستويتز ان يكتب خطابا في 17 تشرين اول الى الكاردينال واعدا بالا يتكلم فيما بعد عن مشكلة صكوك الغفران بشرط ان يلتزم معارضيه بنفس الشرط. ثم اعلن ايضا استعدادا بسحب كل ما كتب او علم، بشرط ان يقنعوه من الكتب المقدسة ومن اقوال الآباء بخطأ ما كتب او علم.

كان سويتز حائرا متألما بخصوص لوثر وكان يفكر كيف يمكن ان يخرج من هذا المأزق، وقرر اخيرا ان يحله من نذوره ويطلقه... وهكذا فعل.

اما الكاردينال كاجيتان فقد كتب خطابا الى الملك فريدريك يشرح فيه تفاصيله مقابلته مع لوثر ويلتمس منه ان يسلمه الى روما او يطرده من مقاطعته.

اما لوثر فقد وصل الى فيتمبرج في نهاية شهر تشرين اول. وكان قد مضى سنة على تعليق الاحتجاجات. وبالرغم من هذه المشاكل واصل لوثر نشاطه في التدريس ودراسة الكتاب المقدس بل اراد ان يتعمق في دراسته اكثر فاكثرت. فبدأ يدرس اللغة اليونانية مع شاب اسمه ملانكتون الذي اصبح فيما بعد الذراع الايمن للوثر.

وبينما كان لوثر في طريقه الى فتمبرج وصله خطابا من صديقه سبالاين سكرتير الملك فريدريك يخبره ان الامر قد صدر بالقبض عليه وتسليمه الى روما، وعرف ان ميلتيتز Miltitz في طريقه للحصول على اذن بالقبض عليه وتسليمه الى روما. وهنا نشر لوثر عريضة يدعو الى عقد مجمع عام للنظر في قضيته.

### لوثر امام ميلتيتز

كان كارل ميلتيتز الماني الجنسية، وكان ذكيا وسياسيا محنكا ودبلوماسيا ماهرا بالرغم من صغر سنه، وقد كلف من قبل البلاط الروماني ان يذهب الى المانيا لاحضار لوثر للمحاكمة. وقابل ميلتيتز فريدريك بخصوص تسليم لوثر، فنبه الملك الى ان خطر لوثر سيصبح اكبر اذا ما هرب الى بوهيميا وجدد الصراع العقائدي والسياسي القديم. فافتتح ميلتيتز بهذا الرأي. ولاحظ الملك رغبة الشاب في النجاح في مهمته فوحي اليه ان لوثر لا يطلب الا الاقتناع باخطائه، وربما اذا وجد رجلا حكيما يمكن ان يقتنع. فطلب ميلتيتز مقابلة لوثر وهذا ما كان يسعى الامير اليه، اذ انه كان يريد ان يثبت ان لوثر كان وما زال محقا في طلبه للمناقشة وليس الخضوع دون اقتناع.

تقابل الرجلان في 6/5 كانون ثاني 1519 في مدينة التنبرج وخرج ميلتيتز بانطباعات طيبة من هذه المقابلة. ونتيجة لهذه المقابلة قبل لوثر الا يتكلم فيما بعد عن صكوك الغفران شريطة الا يهاجم. وطلب ميلتيتز الى البابا دون ان يستشير كاجتات ان يسند هذه القضية الى قضاة المان للحكم فيها. لكن جون آك نشر هجوما في 29 كانون اول 1518 ضد احد زملاء لوثر وهو الدكتور كارلستادت. وفي حقيقة الامر لم يكن هو المقصود بهذا النقد بل لوثر نفسه، ولم يعرف لوثر بموضوع آك الا بعد اجتماعه مع ملتيتز، فرأى لوثر في هذا الهجوم حلا من عهده الذي قطعه مع ملتيتز واصبح حرا في الدفاع عن ارائه ضد هذا الهجوم.

ثم جاء موت الامبراطور ماكسيميليان في يوم 11 كانون ثاني بمثابة هدنة مؤقتة لوقف هذا الصراع بين الطرفين. فقد احتل موت الامبراطور وانتخاب امبراطورا جديدا المكانة الاولى في عقول الناس وانقسم امراء وملوك الامبراطورية، فقد أيد بعضهم شارل الاسباني بينما ايد الآخرون فرانسوا الاول. اما البلاط البابوي فكان في حيرة يميل تارة الى الواحد وتارة الى الآخر. وانتهت هذه المعارك السياسية بانتخاب شارل الاول ملك اسبانيا والذي حكم المانيا باسم شارل الخامس. وهو حفيد الامبراطور ماكسيميليان. وعندما تربع الامبراطور الجديد على عرش هذه الامبراطورية المتزامية الاطراف كان في التاسعة عشر من عمره. وقد انتخب في يوم 28 تموز عام 1519.

### حوار ليبزج Leipzig

ظهر في ذلك الوقت منافس جديد للوثر في شخص جون آك Jean ECK، وكان كاتباً وواعظاً بليغاً، ذا صوت قوي وذاكرة قوية، وكان يعد من افضل لاهوتي المانيا، وندا قويا لا يستهان به.

وفي الوقت نفسه الذي وعد به لوثر الالتزام بالصمت، حيث اعتقد ان الازمة على وشك الانتهاء، ظهر كتاب جون آيك Obelisci، وفيه يهاجم نظريات وآراء لوثر، قام الدكتور كارلستادت بتقديمه بصورة مشوهة، ودافع عن تعاليم لوثر في 406 قضية. وقام لوثر من جهته بكتابة كتابه Asterici ردا على كتاب جون آيك.

فتحدى آيك كارلستادت ولوثر ان يدخلوا معه في مناظرة علانية، فوافقا. وحدد يوم 27 حزيران 1519 تاريخا لبدء المناظرة ومدينة ليبزج مكانا لها. وانطلق لوثر وكالستادت في 19 حزيران 1519 الى ليبزج يصحبهما ملانكتون وستة اساتذة آخرون، يرافقهما 200 طالب من فيتمبرج في عربات ومسلحون ومتسربلون بالدروع، مع جمهور كبير من الهسيين جاؤوا من بوهيميا لمناصرة لوثر.

بدأ الحوار في الاسبوع الاول وفي القاعة الكبيرة المفروشة بالسجاد في قلعة بلايسينبورج وتحت رئاسة الامير البرت بين الدكتور آيك وكارلستادت حول "حرية الارادة او الاختيار Le Libre arbitre". كان آيك قوي الذاكرة، حاد الذكاء، عليم باقوال الآباء وتعاليمهم، متبحرا في دراسة قرارات المجامع. اما كارلستادت فقد تميز بمعرفته للكتب المقدسة، الا انه كان قليل الخبرة في المناقشة، ضعيف الصوت والذاكرة، كان يضطر الى التوقف المستمر للعودة والبحث في المراجع الذي كدسها امامه. واستمر الحوار بين آيك وكارلستادت طيلة الاسبوع الاول مع ان تفوق آيك ورجحان كفته كان ظاهرا.

بدأت مناقشات الاسبوع الثاني في 4 تموز بين آك ولوثر حول "اولوية السلطة البابوية La Primauté du pape". واحتج لوثر ان اولوية البابا لا تركز الا على بعض القرارات البابوية، فيما يقف ضدها الكتاب المقدس وقرارات مجامع نيقية وكونستانس. وعندها هاجم ايك لوثر متهما اياه انه يردد وجهة نظر هس التي ادانها مجمع كونستانس. وسأله آيك ان كان من اتباع هس، فثارت ثائرة لوثر، وبدأ يرد بعصبية، ويتهرب من بعض الاسئلة بكثرة التمييز "Distinguo"، وبالخروج عن التعاليم الصائبة، مما اثار ملل الحاضرين، وجعل الامير جورج يقول عنه "ان هذا الراهب مجنون".

شيئا فشيئا استطاع آيك الضغط على لوثر وسأله ان كان "جون هس" الذي أُحرق كهرطوقي، كان على صواب احيانا، وان مجمع كونستانس الذي ادانه كان مخطئا! اجاب لوثر: "بين معتقدات جون هس التي ادبنت، يوجد الكثير الذي يعتبر اعتقادا مسيحيا وانجيليا، والذي لا يمكن ان تنكره الكنيسة الكاثوليكية"، واصبح لوثر في موقف حرج، اذ بدأ بانكار عصمة البابا والان انكر عصمة المجمع. اين اذن يمكن ان توجد العصمة؟ واجاب لوثر على ذلك السؤال بكلمات اصبحت شعارا للاصلاح هي "Sola Scriptura" أي "الكتاب المقدس وحده".

استمر الحوار في الاسبوع الثالث بين آيك وكارلستادت حول "حرية الارادة" و"التبرير بالايمان"، وانتهت المناظرة في 16 تموز، وكان لوثر قد ترك لبيزج قبل ذلك لعدم رضاه عن نتائج هذه المناظرة.

كان من المقرر ان تقوم جامعات اوروبا باعطاء تقريرها عن هذه المناظرة. اعطت جامعة باريس جوابها في عام 1521، ومع انها اعلنت وقوفها مع آيك، الا انها لم توافق على جميع ارائه حول سلطة البابا المطلقة. اما جامعة لوفان وكولوني فقد قدمت تقريرا تحكمان فيه بهرطقة لوثر، اما جامعة وتبرج فقد ايدت لوثر.

اعتبر آيك حوار لبيزج نجاحا عظيما، وانطلق الى روما وبدأ تحريك الامور لاصدار حكم ضد لوثر. فاستقبله البابا ليون العاشر وهناه على نجاحه، وكوّن لجنة لفحص كتابات لوثر وتعاليمه مؤلفة من اكوليتي وكاجتان وأيك نفسه. وفي يوم 15 حزيران 1520، اصدر البابا ليون قراره Exurge Domine الذي فيه يهدد بحرمان لوثر اذا لم يقم بتدمير كتاباته التي تحتوي على التعاليم الخاطئة، والامتناع عن الوعظ والتعليم، والتراجع عن اخطائه في مهلة اقصاها 60 يوما، وتطبيق هذا القرار على كل من يعترض على تنفيذه.

#### 4- نحو الحرمان

كانت نتيجة حوار لبيزج تقسيم المانيا الى معسكرين. ناصر الدوق جورج السكسوني جون آيك، ونشر سكرتيره جيروم امزر Jerome Emsr عدة منشورات ضد لوثر. وكسب لوثر من ناحيته انصاراً كثيرين: الانسانيون من جميع جامعات الالمانية اخذوا يشجعونه على المضي قدما في مقاومته لروما. من ناحية اخرى اظهر الفرسان الالمان الذين رأوا في الحركة اللوثرية مناسبة لقلب النظام السياسي لمصلحتهم، تأييداً قويا للوثر في تمرده ضد السلطة البابوية. وكتب له اليرخ فون هاتن، الذراع المحرك لهذا الحزب، في 4 حزيران 1520، يحثه على اتخاذ موقف اكثر ثابتا وحزما ضد البابوية، مؤكدا له ان كل الفرسان، وخصوصا زعيمهم Franz de Sickingen سيقدّمون له التأييد والحماية. وعرض عليه ارسال مئة فارس لحماية.

ورأى الامراء من ناحيتهم ايضا بعين الرضى تهجم لوثر على البابوية. كان الامير فردريك السكسوني، مع حفاظه على بعض الحذر، يراى في لوثر مجد جامعة وتبرج، وكان يميل الى الكثير من ارائه. ولم يسمح ان يحاكم لوثر دون ان يسمع دفاعه. ولم يظهر رئيس اساقفة ماينز Albert de Brandenburg، الذي كان يطمح ان يصبح رئيسا اعلى للكنيسة الالمانية بعد انفصالها، أي اجراء حازم تجاه هذا الراهب المتمرّد.

واستعدت المدن الحرة في الامبراطورية، التي كثيرا ما كانت في صراع مع الاساقفة بسبب فساد المحاكم الكنسية، او مع اديرة الرهبان بسبب ما كانوا يتمتعون به من الامتيازات، لقبول الانجيل الجديد.

زد على ذلك ان الشعب النجذب لنمط حياة لوثر البسيطة وبلاغته القوية، واعتبروه نوعا ما نبيا مرسلا من الله ضد فساد وترف رجال الدين، وليعيد العقيدة الى براءتها الاصلية.

تشجع لوثر امام كل هذه المناصرة، وبدأ من سنة 1520، يتطرف في موقفه من السلطة البابوية. حتى ذلك التاريخ لم يعمل لوثر سوى اظهار خضوعه للبابا. ولكن الان وامام تشجيع وتأييد مختلف طبقات المجتمع الالمانى، سيبدأ الحرب ضد البابوية. كتب في 11 حزيران 1520 الى صديقه سبالاتان: "لقد ألقيت النرد، وانا احتقر الان غضب الرومان بقدر ما احتقر رضاهم. ولن اهادنهم الى الابد... فليدنوا يحرقوا كل ما يمت لي بصلة وانا في مقابل

هذا سوف افعل لهم الكثير. سوف ادين واحرق علنا كل الكتب والمراسيم والقرارات البابوية... فتأييد سلسفستر Sylvester de Schaumbourg وفرانس Franz de Sockingen حررتي من كل خوف...".

وكتب ايضا الى أحد رفاقه الرهبان: "انني في صدد نشر كتاب في اللغة الالمانية عن البابا والاصلاح المسيحي، وفيه اهاجم البابا بلهجة عنيفة كما لو كنت اهاجم المسيح الدجال".

## 5- كتابات لوثر

لم يكف لوثر عن القيام بالتدريس والكتابة، بل قام في ذلك العام بكتابة ثلاث كتبيات تدعى "كتابات المصلح العظمى".

**(1) الى الأمة المسيحية الالمانية النبيلة Manifeste à la noblesse chrétienne de la nation allemande** touchant la réforme de la chrétienté  
اللاهوتي في ليبزج، وبعد انتخاب الامبراطور الجديد شارل الخامس. كتب هذا الكتاب باللغة الالمانية لغة الشعب وتحاطفه القراء حال ظهوره، لدرجة ان ال 4000 نسخة التي ظهرت منه اختفت خلال الستة ايام الاولى من ظهورها.

دعا لوثر في هذا الكتيب الامة الالمانية كلها، وعلى رأسها الامبراطور الجديد والملوك والامراء الى القيام بواجباتهم ليس تجاه المدينة التي انتخبوا لها فحسب، بل ايضا تجاه اصلاح الكنيسة التي يقوم الشيطان على تخريبها بواسطة البابوات منذ خمسة عشر قرنا، ويدعوهم للقيام بواجباتهم الروحية التي تتطلب اصلاحا جذريا عاجز المسؤولون (الكليروس) عن القيام به. ويستعمل لوثر في هذا الكتاب لهجة وطنية مناشدا الشعب ان ينفذ عن كاهله التدخل الاجنبي في شؤون الامة الالمانية، وان يحمل بنفسه المسؤولية في قيادة الامة والكنيسة. ولذلك يجب هدم الحواجز الثلاث التي - حسب رأيه - وضعتها الكنيسة الرومانية لتحفظ بالسلطان في المانيا وهي:

**(1) الحاجز الاول هو ان السلطان الروحي فوق السلطان الزمني.** وقد فرضته كنيسة روما لخضوع الاباطرة والملوك والامراء للسلطة الروحية العليا الا وهي سلطة البابا وسلطة الكنيسة. يرفض لوثر هذا المفهوم ويقول انه لا يوجد امام الله اكليروس وعلمانيون. فان مجيء المسيح غير اوضاع كاهن العهد القديم لأن المسيح هو كاهن العهد الجديد: وهو الكاهن والذبيحة في نفس الوقت كما انه دعا ايضا جميع المؤمنين الذين يقبلونه بالايمان ان يكونوا كهنة مثله. فليس الكاهن المرسوم وحده هو الكاهن الحقيقي بل ان الكاهن الحقيقي هو الذي يقبل المسيح يسوع مخلصا وفاديا. وهذا ما يدعى بكهنة جميع المؤمنين. ولقد اقتبس عدة فصول كتابية لكي يثبت فكرته هذه (رؤ 1: 6، 5: 10، 20: 6، 1 بط 2: 9). ويقول ان عبارة كاهن تساوي تماما في المفهوم الكتابي مؤمن او معمد (رو 12: 1، عب 13: 5، ابط 1: 5، 9). فلا يوجد اذن فرق بين الاكليروس والشعب ولا توجد طبقة كهنوتية حاكمة مسيطرة وطبقة علمانية مسيطر عليها. كلنا ملوك وكهنة لله ابينا، لنا نفس الامتيازات وعلينا نفس الواجبات. وعلى كل مؤمن ان يقوم بالعمل الموكل اليه، فالخادم يعمل كخادم والمدير يعمل كمدير والحاكم كحاكم... الخ.

**(2) الحاجز الثاني: الاحتفاظ بتفسير الكتاب للاكليروس فقط.** نادى الكنيسة ان رجال الاكليروس فقط هم الذين لهم حق تفسير الكتاب المقدس. اما لوثر فينادي ان تفسير الكتاب المقدس لا يجب ان يكون حكرا على الاكليروس فقط، بل للجميع، لان روح الله هو الذي يعمل في القارئ كاهنا كان ام علمانيا او عاميا لكي يفهم المكتوب. ان الله الذي جعل حمارا يتكلم لكي يوبخ نبيه الا يمكنه ان يتكلم على فم انسان تقي لكي يوبخ البابا؟ يدعو لوثر الجميع الى فتح الكتاب المقدس ليس فقد لقراءته بل لتفسيره ايضا.

**(3) الحاجز الثالث: الادعاء ان البابا وحده له الحق في دعوة المجمع للانعقاد.** يقول لوثر ان الذي دعى لانعقاد اول مجمع في التاريخ هم الرسل كلهم وليس بطرس وحده، كما ان البابا لم يكن هو الذي دعى لعقد مجمع نيقية او صدق على قراراته. لذلك تعود دعوة المجمع الى السلطة الزمنية، وهي وحدها القادرة على دعوة مجمع محايد ومستقل، والعمل خصوصا في هذا الظرف.

وفي الختام يدعو لوثر الى بناء مجتمع جديد، والى اصلاح الادارة العامة في روما، وينادي ايضا باصلاح التعليم وتنظيم المساعدات الاجتماعية والعمل على تنظيم الكنيسة بطريقة اخرى. واذا كان البابا يهدد بالحرمان من الكنيسة او التحريم ان يمنع عقد مجمع: "فاننا يجب ان نستخف بتصرفه كأنه تصرف رجل مجنون ونقدفه بحرمانه معتمدين في ذلك على الله ونقمته بقدر الامكان".

**(2) الكتيب الثاني: الاسر البابلي للكنيسة** Prélude sur la captivité babylonienne de l'Eglise: كان الكتيب الاول موجها الى الامة الالمانية كلها وكتبه بلغة الشعب، اما هذا الكتيب فوجهه الى اللاهوتيين والمثقفين، فكتبه باللغة اللاتينية. ظهر هذا الكتيب في 6 تشرين اول عام 1520. يبين لوثر فيه انه كما قاسى اليهود طويلا في الاسر في

بابل، فان الكنيسة كما انشأها المسيح، وكما نص عليها العهد الجديد، قد تعرضت للاسار ما يزيد على الف عام تحت حكم البابوية في روما. وفي خلال تلك الفترة تعرض دين المسيح الى الفساد في الايمان والاخلاقيات والشعائر. ثم يبين لوثر ان سلطة البابا مؤسسة على مفهوم خاطى لعقيدة الاسرار، ولم يقبل من هذه الاسرار التي علمت بها الكنيسة الا اثنين: الافخارستيا والمعمودية، كما انه سمح بقبول سر التوبة كسر ضروري ومقبول.

تعرض لوثر خصوصا في هذا الكتيب لمسألة الافخارستيا. فقد تمسك بحضور المسيح فعليا في الخبز والخمر، وعلم بطريقة واضحة وصريحة ان الخبز والخمر يميلان فيهما حقيقة وفعلا وليس بطريقة رمزية او استعارية جسد ودم المسيح. فعندما نطق المسيح قائلا: هذا هو جسدي، وهذا هو دمي، فان جسد الرب ودمه حلا فعلا في الخبز والخمر، والمؤمن عندما يأكل الخبز ويشرب الخمر، اما يأكل ويشرب جسد الرب ودمه. الا ان لوثر رفض كليا عقيدة التحول او الاستحالة Transsubstantiation، اذ قال عنها انها فكرة غير كتابية. الا انه يميل لاستعمال بعض المصطلحات الاخرى مثل: Impanation او Conssubstatntiation بمعنى الحضور المزدوج او وجود شيتين في وقت واحد. فلوثر يعتقد بحلول المسيح في الخبز والخمر، وهذا الحلول هو حلول ازدواجي وليس بدلي: بمعنى ان جسد المسيح لا يجل محل الخبز والخمر بعد ان يختفي هذان العنصران عندما ينطق الكاهن بالكلام الجوهري، بل الخبز والخمر يظلان كما هما بدون تغير او تحول والمسيح يجل فيهما. وهذه العملية تشبه عملية التجسد، فكما ان اللاهوت لم يلاش الناسوت عندما حل فيه لكن حل كل ملء اللاهوت في الناسوت واحتفظ كل منهما بطبيعته. وبنفس الطريقة فان الخبز يظل خبزا والخمر يظل خمرا، ويجل فيهما المسيح الذي نتاوله بالايمان عند ممارسة سر الافخارستيا او العشاء السري.

يحاول لوثر ايضا في هذا الكتيب ان يبرز بطريقة واضحة وصريحة ان فاعلية السريين لا تنتج من ممارسة هذه الاسرار في حد ذاتها: أي ان الافخارستيا لا تحمل في حد ذاتها النعمة او الخلاص لكن فاعلية هذه الاسرار متوقفة على موقف الشخص نفسه الذي يشترك في الافخارستيا او في العماد. فان الاسرار لا تمنح الخلاص ولا هي ضرورية له بل ان هذه الاسرار تمارس كدليل على ان الانسان الذي يمارسها ينبغي ان يكون قد حصل على الخلاص. ويرفض لوثر الطريقة المتبعة في الكنيسة الكاثوليكية وهي تقديم الخبز فقط للشعب وحرمانه من الكأس. ويطالب ان يشترك الشعب ايضا في تناول دم المسيح

والتزواج بالنسبة الى لوثر ليس عهدا مقدسا لأن المسيح لم يقطع على نفسه عهدا بان يبث فيه الرحمة الالهية وقال "ان زيجات الاقدمين لم تكن تقل قداسة عن زيجاتنا كما ان زيجات الكفار ليست اقل صحة من زيجاتنا". وعلى ذلك يجب الا يحرم الزواج بين المسيحيين وغير المسيحيين: "فكما اكل واشرب وانام وامشي... واتعامل مع وثني او يهودي او تركي او هرطوقي فان في وسعي ان اتزوج من أي واحدة من نساتهم، فلا تبالوا بالقانون الذي سنه الاحق لتحريم هذا.. ان الشخص الوثني سواء كان رجلا او امرأة خلقه الله كما خلق القديس بطرس والقديس بولس او القديسة لوسي". واي امرأة تتزوج من رجل عنين يجب ان يسمح لها، اذا وافق زوجها، ان تضاجع رجلا آخر لكي تنجب منه طفلا ويجب ان يسمح لها بان تدعى ان الطفل هو ابن زوجها. واذا ابى الزوج فانها تستطيع بحق ان تطلق منه. ومع ذلك فان الطلاق مأساة لا نهاية لها، ولعل تعدد الزوجات خيرا منه.

**(3) الكتيب الثالث: الحرية المسيحية De la liberté chrétienne:** ذكرنا ان ميليتير اراد مصالحة البابا مع لوثر ولم يفلح، وتأم جدا لتطور الامور بينهما، على انه لم ييأس، لذلك نراه يحاول مرة اخيرة إجراء المصالحة، ليقنعه ان يرسل خطابا للبابا وبه نبذة صغيرة يشرح فيها ايمانه وعقيدته، ثم اخلاصه وولاءه. وانهز لوثر هذه الفرصة وكتب فعلا هذا الكتيب الذي يدعى الحرية المسيحية. ظهر هذا الكتيب باللغة الالمانية واللاتينية ويشرح فيه لوثر مبدئين متناقضين هما: (1) المسيحي المؤمن انسان حر وسيد لكل الاشياء (2) المسيحي المؤمن خادم مطيع للجميع.

حاول لوثر ان يشرح ان الانسان الذي حرره المسيح يسوع من كل خطاياها واثامه اصبح حرا من الخطيئة واصبح حرا ايضا من القلق والاضطرابات ومن الموت ومن الجحيم. والايمان بالمسيح يحرر الانسان بل يجعله ملكا. والانسان الذي حررته نعمة الله اصبح انسانا جديدا وخليقة جديدة. وهذه الخليقة الجديدة تثمر ثمارا صالحة. لا يرفض لوثر الاعمال الصالحة، بل بالعكس يشدد عليها وعلى ضرورتها في الحياة العملية واليومية، لكنه يرفضها عندما يلتجئ اليها الانسان لكي يخلص بها، فيقول: "اننا لا نرفض الاعمال الصالحة ولكننا نرفض فكرة ان الانسان في استطاعته ان يخلص باعماله الصالحة". فليست الاعمال الشريرة هي التي تجعل من الانسان شريرا او رديئا بل ان الانسان الشرير او الرديء هو الذي يصنع الاشياء الرديئة. وهذا يمكن تطبيقه ايضا في موضوع البر والخلاص فليست الاعمال الصالحة هي التي تخلق من الانسان انسانا صالحا وقديسا، بل ان القديس هو الذي يعمل اعمالا صالحة. وهذا يعني ان الانسان الذي لمست نعمة الله وتبرر بالايمان مجانا يصبح انسانا جديدا عاملا وليس خاملا.

وارسل لوثر كتابه الى البابا مع خطاب شخصي لم يتضمن أي اعتذر بل نصيحة ابوية تقريبا من لوثر الى خليفة بطرس، اعرب فيه عن احترامه للبابا كقرد ولكنه استنكر في غير هوادة فساد البابوية في الماضي والحكمة البابوية في الحاضر:

"ان ما تتمتع به من سمعة وشهرة في حياتك الطاهرة الذليل امر معروف تماما واسمى من ان يكون مجالاً للهجوم.. ولكن سدتك البابوية التي تسمى المحكمة الرومانية والتي لا يمكنك انت او أي انسان ان تنكر انها اكثر فسادا مما كان عليه اهل بابل او سدوم والتي بقدر ما استطيع ان ارى، تتسم ببحث غوى لا امل فيه قبيح الصيت - فهذه السدة انا ازديها.. ولقد اصبحت الكنيسة الرومانية اكبر وكر داعر للصوص واعظم المواخير التي يندى لها الجبين ومملكة الاثم والموت والجحيم.. ولطالما ساءني يا صاحب المقام السامي ليو انك تنصب بابا في هذه العهود لانك خليق بايام خير منها.. لذلك ارجو يا عزيزي ليو الا تستمع الى تلك الاقوال المعسولة التي لا تجعلك بشرا سويا وترفعك الى مصاف انصاف الالهة لكي تأمر بما تشاء. فانت خادم الاجراء وبعد كل الرجال الاخرين في مركز خطير يرثى له. فلا يخدعك هؤلاء الذين يدعون انك سيد العالم... الذين يدعون بان لك سلطانا على السماء والجحيم والمطهر.. ان الذين يعلنون قدرك فوق المجلس وفوق الكنيسة العالمية يخطئون.. والذين ينسبون اليك الحق في تفسير الكتاب المقدس يخطئون لانهم ينشدون تحت ستار اسمك ان يرسو قواعد خبثهم في الكنيسة، ومما يؤسف له ان الشيطان من خلالهم قد احرز نجاحا تحت حكم اسلافك. والخلاصة لا تصدق احدا يعلي من قدرك، وصدق هؤلاء الذين يضعون من شأنك".

## 6- حرمان لوثر

اعتبر جون آيك حوار لبيزج نجاحا عظيما، وانطلق الى روما وبدأ بتحريك الامور لاصدار حكم ضد لوثر. فاستقبله البابا ليون العاشر وهناك على نجاحه، وكوّن لجنة من افضل الاهوتيين، بما فيهم الكردينال كاجتان وجون آيك نفسه، لفحص كتابات لوثر وتعاليمه. واصدر البابا في 5 حزيران 1520 المرسوم "قم ايها الرب Exsurge Domine" فيه يدين 41 بندا من تعاليم لوثر الخاطئة ويهدد بحرمان لوثر اذا لم يقم بتدمير كتاباته التي تحتوي على التعاليم الخاطئة، والامتناع عن الوعظ والتعليم، والتراجع عن اخطائه في مهلة اقصاها 60 يوما وتطبيق هذا القرار على كل من يعترض على تنفيذه.

وارسل البابا مندوبين لنشر المرسوم في كل اوربا، لكنهم وجدوا معارضة متزايدة عند اقتراحهم من المناطق الالمانية. وفي لبيزج رفض الحكام الاعلان عن المرسوم. في امكنة اخرى ابادوها وشيعوا المندوبين باغاني ساخرة، ورفض مجلس جامعة وتبرج ان ينشر المرسوم.

اما في بعض المدن الاخرى فقد قام الكاثوليك بجمع كتابات لوثر والقوها في النار. فقرر لوثر ان يرد عليهم بالمثل. وفي 10 كانون اول 1520 دعت هيئة التدريس في جامعة وتبرج الاساتذة والاصدقاء وكل الذين يهمهم الامر الى اجتماع عام وهام. وخرجوا جميعا الى مكان خارج مدينة وتبرج، كانت تحرق فيه عادة ملابس مرضى الطاعون. وهناك تقدم لوثر امام النيران المشتعلة والقى فيها كتب القانون الكنسي وبعض كتابات فلاسفة القرون الوسطى ومنهم توما الاكوييني، واخيرا القى مرسوم التهديد بالحرمان وقال: "بما انك احزنت الروح القدس لتلتهمك النيران".

ردا على هذا العمل وعند انتهاء المهلة الممنوحة للوثر ليتراجع عن تعاليمه، اصدر البابا ليون العاشر في 30 كانون الثاني 1521 مرسومه Decet Romanum Pontificem وفيه اعلن لوثر هرطوقيا عنيدا، ومحروما هو واتباعه وجميع الاماكن التي تستضيفه.

## 7- لوثر امام مجلس الدايت (مجلس الامة)

بدأ مجلس الامة اجتماعاته في 27 كانون ثاني 1521. وخطب القاصد الرسولي في المجلس لمدة ثلاث ساعات مبينا للمجلس انه ليس من حق مجلس امة زمني التدخل في شؤون الكنيسة الروحية، وليس من حقه ولا من اختصاصاته التدخل في الحكم على هرطوقي، اذ انه غير مؤهل علميا للقيام بهذا العمل. وبعد ان قدم قائمة طويلة يصف فيها الهرطقات العديدة التي نادى بها لوثر. قدم قائمة اخرى يصف بها الاعمال الثورية التي تبينها اتجاهات هذا الراهب وتبين مدى خطورته لا من الناحية الدينية فقط بل من الناحية السياسية ايضا. وقال انه يريد قلب الاوضاع القائمة. اذ انه لا يقبل سلطان البابا او سلطان المجامع، انه يوحنا هس الجديد. وطلب من مجلس الامة الا يضيع وقته الثمين في مناقشة هذا الامر الذي سبق البابا ليون العاشر واصدر حكمه فيه بحرق كتب هذا الهرطوقي وحرمان كل من يتبع مذهبه.

انقسم المجلس بعد هذا الخطاب بين مؤيد لارسال لوثر الى روما وبين معارض، وقرر المجلس بعد ستة ايام الطلب من لوثر ان يحضر الى ورمس لكي يحاكم امام مجلس الدايت. وطلب الامبراطور من فريدريك ان يرسل دعوة



لوثر، اذا انه واحد من رعاياه. على ان الملك التمس من الامبراطور ان يقدم هو نفسه الدعوة بصفته رأس الامبراطورية مع ارسال ضمان الامان في الذهاب والعودة. فكتب له الامبراطور يقول: "لا حاجة بك الى الخوف من التعرض لاي عنف او ازعاج لاننا اعطيناك جواز الامان".

وصل لوثر الى ورمس في 16 نيسان، وفي يوم 17 نيسان مثّل لوثر امام المجلس النيابي، اكبر هيئة حاكمة في ذلك الوقت. فقد وجد نفسه امام الامبراطور شارل الخامس واخيه فرديناند رئيس الامراء وستة من الملوك المنتخبين واربعة وعشرين دوقا.. وثمانية من الشرفاء وثلاثين من رؤساء الاساقفة والاساقفة ورؤساء الاديرة وسبعة من السفراء من بينهم مندوبي البابا. وضعت مجموعة من الكتب على منضدة قريبة من لوثر. ووقف جون آيك كاتب رئيس اساقفة تريف Trèves - وهو غير جون آيك اللاهوتي - وسأله هل هذه الكتب من تأليفه وهل هو على استعداد لانكار كل هذه الهرطقات التي تتضمنها؟. ومرت لحظة على لوثر وهو واقف امام هذا الجمع الذي يمثل هيئة الامبراطورية والسلطة النيابية وجلال الكنيسة، فخانته شجاعته واجاب بصوت خافت ان الكتب من تأليفه. واما بالنسبة للسؤال الثاني فان هذا الامر في غاية الخطورة ويحتاج الى تفكير والتمس مهلة للتفكير. فامهله شارل يوما. وعندما عاد الى مسكنه تلقى رسالة من هوتن تناشده فيها الثبات في موقفه. واقبل كثير من اعضاء المجلس النيابي لزيارته لتشجيعه.

وفي يوم 18 نيسان واجه المجلس النيابي بثقة كاملة، وكانت قاعة المجلس تملح بالحاضرين الى حد ان الامراء المختارين وجدوا صعوبة بالغة في الوصول الى مقاعدهم. وسأله ايك عما اذا كان على استعداد لانكار المؤلفات التي كان قد كتبها كلياً او جزئياً. فاجاب لوثر ان الكتب التي الفها تنقسم الى ثلاثة انواع: النوع الاول، كتب عالجت مواضيع خاصة بالايمان المسيحي والاخلاقيات وقد قبلها الكثيرون من اصدقائه ومن ممن يخالفونه الرأي، فلا يمكنه ان ينكر ما اعترف بفائدتها العدو والصديق. النوع الثاني: هي الكتب التي هاجم فيها البابوية والباباويين الذين افسدوا المسيحية وان الكثيرين شهود لذلك بل ضحية لهم. فان تراجع عن هذه الكتب فانه يشجع على المزيد من الظلم والطغيان. والنوع الثالث: كتب احتوت على نقد شديد ضد الاشخاص الذين اشتركوا في اعمال الظلم والعدوان، واعترف انه كان شديداً في اسلوبه قاسياً في نقده، واعتذر عن ذلك، وتذرع بانه انما كان يدافع عن عقائد هامة، وعن الحق الالهي، فهل يمكنه ان يتراجع عن الحق الالهي؟ ثم قال انه مستعد للتراجع عن أي فقرة عقائدية اذا ثبت انها تخالف ما جاء في الكتاب المقدس. وبعد ان انهى خطابه قال له جون آيك: "ايها الاخ مارتن لقد تكلمت كثيراً، وفي كلامك تمسكت بهرطقات قد سبقت الكنيسة وحكمت ببطالانها. وهذه الهرطقات التي تكلمت عنها سببت مأسى كثيرة للشعب الالماني واننا على أي حال لا نريد النقاش هنا. ولكن كل ما نطلبه منك باسم الامبراطور: هل انت مستعد ان تتراجع عن تعاليمك المذكورة في هذه الكتب. اننا نريد منك جواباً واضحاً وصریحاً". عندئذ قال لوثر:

"بما انكم تطلبون مني اجابة واضحة وصریحة فهذه هي اجابتي: ان لم تقنعوني من الكتب المقدسة، لا يمكنني ان اتراجع لان ضميري لم يعد يخضع بعد، لا للبابوات الذين حكم بعضهم على بعض، ولا للمجامع التي ارتكبت اخطاءاً وحكما بعضهما على بعض ايضاً. فان ضميري لا يخضع الا للكتب المقدسة. ولذلك لا يمكنني ان اتراجع لانه ما اخطر ان يتصرف الانسان ضد ضميره. وهذا ما اؤمن به فليعني الرب".

فواجه جون آك انه لا يمكن اثبات أي خطأ في المراسيم العقائدية التي اصدرتها المجامع، فرد عليه لوثر انه على استعداد لاثبات مثل هذه الاخطاء. ولكن الامبراطور اعترض قائلاً بلهجة قاطعة: "هذا يكفي، ما دام انه انكر المجامع فاننا لا نود سماع كلمة اخرى". وعاد لوثر الى مسكنه وقد انهكه الصراع، ولكنه كان واثقاً انه قدم شهادة طيبة.

حاول الامبراطور ان يحسم هذا الامر بشدة وحزم، فاصدر في 19 نيسان منشوره الامبراطوري مكتوباً باللغة الفرنسية اعلن فيه انه حفيد الاباطرة وحفيد ملوك اسبانيا والنمسا وبورجوني العظماء الذين شهدوا بايمانهم وكتلكتهم في حياتهم، وانه سيسير على منوالهم مقاوماً ومطارداً ومحارباً كل المبتدعين. واعطى لوثر صك الامان للعودة الى فيتمبرج ولكن أمر بالقبض عليه بعد انتهاء مدة هذا الصك، وان يسلم الى السلطات المختصة لكي يحاكم.

غادر لوثر مدينة ورمس في 26 نيسان عائداً الى وتنبرج، ولكنه لم يصل اليها. ففي الطريق، وبالتحديد بالقرب من التنشتاين Altenstein هجمت عليه ومن معه جماعة مكونة من خمسة فرسان، وقبضوا عليه ووضعوه على فرس واختفوا به في الغابات الكثيفة. وكان فرديريك قد دبر هذا الكمين لاختطاف لوثر خوفاً من ان يقبض عليه واخفاه في قلعة فارتبورج متخفياً في شكل الفارس جورج.

## 8- لوثر في فارتبورج

كانت قلعة فارتبورج تحتم على قمة جبل على مسيرة ميل من ايزنباخ، وكانت مخفية عن انظار العالم. واقام لوثر هناك مدة تقرب من عشرة اشهر (4 ايار 1521 الى 3 اذار 1522)، في غرفة مظلمة، مجهزة بفراش ومنضدة وموقد وجذع شجرة يستخدم كمقعد. كان يحرس القلعة بضعة جنود ويعني بالاراضي حارس، ويقوم بخدمة لوثر صبيان يعملان وصيفيين له.

ورأى لوثر انه من الافضل له من قبيل التنكر ان يخلع الثوب الرهباني، ولبس رداء فارس، واطلق لحيته واصبح يعرف باسم الفارس جورج، وخرج للصيد، واسقمه الكسل وكثرة الطعام وشرب الجعة واصيب بالبدانة واخذ يشتم ويلعن كما يفعل أي فارس الماني شاب.

وراودت الشكوك لوثر في خلوته، وتساءل يمكن ان يكون على حق وان يكون مثل هؤلاء الاحبار على ضلال؟ واذ كنا نصدق القصة كما رواها في اواخر ايامه، فان اصواتا غريبة كانت تزعجه، اصواتا لم يستطع تفسيرها الا بانها من صنع الشياطين، واكد انه رأى الشيطان في مناسبات عديدة، وقال ان الشيطان رجمه يوما بالجوز، ويقال ايضا ان لوثر قذفه بزجاجة حبر ولكنها اخطأته. يظهر كل هذا من كتاباته الى اصدقائه سبلاتان وملانكتون حيث وصف لهم الالام الجسدية والنفسية التي يتعرض لها. ويظهر لنا لوثر في هذه الفترة، كمهوس مريض جسدا وروحا.

الا انه بالرغم من حالته النفسية السيئة التي كان يمر بها فقد قام في هذه الفترة بنشاط تأليفي غير عادي. لم يكتب فقط بدراسة العبرية واليونانية بمهمة ليفهم الكتاب المقدس بشكل افضل، وانما قام ايضا بتأليف عدة كتب منها: كتاب حول "الاعتراف السمعي La Confession auriculaire" اهداه الى صديقه فرانس Franz Stickengen زعيم الفرسان، وفيه يدعو الى ترك الاعتراف واعطاء الافضلية للاعتراف الى علماني بسيط بدلا من الكهنة. وفي ربيع عام 1521 وجه الى الرهبان الاوغسطينيين في وتبرج كتابا اخر حول "حذف القداص الخاص De abroganda missa privata" حيث وصف القداص بانه خرافة بغيضة "abominable superstitions" "واختراع جهنم"، وفيه يوافق ما قام به رفاقه الرهبان من حذف القداص الخاص (Privée). وفي تشرين ثاني 1521 اهدى الى والده كتابه "حول النذور الرهبانية De votis monasticis iudicio"، وفيه يتخذ موقفا مؤيدا لالغاء النذور الرهبانية والعزوبية. كما وكتب عدة تفاسير حول المزامير.

الا ان اهم عمل قام به لوثر في هذه الفترة هو ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة الالمانية العامية التي يتكلمها الشعب. عندما تبني لوثر الكتاب المقدس كاساس الوحيد للايمان، كان الطبيعي ان يهتم بجعله متاحا لجميع من تبعوا الاصلاح. وكان هذا بحق مهمة صعبة، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان الدراسات الشرقية كانت لا تزال في بدايتها، ومن جهة اخرى فقر اللغة الالمانية التي كانت هي ايضا لا تزال في مهدها، وكان ينقصها الكلمات للتعبير عن الافكار المتأخرية التي حتى ذلك الوقت كانت تستعمل باللاتينية. وبمساعدة من افضل الانسانيين في ذلك الوقت وخصوصا بمساعدة ملانكتون، استطاع لوثر ان ينجز هذه المهمة بالرغم من كل الصعوبات... وظهر العهد الجديد منذ 1522، وظهرت ترجمة العهد القديم على اقسام من عام 1523 وحتى عام 1534. واخيرا ظهرت الطبعة الكاملة للكتاب المقدس عام 1541.

لم تكن هذه الترجمة تخلو من الاخطاء، اذ لم يفهم لوثر دائما المعنى الحقيقي لبعض النصوص، وخصوصا في سفر ايوب والانبياء ورسائل بولس، كما ولاهتمامه ايجاد تطابق بين تعاليمه والنصوص المقدسة، لم يجد لوثر حرجا في بعض المرات بتعديل المعنى بزيادة بعض الكلمات او بملاحظات هامشية. فمثلا في اية 28 من الفصل الثالث من رسالة بولس الى اهل روما: "Arbitramur enim justificari hominem per fidem, sine operibus legis"، زاد لوثر كلمة "فقط Solam" بعد كلمة "Fidem". وعندما واجهه اللاهوتيون الكاثوليك بهذا نعتهم بالحمير.

لم يكتب لوثر بهذا بل عمد ايضا الى حذف بعض الاسفار الكاملة والتي لم تتلاءم وتعاليمه بل وعاكستها مثل رسالة القديس يعقوب، والرسالة الى العبرانيين وسفر الرؤيا. بالرغم من كل ذلك، فان ترجمة لوثر للكتاب المقدس تعد حدثا تاريخيا كان له الاثر الكبير في تاريخ المانيا. فمن الناحية اللغوية اصبحت هذه الترجمة اساسا للغة الالمانية لغني الكلمات والتعابير وسلاسة الاسلوب ووضوحه. اما من الناحية الدينية، فقد اصبحت هذه الترجمة كتاب البروتستنت الاول. فقد كان لوضعه بين يدي الوعاظ اساسا لتعاليمهم وعقائدهم، ولدخوله لكل كنيسة ومدرسة وبيت الفاعلية الكبرى لنشر الاصلاح.

## 9- عودة لوثر الى وتنبرج Wittenberg (6 اذار 1522)

بينما كان لوثر في قلعة وارنبورج يكتب ويؤلف، وقف على رأس حركته بعض تلامذته، امثال كارلستادت Carlstadt، وجابرييل زويلنج Gabriel Zwilling، وملانكتون Melancton، واخذوا يترجمون تعاليمه الى افعال. وكان كارلستادت يعتبر نفسه الرئيس الروحي لمدينة وتنبرج بعد غياب لوثر، وكان على عكس لوثر يريد تغييرا سريعا وجذريا، دون مراعاة للظروف. ولكي يعطوا مثلا على تحررهم وتحرر الكثير من الكهنة من عبودية بابل، قام كارلستادت بالزواج في كانون اول 1521، وتبعه الكثير من كهنة الرعايا، وخرج الكثير من الرهبان والراهبات من الاديرة معلنين ان ندورهم باطلة، وفي كثير من الاماكن الغيت القداديس الخاصة. وفي عيد الميلاد لعام 1521، اقام كارلستادت قداسا انجلييا في اللغة الالمانية وبدون الثياب الليتورجية، والاكثر خطورة انه حذف كثيرا من الاجزاء المهمة في القداس، ووزع المناولة تحت الشكلين، لكل من تقدم من المناولة دون اعتراف او صيام. بل ذهب ابعد من ذلك، عندما بدأ يفكر في الغاء الاديرة، واغلقت فعلا جمعية الرهبان الاوغسطينية في وتنبرج في كانون ثاني 1522، ووزعت ممتلكات الاديرة لمساعدة الكنائس واستخدامها في المشاريع العامة. والبعض الاخر وُزع على بعض الامراء.

ولم تجر كل هذه التغييرات دون ان تثير بعض الفوضى. ففي الثالث من كانون اول دخل بعض الطلبة وسكان المدينة وهم مسلحون بالمدى كنيسة الابرشية في وتنبرج وطردوا الكهنة عن المذبح ورحموا بعض المصلين الذين كانوا يؤدون الصلاة امام تمثال العذراء. ودعا جابرييل زويلنج، وهو احد رؤساء الجمعية الاوغسطينية، مستمعيه الى احراق الصور الدينية وهدم المذابح حيثما وجدت.

الا ان اكثر الحركات خطورة كانت ظهور بما يعرف بحركة اللامعمدانيين Les Anabaptistes.

### حركة اللامعمدانيين Les Anabaptistes

دعوا بالمعمدانيين لانهم كانوا يعلمون ان الايمان يجب ان يسبق العماد، وبالتالي، فان الاطفال، الذين قبلوا سر العماد قبل بلوغهم سن الرشد، يجب اعادة تعميدهم عند بلوغهم هذا السن. وكانوا يقدمون انفسهم كانبيا ملهمين مباشرة من الروح القدس.

بما انهم لم يكونوا يعترفون بسلطة او قانون الا بما يوحي به الروح القدس ولكل واحد منهم، فقد رفضوا كل سلطة دينية او زمنية. وادادوا تأسيس مجتمع مبني على "الاخوة المسيحية Fraternité Chrétienne"، حيث يكون فيها كل الاعضاء متساوين واحراراً، وفي اشتراكية كاملة، ويعيشوا على هواهم بحسب ما يملهم عليهم ضميرهم. ان تحقيق مثل هذه المدينة المثالية، لن يتم الا بتبديل النظم القائمة، لذلك يجب اعلان الحرب على رؤساء المجتمع اكليروسا او امراء او اسيادا.

تأسست هذه الحركة المتطرفة الثورية في مدينة زوكاو Zwickau الالماني، على يد احد النساجين واسمه نيقولا ستورك Nicolas Storch، وراهب فرانسيسكاني، توماس منزر Thomas Munzer، الذي، على مثال المسيح جمعوا حولهم اثني عشرة رسولا واثنين وسبعين تلميذا. امر مجلس مدينة زوكاو بطردهم فهربوا والتجأوا الى مدينة وتنبرج، حيث بدأوا بنشر تعاليمهم، واثروا على زعماء الحركة اللوثرية، ملانكتون وامسدورف، بينما تحمس لهم كارلستادت. وبالتعاون معهم بدأ كارلستادت بتغييرات ثورية في وتنبرج. فلم يكتف بالغاء القداس والاسرار، بل قاد مجموعات من حثالة الشعب، اغارت على الكنائس، وهدمت الهياكل، والقوا بالصلبان ارضا، وحطموا التماثيل والصور. وبعد الكنائس والاديرة، وجه كارلستادت وانبياء زوكاو حربهم على الثقافة والتعليم، معتبرين ان العلوم لم تعد مهمة وضرورية لفهم الكتاب المقدس. فترك الكثير من الطلاب مدارسهم وجامعاتهم، واصبحت جامعتا ارفورت ووتنبرج شبه خاليتين.

حمل هؤلاء المتطرفون حركة الاصلاح الى ابعد ما كان يريده لها مؤسسها لوثر، وجعلوا منها ثورة دينية واجتماعية، زرعت البلبه والفوضى في كل مكان.

وعندما سمع لوثر بهذه الاحداث، غادر قلعته وعاد الى ارتداء مسوح الرهبان، وحلق شعر رأسه واسرع بالعودة الى وتنبرج. وفي يوم 9 اذار عام 1522 بدأ سلسلة مؤلفة من ثماني عظات تدعو بشدة الجامعة والكنائس والمواطنين الى مراعاة النظام. وطلب منهم ان يقتفوا اثره في عملية تحرير الكنيسة قائلا: "اتبعوني فانا اول من اختصه الله بهذا الامر والرجل الذي كشف له سبحانه وتعالى عن كلمته التي لا بد ان ابشركم بها. ولذلك اقول انكم قد ارتكبتم خطأ بشروعكم في القيام بهذا العمل دون ان تستشروني اولاً. امهلوني بعض الوقت، لا تظنوا ان المظالم تمحى بتدمير

الهدف الذي يساء التصرف فيه. ان الناس يمكن ان يضلوا بالنيبذ والنساء، فهل نحرم شرب النبيذ ونقضي على النساء؟ لقد عبد الناس الشمس والقمر والنجوم، فهل نتزعمها من السماء؟...".

ونجح لوثر في كسب وتبرج والعودة بها الى حظيرة الاعتدال. وامر انبياء زوكاو بمغادرة المدينة، وفصل كارلستادت من وظائفه بقرار من مجلس المدينة الذي اعاد تكوينه، انتقل كارلستادت الى مدينة اورلاموند، حيث اصبح كاهن رعية فيها، وندد من فوق المنبر بلوثر ووصفه بانه: "كاهن نهم... وبابا فيتبرج الجديد". وتخلي كارلستادت عن كل الثياب الكهنوتية وارتنى معظفا رماديا بسيطا واستغنى عن الالقاب وطلب ان يدعى "الاخ اندرياس". ورفض قبول مرتب عن قيامه بالخدمة الدينية، وعمل على كسب عيشه بالمحراث، ورفض كل استخدام للعقاقير وفضل الصلاة على الدواء. ودافع عن تعدد الزوجات باعتباره امر لم يجرمه الانجيل، وتبنى وجهة نظر رمزية محضة فيما يختص بالقربان الاقدس. وذهب لوثر بناء على طلب الامير المختار الى اورلاموند ليعظ ضد كارلستادت، ولكنه اخرج من المدينة ورجم بالحجارة والطين.

## 10- ثورة الفرسان 1523

عندما سعى بعض الاساقفة الى اسكات لوثر واتباعه، اطلق صرخة مدوية غاضبة كانت تقريبا بمثابة الناقوس المنذر بالثورة، ففي كتيب "ضد النظام الذي يطلق عليه بمتانا اسم النظام الروحي للبابا والاساقفة Contre l'état faussement appelé ecclésiastique du Pape et des évêques" (تموز 1522)، وصف فيه الاساقفة بانهم "اكبر الذئاب" جميعا وناشد كل الالمان الصالحين ان يطردوهم بالقوة.

وفي هذا الوقت انتقد لوثر الدولة انتقاده للكنيسة، فقد آلمه تحريم بيع عهده الجديد او حيازته في المناطق التي تخضع لحكام من المحافظين فكتب في خريف عام 1522 رسالة عنوانها "عن السلطة الزمنية: الى أي حد يجب ان تطاع De l'autorité temporelle et de l'obéissance qui lui est due". وبدأها بأسلوب ودي للغاية فأقر عقيدة القديس بولس عن الخضوع المدني والاصل الالهي للدولة. ومن الواضح ان هذا كان يتناقض مع تعاليمه الخاصة التي تقول بالحرية الكاملة للمسيحي. ووضح لوثر انه على الرغم من ان المسيحيين المخلصين ليسوا في حاجة الى قانون، ومع ان احدا منهم لن يواجه الاخر بالقانون او القوة فانهم يجب ان يطيعوا القانون وان يكونوا قدوة لغالبية الناس من غير المسيحيين المخلصين لان فطرة الانسان التي تمنح للاثم في غيبة القانون سوف تمزق المجتمع اربا. ومع ذلك فان سلطة الدولة يجب ان تنتهي حيث يبدأ ملكوت الروح. من هم هؤلاء الامراء الذين يأخذون على عواتقهم ان يفرضوا على الناس ما يقرأونه او ما يعتقدونه؟

كان الفرسان وقليلو الثروة منهم ينتظرون في صبر نافذ فرصة موالية للثورة على الامراء والاساقفة والممولين. وكان شارل الخامس بعيدا عن البلاد في اسبانيا عام 1522، وفرق سيكينجن Franz Sickingen ينتابها القلق بسبب تعطلها عن العمل، وكانت الاراضي الغنية التي تمتلكها الكنيسة مباحة وكان يمكن الاستيلاء عليها بسهولة. وكان هوتن Ulrich de Hutten يدعو للعمل، وكان لوثر قد دعا الشعب الالمني الى تطهير الارض من مضطهديه.

وفي الثالث عشر من اب وقّع عدد من الفرسان في لاندوا تعهدا بالعمل الموحد، وحاصر سيكينجن مدينة تريفز Trèves وقذفها بمنشورات تحرض الناس على الانضمام اليه لخلع كبير الاساقفة الحاكم، ولكنهم لم يحرخوا ساكنا، وجمع كبير الاساقفة فرقا، وقادها بنفسه، ثم قام بخمس هجمات مضادة، فرفع سيكينجن الحصار عن المدينة وتراجع الى قلعته في لاندشتول. وهاجم كبير الاساقفة القلعة بعنف، واصيب سيكينجن بجرح قاتل وهو يدافع عنها، ثم استسلم في اليوم السادس من ايار عام 1523 ومات في اليوم السابع من ايار. وخضع الفرسان للامراء وسرحوا الجنود العاملين بجيوشهم الخاصة وتشبثوا في قسوة يائسة بالضرائب الاقطاعية المفروضة على الفلاحين التي كانوا يعتمدون عليها في معاشهم.

وتنبأ لوثر لهذا التصدع فتنصل من الثورة قبل فوات الاوان ( 19 كانون ثاني سنة 1522) واستمر نجمه في صعود. وكتب الارشيدوق فرديناند لاختيه الامبراطور (1522) "ان قضية لوثر تمتد جذورها عميقة في الامبراطورية باسرها الى حد انه ليس هناك شخص واحد من كل الف في عصمة منها".

## 11- مجلس نورمبرج 1522-1524

ارسل البابا ادريان السادس (1521) مبعوثه الكردينال جيرغاتي Chierigati، الى مجلس النواب المنعقد في نورمبرج (1522)، من اجل تدارس الوسائل لوقف تقدم الاثراك، فقدم للمجمع رسالة بابوية اعترف بها بصدق

بالاخطاء التي تردت فيها الكنيسة: "اننا نعلم تمام العلم ان امورا كثيرة تستحق المقت قد تجمعت حول منصب البابا منذ سنين عديدة. وقد اسيء استخدام الاشياء المقدسة واعتدى على القوانين حتى انه في كل شيء كان هناك تغيير الى الاسوء، فلا عجب اذا كان المرض قد زحف من الرأس الى الاعضاء، من البابوات الى من يلونهم في المناصب. لقد حُذنا نحن جميعا، من اساقفة ورجال الدين، عن الطريق المستقيم، ومنذ عهد بعيد لم يعمل واحد منا عملا صالحا. ولذلك فاننا سوف نبذل كل ما في طاقتنا من جهد لاصلاح المحكمة الرومانية قبل كل شيء آخر، وهي التي ربما كانت سببا في كل هذه الشرور.. ان العالم بأسره يتوق الى مثل هذا الاصلاح". ثم لفت البابا نظر المجتمعين الى النتائج المؤسفة التي سببتها الدعاية اللوثرية.

ووافق المجلس على ان يطلب من الامير المختار فردريك كبح جماح لوثر، ولكنه تساءل لماذا يجب ان يدان لوثر لانه اشار الى المظالم التي ارتكبتها رجال الدين والتي ايدتها السلطات وقتذاك. وعندما وجد المجلس ان اعتراف البابا ليس فيه ما يكفي من التفاصيل ارسل اليه قائمة خاصة ضمنها مائة مظلمة من المانيا ضد الكنيسة واقترح ان ينظر بعين الاعتبار الى هذه الشكاوي، وعلاجها بوساطة مجمع عام يعقد في المانيا برئاسة الامبراطور.

وارسل كلمينت السابع، البابا الجديد، الى الجلسة الثانية للمجلس النيابي (كانون ثاني 1524) الكردينال لورزو كامبيجيو Campeggio ومعه مطالب جديدة بالقبض على لوثر، وسخرت الجماهير من القاصد الرسولي في اوجسبورج واضطر الى دخول نورمبرج سرا حتى يتجنب المظاهرات المعادية، وكان من حظه الازلال عندما رأى 3000 شخص من بينهم شقيقة الامبراطور يتلقون القربان المقدس تحت الشكلين من راع من اتباع لوثر. فحذر المجلس النيابي من ان الثورة الدينية اذا لم تقمع في مهدها فانها سوف تقوض دعائم السلطة المدنية وتهدم النظام، ولكن المجلس النيابي رد عليه ان اية محاولة لقمع الحركة اللوثرية بالقوة سوف تنتهي بثورة وعصيان ومذبحة ودمار شامل. واعاد دعوته الى عقد مجمع عام في مدينة سباير Speyer، وحدد تاريخ 11 تشرين ثاني 1524، حيث يقوم رجال علماء ببحث شكاوي الامة الالمانية ضد روما ودراسة كتابات لوثر، وفي هذه الاثناء اصدر المجلس امرا بتفسير الانجيل والوعظ به حسب الطريقة الكاثوليكية.

لم يرضى عن قرارات المجلس لا اللوثيريون الذين استاءوا أن يُنْعَموا من تفسير الانجيل حسب طريقتهم، ولا البابا لانها لم تضع حدا للدعاية اللوثرية، ولاستيائه من دعوة المجلس الى اعادة دراسة كتابات لوثر التي تم دراستها والحكم عليها كهرطوقية.

وبالرغم من فشل مهمته، لم يترك الكردينال كامبيجيو الا بعد ان توصل الى تأليف حلف بين الامراء الكاثوليك في جنوب المانيا، والارشيدوق فرديناند دوتريش، ودوقات بفاريا، رئيس اساقفة سالزبورج، واسقف ترنت، للعمل في مناطقهم على تنفيذ مقررات مجمع ورمس والحفاظ على الايمان الكاثوليكي.

## 12- مجلس سباير 1524

انعقد هذا المجمع في عام 1524، واثار فيه مندوبو البابا موضوع تنفيذ مرسوم ورمز، واتخاذ اقسى الاجراءات ضد لوثر وهرطقته. الا ان هذا اصبح مستحيلا، فقد تغيرت الظروف، واصبح حزب منتخب سكسكونيا الجديد في ملء قوته، كما ان القطيعة بين الامبراطور والبابا، على اثر تأييد البابا لملك فرنسا، وعقد معاهدة سرية معه، كان لها اثرها على سير المجلس. وهكذا انتهى مجلس سباير الى القرار الاتي:

"بمقتضى قرار مجمع سباير، تستطيع كل ولاية او دوقية، ان تعيش وتحكم وتتحمل وتعتقد، بالطريقة التي تعتقد انها يمكن ان تتفق مع امر الله والامبراطور". وكان معنى هذا، هو اطلاق الحرية السياسية والدينية. ومعناه ايضا، ان حزب لوثر والامراء الذين الى جانبه، اصبحوا احرارا في التصرف كما يرون. وفسر البروتستانت هذا القرار بانه اباح تأسيس الكنائس اللوثرية، ووفر السيادة الدينية لكل امير في اقليمه، وحرم اقامة القداس في المناطق التي تدين بمذهب لوثر. ورفض الكاثوليك التسليم بهذا القرار، ولكن الامبراطور، قبلها مؤقتا. ومنذ صدور هذا القرار، انقسمت المانيا قسمين، جانب يناصر البابا، والاخر يناصر لوثر.

## 13- نهب روما

اغتنم الامراء اللوثيريون هذه الهدنة، وعزموا على اتخاذ خطوة ضد البابا، وتحت امرة قائد متعصب، يعرف باسم فرندزبرج، التأم جيش الماني كبير، يدين بمبادئ اللوثرية، ومن بقايا ضحايا ثورة الفلاحين، يُلهمه الحقد والحماسة، وتغذيه روح الانتقام. وعبر هذا الجيش جبال الالب، من معابر سرية، نقل فيها الحراسة، وهبط الى سهول لومبارديا،

حيث انضم اليه جيش اسبانيا (1527). ولم تمض اسابيع، حتى كان الجيش المتحد، الذي يبلغ قوامه عشرين الف مقاتل، يدق ابواب روما. واستطاع الجند ان يفتحوا ثغرة في الجدار المنيع، ويصلوا الى الداخل. فهرب البابا والكرادلة الى حصن سان انجيلو، تاركين روما وقصورها، بتحفظها وروائعها للنهب والسلب.

## 14- حرب الفلاح 1524-1526

اتاحت الثورة الدينية للكادحين في الحقول ايدولوجية تستهوي الافئدة وتعبير عن مطالبهم بالحصول على نصيب اكبر في رخاء المانيا المتزايد. وتنبأت التقاويم وطائفة المنجمين بقيام ثورة عام 1524 وكأنها كانت بهذا تعطي اشارة البدء في العمل. ومما يذكر ان يوهانس كوكلايوس وهو عالم انسانيات كاثوليكي حذر لوثر عام 1523 ان "عامه الناس في المدن والفلاحين في الاقاليم سوف يقومون لا محالة بثورة اذ سممت افكارهم الكتيبات والخطب التي لا تحصى والحافلة بالسباب والتي نشرت او اعلنت بينهم بفصاحة واطناب ضد السلطة البابوية والسلطة الزمنية على السواء".

وفي اذار 1525 صاغ في ميمينجن مندوبوهم، بارشاد البروتستانت من اتباع تسفينجلي او بتأثيره، البنود الاثني عشر التي اشعلت النار في نصف المانيا.

وتشجع زعماء الفلاحين بتصريحات لوثر نصف الثورية وبعثوا اليه نسخة من البنود وطلبوا منه ان يناصرهم، فرد عليهم بكتيب نشر في نيسان عام 1525 وعنوانه: "تنبيه الى السلام" وثني على عرض الفلاحين بالخضوع لاي قصاص ينص عليه الكتاب المقدس، وتعرض للاتهامات التي وجهت وقتذاك الى خطبه ومقالاته بانها قد اشعلت نار الثورة فانكر مسؤوليته عنها، وأشار الى انه كان يحث الناس على الخضوع للسلطة الدينية ولكنه لم يسحب نقده للطبقة الحاكمة.

ونصح الامراء والسادة الاقطاعيين بان يعترفوا بعدالة كثير من البنود وحثهم على انتهاج سياسة تتسم بالرأفة، ووجه الى الفلاحين خطابا صريحا اقر فيه بما اصابهم من اضرار، ولكنه توسل اليهم ان يجمعوا عن استخدام العنف وعن الانتقام. ومهما يكن من امر فان زعماء الفلاحين شعروا بان الاوان قد فات للتراجع عما اعتزموا فعله لانهم سيتعرضون للعقاب عاجلا او اجلا في اية مصالحة. واحزنهم هذا التحول من لوثر وعدوه خائنا واستمروا في الثورة. كانت عصابات الفلاحين تثير الشعب في كل ارجاء المانيا تقريبا. ونهبت الاديرة او اكرهت على دفع مبالغ كبيرة على سبيل الفدية. واستولوا على كثير من المدن.

وفي وسط هذا السيل من الاحداث اصدر لوثر من مطبعة فيتنبرج نحو منتصف ايار 1525 كتيبا عنوانه "معارضة لجموع الفلاحين التي تقوم بالسلب والقتل". وافزعت لهجته الحادة الامير والفلاح والاسقف وعالم الانسانيات على السواء. فقد راع لوثر تزايد العصاة الساخطين وخشى وقوع انقلاب ضد كل سلطة شرعية وحكومة في المانيا وآلمته الاتهامات التي تقول ان تعاليمه الخاصة قد اطلقت الفيضان من عقاله، فتحول وقتذاك دون تحفظ الى جانب السادة المعرضين للخطر. وكان من سوء حظ لوثر ان تصل هذه الرسالة الغاضبة الى قرائها في الوقت الذي بدأت فيه الطبقات المالكة في اخضاع الثورة. وتلقى المصلح ثناء لا يستحقه على طلبه بالقضاء على الارهاب بالقمع. ومن غير المحتمل ان يكون السادة المعرضون للخطر قد تأثروا بالكتيب اذ كانوا بطبعهم يميلون الى معاملة العصاة بقسوة تكون رادعا لهم، ولا تمحى ذكراها من اذهانهم. وقد اخذوا يعللون الفلاحين البسطاء بعض الوقت بالوعود والاماني وبهذا اغروا الكثير من العصابات بالتفرق وفي غضون ذلك نظم السادة جيوشهم وسلحوها واغاروا على الثوار وهزموهم في اكثر المواقع.

## 15- زواج لوثر

بعد كارثة ثورة الفلاحين بشهر واحد، أي في الثالث عشر من حزيران عام 1525، تزوج لوثر من كاترين دي بورا، الراهبة الكرتوزية.

قررت اثنا عشرة راهبة من دير نيمبتش Nimptsch في ساكسونيا في عام 1523، وبعد قراءة كتابات لوثر، العودة الى عائلاتهن. ولما رفضت العائلات قبولهن، كتبن الى بعض المصلحين في مدينة نورمبرج Nuremberg، فنظم ليونار كوب وابن اخيه عملية اختطاف هؤلاء الراهبات من الدير، وتم ذلك فعلا في احدى ليالي نيسان عام 1523، واحضرهن الى فيتنبرج Wetenberg. واستطاع لوثر ان يقنع بعض العائلات باسترجاع بناتهن، كما وجد عملا للاخريات. ولم يبق في اخر الامر واحدة لم تتزوج الاكاترين فون بورا، وكانت قد وضعت انظارها على طالب

من فينتنبرج، الا ان هذا الحب لم يدم طويلا اذ عاد هذا الشاب الى مدينته وتزوج من فتاة اخرى، فعملت مربية لكي تكسب عيشها. واقترح لوثر ان تتزوج من الدكتور كلاتز، فرفضت، وردت عليه انها لا تقبل هذا الزواج، ولكن ليس لديها مانع من الزواج من امسدورف Amsdorf او لوثر. وكان لوثر في الثانية والاربعين من عمره وقتذاك، بينما كانت كاترين في السادسة والعشرين، ورأى ان التفاوت في السن يجرم عليه هذا الزواج، غير ان اباه حثه على ان يحافظ على اسم الاسرة، وهكذا تزوج الراهب السابق في 13 حزيران 1525 من الراهبة السابقة. وقام بمراسيم الزواج صديقه يونان وبوجنهاجن، وشهد على زواجه كل من المحامي آبل وصديقه الرسام لوقاس كراناس. وفي 27 من نفس الشهر دعى العروسان اصدقاءهما الى حفل عشاء بمناسبة زواجهما. ومنحهما الامير المنتخب الدير الاغوسطيني مقرا لهما، ورفع مرتب لوثر الى 300 جيلد في العام. واشترى لوثر مزرعة ادرتها كاترين واختها، وانجبت له ستة اطفال.

اثار هذا الزواج ضجة كبرى لا في الاوساط الكاثوليكية فحسب بل حتى بين المصلحين لدرجة ان صديقه المحبوب وذراعه الايمن الشاب ملانكتون لم يحضر حفل الزواج، على ان هذه القطيعة لم تستمر طويلا بينهما. وكان لوثر يقضي اوقاتا طويلة مع اطفاله في الحديث معهم والاصغاء اليهم. وقد كتب لهم بعض القصص المسلية وجمع 489 مثلا وقصة. وما زالت مكتبة اكسفورد تحتفظ بهذه المخطوطات. لكن وفاة ابنتيه اليزابيت ومجدولين ملأت قلب الاب والام حزنا عميقا. وعندما اصاب المرض ابنته مجدولين كان لوثر يصارع مع الله في الصلاة من اجل شفائها، لانه كما يحبها حبا عميقا. وعندما ماتت تترك في قلبه جرحا عميقا جدا .

## 16- اجتماع مجلس سباير

بعد ان حقق شارل السلام بينه وبين ملك فرنسا، وتصالح مع البابا كلمينيوس السابع، عاد الى سياسة المحافظين، وامر المجلس النيابي في سبير ان يعود الى الانعقاد يوم اول شباط عام 1529. وقام المجلس الجديد تحت تأثير الارشيدوق، الذي تولى رئاسته، والامبراطور الذي تغيب عن الحضور، باصدار مرسوما يقرر فيه:

- (1) الغاء قرارات مجلس الامة التي صدرت سنة التي كانت تمنح كل امير الحرية الكاملة في حكم ولايته بالطريقة التي يراها.

- (2) منع تقدم الاصلاح في المناطق الكاثوليكية وذلك بمنع الوعظ في تلك المناطق، ومنع اقامة كنائس لوثرية في أي مكان فيه كنيسة كاثوليكية.

- (3) منح الحرية للكاثوليك للعبادة سواء في المناطق الكاثوليكية او في المناطق التي شملها الاصلاح.

كما وايد المجلس تنفيذ مرسوم ورمس، واعتبار الطوائف الزونجولية واللامعمدانية في كل مكان خارجة على القانون. وفي 15 نيسان عام 1529، نشرت الاقلية اللوثرية احتجاجها ضد هذا القرار الذي اتخذته الاغلبية في مجلس الامة، قائلين: "نحن نحتج We protest"، وعلنوا ان الضمير يجرم عليهم قبول هذا المرسوم، والتمسوا من الامبراطور عقد مجلسا عاما.

## 17- اجتماع ماربورج ومشكلة الافخارستيا

بعد ان احتج الامراء ضد الاغلبية الكاثوليكية في مجلس سبير، حاول الامير فيليب حاكم مقاطعة هس ان يجمع صفوف المصلحين وان يقوي روابط الوحدة بينهم. ولذلك فكر في عمل معاهدة مع بعض الامارات السويسرية التي قبلت الاصلاح في بعض الدويلات السويسرية هم زوينجلي Zwingli واكولامباد Cecolampade وبولانجر Bullinger، وكان هؤلاء لا يكفون عن توجيه الانتقادات اللاذعة في كتاباتهم ضد لوثر وتعاليمه. فقد اتهموه انه احتفظ بالكثير من الخرافات الرومانية. كما انتقدهم لوثر ايضا مشبها اياهم مرة بجماعة العقليين ومرة اخرى "بالدراويز". ولكن بالرغم من هذه الصعوبات استطاع فيليب امير هس ان يختار ممثلين لهذين التيارين المصلحين لكي يناقشوا بعض المشاكل العقائدية التي تفرق صفوفهم. وفي 29 ايلول 1529 وفي مدينة ماربورج، جاء من سويسرا ومن منطقة الازراس بعض قادة حركة الاصلاح وعلى رأسهم زوينجلي، ومن المانيا جماعة اخرى وعلى رأسها لوثر وملانكتون.

ناقش المجتمعون بعض المشاكل العقائدية، ولكن المشكلة الكبرى التي وقفوا امامها وقتنا طويلا والتي لم يستطيعوا حتى في نهاية الاجتماع ان يجدوا لها حلا نهائيا وكاملا، كانت مشكلة العشاء السري او الافخارستيا. فقد عُرف عن لوثر حدة الطبع وصلابة الرأي، منذ ان وصل الى ماربورج كتب امامه تحت غطاء المائدة التي جلسوا حولها كلمات المسيح "هذا هو جسدي". فعندما كان يتكلم زوينجلي عن معنى رمزي او استعاري كان لوثر يرفع غطاء المائدة فيتذكر ما تعهد به من التمسك بوجود جسد الرب حقيقة في الخبز وفي الخمر. ولقد اعلن انه لا يجب بأي حال من الاحوال التضحية بالحق الكتابي لحل المشكلة السياسية. ولقد تمسك كل طرف من الطرفين بأرائه. فان زوينجلي واتباعه رأوا في الافخارستيا مجرد ذكرى لموت المسيح، ومسؤولية نشر البشارة الى ان يجيء. اما لوثر وبعض اتباعه فقد تمسكوا بعقيدة ان المسيح موجود حقيقة لحما ودما في الخبز وفي الخمر. رفض لوثر العقيدة الكاثوليكية التي تعلم بالتحول او التغيير الكلي والجزئي للخبز والخمر، لكنه لم يقبل ان يكون العشاء الرباني مجرد ذكرى. اشتد النزاع بين الفريقين لدرجة ان لوثر لم يقبل حتى ان يدعو الفريق الاخر اخوة ما لم يقبلوا عقيدة حلول جسد المسيح كاملا في الخبز وفي الخمر. وبالرغم من ذلك فقد استطاعوا ان يتفقوا على النقاط الاتية:

- (1) العشاء الرباني ليس ذبيحة
- (2) ان العناصر لا تتحول الى جسد ودم المسيح.
- (3) الاستفادة الحقيقية للعشاء الرباني تكون بالايمان.
- (4) العشاء الرباني هو اعلان للخبر السار

اما النقاط التي اختلفوا عليها :

- (1) اعتقاد لوثر في الحضور الحرفي والحقيقي لجسد ودم المسيح في الخبز والخمر.
- (2) اعتقاد زوينجلي ان حضور الرب يتحقق في اجتماع الجماعة حول العناصر.

## 18- مجمع اوغسبورغ 1530 Diète et Confession d'Augsbourg

عملت مقررات مجمع سبير على تقسيم الامة الالمانية، وبدأت شقة الخلاف تتسع، وحاول كل من الطرفين المتنازعين ان يجمع شمله ويحصن مدنه. واصبح شيخ الحرب يرفرف من جديد . فادرك الامبراطور انه لا يزال في حاجة الى اتحاد المانيا ضد الاترك، لذلك عقد العزم على ان يصفى المشكلة السياسية والدينية التي كانت تنخر عظام الامة، وذلك بالقيام بمشروع للسلام يجمع شمل هذه البلاد الممزقة ويعيد السلام لالمانيا. لذلك عاد الى الاقتراح القديم الذي تردد اكثر من مرة وهو عقد مجمع على مستوى الدولة والكنيسة، يحضره الكاثوليك والبروتستانت، وان يقدم فيه قادة الحزبين اعتقادهم الدينية لبحثها والوصول الى حل يرضى الطرفين. ودعى الامبراطور شارل الخامس الملوك والامراء والمسؤولين الى مدينة اوغسبورج ابتداء من 8 نيسان 1530.

كان من المفروض ان تقدم كل كنيسة عقيدتها وافكارها الدينية لكي تناقش. فكان من الطبيعي ان ترسل كل كنيسة خيرة رجالها لتمثيلها وتعرض عقيدتها. وطبعا كان لوثر المرشح الاول لحضور هذا المؤتمر لتمثيل البروتستانت، ولكنه لم يستطع لوثر الذهاب الى هذا المؤتمر: اولاً، لانه محكوم عليه بالحرمان ولا يمكنه ان يخرج من منطقة ساكسونيا. وثانياً، لان لوثر كان حاد الطبع صلب الرأي صعب الاقناع لا يعرف اللين او المرونة في نقاشه. وقد اعترف هو نفسه بذلك. ولهذا فقد اتفق ان يرأس وفد اللوثرين ملانكتون. وكان الكردينال كامبجيو رئيسا للوفد الكاثوليكي.

قدم ملانكتون اقرار ايمان مكتوب، وقام الكاتب الاول للمنتخب كريستيا باير، بقراءة النص. ومع ان لوثر كان وراء هذا النص، الا انه ملانكتون استطاع ان يقدمه بطريقة جذابة، ظهرت فيها روح المحبة والرغبة العميقة في الاتحاد. ولقد احتوى اقرار الايمان الذي يدعى "باقرار اوغسبورج" على 28 بندا. واتفق الفريقان على قبول 21 بندا منه. وشرح ملانكتون انه لا يتمسك بالبنود السبعة الباقية - التي كانت موضوع خلاف - لانه يعتقد انه ليس لها اساس كتابي. وحاول ملانكتون ان يتجنب ذكر بعض العقائد التي تثير المشاكل وتوسع شق الخلاف. فلم يذكر المطهر او البابوات او رسامة الكهنة وبعض العقائد الاخرى المختلف فيها.

بعد هذا العرض بدأ الوفدان في مناقشة هذه البنود بالتفصيل، وهنا ظهرت الخلافات. كان ملانكتون والوفد الذي حضر معه يرسلون الى لوثر أي تغيير يحدث في النص او أي اقتراح جديد، لكي يستشيروه. وكان لوثر يعيش مضطرب الاعصاب وقلق البال اثناء فترة الحوار لانه كان يود لو استطاع الاشتراك في هذه المناقشات. وقد هدد عدة مرات بحضور الاجتماع، لكنه لم يذهب واكتفى بالاخبار التي كانت تصل اليه عن طريق الرسائل. ولقد عرف لوثر



من احدى هذه الرسائل ان الكاثوليك رفضوا اقرار الايمان الذي قدمه ملانكتون، ثم قدموا هم قانون ايمان او اقرار ايمان شرحوا فيه ما يؤمنون به وما يرفضونه. عندئذ كتب لوثر من مدينة كوبروج التي كان ينتظر فيها، طالبا منه بان لا يتزحج قيد اغملة عن موقفه وان لا يتنازل عن شيء بعد ما قدمه من تنازلات كثيرة وهدده بالحضور اذا تنازل عن شيء اخر.

رفض الامبراطور اقرار الايمان الذي قدمه اللوثيريون. وكتب الى البابا يقول "لن ينفع الا العنف وهو الذي سيؤتي اثماره". وخشى لوثر على اصدقائه، فطلب منهم الرجوع سريعا. وفي التاسع عشر من شهر تشرين ثاني، اصدر المجلس النيابي، مرسومه النهائي، وادان فيه كل وجوه البروتستانتية، ونص على تنفيذ مرسوم ورمس، وعلى مجلس العدالة الامبراطوري ان يبدأ في اتخاذ الاجراءات القانونية ضد جميع الذين انتزعوا املاك الكنيسة، واعطى البروتستانت مهلة تنتهي في 15 نيسان عام 1531 ليغيروا ويرجعوا عن موقفهم.

## 19- حلف سمالكالده 1531 Ligue de Smalkalde

لم يرضى البروتستانت عن مرسوم الامبراطور ورفضوا اعادة ممتلكات الكنيسة المسلوقة، ورأوا فيه نذيرا للحرب. فنظم الامراء البروتستانت والمدن البروتستانتية حلفا في 29 اذار 1531، سمي حلف سمالكالده نسبة الى المدينة التي عقد فيها هذا الحلف. وطلبوا عقد مجمع عام ليتسنى لهم ان يثبتوا صحة اعتراف ايمان اوغسبورغ واسناده الى الكتاب المقدس.

## 20- هدنة نورمبرج 1532 La Paix de Nuremberg

في هذه الاثناء كان الاتراك يتهبأون لمهاجمة هنغاريا وفيينا، يضاف الى ذلك ان فرانسوا ملك فرنسا - حليف الاتراك - كان يتأهب للانقضاض على ميلانو في اللحظة التي يتورط فيها شارل في حرب اهلية بالمانيا. فاضطر الامبراطور الالتجاء الى الامراء البروتستانت طلبا للمساعدة، فرفضوا الا اذا منحهم وضمن لهم الامبراطور حرية العبادة بسحب مرسومه الاخير. واستجاب الامبراطور مكرها لطلبهم ووقع البروتستانت والكاثوليك معاهدة سلام في نورمبرج في 23 تموز 1532، وتعهدوا بتقديم العون الى فرديناند، والتسامح الديني فيما بينهما الى ان ينعقد مجلس ديني عام. واحتشد جيش كبير من الالمان البروتستانت والكاثوليك، ومن الاسبان والايطاليين، تحت لواء الامبراطور في فيينا، فوجد الاتراك ان الظروف غير مواتية، فعادوا ادراجهم الى القسطنطينية، بينما انتشى الجيش المسيحي بحمرة النصر، الذي خلا من اراقة الدماء، واعمل يد السلب والنهب في المدن والبيوت، وقال شاهد عيان هو توماس كرانر الانجليزي: "اوقع بالبلاد كارثة اعظم مما جلبه الاتراك انفسهم".

## 21- من سلام نورمبرج الى حوار راتسبون

اتاحت العشر سنوات من السلام بعد معاهدة نورمبرج للبروتستانت فترة من التطور والتوسع والانتشار. عاملان رئيسيان ساهما في هذا الانتشار: (1) انشغال الامبراطور شارل الخامس من جديد بحربة ضد فرنسا والاتراك. (2) المجمع الموعود والمنتظر لم يتم عقده، ولم يكن يُنتظر عقده لا في القريب العاجل ولا البعيد. فانضمت الى البروتستانتية كل من ورتنبرج Wurtemberg، وبومراني Poméranie عام 1532، والساكس Saxe ducale عام 1535.

## 22- محاولة للوحدة - حوار راتسبون 29 حزيران 1541

كان هم الامبراطور شارل الخامس اعادة الوحدة والسلام في الامبراطورية. وبالرغم من انشغاله بالحروب الا ان هذا الهدف لم يغيب عن باله، وكان يعتقد انه يمكن اما بعقد مجمع عام، او على الاقل عن طريق محاورات بين لاهوتي الطرفين الكاثوليك والبروتستانت.

كانت فكرة عقد مجمع، ومنذ عام 1530، على جدول اعمال البابوية. الا انه لسوء الحظ، كانت العوائق سواء من المجلس البابوية، او من البروتستانت تعترض سبيل انعقاده.

مع ايمانه ان البروتستانت لا يرغبون بعقد المجمع، خصوصا، وانهم رفضوا مقررات المجمع الاخرى التي لم تتوافق مع تعاليمهم، الا ان البابا كليمنطوس السابع، اراد ان يظهر استعداد له عقد هذا المجمع، بان سمح للامبراطور ان يعرض على البروتستانت فكرة عقد المجمع شريطة ان يتقيد البروتستانت بمقرراته. وارسل في عام 1533، مبعوثين، واجتمع هؤلاء في وايمار Weimar، مع جون فردريك دي ساكس. فاستشار هذا الامراء البروتستانت المجتمعين في

سمالكلد، فرفضوا الشروط التي عرضها مبعوثو البابا، وادعوا ان الكتاب المقدس هو وحده مصدر الايمان، وطلبوا ان يعقد المجمع في المانيا وليس في احدى المدن التي اختارها البابا.

اعاد البابا بولس الثالث الكرة، بعد وفاة البابا اكليمينوس السابع في عام 1534، مع عزمه على النجاح في مسعاه هذه المرة، وارسل مبعوثه الكردينال بيير فرجيريوس Pierre Vergerius، ومنحه كامل الصلاحيات. وطمأن المبعوث امير جون فردريك ان البابا لن يحد من حرية المجمع. وبنفس الوقت اجتمع البابا مع الامبراطور بهذا الخصوص اثناء مروره بروما في عام 1536. وبعد كل هذه المداولات اعلن البابا بولس الثالث انعقاد المجمع في مدينة مانتو Mantoue في الثالث والعشرين من عام 1537، مع ان هذا الاختيار كان سيئا، لمعرفة ان البروتستانت لن يقبلوا بعقده في مدينة غير المانيا. ولما تحقق البروتستانت ان البابا جاد في عقد المجمع، رفضوا عقد مجمع جديد، بحجة انهم لم يعودوا بحاجة اليه. وكتب لوثر بنود سمالكلد الثلاثة والعشرين، وفيها وسع الفجوة بين الكاثوليك والبروتستانت، واوسع للقداس والمطهر وتكريم القديسين وخصوصا البابا شتائم واهانات.

لم يتراجع البابا عن عزمه بالرغم من اعتراض البروتستانت، وبما ان مدينة مانتو رُفضت من الجميع تقريبا، عرض مدينة فيشنسا Vicence مكانا له، وحدد الاول من ايار عام 1538 موعدا لانعقاده. الا ان الظروف لم تسمح بانعقاد المجمع في ذلك التاريخ.

وامام تقدم البروتستانت وحلف سمالكلد، اقترح امين سر الامبراطور ماتياس هلد Mathias Held، على الامراء الكاثوليك المجتمعين في نورمبرج (10 حزيران 1538) بعقد حلف دفاعي دعوه "الحلف المقدس La Sainte Alliance". واصبحت الحرب بين الطرفين لا محالة منها.

امام فشل عقد المجمع، فكر الامبراطور ان يحقق فكرة الوحدة بتنازلات متبادلة. وتم الاتفاق على عقد محاورات دينية، بهدف الوصول الى اتفاق. وبدأت هذه المحادثات اولا في مدينة Haguenau في حزيران 1540، وتواصلت في مدينة ورمس Worms في تشرين الثاني، ثم أُجلت الى اجتماع مجلس الامة الذي كان مزعما ان يعقد في السنة التالية في راتسبون.

### حوار راتسبون الاول

ارسل البابا الى مجلس الامة المنعقد في راتسبون في نيسان 1541، وفدا مؤلفا من رئاسة الكردينال كونتاريني Contarini، والكردينال مورنونه Morrone وعضوية جون آك Jean Eck، وجيل بفلج Jules Pflu، وجون غروبر Jean Gropper، وممثل الجانب البروتستنتي ملانكتون وبوسر ونيدا Nidda. واستطاع المجتمعون الاتفاق تقريبا على معظم قضايا الايمان: الخطيئة الاصلية والتبرير. ولمح الامبراطور للبروتستانت انه من الممكن التنازل لهم عن المناولة تحت الشككين، وزواج الكهنة، وتخفيف في قوانين الصيام. الا انهم لم يستطيعوا التوصل الى أي اتفاق حول الافخارستيا والاعتراف.

تحقق الامبراطور ان الوقت ليس بعد مناسباً للوحدة، وخصوصا ان الامراء البروتستانت لم يكونوا فعلا يريدون التوصل الى اتفاق، كما ان ملك فرنسا، كان يرى في نجاح هذا الحوار تقوية لسلطان الامبراطور شارل الخامس، وهذا ما لم يكن يريد، فعمل جاهدا على افشال اللقاء.

واخيرا اضطر الامبراطور امام الخطر التركي الزاحف، ان ينهي الاجتماع بعد ان جعل الطرفين يوقعون على نقاط الاتفاق التي توصلوا اليها، وارجأ متابعة الموضوع إما الى مجمع عام مسكوني جديد، وإما الى مجمع محلي الماني، او الى مجلس الامة القادم. وقرر الامبراطور أن على البروتستانت احترام معاهدة سلام نورمبرج (1532) والامتناع عن الاستيلاء وهدم الاديعة. وبما ان البروتستانت اعترضوا على القرار الاخير، سمح لهم الامبراطور باصلاح او هدم الاديعة الواقعة في المدن اللوثرية. ولم يكتب لوثر بهذا بل تهادى بان طلب من الكاثوليك التراجع عن موقفهم من التبرير.

### حوار راتسبون الثاني

لم يأبه البروتستانت كثيرا لمقررات حوار راتسبون، واستمروا في توسعهم وانتشارهم. وبعد هدنة كرسبي Crespy بين الامبراطور وفرنسا، تفرغ الامبراطور من جديد الى مواصلة عمله من اجل اعادة الوحدة الدينية. وكان البابا بولس الثالث قد اغتمت هذه الفترة من السلام، للدعوة لانعقاد المجمع في مدينة ترانت Trente، وحدد موعدا له الخامس عشر من اذار 1545، ودعى اليه البروتستانت. الا انهم رفضوا الدعوة بحجة ان مجمعا برئاسة البابا لن يكون مجمعا

حرا. فدعاهم الامبراطور الاجتماع في كانون ثاني عام 1546، والى مواصلة حوار راتسبون مع الكاثوليك. الا ان المجتمعين من الطرفين لم يستطيعوا التوصل الى أي اتفاق، لا حول الامور العقائدية ولا التنظيمية. عندها لم يرى الامبراطور بدا الا في الرجوع الى السلاح لاعادة الوحدة الى الامبراطورية.

## 23- معاهدة باساو

انضم موريس الامير المختار فانضم سرا الى الامراء البروتستانت، ووقع معهم معاهدة شامبور (كانون ثاني 1552). ووعد هنري الثاني ملك فرنسا بتقديم العون لطرده شارل من المانيا. وفي الوقت الذي غزا فيه هنري اللورين، واستولى على ميتر وتول وفردن، زحف موريس وحلفاؤه من البروتستانت جنوبا على رأس جيش قوامه 30000 رجل. وكان شارل قد سرح جنوده بعد انتصاره، ولم يكن ما يدافع به عن نفسه سوى الدبلوماسية. واقترح فرديناند اخو شارل عقد هدنة، فاطال موريس المفاوضات مستخدما كل ما أوتي من لباقة، وفي غضون ذلك اخذ يتقدم نحو انزبروك. وفي يوم 9 ايار انتقل شارل بصعوبة بعربة يصحبه بضع نفر من اتباعه، تحت المطر والجليد، متسربلا بظلام الليل. وعبر ممر برينر الى فيلاخ. وهكذا حولت ضربة واحدة من ضربات الحظ سيد اوربا الى شريد.

والتقى موريس والبروتستانت الظافرون يوم 26 ايار بفرديناند وبعض زعماء الكاثوليك في باساو. ووافق شارل على ان يوقع فرديناند معاهدة (20 اب 1552) وتنص على تسريح الجيوش البروتستانتية، وان يتمتع البروتستانت والكاثوليك على السواء بحرية العبادة الى ان يجتمع مجلس نيابي جديد.

## 24- مجلس اوغسبورغ 5 شباط - 25 ايلول 1555

ورأس فرديناند المجلس النيابي التاريخي في اوغسبورغ، الذي منح اخيرا المانيا سلاما دام نصف قرن. وكان النواب الكاثوليك يمثلون اقلية المجلس النيابي، غير ان البروتستانت كانوا يفوقونهم في القوة العسكرية، فتشبثوا بكل مادة وردت في اقرار اوغسبورغ عام 1530، وادرك الكاثوليك ان عليهم ان يخضعوا. وتوصلوا في الخامس والعشرين من ايلول عام 1555، الى اتفاق عُرف باسم "سلام اوغسبورغ الديني La Paix Religieuse d'Augsbourg". وكان الاتفاق يحتوي على 22 بندا اهمها:

1. يعترف اتفاق اوغسبورغ بوجود الطائفتين الكاثوليكية والبروتستانتية - على الاقل الذين يتبعون اعتراف اوغسبورغ، ولا يضم الزونجليين ولا اللامعمدايين او الشيع الاخرى - ويمنحهم حرية ممارسة طقوسهم الدينية والتعبير عن معتقداتهم.
  2. لن تتم مستقبلا تصفية اخلافات الا عن طريق الوسائل السلمية.
  3. لا يحق للاكليروس الكاثوليكي ان يدعي أي حق روحي على الولايات البروتستانتية.
  4. يمنح سلام اوغسبورغ الامراء حق اصلاح res reformandi، بمعنى انه يستطيع ان يفرض الاصلاح او لا. وعلى التابعين له ان يتبعوا ديانة ملكهم او اميرهم، او عليهم ان يرحلوا عن البلاد مع عائلاتهم، دون أي تعويض عن ممتلكاتهم. وهذا ما دعي بمبدأ "دين الراعي دين الراعية cuius regio eius religio". واستنادا الى هذا المبدأ، غيرت مقاطعة بلاتينا Palatinat اتمائها اربع مرات في مدة اربعين عاما.
  5. تبقى الممتلكات الكنسية التي صودرت واستمكت منذ بداية الاصلاح في حوزة البروتستانت دون ان تتم ملاحظتهم.
  6. اما مستقبلا فان أي رجل دين كاثوليكي ينضم الى البروتستانت، عليه ان يتخلى عن منصبه وعن ممتلكاته وامتيازات منصبه، وتعطى لرجل دين كاثوليكي اخر. وهذا ما دُعي ب "Reservatum ecclesiasticum".
- لم يلق سلام اوغسبورغ الرضى من كلا الطرفين الكاثوليكي والبروتستانت. فقد تشكى وتذمر الكاثوليك من الخسارة التي اصابتهم من جراء هذا الاتفاق على الصعيد الديني والزمني. واعتبره البابا بولس الرابع اتفاقا وخيم العواقب، واعلنه باطلا وغير شرعي. واعترض البروتستانت - بالرغم مما حصلوا فيه من حقوق وفوائد وامتيازات - على مبدأ "Reservatum ecclesiasticum"، الذي يمنعهم من الاستيلاء على المزيد من الاراضي الجديدة.
- احتوى سلام اوغسبورغ في طياته على بذور الحرب والاقتيال الاخوي، وذلك بتقسيم المانيا الى معسكرين دينيين، يملأهما الحقد والضغينة، وسيظهر ذلك سريعا بما سمي "بحرب الثلاثين عاما".

ويؤس الامبراطور شارل الخامس من تحقيق الوحدة المنشودة والتي كان يحلم بها طيلة ملكه، فسلم الحكم في اسبانيا الى ابنه فيليب الثاني، وتاج الامبراطورية لاختيه فرديناند، وانسحب في عام 1556 الى دير سان جوست St. Juste، حيث مات في 22 ايلول على عمر ثمانين وخمسين عاما.

## 25- موت لوثر

تابع لوثر بعد عودته الى وتبرج، حيث كان يقيم، الوعظ في الكنيسة والتدريس في الجامعة وفي تأليف ونشر كتبه. اقام لوثر في دير للاوغسطينيين، دعى بالدير الاسود، وقد وضعه تحت تصرفه الامير المنتخب بعد ان خلى من الرهبان، وعاش لوثر فيه مع زوجته وابناء الستة، مع بعض طلاب الجامعة الذين استضافتهم ربة البيت مقابل اجر بسيط للمساعدة في مصاريف البيت، وهؤلاء الطلاب هم الذين جمعوا ما سيدعى فيما بعد "بكلام المائدة" "Propos de Table"، حيث اختلطت المواضيع السخيفة، والتعليقات اللاذعة، والكلمات البذيئة بالمناظرات اللاهوتية العالية.

سادت الالام الجسدية والنفسية السنين الاخيرة من حياة لوثر. فقد كان يعاني من مرض الكلى "الحصو" وبعض الامراض الاخرى. الا انه ايضا كان يتألم ويتخوف ويتشكك في مستقبل العمل الذي بدأه. فالكنيسة الكاثوليكية التي اراده ان يدمرها، والبابا الذي اراد ان يحل مكانه، لا يزالان باقيا بل واصلب من قبل. وهو نفسه "بابا وتبرج" بابا الكنيسة الجديدة الا يمر في ازمة من المتناقضات؟ انه لا يستطيع ان يفرض اراءه ونظرياته لا على المتعصبين من انصاره كالمعمدانيين، او على اتباع زونجلي الذين لا يتفقون معه في كثير من النقاط ولا سيما حول الافخارستيا؟ ألم يختلف هو مع اصدقائه ايضا امثال ملانكتون الصديق الوفي الامين، ولكن الضعيف المستعد للتنازلات لاعدائه او الذي يظهر بعض الميل الى اراء زونجلي حول الافخارستيا.

ومن الناحية الاخلاقية، يستطيع ان يفخر من النتائج التي حصل عليها من خلال عمله الاصلاحى؟ الم يعترف ان الانحلال الاخلاقي الذي عيّر به الكنيسة الكاثوليكية، قد اخذ يظهر بصورة ابشع في الكنيسة التي اسسها، لدرجة انه اراد ان يتعد عن وتبرج التي دعاها "بسدموم وبابل".

سافر لوثر في الثالث والعشرين من كانون ثاني عام 1546، الى مسقط رأسه اسلين، ليحكم في نزاع شب بين الكونت مانسفليد البرت والكونت ادجارت مانسفيلد حول ملكية بعض مناجم النحاس.

اقترح لوثر على زوجته ان يصطحب معه اولاده لكي ينتهزوا هذه الفرصة لزيارة عمهم يعقوب في مانسفيلد. وبعد رحلة طويلة متعبية شاقة في فصل الشتاء القارس البرودة، وصل الموكب في 31 كانون ثاني اسلين. وهناك قام لوثر يوم الاحد بخدمة الوعظ في نفس الكنيسة التي عمد فيها قبل 62 سنة، كما قام بسيامة خادمين جديدين.

وفي يوم 16 شباط وصل الى حل النزاع بين العائلات المنقسمة ووقع الجميع على عقد الاتفاق والصلح. وفي نفس اليوم شعر لوثر بحالة ضعف عام في جسده، ذهب على اثره الى حجرته ليسترخ. وتناول عشاءه يوم 17 شباط في مرج. وفي الصباح المبكر من اليوم التالي استيقظ على آثار الام شديدة في المعدة، وضعف جسده بسرعة، وادرك اصدقائه الذين تجمعوا حوله مع اولاده انه يحتضر. اقترب منه جاست يونان وسأله قائلاً: "ايها الاب الموقر، هل تريد ان تموت وانت معتمد على يسوع المسيح وتمسك بالتعاليم التي علمت بها". فرد عليه قائلاً: "نعم". ثم اصيب بنوبة فالج افقدته النطق، مات على اثرها في 18 شباط عام 1546. ونقل الجثمان الى فتنبرج ودفن في كنيسة القصر، التي كان قد علق على بابها مقالاته منذ ستة وعشرين عاما.

## 26- موقف الكنيسة الكاثوليكية والعلماء الكاثوليك من لوثر الآن؟

(من كتاب القس حنا جرجس الحضري صز 175-186) (من الجدير معرفته ان الكاتب بروتستنتي)

اصدر البابا ليون العاشر في يوم 15 حزيران عام 1520 مرسوما يهدد لوثر بالحرمان. وفي يوم 3 كانون الثاني عام 1521، اصدر فعلا صك الحرمان ضد لوثر واصبح الراهب لوثر من هذا التاريخ محروما. فما موقف الكنيسة الكاثوليكية حاليا من المصلح لوثر؟

يسجل لنا التاريخ موقفين على الاقل للكنيسة الكاثوليكية ازاء لوثر والاصلاح:

- 1) موقف النقد اللاذع والرفض الكامل: الابتعاد.
- 2) موقف الدارس المحايد والباحث الامين: التقارب.

## (1) موقف النقد اللاذع والرفض الكامل: الابتعاد

ظهرت بعض الكتب التي هاجمت لوثر وتعاليمه في حياته وبعد موته، واهمها كتاب كتبه كاهن كاثوليكي الماني يدعى يوحنا كوكلاوس Jean Cochleaus، وظهر هذا الكتاب سنة 1549 أي بعد ثلاث سنوات من موت لوثر. وكان هذا الكاهن من اتباع مذهب "الانسانية". تعاطف مع لوثر في بداية الامر، الا انه سرعاً ما انقلب ضده وانضم الى واحد من الد أعدائه وهو يوحنا آك. لاحظ كوكلاوس ان عددا كبيرا من الكاثوليك يؤمنون ان لوثر كان رجلا تقيا وصالحا. ولهذا السبب كتب كتابه هذا Commentaria de Acatis et scriptis Martini Luther، لكي يعطي صورة اخرى عن المصلح. واستخدم فيه الاسلوب الذي كان يستخدمه اهل عصره، أي اسلوب الهجاء اللاذع القاسي غير اللائق ادبيا. فقال قال فيه:

"... ابن شيطان ويسكن فيه ابليس، وقد امتلأ بالكذب والكبرياء، كان حقه وغيرته على تنزل Titzel هما السبب في احتجاجاته وثورته... كان سكيروا وشهوانيا، كان مجردا ايضا من الضمير وبناء عليه فقد استخدم كل الوسائل واستحسنها... فهو رجل كذاب... مرثي... جبان... مشاغب... وليس فيه نقطة واحدة من الدم الالماني"<sup>4</sup>.

استطاع كوكلاوس بهذا الكتاب لا ان يصحح الصورة في اذهان معاصريه، بل ان يعطي صورة سوداء مشوهة غير حقيقية لصفت في اذهانهم واذهان الاجيال التالية ضد لوثر، كما يتضح ذلك من الاثر الذي تركه هذا الكتاب على مر العصور والاجيال على الكنيسة الكاثوليكية.

بما ان هذه الدراسة لا تسمح بان نتبع تطور موقف الكنيسة الكاثوليكية منذ عصر الاصلاح الى اليوم، فاني اکتفي بتحليل موقف الكنيسة من لوثر في القرن العشرين.

- **هنريش دانيفل Heinrich Denifle**: سبق الاشارة ان كتاب كوكلاوس ترك في الكنيسة الكاثوليكية تأثيرا عميقا وعداوة مستديمة ضد لوثر، واستمرت هذه العداوة اجيالا طويلة. وهنا يظهر من جديد تلميذ متحمس لكوكلاوس وعدو للوثر وهو هنريش دانيفل Heinrich Denifle، وهو عالم دومينيكاني كتب مجلدا ضخما (حوالي 860 صفحة)، ظهر في مدينة مانيس في المانيا سنة 1904، ثم ترجم الى اللغة الفرنسية سنة (1910-1913)، تحت عنوان "لوثر واللوثرية Luther et le Lutheranisme". وفي معرض كلامه عن المصلح اتبع نفس الاسلوب الذي نهجه كوكلاوس. وبمكنا ان نلخص افكاره في نقطتين: الاول هي ان لوثر شخص مغامر مخاطر، والثانية انه لم يكتشف أي شيء جديد. ثم وصفه بانه "بهلوان" جاهل، متكبر... مضطرب نفسيا... مرثي... سيء الاخلاق... ولم يستطيع ان يقوم بواجباته كراهب، فترك الدير والقى بنفسه في هذه المغامرة البائسة. وبهذا جدد دانيفل ثورة كوكلاوس ضد لوثر. ولقد خاطب لوثر قائلا: "لا يوجد فيك أي شيء الهنيء... ثم حث الشعب الكاثوليكي بالقول: "تخلصوا من لوثر وارجعوا الى الكنيسة".

ترك هذا الكتاب تأثيرا سيئا جدا في الاوساط البروتستانتية.

- **هارتمان جريزار Hartman Grisar**: وجاء بعد دانيفل مناضل اخر مضاد للوثر هو هارتمان جريزار H. Grisar، وهو يسوعي وكان استاذا في جامعة انسبروك بالمانيا من سنة 1871 الى سنة 1895، والى ثلاثة مجلدات تزيد على 2600 صفحة بعنوان "لوثر". ولم يستعمل الاسلوب الجاف القاسي في هجومه على لوثر، بل حاول ان يستخدم اسلوبا معسولا، لكن هذا الاسلوب كان يخفي سما قاتلا في داخله، فهو يؤيد دانيفل في نظريته ان لوثر لجأ الى عقيدة التبرير بالايان لانه لا يستطيع ان ينظم حياته بالطريقة التي تتيح له الحصول على هذا البر، لانه يعيش حياة الفساد. ولذلك اختلق عقيدة التبرير بالايان بعد ان فشل في تنفيذ نذوره الرهبانية.

- **الاب كريستيانى Cristiani**: وجاء بعد دانيفل وجريزار الاب كريستيانى Cristiani، الذي جمع ابحاثه عن لوثر في كتابه "لوثر واللوثرية"، كما فعل دانيفل. وبعد ثلاث سنوات من ظهور هذا الكتاب اعد رسالة للماجستير بعنوان "من اللوثرية الى البروتستانتية"، وفي كلاهما يقدم لوثر كشخص ضل السبيل وانقطع عن الصلاة، فصار شقيا تعسا في حياته، كما انه كان السبب في بؤس وشقاء الشعب الالماني، اذ انه دفع هذا الشعب في معارك اهلية مريعة مثل حرب الفلاحين. ووصفه بنفس الصفات التي وصفه بها سابقوه، وهي التكبر وحب المال والخلل النفسي والكذب والمراة.

- **باكييه Paquier**: قام تلميذ اخر من تلاميذ دانيقل هو باكييه Paquier، ضد لوثر وتعاليمه، وهو يعتبر من اكبر المتخصصين في دراسة عصر الاصلاح في الكنيسة الكاثوليكية. قام باكييه بترجمة المجلد الاول من كتب دانيقل من اللغة الالمانية الى الفرنسية (1910-1913)، وسلك مسلك الذي اتبعه سابقوه في نقد لوثر وتعاليمه.

- **ف. أ. هار F.O. Hare**: ولم ينتشر تأثير دانيقل في المانيا وفي فرنسا فحسب بل امتد ايضا الى البلاد التي تتكلم الانجليزية. فظهر تأثيره في بعض الكتب والمقالات الانجليزية. يصف ف. أ. هار F.O. Hare في كتابه المعنون "حقائق لوثر" بانه كان يعاني من مرض نفسي منذ صباه، وقد التحق بالدير دون دعوة حقيقية وانه كان فاسد الاخلاق والايمان، ويصف هار الفترة التي قضاها في قلعة وارنبرج بانها لم تكن فترة مثمرة بل فترة فراغ وبؤس ومحاربات جنسية. وقال ان لوثر كان على اتصال مستمر بالشیطان، زان، وبطل كاذب، نبي كاذب ومصالح كاذب، يهدم ولا يبني، كان مشوها وليس مصلحا "He was a de Former, not a Re former"، فهو يهوذا وهو عدو المسيح وخادم الشيطان...

هؤلاء الذين ذكرنا اسماءهم وآخرين ايضا ينعنون الاصلاح ولوثر باوصاف مشينة مؤلمة، ذلك لانهم لم يروا في لوثر المصلح بل المفسد، بل ان البعض ذهب ابعد من ذلك، فاعتقد ان واجبه ليس محاربة لوثر واتباعه فقط بل ومحاربة حتى الكاثوليك الذين يسعون الى الوحدة. وهذا ما نادى به الاسقف ليفيفر، الذي قام بمعارضة شديدة ضد الجمع الفاتيكانى الثاني وضد البابا بولس السادس.

## (2) موقف الدارس المحايد والباحث الامين: التقارب

من العرض السابق يتضح ان بعض الكتاب الكاثوليك وقفوا وقفة المعارضين والرافضين. يمكننا القول ان هذه الجماعة لم تكن تمثل الكنيسة الكاثوليكية كلها. وقد تطور الموقف في الخمسين سنة الماضية.

- **كيفل F.X. Kiefl**: يرجع الفضل في هذا التطور الى عمل الروح اولا، ثم ثانيا الى استاذ العقائد الالمانى كيفل F.X. Kiefl، وكان استاذ في جامعة فورتبورج. وقد بادر بدعوة الكاثوليك الى تفهم افضل لشخصية وتعاليم لوثر. فعندما كانت الكنائس اللوثرية تحتفل بمرور اربعمائة سنة على تاريخ تعليق لوثر لاحتجاجاته الخمسة والتسعين، كتب كيفل مقالا عن مارتن لوثر، اعلن فيه بصراحة ووضوح انه لا يتفق مع دانيقل ولا مع جرايزر في مفهومهما لشخصية وتعاليم لوثر، بل يعتقد ان لوثر كان اسيرا فعلا للكتب المقدسة وللقوة الالهية. كما انه كان يؤمن ان اكتشافه لعقيدة التبرير بالايمان كان اكتشافا عظيما بحق. ويقول انه من الخطأ وصف هذا الراهب بصفات لم تكن فيه، فقد كان لوثر مسيحيا حقيقيا فهم المسيحية بطريقة عظيمة كما انه كان رجلا متعلما ومتعمقا يتمتع بعبقريّة فذة وقد اختاره الله لكي يعلم كنيسته.

- **الفرد فون مارتن Alfred Von Martin**: وبعد مرور اثني عشر عاما على هذا المقال جاء الفرد فون مارتن Alfred Von Martin، وطلب من حوالي عشرين استادا لاهوتيا معاصرا من الكاثوليك والبروتستانت، ان يكتبوا عن لوثر. ولا يمكن بحث كل ما كتبه هؤلاء العلماء، ولكن نكتفي بان نلقي نظرة سريعة على ما كتبه اثنان من الكاثوليك في هذا المجال:

**1- سباستيان مركل Sebastian Merkle**: كان مركل استادا في جامعة فورتبورج من سنة 1898-1933، وقد عرف كمؤرخ وعالم. وكان يعتقد ان المؤرخ النزيه هو الشخص الذي يستطيع ان ينظر الى الامور بطريقة موضوعية. وعلى هذا فقد طالب المؤرخين ان يعالجوا موضوع الاصلاح بهذه الطريقة وبهذه الموضوعية. فلا يجب التقليل من مكانة لوثر وتحقيره على اسس غير سليمة. ويضيف قائلا انه من غير الممكن ان نثبت انه كان واحدا من الاباحيين او الثوريين، فان الحركة التي قام بها لم يكن لها أي هدف اخر غير الهدف الديني.

**2- انطون فيشر Antoine Fisher**: رأى انطون فيشر ان لوثر رجل مكافح ورجل صلاة. يعلمنا ان الله يظهر في كلمته المكتوبة، وقد كان يلتهم هذه الكلمة التهاما. ومنها تعلم ويعلمنا ايضا الصلاة. ويدعون لوثر لدراسة الكتاب المقدس بعهديه والتغذي به.

## كتاب اخرون

- **هيبرت جیدن Hubert Jedin**: هيبرت جیدن Hubert Jedin، استاذ جامعة بون من 1933-1949. قام هذا الاستاذ بتقديم عرض تاريخي تحليل لمعظم المؤلفات الكاثوليكية التي ظهرت من ايام جانسن Janssen في سنة 1876 الى الثلث الاول من القرن العشرين. ثم انتقد كتابات دانيقل وجريزر نقدا لاذعا، ونفى وجود أي مؤرخ الماني

يشاركهما الرأي فيما ادعيه من فساد وانحطاط اخلاق لوثر. كما انه اشار باسف شديد الى التأثير السيء الذي تركه هذان الكاتبان خاصة كتاب دانيفل على العلاقات المسكونية. واخيرا اشار الى ان الكاثوليكي الذي يريد ان يفهم لوثر على حقيقته عليه ان يترك الصورة التي قدمتها كنيسته عنه ويحاول درس شخصيته وتعاليمه بطريقة موضوعية محايدة وعلمية.

**- جوزيف لورتر J. Lortz:** ان ما ذكرناه سابقا من ظهور كيفل الى جیدن لا يعد الا محاولات تفسيرية. فبعد كل هذه الجهود والدراسات ظهر كاتب اخر يعتبر حجة في التاريخ خاصة في فترة الاصلاح، وهو الاستاذ جوزيف لورتر. وقد الف مجلدين (حوالي 750 صفحة) ظهرها سنة 1940، تحت عنوان "الاصلاح في المانيا Die Reformation in Deutschland". ومع ان البلاد كانت تمر في هذا الوقت بفترة عصيبة مؤلمة وهي فترة الحرب، الا ان لورتر استطاع ان يفرض نفسه على الناس. فكان تأثيره في بعض الاوساط اقوى من تأثير الحرب. فقرأء ونوقش في الاوساط الكاثوليكية والانجيلية. وحث الشعب على الحوار المسكوني. وفي سنة 1948 حاول ان يلخص ما قد كتبه سابقا، فلخصه في كتابه اسمه الاصلاح مشكلة اليوم The Reformation: a Problem for Today. ثم نشر له 4 محاضرات. وقد بدأ لورتر بالحديث عن الكنيسة المعاصرة، وكم هي في حاجة ايضا الى اصلاح، قال انه اذا كان لوثر قد هجر كنيسة عصره فلذلك لانه لم يجد فيها ما كان يحتاج اليه من امور اعتبرها جوهرية ومهمة وخاصة الايمان الحقيقي. وكان لوثر رجلا تقيا وظهرت هذه التقوى في حياته وتعاليمه. وما لا شك فيه ان الكنيسة حكمت على لوثر بالهرطقة... رغم انه كان رجلا تقيا، مسيحيا حقيقيا. لقد عاش حياة الايمان العميق في شخص يسوع المسيح، معترفا ان يسوع المسيح هو ابن الله المولود من مريم العذراء مريم وصلب ومات وقام لاجل خلاصنا، وانه كان ايضا في كل حياته رجل الصلاة والواعظ المتحمس لكلمة الله وحمل لورتر الكنيسة الكاثوليكية جزءا كبيرا من مسؤولية الانشقاق الذي حدث في القرن السادس عشر<sup>5</sup>.

كان لمؤلفات لورتر تأثير عميق جدا على الاوساط الكاثوليكية والبروتستانتية. عبر بكتابات هذه عن مفهوم الكثيرين عن لوثر. ويجدر بنا ايضا ان نقول ان لورتر قد انتقد لوثر بالرغم من المدح العظيم الذي مدحه به. فهو يأخذ على المصلح انه لم يكن - في بعض الاحيان - سامعا ومصغيا لكلمة الله، كما انه لم يفهم المكتوب بطريقة صحيحة. ولعلنا نشترك جزئيا مع لورتر في هذا النقد، لان لوثر فعلا فهم بعض الفصول الكتابية بطريقة متأثرة بمفهومه الشخصي لبعض المشاكل العقائدية.

**- ادولف هرت Adolfe Herte:** بعد اربع سنوات من ظهور كتابات لورتر الاولى، نشر الاستاذ ادولف هرت بحثا في ثلاثة مجلدات (حوالي 1000 صفحة) Das Katholisch Lutherbild IM Bann der Luther Kommentare, des Coch Laus، مركزا على الصورة الرديئة التي خلقها وكونها تفسير كوكلاوس للوثر في الكنيسة الكاثوليكية. وخرج من بحثه بهذه النتيجة الرائعة وهي ان كل هؤلاء الكتاب الكاثوليك، الا قلة ضيئلة جدا، من الذين كتبوا عن لوثر وعن تعاليمه من القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين قد رجعوا في كتاباتهم الى الكتاب الذي نشره كوكلاوس في سنة 1549. وقد انتقد العالم هرت كتابات دانيفل وجرايزر وكريستياني وبوكيه، الذين تأثروا بكتاب كوكلاوس. وطلب من الكنيسة المصلحة اللوثرية والكنائس الانجيلية الاخرى ان تقوم من جانبها بعمل بحث دقيق لاكتشاف بعض الاخطاء التي ارتكبتها في التطرف في بعض الاحيان في حكمها على ظلم الكنيسة الرومانية. ودعى الى ان يدرس الجانبان الكاثوليكي والبروتستانت لورث وتعاليمه بطريقة علمية تستند على الاحداث التاريخية الموثوق في صحتها وحيادها.

**- الاب فرانسوا بوت François Boit:** اثناء انعقاد المجمع الفاتيكاني الثاني ظهر مجلدان للاب فرانسوا بوت "من الجدل الى الحوار De la Polémique au dialogue". قدم هذا المؤلف نقدا ذاتيا اتسم بالشجاعة والامانة، قال فيه ان كثيرين من الكاثوليك فهموا لوثر والاصلاح بطريقة خاطئة، الامر الذي يرجع الى الصورة الخاطئة التي قدمها كوكلاوس عنه وما زالت عالقة بالاذهان. وفي حقيقة الامر يعتبر اختبار لوثر الروحي اختبارا دينيا حقيقيا وانه من الخطأ ايضا الحكم عليه بالانفصال، اذ انه لم يفكر في الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية او ان يؤسس كنيسة جديدة. لقد كان يسعى جاهدا لا للخروج من الكنيسة بل لاصلاحها.

<sup>5</sup> (راجع مجلة (14) p. 29-32 Concilium Revue).

- **يوحنا م تود Jean M. Todd**: الف تود كتابا بعنوان "مارتن لوثر" صدر في لندن سنة 1964. كان تود يرى في لوثر طالبا جادا وعاملا مجتهدا وراهبا تقيا وذكيا مرهف الحس والشعور، تميز بالشجاعة مقدرًا ومكرما من رؤسائه. وكان يتمتع بموهبة القائد الناجح. ويتفق تود مع بوبيه على ان عقيدة التبرير بالايان لا تناقض العقيدة الكاثوليكية الرسولية. ومع ان لوثر قد ثار ضد التعاليم المدرسية الا انه ظل متمسكا بكثير من تعاليم القرون الوسطى. لذلك فانه لم يرد ان يضرب عرض الحائط بالتعاليم القديمة. وكان يرى ان التعاليم الجديدة التي اكتشفها في كلمة الله ستشع في الكنيسة فتثير الاخرين كما استنار هو ايضا بها، واراد ان يوصل هذا النور الالهي الى الانسان المتألم والحاطيء، لكي يتبرر بالايان في شخص الرب يسوع المسيح. على ان تود له بعض المآخذ ضد لوثر. فانه لم يتفق معه في افكار ذبيحة القداس وسلطان البابا والمجمع.

عملت كل هذه الكتب على خلق روح التقارب والحوار المسكوني المبني على مفهوم حقيقي وعلمي لشخصية لوثر.

نكتفي بهذا القدر من بعض واهم ما كُتبت حتى المجمع الفاتيكاني الثاني. كُتبت اخرى كُتبت بعد المجمع تحتاج الى دراسة اخرى.

## 27- خاتمة

ان العصر الذي نعيش فيه الان يحتاج الى وحدة كاملة وترابط قوى وایمان عميق ومحبة صادقة بلا رياء لكي نستطيع معا ان نواجه تحديات المجتمعات المتنوعة من الحاد وكفر ومادية وتعصب.

ان المسيحية في جميع ارجاء العالم بجميع طوائفها، تجد نفسها الان امام هذه التحديات، رغبت ذلك او لم ترغب. واسلم طريق للتغلب على تحديات العصر هذه ايا كان لونها او نوعها، هو ان ننفذ بطريقة عملية وصادقة وامينة صلاة الرب الشفاعية: "ليكون الجميع واحدا كما انك انت ايها الاب فيّ وانا فيك، ليكونوا هم ايضا واحدا فينا ليؤمن العالم انك ارسلتني" (يو 17: 21).



## الفصل الخامس والاربعون

### الاصلاح في سويسرا

### يوحنا كالفن

#### ميلاده والجو العائلي الذي نشأ فيه

ولد يوحنا (يوحنا) في العاشر من تموز عام 1509 في فرنسا في مدينة نويون (Noyon) في مقاطعة بيكاردي (Picardie).

كان جيرارد كالفن والده ذكيا طموحا، استطاع ان يجمع في فترة قصيرة عدة مناصب ووظائف في وقت واحد. فقد تعين في سنة 1481 كمسجل رسمي للعقود الخاصة بمدينة نويون، ووكيلا للاعمال الخاصة بالكنسية والكهنة، وسكرتيرا للاسقف، ومستشارا للاكليروس ونبلاء المدينة. وقُبل جيرارد كالفن في طبقة البورجوازية في سنة 1497، وتزوج ابنة صاحب فنادق وتدعى جان ليفرانك، وكانت فتاة رائعة الجمال مثالية في اخلاقها ومتعبدة، وتعودت ان تصحب طفلها يوحنا لزيارة الاماكن المقدسة. وانجب جيرارد اربعة اولاد وبنيتين وهم: شارل وكان كاهنا في مدينة نويون ومات في سنة 1537 محروما من الكنيسة، ربما لانه اتبع افكار اخيه يوحنا. وانطون الذي انضم الى الاصلاح وساعد اخاه كثيرا في عمله الكتابي ومات سنة 1571، وفرانسوا الذي مات صغيرا، ثم ماري وبننت اخرى لم يسجل لنا التاريخ اسمها.

اختطف الموت جان ليفرانك وهي في ريعان شبابها، وتركت يوحنا صغيرا بدون ذكريات عنها. وتزوج والده مرة اخرى من ارملة. ويعزو المؤرخون ان حرمان يوحنا من حنان امه وعيشه بين اب صارم وامرأة اب غير مهتمة، لعب دورا هاما في حياة وتصرفات وسلوك كالفن، وجعلت منه طفلا خجولا منظويا على نفسه في بعض الاحيان، قاسيا في احكامه على نفسه وعلى الآخرين.

#### دراساته الثانوية والجامعية

بدأ يوحنا مرحلته الدراسية في مدرسة المدينة Collège des Capettes ومكث فيها حتى بلغ الرابعة عشرة. وفي سن الثانية عشر (1521)، حصل جيرارد لابنه يوحنا على وظيفة كنسية امدته بدخل سنوي. والشخص الذي كان يتلقى دخلا من الكنيسة، يُتظر منه تأدية خدمة للكنيسة، لكن هذا لم يكن يعني انه رسم لمنصب اكليريكي. وكان يوحنا تلميذا ذكيا نابها قادرا على تحصيل قدر هائل من العلوم التي كان تدرس في تلك الايام. ارسله من ثم ابوه الى باريس عام 1523، وبدأ دراسته في مدرسة دي لا مارش سنة 1523. وكانت تعتبر هذه المدرسة حديثة في تعليمها ومناهجها وفيها التقى بمدرس اللغة اللاتينية ماتورين كوردييه Mathurin Cordier. ترك هذا المعلم، بحياته المثالية وعلمه الغزير ومحبه للمسيح، تأثيرا عميقا على الشاب يوحنا. وبعد سنة قرر احد المفتشين نقل يوحنا الى مدرسة مونتجي Nontaignu، وقد عرفت هذه المدرسة بنظامها القاسي الصارم. فالطعام محدود، والعقوبة على أي خطأ قاسية، والمنتظر ان ينقل الطلبة اخبار بعضهم البعض. من هنا اكتسب كالفن سمعة كونه قاسيا على نفسه وعلى زملائه. وكانت مدرسة مونتجي تسمى قلعة الارثوذكسية لانها كانت تناضل وتصارع ضد كل تعليم جديد مبتدع. وفيها انكب يوحنا على دراسة تعاليم الآباء، فدرس كتابات القديس اغسطينوس والقديس برنارد ويوحنا فم الذهب وبيطرس لومبارد وآخرين. ولهذا السبب فان كتابات كالفن مليئة بالاقتباسات العديدة من كتب الآباء واقوالهم. ولقد شجعه على الدرس والبحث اساتذته الاكفاء الذين لاحظوا فيه ذكاء نادرا، ورغبة عميقة في الدرس والبحث.

ان الفترة التي اقامها يوحنا في مدينة باريس كانت غنية في ثمارها ونتائجها، وفي تكوين شخصيته واعداده للعمل الذي سيقوم فيه فيما بعد. ويعتقد المؤرخون ان يوحنا تعرف بباريس على حركة الاصلاح اللوثرية. حصل يوحنا في سن التاسعة عشرة على درجة الليسانس في الفلسفة سنة 1528 من مدرسة مونتهجي. وكانت هذه الدرجة تجيز له ان يواصل دراساته العالية في الجامعات. وكان والده ينوي ان يدرس ابنه العلوم الدينية كي يصبح كاهنا مثل اخيه الاكبر شارل، ولكنه غير رأيه ربما بسبب مشاجراته مع الاكليروس، ولجل ذلك دفع ابنه الى دراسة الحقوق بدلا من اللاهوت. وكانت مدينة اورليان تعتبر من اهم المدن في فرنسا اشتهرت باساتذتها المتخصصين، في دراسة وتدريس القانون. فالتحق بها يوحنا، وفيها تقابل مع استاذ اخر نسب اليه كثير من المؤرخين دورا هاما في جر كالفن الى العقيدة الانجيلية وهو ملكيور فولمار استاذ اللغة اليونانية، وهو الماني لوثيري، ويعتقد انه كان يمد يوحنا بالكتب والمقالات التي تنشر في المانيا عن اللوثرية وتعاليمها، وترجم بعضها الى الفرنسية. وشجع الاساتذة يوحنا لما رأوا فيه من الذكاء ان يتقدم للحصول على درجة الدكتوراه، فانتقل الى جامعة بوج التي كانت تنافس جامعة اورليان.

### موت جيرارد كالفن

انطلق يوحنا الى نويون عندما علم بمرض ابيه، ومكث معه الى ان فارق الحياة في يوم 26 ايار عام 1531، وكان قد بلغ السبعين من عمره. ان دفن جيرارد كان مشكلا: فقد كان محروما من الكنيسة من حوالي ثلاث سنوات. ولم يكن مسموحا دفن شخص حرمة الكنيسة في المدافن العادية، فكان على ابنه شارل، الذي كان كاهنا لكنيسة المجدلية في نويون، ان يبذل جهدا كبيرا واتصالات مكثفة متوسلا الى رؤسائه، ونجح في نهاية الامر في رفع الحرمان عن ابيه ودفن في مقبرة مسيحية.

ولكن بعد دفن الاب تجددت الخلافات بين الكاهن شارل كالفن والاكليروس في مدينة نويون. وفي ايار سنة 1534، قام احد الكهنة باستجواب شارل عن ايمانه وعقيدته واستنتج انه هرطوقي. ومات سنة 1537 بعد ان رفض المسحة الاخيرة ودفن ليلا سرا.

بعد موت والده عاد يوحنا الى باريس وفيها تابع دراسته في جامعة فورتية Fortet وانكب فيها على دراسة الآداب اللاتينية واليونانية واللغة العبرية. ثم رجع الى اورليان لانتهاء دراسته في الحقوق، وحصل على درجة الدكتوراه في سنة 1533.

### انضمام يوحنا كالفن الى الاصلاح

ان موضوع تحديد تاريخ معين والاسباب التي ادت الى انضمام كالفن الى الاصلاح ليس بالامر السهل، لانه مر باختبارات واحداث عديدة وطويلة ادت اخيرا الى انفصاله عن الكنيسة الكاثوليكية.

يعتقد بعض المؤرخين ان مقابله مع ماتيرون كورديه عام 1523 في مدرسة دي لامارش كانت البذرة الخفية التي القيت في نفس هذا الشاب وجرت الى الانفصال. الا ان بعض المؤرخين الاخيرين يعتقدون ان السنوات الخمس 1523-1528 التي قضاها في باريس دفعته الى التفكير والبحث والنقاش في موضوع الاصلاح، وربما سوء التفاهم الذي نشأ بين ابيه وبين جماعة الاكليروس، ثم بين اخيه الكاهن شارل وبين الكهنة، كان له تأثير عليه. كما لا ننسى ان الفترة التي قضاها في اورليان وبوج حيث تقابل مع فرلمار اللوثيري الذي فتح امامه - على ما يُحتمل - باب الاصلاح. ويعتقد الكثير من المؤرخين ايضا ان روبرت اوليفتان - وهو قريب ليوحنا - قام بدور هام جدا في تغير كالفن بترجمته للكتاب المقدس الى الفرنسية.

### هروب كالفن من باريس

كان كوب نيقولا المدير الجديد لجامعة السربون وهو ابن الطبيب جيوم الذي كان طبيبا خاصا للملك لويس الثاني عشر ثم فرانسوا الاول. كان كوب صديقا حميما للشباب يوحنا كالفن منذ ان كان طالبا في باريس. كان معتادا

ان يلقي مدير جامعة السربون خطابا في اول تشرين ثاني بمناسبة عيد جميع القديسين. ففي اول تشرين ثاني سنة 1533 اجتمعت كليات جامعة السربون في كنيسة الماوريين، والقي العميد الجديد عظة تعد من العظات التي لها اهميتها في تاريخ الاصلاح الفرنسي.

اتخذ كوب موضوعا لتأمله قول المسيح: طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السموات.. طوبى للمضطهدين من اجل البر، لان لهم ملكوت السموات.. (متى 5: 3، 10). وبدأ عظته بشرح الفلسفة المسيحية باعتباره استاذ الفلسفة في الجامعة، مستوحيا افكاره من اقوال ارازمزس ولوثر. على انه رجع الى التطويبات، مشددا على حقيقة ان الله قد احب العالم بمحبة لا تقاس، ولهذا فقد ارسل ابنه الوحيد الذي صار انسانا ومات لاجلنا. انه جاء لمغفرة الخطايا التي لا تتم الا عن طريق نعمة الله وحدها، والروح القدس هو الذي يمنح للجميع هذه النعمة، لانه هو مصدر القداسة. ان الحياة الابدية مقدمة للجميع، وان المسيح مات لاجل خطايانا لكي يبررنا بنعمته، فعلينا اذا ان نضحى ونموت من اجل الذي ضحى ومات من اجلنا. وان العالم اعتاد ان يطلق كلمات هراطقة ومضللون على هؤلاء الذين يعملون جاهدين في نشر الانجيل صافيا نقياً.. فطوباهم وانهم يحسدون على ما يقومون به بشجاعة نادرة مباركين الههم بالرغم من الاضطهادات.

كانت هذه العظة عبارة عن قبلة انفجرت في جامعة السربون التي كانت تعتبر كقلعة للارثوذكسية وحميتها. لم تصدر جامعة السربون احكاما ضد تعاليم الهرطقة اللوثرية؟ لم تحكم ايضا بحرق وحرمان تعاليم لفردي تابل؟ فكيف ذا لعميد عمداء هذه الجامعة ان يعلن بهذه الصراحة وهذه الجرأة تأييده لحركة الاصلاح؟ صحيح انه اعلن في ختام عظته انه كاثوليكي متمسك بتعاليم الكنيسة معترفا بأومومة العذراء لله، ولكن التعليم الذي نادى به هو تعليم المصلحين.

استدعى كوب للممثل امام البرلمان، الا انه هرب والتجأ الى بازل مدينة عائلته. وذهبت الشرطة للقبض على المتهم الثاني يوحنا كالفن فعمل من ملأت سريره حبلا وتدلّى به من الشباك الخلفي لكلية فورته حيث كان ساكنا، وتخفى بثياب كرام وحمل على ظهره قفة كبيرة من القفف التي يحملها الكرامون، منطلقا الى مدينة انجوليم Angoulême حيث نزل ضيفا على صديقه لويس دي تيليه كاهن كنيسة الكلية وواعظ في كاتدرائية انجوليم.

وجد كالفن في بيت صديقه مكتبه عامرة بالكتب والمخطوطات الثمينة والقديمة، وفيها انغمس في الدرس والبحث. وفي هذه المكتبة بدأ في مشروع كتابة كتابه الذي سيصبح فيما بعد "فرآنا او بلاحري تلمودا للهرطقة" وهو كتاب "اسس الديانة المسيحية Institution de la Religion Chrétienne". وفي الرابع من ايار سنة 1534، قام كالفن بتسليم الاوراق الخاصة بالامتيازات المالية التي كان يحصل عليها من الكنيسة، واعلن بانه لا يريد ان يحصل على مساعدة من كنيسة اصبح لا يتفق معها على بعض تعاليمها وعقائدها. وبرفقة صديقه الكاهن لويس دي تيليه، انطلق الى مدينة بواتيه، وفيها الف جماعة من الاتباع اخذت تجتمع في السر وفي المغاور وفي اماكن سرية. وفي احدى مغاراتها قام كالفن الذي لم يُسم كاهنا ابدًا بممارسة اول عشاء رباني على الطريقة الانجيلية.

### حادثة المنشورات

حادثة مهمة في تاريخ الاصلاح الفرنسي. كان الملك فرانسوا الاول ضد جماعة البروتستانت، وكان ينوي التخلص منهم، ولكنه كان يخشى رد الفعل من الداخل ومن الخارج، وخاصة انه كان يبحث عن عمل معاهدة مع الامراء الالمان ضد الامبراطور شارل الخامس، وان عددا لا بأس به من هؤلاء الامراء كانوا بروتستانت.

يبدو ان بعض الافراد ارادوا ان ينتهزوا هذه الفرصة، ففكروا ان يقدموا الى الشعب ملخصا لتعاليم الكنيسة اللوثرية، وبناء عليه ارسلوا الى سويسرا ممثلا لهم لكي يناقش هذا الامر مع بعض اللوثرين في نيوساتل. فرجعوا ومعهم منشورات قام بكتابتها انطون ماركورت Antoine Marcourt. وعند وصول هذه المنشورات الى باريس قامت جماعة بتوزيعها. ففي ليلة 17-18 تشرين اول سنة 1534، علقّت هذه المنشورات في باريس واورليان، حتى وصلت الجرأة بهم الى تعليق احد هذه المنشورات على باب مخدع الملك. وكان هذا المنشور يحتوي على نقد لاذع ضد

الكنيسة الكاثوليكية ممثلة في البابا والكرادلة والاساقفة والكهنة، وضد مفهوم الكنيسة لعقيدة الافخارستيا، وبعض العقائد الاخرى. وقد كتب هذا المنشور بأسلوب هجومي عنيف خال من الادب ومن اللياقة، مستعملا بعض الالفاظ غير المهذبة.

عندما اطلع الملك فرانسوا الاول على هذا المنشور ثار ثورة عارمة، معتبرا هذا الامر تحديا لشخصه وجلالته الملكية. فسن حملة اضطهادات عنيفة مريعة، واعداد بمكافأة مالية لكل من يعلن عن اسم وعنوان أي لوثري. وصلت بعض الشكاوي تحمل اسماء وعنوان بعض اللوثرين فقبض عليهم، والقى البعض منهم في السجون. وفي يوم 7 تشرين ثاني حكم بالموت على سبعة منهم.

ثم قام الملك مع الاكليروس واولاده الثلاثة بتطواف تكفيري في يوم 21 كانون ثاني 1535، وكان الملك في هذه المسيرة عاري الرأس مع اولاده الثلاثة ويمسك بيده شمعة مشتعلة. وفي عشية هذا اليوم، اعلن الملك اثناء العشاء امام الاكليروس وسفراء الدول الاجنبية، انه سيعامل كل هرطوقي بنفس المعاملة، حتى ولو كان من عائلته، واصدر الاوامر بالقبض على كل من ينتمي الى هذه الطائفة ومصادرة املاكه.

في هذه اللحظة شعر كالفن بعدم الاستقرار، وسئم التنقل بين انجوليم ونويون وباريس واورليان، فقرر ان ينطلق الى مدينة بازل في سويسرا في كانون اول عام 1534.

## يوحنا كالفن في سويسرا

### في بازل

وصل يوحنا كالفن وصديقه لويس دي تيليه الى مدينة بازل. وكانت هذه المدينة قد انضمت الى الاصلاح في سنة 1519، على يد الواعظ كاييتون ومن بعده الواعظ الشهير اكلومباد Occolampade، وهو الذي قام بادخال بعض الاصلاحات والتعديلات في القداس وفي نظام العبادة. وبازل هي ايضا المدينة التي كان يسكن فيها العالم الهولندي ارازموس وفيها سيقابل المصلح فيريي Viret. الى هذه المدينة جاء يوحنا تحت اسم مستعار لوقيانوس ونزل عند سيدة تدعى كاترين كالين.

بدأ كالفن في هذا الجو الهاديء في الدراسة والكتابة، وفيها عمل بجد ليطم كتابه "اسس الديانة المسيحية". بهذا الكتاب اراد كالفن ان يدافع عن الانجيل وعن اخوته الانجلييين المضطهدين. وكتب كالفن مقدمة هذا الكتاب، واهداها الى الملك فرانسوا الاول بتاريخ 23 اب 1535، وخرج الكتاب كله باللغة اللاتينية، وكان يحتوي على 6 فصول في 519 صفحة من الحجم الصغير.

### في جنيف (اقامته الاولى)

#### جينيف قبل كالفن: طرد الكاثوليك من جنيف

من الضروري ان نوضح جانبا من تاريخ جنيف السابق لوصول كالفن. كانت المدينة القابعة في قلب الركن الجنوبي الغربي لسويسرا والقريبة جدا من فرنسا، غير مستقرة سياسيا. وكان يحكم جنيف في سنة 1530، دوق سافوى الكاثوليكي، لكن كثيرين من المواطنين كانوا قد انضموا الى البروتستنتية التي جاءت اليها من مدينة بيرن، التي كانت مهتمة بجلب الاصلاح الى جنيف وطرد الكاثوليك. ارغم دوق سافوى، ولاسباب سياسية، على التخلي عن اطماعه السياسية نحو جنيف. ووصل جيوم فاريل Guillaume Farel، المصلح الفرنسي الذي بذل الكثير لكي يريح بيرن للاصلاح، الى جنيف في سنة 1532، وبدأ يبشر وفعل الكثير لاثارة الشعب ضد الاكليروس الكاثوليكي. وفي سنة 1534، ارغم الاسقف الكاثوليكي على المغادرة، تبعه الرهبان والراهبات وصودرت الديرية.

## التركيبة السياسية في جنيف

كانت جنيف مدينة مستقلة، وكانت تحكمها مجالس عديدة وعلى رأسها مجلس من اربعة اداريين كبار من الذين كانوا ايضا اعضاء في مجلس صغير مكون من 25 عضوا. كما وكان هناك مجلس من 60 عضوا يعينهم المجلس الصغير، ومجلس من المائتين، الذي كان يتم تعيينه بواسطة المجلس الصغير، لكن مجلس المائتين كان له الحق ترشيح اعضاء للمجلس الصغير. كما كان هناك مجلس عام من كل المواطنين، لكن نادرا ما كان يؤخذ برأيه. كان مجلس الاربعة المجلس الاقوى وكان يقود الحياة السياسية في جنيف. هذا كان الوضع الذي نشأ فيه الاصلاح في جنيف، وبدون الدعم العلني من المجالس لم يكن في استطاعة فاريل واصدقائه ان ينجحوا مطلقا. فالقيادة الدينية والسياسية في جنيف عملت جنبا الى جنب لتربح الحريتين الدينية والسياسية معا، وبهذه المناسبة اتخذت المدينة شعارها "بعد الظلام النور Post Tenebras Lux".

وفي تموز سنة 1535، الغي القديس في المدينة. وفي 21 ايار سنة 1536 دُعي الحفل العام للاجتماع ووافقوا بالاجماع على الاتي: "ان يعيشوا كما يحق للانجيل وكلمة الله... وان يتخلوا عن كل مظاهر العبادة والشعائر البابوية والانتهاكات الاخرى مثل الصور والتماثيل، ولكي يعيشوا في اتحاد وطاعة العدل".

## نظام فاريل

كان جيوم فاريل المسؤول الرئيسي، فحث المجلس الصغير على ان يفرض نظاما صارما على كل المدينة. فحظر اللعب والرقص والاغاني العالمية، وعاقب الناس على لعب الورق والتجديف. ووضعت روابط على بيع الخمر. وكان كل المواطنون ملزمين بحضور الخدمة الالهية والوعظ.

## كالفن في جنيف

وصل يوحنا كالفن الى مدينة جنيف في سنة 1536، لكي يقضي فيها ليلة واحدة فقط - كما يقول هو نفسه - في مقدمة شرحه لكتاب المزامير: "وبما ان الطريق المباشر الى ستراسبورغ التي كنت ذاهبا اليها كان مغلقا بسبب الحرب، فقد قررت ان امر بجنيف مرورا عاجلا، وكان في نيتي الا اقضي فيها اكثر من ليلة واحدة فقط".

ولكن قبل ان يصل كالفن الى هذه المدينة وصل كتابه "اسس الديانة المسيحية" وانتشر بين الذين قبلوا الاصلاح، وخاصة المصلح جيوم فاريل Guillaume Farel. عندما عرف فاريل بخبر وصول كالفن جاء مسرعا الى الفندق الذي كان نازلا فيه كالفن وشرح له الظروف التي تمر بها الكنيسة الناشئة والصعوبات الكبار التي تعترض طريقهم في السير الى الاصلاح، وانهم في حاجة ماسة الى معلمين وانه هو المعلم الذي يبحث عنه. رفض كالفن بشدة، الا انه امام اصرار فاريل قبل ان ييقى ويتسلم بعض المسؤوليات. ومكث في جنيف، وبدأ خدمته في كنيسة كالمحاضر في الكتب المقدسة.

لم يُدخل كالفن الاصلاح في سويسرا، انما دخل المقاطعات السويسرية بعد ان غزاها الاصلاح وانتشر في معظم مدنها. وبدأ كالفن في تنظيم الكنيسة في جنيف، بدأ اولا بالوعظ والتعليم في كاتدرائية القديس بطرس كمساعد لفاريل. وكان يسيطر على كنيسة مدينة جنيف المصلحة القلق والاضطراب من جميع النواحي. ولتنظيم هذه الكنيسة والمدينة، كان من المحتم اصدار بعض القوانين والشرائع التي كان على الشعب احترامها وتنفيذها. وقام كالفن الرجل الذي درس القانون، بتأليف هذه التشريعات او الاوامر او اللوائح والدساتير الكنيسة (Ordonnances).

كان كالفن ايضا مكلفا بالاهتمام برعاية الشباب وبتفسير الكتب المقدسة. فكتب لذلك كتبيا صغيرا بعنوان "التعليم المسيحي" وهو عبارة عن ملخص لكتابه "اسس الديانة المسيحية". وفي هذا الكتاب اتبع كالفن نفس الطريقة التي اتبعها المصلح الالماني لوثر في كتابه التعليم المسيحي، فقدم شرحا للناموس او الوصايا، ثم تكلم عن الايمان وشرح قانون ايمان الرسل. كما انه تعرض لموضوع الصلاة وشرح الصلاة الربانية.. وفي هذا الكتيب قدم ايضا شرحا وافيا لسري العماد والعشاء الرباني.

وفي يوم 16 كانون ثاني عام 1537 قام كالفن وفاريل بتقديم اللوائح او التشريعات التي كانت تحتوي على عدة مواد وقواعد ومبادئ لتنظيم الحياة في الكنيسة وفي المدينة. وافق مجلس المدينة على هذه التشريعات. وطلب من المجلس تعيين اشخاص (شيوخ) مشهود لهم بحياة التقوى والتدقيق، لمراقبة الشعب. وعين المجلس شيخا في كل حي من احياء المدينة. وكان على هذا الشيخ ان يراقب تصرفات وسلوك كل شخص من الاشخاص الذين يسكنون في كل منطقة، وان يقوم بلطف ومحبة بارشاد الذي لا يسلك بحسب انجيل المسيح. فإن لم يتب واستمر في عصيانه، فعلى المسؤول ان يعلن هذا الامر للخادم. وكان على الراعي ان يتقابل معه ويرشده. فاذا استمر في تمرده ولم يتب، اضطرت الكنيسة الى عزله منها ومنعه من الاشتراك في المائدة الى ان يتوب.

وهنا ظهرت مشكلة اخرى: من هو الذي له الحق في العزل؟ هل هي السلطة للكنيسة التي يمثلها المجمع ام السلطة المدنبة التي يمثلها مجلس المدينة؟ تمسك كالفن ان هذا السلطان هو من حق الكنيسة، وتمسك مجلس المدينة ان هذا السلطان من حقه كهيئة حاكمة. وهنا بدأ الصراع العنيف بين الكنيسة ومجلس المدينة.

قبل اعضاء مجلس المدينة الاعتراف بالمبادئ الانجيلية لكي يكونوا مثالا للشعب. ولكن الصعوبة الكبرى بدأت عندما تمسك المصلحون بعرض قانون الايمان على كل سكان المدينة. بل انهم طالبوا ان الذي لا يقبل العقيدة الانجيلية يُنفي خارج المدينة. وهنا بدأ التدمير وعدم الرضى الذي تطور فيما بعد الى شبه ثورة ضد المصلحين. صحيح ان شعب المدينة قبل في شهر ايار 1536 الاصلاح، ولكن لم يقبل كل الشعب تعاليم الاصلاح. فهناك جماعة من الكاثوليك، وايضا جماعة الاحرار او اصحاب الرأي الحر الذين كانوا يريدون ان يعيشوا كما كان يبدو لهم حسنا.

حاول اعضاء مجلس المدينة اقناع الشعب، فارسلوا بعض الموظفين من المجلس لكي يناقشوا هذا الامر مع رب كل عائلة ولم تفلح هذه المحاولة. ولذلك فكروا في طريقة اخرى وهي ان يجتمع سكان كل حي بدوره في كاتدرائية القديس بطرس في 29 تموز 1537، لكي يعلنوا موافقهم من هذه التعاليم. واعتقدوا ان الشعب لن يجسر على اظهار المعارضة بطريقة علنية. ولكن الشعب اظهر معارضته بطريقة واضحة، اذ تخلف الكثيرون عن الحضور. وهذا ما حدث عندما اراد المجلس ان يكرر نفس الاختبار في 2 تشرين ثاني 1537. وهنا بدأ المجلس نفسه يظهر قلقه وعدم ارتياحه فيما يخص هذا المشروع، بل ان المجلس رأى ان الكنيسة المصلحة بدأت تستولي على سلطة ليس من حقها ممارستها. كان هذا القرار بلا شك خطأ عظيما وتعسفا ضد الحرية الشخصية، حرية العقيدة.

وعندما جاء وقت الانتخابات في شباط سنة 1538 كان المجلس يخشى اندلاع ثورة شعبية في المدينة. ولكن على عكس ما كان ينتظر، تمت الانتخابات في هدوء تام. وكانت النتيجة فوز الاربعة رؤساء لمجلس المدينة من الحزب المعارض للاصلاح. وطلب هذا المجلس الجديد من المصلحين عدم التدخل في الامور السياسية الخاصة بالمدينة، مع اعطاء الحق لانفسهم بالتدخل في الامور الكنسية وتعاليمها ونظامها. ولم يقبل كالفن هذا التدخل ولم يقبل هو وفاريل التعديلات التي ادخلها هذا المجلس الى الطقوس ولم يقبل المجلس هذا التحدي وقرر طرد المصلحين، وغادر المصلحون جنيف في 27 نيسان 1538 الى مدينة برن.

### كالفن في ستراسبورغ

التجأ فاريل وكالفن الى بيرن وزوريخ حيث كان السنودس مجتمعما، فشرحا قضيتهما، ووجدا تعاطفا ودعما من كلتا الجهتين، لكن مجالس جينيف رفضت الاستماع الى أي وساطة. يمكن القول ان كالفن ما كان ليفشل في جينيف، لو انه لم يكن هكذا مندفعاً وطموحاً، وكثير التشدد مع معارضيه. وعندما غادر جينيف، وقد اعتقد انه لن يراها مرة اخرى، كتب كالفن: "مع اننا ننوي الاعتراف امام الله وشعبه اننا بسبب عدم خبرتنا وتهاوننا واهمالنا وأخطائنا، حدث على الاقل جزئياً ان الكنيسة التي عهد بها الينا، انهارت بكل تعاسة. ومع ذلك فمن واجبنا ان نؤكد طهارتنا وبراءتنا من اولئك الذين بخداعهم وخيانتهم ووقاحتهم حدث هذا التدهور".

اتخذ كالفن وفاريل ماوى لهما اولاً في بازل، ومن هناك ذهب فاريل الى ابرشية نيوشاتل، بسويسرا، حيث امضى بقية حياته فيها، بينما استلم كالفن دعوة من مارتن بوسر Martin Bucer للذهاب الى ستراسبورغ، لرعاية اللاجئين الفرنسيين هناك.

وكان مارتن بوسر، راهبا دومينكانيا متأثرا كثيرا بمارتن لوثر. ترك الرهبنة في سنة 1521، واستقر في سنة 1523 في ستراسبورغ وانضم الى البروتستانت. وكان بوسر يكبر كالفن بحوالي ثماني عشرة سنة، وكان كالفن يدعوه اسقف مدينة ستراسبورغ، وقد ترك تأثيرات عميقة جدا على كالفن. يمكننا القول ان السنوات الثلاث التي قضها كالفن في ستراسبورغ تعتبر افضل سني حياته من ناحية اعداده للخدمة والتدريس والكتابة. حتى ان احد المؤرخين اعلن: "كان نموذج الكنيسة التي نسميها الكلفينية او المصلحة في الحقيقة هدية مارتن بوسر الى العالم بمساعدة المنفذ القوي المتألق جون كالفن".

كانت ستراسبورغ في ملتقى طرق، كما انها كانت ايضا مدينة حرة، فتحت ابوابها لما يدعى بالاصلاح. فهي تعتبر المدينة الثانية بعد مدينة وتبرج بالمانيا في اهميتها كمركز من المراكز اللوثرية. وقد جاء الى هذه المدينة الحرة عدد كبير جدا من اللاجئين المطرودين من بلادهم بسبب اعتقاداتهم الجديدة. فقد وفدها حوالي خمسة الاف لاجيء فرنسي طالبين حمايتها.

عُهد الى كالفن في ستراسبورغ العناية والاشراف على اللاجئين فنظمهم في جماعة متماسكة. وقام بخدمة الوعظ اربع مرات اسبوعيا، وقدم العشاء الرباني مرة شهريا. اسس نظاما كنسيا يتمشى مع النموذج الذي رسمه في جنيف. اصر على فحص اعضاء كنيسته قبل تناول الافخارستيا، ليحكم على استحقاتهم. ولما اعترض بعضهم بانه بذلك يُعيد ادخال الاعتراف الكاثوليكي، دافع كالفن عن ذلك بانه اعداد ضروري لقبول الافخارستيا.

كان كالفن شديد الاهتمام باساليب العبادة (الليتورجيا) في الكنائس المصلحة. ومع حظر خدمة القديس وجميع انواع الليتورجيا الكاثوليكية، كان يلزم الكنائس المصلحة ليتورجيا مناسبة تأخذ مكانها. فعكف كالفن بمعاونة بوسر على العمل في هذه المشكلة اثناء وجوده في ستراسبورغ ووضع صيغة للعبادة التي يمكن ان تكون نموذجا ليتورجيا للكنائس المصلحة في انكلترا واسكوتلاندا وامريكا. وقد ادخل كالفن الى العبادة نظام الترنيم الشعبي، والف هو نفسه عددا من الترانيم المشهورة.

اتاحت فترة الاقامة في ستراسبورغ لكالفن الفرصة ايضا كي يطور اعظم مؤلفاته "المبادئ او الاسس المسيحية". فنقحه ووسع حجمه.

## زواج كالفن

بدأ كالفن، في مدينة ستراسبورغ، يفكر جديا في الزواج. لم يكن الدافع لهذا عدم مقدرته التخلي عن الزواج او الحب، كما قال، وانما في هذه المرحلة من حياته الحافلة بالعمل الكثيف وكان يعاني من اوجاع في المعدة، ومن الصداع، والغثيان، كان بحاجة الى من يعتني به. ففي خطابه الذي ارسله الى صديقه فاريل في ايار 1539، يخبره عن عزمه الجاد بالزواج، ويعطي وصفا للمرأة التي يحلم بان تكون زوجته في المستقبل: يجب ان تكون محتشمة، خاضعة، متواضعة، اقتصادية، صبورة، وان تسهر على صحته. وفي نفس الخطاب يُعرف صديقه ان قد أُقترح عليه الزواج من فتاة، ولم يذكر اسمها. وكان اخوها من المغرمين بكالفن ونشاطه، كما ان ابويها الحما كثيرا عليه ان يتزوج منها. على ان كالفن كان يتردد كثيرا ازاء هذه الفتاة. وفي كتاب اخر في 29 اذار 1540، يخبره ان اخاه وجد "عروسا" له. وذهب اخوه مع صديق لمقابلة العائلة، ولكن بعد رجوعهما بثلاثة ايام حدثت بعض الاحداث ارغمته على ارسال اخيه مرة ثانية الى العائلة لتبليغها عدم الموافقة.

اقترح بوسر على صديقه كالفن اسم ارملة هي اديلت دي بير Idelette de Bure. وجاء صديقه فاريل من مدينة نيوشاتل ليقوم بمراسيم الزواج الذي تم في شهر اب عام 1540. كانت اديلت قد انجبت من زوجها السابق ولدا في حوالي الثانية عشرة وابنة في حوالي التاسعة. ويقول فاريل عن زوجة كالفن، بانها كانت جميلة مخلصمة وكان

زواجهما سعيدا، على انه لم يعمر طويلا، اذ انها ماتت في 29 اذار 1549 بعد مرض طويل. وترك موتها في قلب كالفن تأثيرا عميقا جدا. وكتب كالفن الى فاريل في اليوم الثاني لوفاتها يقول: "والان حرمت من شريكة حياتي الممتازة التي كانت على استعداد تام بان تشاركني ليس فقط في المأساة بل النفي والموت ايضا... ففي حياتها كانت خير مساعد امين لي في خدمتي، ولم اجد فيها أي معطل للخدمة...". وقد انجب كالفن منها طفلا يدعى يعقوب، ولكنه مات في تموز 1542 بعد خمسة عشرة يوما من ميلاده. وكان موته تجربة قاسية على يوحنا كالفن وخاصة على زوجته.

## عودة كالفن الى جنيف

سبق ورأينا ان الحزب الذي فاز في الانتخابات سنة 1538 كان حزبا معاديا لكالفن وطرده مع زميله فاريل. بدأت الاضطرابات والثورات الداخلية، واغتمت الشعب عودة الحرية للانغماس من جديد وبدون رادع في الملاهي والملاذات. واستمرت هذه الحالة الخطيرة تسيطر على المدينة وظهر روح الانقسام في الكنيسة. كل هذا ادى الى تغيير مجلس المدينة، ووصل الحزب المؤيد لكالفن الى الحكم من جديد. واصبحت اغلبية اعضاء مجلس المدينة من هذا الحزب. ولكن حالة القلق والاضطراب وروح الثورة كانت تسيطر على المدينة، وكان الشعب يخشى اندلاع ثورة اهلية. وتبين لهم انهم لا يستطيعون حكم انفسهم، وانهم بحاجة الى يد قوية تحفظهم من انفجار الوضع. وبدأ الحزب الحاكم النقاش مع الحزب المعارض في موضوع رجوع كالفن الى المدينة المهدة في سلامها.

نوقش هذا الاقتراح في مجلس المدينة الذي عقد في يوم 21 ايلول 1540، وكُلف السيد امي بيرين Amie Perrin، بالكتابة الى السيد فاريل لعمل اللازم لارجاع كالفن الى جنيف، والذهاب الى ستراسبورغ لمقابلة كالفن وتسليمه الرسالة من مجلس المدينة ومحاوله اقناعه بالضرورة الملحة لعودته الى جنيف.

عندما استلم كالفن خطاب مجلس مدينة جنيف كتب له ردا من مدينة فورمس وقد شرح في خطابه العمل الذي يقوم به في مدينة ستراسبورغ، وانه لا يستطيع ان يترك هذا الحقل الواسع المتسع للخدمة والذي اسند اليه للعناية به. فكتب مجلس جنيف الى اصدقائه في بازل وزوريخ وحتى الى برن، لكي يكتبوا بدورهم الى مجلس مدين ستراسبورغ والى كالفن لاقناعه بضرورة العودة لانقاذ هذه المدينة من الانغماس في الفوضى والثورة الاهلية. فكتب له اصدقائه وخاصة فاريل طالبين منه العودة، لان جمهورية جنيف كلها مهدة. وعلى ما يُحتمل فأن فاريل نفسه ذهب بعد الوفد وتقابل مع صديقه كالفن لمحاولة اقناعه.

وقف كالفن امام هذه الخطابات وقفة الحائر المتردد. فقد سبق وان كتب الى فاريل يقول ان جنيف هي المكان الذي يحشاه اكثر من أي مكان اخر تحت السماء. واخيرا بعد تردد وتفكير طويل، كتب الى صديقه فاريل في آب 1541 جملته الشهيرة قائلا: "اما عن ما يدور في خلدي، فهو لو سمح لي بالاختيار لفضلت ان افعل أي شيء آخر الا طاعتك في هذا الامر، ولكنني لست ملكا لذاتي، فاني اقدم قلبي كذبيحة للسيد... ولا اطلب الا شيئا واحدا، وهو عدم الاهتمام بذاتي، والقيام بالافضل لمجد الله وفائدة الكنيسة".

عندما قَبِل كالفن بالعودة الى جنيف، كان يعتقد انه يرجع اليها لفترة قصيرة فقط، وهذا ما كان يعتقد مجلس مدينة ستراسبورغ. وفي يوم 2 ايلول انطلق كالفن الى جنيف، ووصل اليها في يوم 13 ايلول عام 1541، ليس لكي يمكث فيها عدة اسابيع او اشهر كما كان يعتقد، بل لكي يقضي حياته كلها.

## كالفن في جنيف: الاقامة الثانية

عاد كالفن الى جنيف في الثالث عشر من شهر ايلول عام 1541، كسيد مطلق، مصمما على فرض ارادته. الا ان تجاربه السابقة جعلت منه احكم في تقدير الامور وخصوصا في معاملة الناس. وقدمت له المدينة بيتا جميلا وحديقة، ومنح مرتبا سخيا بلغ ضعف مرتب أي راع آخر، اراحته من الاهتمام بالامور المادية، فكرس وقته لتنظيم كنيسة جنيف.



لاحظ كالفن في تتبعه للاصلاح اللوثري، ان هذا الاصلاح ارتكب خطئين: الاول، انه بدل من ان يجد من التدهور الاخلاقي، زاده حدة، بتبنيه عقيدة التبرير بالايمان دون الاعمال. والثاني هو انه باعترافه بالسلطة العليا، للسلطات المدنية، سخر الكنيسة للدولة. وعندما جعل الدولة الحكم في المنازعات العقائدية والتنظيمية، لم يعمل فقط على حرمان الكنيسة من استقلالها، بل جعلها مصدرا للكثير من الفوضى الاجتماعية، كاللامعديون وثورة الفلاحين... لذلك اراد كالفن ان يعمل على تجنب هذين الخطأين.

لتجنب الخطأ الاول و لرفع المستوى الاخلاقي، اعاد كالفن ضرورة الاعمال الصالحة، مع المحافظة على مبدأ التبرير بالايمان فقط، فتصبح الاعمال الصالحة عديمة الفائدة والاستحقاق امام الله، وانما تأتي اهميتها من كونها دلالة على ان الانسان الذي يعمل الاعمال الصالحة يملك الايمان.

ولتصحيح الخطأ الثاني، وافق كالفن لوثر على المبدأ القائل، ان الكنيسة والدولة يجب ان يسيرا سويا لتحقيق العمل المشترك، أي المحافظة على نقاوة التعاليم والاخلاق. الا انه شدد، وعلى عكس لوثر، انه على الدولة ان تكون في خدمة الكنيسة. فالتجربة اثبتت انه لا يكفي ان يقود الانجيل الشعب، بل يجب ارغامه على ذلك بالقوة. فالدولة واجبها - بالنسبة لكالفن - ان ترغم مواطنيها على الخضوع "لكلمة الله". فاربعة الدينون والحكام المدنيون هم رسل الله، ويجب ان يوحدوا قواهم من اجل مجد الله. الا ان الاولين يجب الا يعملوا الا حسب ارشادات الرعاة الذين هم المفسرون الوحيدون للكتاب المقدس. فالدولة التي تصورها كالفن هي نوع من التيقراطية Théocratie (حكم الله)، او كما عبر عنها احد المؤرخين "ببليوقراطية Bibliocratie"، أي حكم الكتاب المقدس.

### نظام كالفن في جينيف

لتحقيق مثل هذه الدولة، قام كالفن على رأس لجنة معينة من المجلس، على تأليف نظام اسفر عن "القواعد Ordonnances Ecclésiastiques" التي وافق المحفل العام عليها. كان لتلك القوانين غرضان اساسيان: (1) ان تقدم حلا لحكم ذاتي للكنيسة مع الاحتفاظ بالتعاون مع المجلس. (2) ان تعمل على تفعيل نظام يمكن للكنيسة بواسطته ان تتأكد من العقيدة السليمة والحياة السوية بين اعضائها.

### الوظائف الرئيسية:

- لكي يتم انجاز القوانين كان يلزم ان تتكون اربعة وظائف:
- (1) الرعاة: المعروفون بجماعة المحترمين، ليكونوا مسؤولين عن الكرازة العادية والاعمال الرعوية، وكذلك فحص المرشحين للرئاسة. وكان عليهم ان يجتمعوا اسبوعيا لدرس الكتاب المقدس والنقد الذاتي.
  - (2) المعلمون: المسؤولون عن تعليم الشباب عن طريق المدارس.
  - (3) الشمامسة: المسؤولون عن الاهتمام بالفقراء والمرضى.
  - (4) مجلس الشيوخ (المعروف بالمجلس الكنسي): كان هذا اهم مكتب، لانه من واجبه السهر على حياة كل فرد، ولتحذير بلطف اولئك الذين يرتكبون اخطاء، ويعيشون حياة مشوشة، وحيثما دعت الحاجة، اعداد تقرير للهيئة التي ستعني لاجراء الاصلاحات.
- واحتوت الكنيسة الكالفينية ايضا على مؤسستين كبيرتين:

### (1) مجمع الخدام La Congrégation او "الجماعة المحترمة" Vénéérable Compagnie:

كان هذا المجمع يتألف من جميع الرعاة الدينين في كنيسة جينيف. واليه كانت تعود السلطة العقائدية. كان يجتمع كل يوم جمعة، برئاسة كالفن، لتفسير معنى الكتب المقدسة، وتحديد عقائد الايمان. وان حدث خلاف، او تباين في الاراء، يعودون الى الشيوخ (Les anciens). وكان من واجبات مجمع الخدام، اختيار الرعاة، وتعيين اماكن عملهم، بعد عرضهم لفحص دقيق حول العقائد، واهليتهم للكرازة، وسلوكهم في حياتهم الخاصة والعامة. وكانت

مراسيم الرسامة تتم، ليس بوضع الايدي - كما كان في الكنيسة الكاثوليكية - بل بصلاة بسيطة يتلوها احد الرعاة، يتبعها رتبة تأدية القسم للسلطات.

## (2) مجمع الشيوخ *Le consistoire*

كان هذا المجمع يتألف من ستة رعاة واثني عشر شيخا. وكان يتم اختيار الشيوخ من بين اصحاب السيرة الحسنة والفاضلة، الذين ينتمون الى جميع احياء المدينة. كان هذا المجمع عبارة عن "لجنة مراقبة" من واجبها المراقبة الصارمة والمستمرة، على جميع اعضاء مجتمع جينيف، لتجنب وردع كل انحراف او خطأ في العقيدة والقانون والاخلاق.

ادعى هذا المجمع لنفسه الحق في تنظيم العبادة الدينية وفرض السلوك الاخلاقي على كل المواطنين وارسل قسيسا وشيخا، يزورا كل بيت وكل اسرة سنويا. وكان له الحق في استدعاء أي شخص للمثول امامه، لاختباره، وكان في وسعه تنبيه المخطفين، او حرمانهم من الكنيسة علنا، وكان في وسعه ان يعتمد على مجلس المدينة، وينفي خارج البلاد، من أصدر عليهم الحكم بالحرمان. وكان كالفن يقبض على زمام السلطة، باعتباره رئيسا لهذا المجمع. وكان صوته اقوى الاصوات تأثيرا في جينيف، من عام 1541 حتى وفاته في عام 1564. ولم يكن حكمه المطلق يستند الى القانون او القوة، بل الى ارادته.

حوّل كالفن هذا المجمع، تنظيم اولا العبادات: "على جميع افراد الاسرة ان يحضروا العظات يوم الاحد، ما عدا من يتكون في البيت، لرعاية الاطفال او الماشية. واذا كان ثمة وعظ في ايام الاسبوع، فعلى كل من يستطيع الحضور ان يجيء". وكان كالفن يلقي عظاته ثلاث او اربع مرات كل اسبوع: "واذا جاء احد بعد ابتداء العظة فلينذر. واذا لم يُقوّم نفسه، فليدفع غرامة قدرها ثلاث فلسفات". وليس لاحد ان يعفى من اداء الصلوات البروتستنتية بحجة انه يعتقد عقيدة دينية مخالفة او خاصة، وكان كالفن متمسكا في رفضه الفردية في العقيدة. فقد رأى انقسام الاصلاح الديني الى مائة طائفة، فقرر الا يسمح بوجود طائفة منها في جينيف. هناك هيئة من رجال الدين العلماء، تصوغ عقيدة رسمية، وعلى الذين لا يقبلون اعتناقها من اهالي جينيف، ان يبحثوا لهم عن موطن اخر. وكان التغيب في اصرار عن حضور الصلوات او الاستمرار في رفض تناول القربان، من الجرائم التي يعاقب عليها القانون. واصبحت الهرطقة من جديد اهانة للرب، وخيانة للدولة، وكل من تثبت عليه يعاقب بالاعدام. كما اصبحت الكاثوليكية بدورها هرطقة.

وبين عامي 1542 و 1564، نفذ حكم الاعدام في ثمانية وخمسين شخصا، ونفي ستة وسبعون، بسبب مخالفتهم للقانون الجديد. وكان السحر في جينيف، كما في أي مكان آخر، جريمة يعاقب من يزاوله بالاعدام. وقد ارسل كالفن الى سارية الاحراق في عام واحد، وبناء على ما اشر به مجمع الشيوخ، اربع عشرة سيده، قيل انهن من الساحرات، بتهمة اغرائهم للشيطان، بان يصيب جينيف بوباء الطاعون.

ولم يميز مجمع الشيوخ بين الدين والاخلاق. كان السلوك الاخلاقي، مثله مثل العقيدة الدينية، يجب ان يلتزم به بعناية، ذلك لأن حسن السلوك هو الهدف من العقيدة الصحيحة. وكان كالفن، الرجل الحازم والصارم، يحلم بمجتمع يدين بنظام صارم، الى حد تبرهن فضائل المؤمن على لاهوته، وتجلى بالعار الكاثوليكية، التي اثمرت حياة الترف والانحلال في روما، او تسامحت فيهما. ولا بد ان يكون النظام هو العمود الفقري لشخصية الفرد، وان يمكنها من ان ترقى بنفسها، من حالة الفطرة البشرية، الى استقامة الانسان الذي قهر شهوات نفسه. يجب ان يكون رجال الدين قدوة لغيرهم بسلوكهم، وفي امكانهم الزواج وانجاب البنين، وعليهم ان يمتنعوا عن الصيد والمقامرة واللهو والتجارة وضروب التسلية الزمنية، وان يقبلوا ان يقوم رؤسائهم من رجال الكنيسة بجولة تفتيشية سنوية، وان يتقصوا عن اخلاقهم.

ولتنظيم سلوك الجماهير اقيم نظام يعتمد على الزيارات المنزلية، يتلخص في ان يزور احد شيوخ الكنيسة كل بيت عين له في الحي، ويتقصى عن احوالهم وتصرفاتهم. وافر تحريم المقامرة ولعب الورق والتجديف والسكر والتردد

على الحانات والرقص والاغاني الماجنة او الخارجة عن الدين، والافراط في اللهو، والبذخ في العيش، والتبذل في اللبس. وحدد القانون اللون المسموح به في الملابس ومقارها، وعدد الاطباق المسموح بها في الوجبة الواحدة. وكانت الحلى تعتبر من المحرمات. وسجنت امرأة، لانها صفت شعرها الى ارتفاع يتنافى مع الادب. واقتصرت الحفلات المسرحية على التمثليات الدينية، ثم منعت هذه ايضا. ومنع تسمية الاطفال باسماء القديسين - الواردة في التقويم الكاثوليكي - وامر بتسميتهم باسماء شخصيات الكتاب المقدس. وسجن والد عنيد اربعة ايام، لانه اصر على تسمية ابنه كلود بدلا من ابراهيم.

فُرضت الرقابة على المطبوعات، وحُظر تداول كتب تتكلم عن عقيدة دينية خاطئة او انها تتنافى مع الخلق القويم. وكان الحديث عن كالفن او رجال الدين بازدياد يعد جريمة، واول مخالفة لهذه القوانين تعاقب بالزجر، اما المخالفة التالية فكانت تعاقب بالغرامات، والاصرار على المخالفة بالسجن او النفي.

اما الفسق فكان مرتكبه يعاقب بالنفي او بالموت غرقا، ومن يرتكب جريمة الزنا او الكفر او عبادة الاوثان يعاقب بالاعدام.

## حكم كالفن (1541-1564)

عن ماذا اسفر حكم كالفن هذا؟

حكم كالفن مدينة جينيف كادكتاتور مستبد منذ عودته الى هذه المدينة عام 1541 وحتى وفاته عام 1564. الا انه لم يتم له ذلك بدون صعوبات وصراع. لا شك ان الصعوبات التي واجهت التنفيذ كانت هائلة، لانه لم يحدث قط في التاريخ ان طُلب من مدينة مراعاة مثل هذه الفضيلة الصارمة، وعارض فريق كبير نظام الحكم الى درجة اعلان الثورة الصريحة. ولكن عددا لا يستهان به من المواطنين ذوي النفوذ ايدوه.

وصف برناردينو اوكينو، وهو رئيس عام سابق للكبوشيين، ترك الكهنوت وانضم الى البروتستنت ووجد ملجأ في مدين جينيف، الحياة فيها: "ان الشتم والتجديف وعدم التمسك بالعفة وتدنيس المقدسات والزنا والحياة غير الطاهرة، كما يشيع ويغلب ذلك في كثير من الاماكن التي عشت فيها، غير معروفة هنا. ليس هناك قوادون ومومسات. ان الناس لا يعرفون ما هو الاحمر، وكلهم يرتدون زيا لائقا، والالعب التي تعتمد على الحظ ليست مألوفة. والخير وفير جدا الى حد ان الفقراء ليسوا في حاجة الى التسول. ويأمر الناس بعضهم بعضا بالمعروف بطريقة اخوية كما فرض المسيح. والدعاوي اختفت من المدينة، ولم يعد فيها أي تجار بالمقدسات او قتل او روح حزبية، وعمها السلام وحب الخير. ومن جهة اخرى ليس هناك الآت ارغن ولا اجراس تدق ولا اغاني استعراضية ولا شموع تشعل او مصابيح تضاء (في الكنيسة) وليس هناك ذخائر مقدسة او صور او تماثيل او اثواب فاخرة او هزليات او احتفالات. ان الكنائس خالية تماما من عبادة الاوثان".

الا ان سجلات المجلس البلدي عن هذا العهد، لا تتفق مع هذا الوصف، فهي تكشف عن نسبة عالية من الاطفال غير الشرعيين والاطفال المهجورين والزيجات التي تمت بالاكره والاحكام الصادرة بالاعدام. ومن بين من ادينوا بالزنى صهر كالفن وابنة زوجته وامرأة اخيه. وبين سنة 1542 وسنة 1563، حكم بالموت على 85 شخصا وبالنفي على 76 من اجل جرائم مختلفة وسوء الاخلاق.

## الصراع والمعارضة

ربط كالفن عودته الى جينيف بقبول المجلس البلدي خطته التنظيمية للكنيسة: وجوب تأدية القسم لقانون ايمانه، واتباع ليتورجيته، والخضوع لقوانين كنيسته، بما يخص حضور الوعظ، وقبول الاسرار، وخصوصا مجموعة المحرمات التي فرضها. ولم يستطع كالفن ان يفرض هذه النظام، لا على الرعاة ولا على الشعب الا على حساب مجهود كبير وهمة لا تقهر.

كان اول صراع له مع الرعاة انفسهم. كان هؤلاء، بحسب شهادة صديقه فاريل، "رجالا وضعين، مفرطين في الاكل والشرب، اجلاف، مشاغبين"، لا رئيس لهم، ولا يؤلفون جسما متجانسا، وتقصهم الوحدة، وخطة عمل

مشتركة. اراد كالفن ان يضع حدا لهذه الفوضى، ودفع ثمن ذلك غالبا الكثير من الرعاة المتمردين الذين ارغموا على مغادرة البلاد، ووضع مكائهم رعاة فرنسيين من اصدقائه المهاجرين الى جنيف، هربا من الاضطهاد في فرنسا. ومن هؤلاء الرعاة سبستيانو كاستيليو.

### قضية سيباستيان كاستيليو *Sebastian Castellio*

تعرف كاستيليو على كالفن في ستراسبورغ، ثم جاء الى جنيف وعين مديرا لاحدى المدارس. قدم طلبا لتعيينه راعيا في جنيف، وصادق عليه مجلس الرعاة، لكن كالفن عارض التعيين لان كاستيليو انكر قانونية سفر نشيد الاناشيد، وقال ان سليمان كتبه في ساعة من النشوة واللذة المحرمة. كما شك في فقرة من قانون ايمان كالفن وهي نزول المسيح الى الجحيم. وفي اثناء دفاع كاستيليو عن نفسه ادلى بملاحظات فاضحة عن رعاة جنيف مما اضطر المجلس اخيرا ان يقصيه عن وظيفته ويطرده من المدينة.

### صراعه مع السلطة المدنية

كانت حكومة جنيف، عند عودة كالفن اليها، تتألف من ثلاث مجالس: المجلس الصغير *le Petit Conseil* او مجلس العشرين *Le Conseil des Vingt*، ومجلس الستين *Sénat ou le Conseil des Soixante*، والمجلس الكبير *Le Grand Conseil* او مجلس المائتين *Le Conseil des Deux Cents*، ولكل مجلس صلاحياته. الا ان صلاحية اخذ القرارات واصدار القوانين وتعيين رؤساء المجلس كانت بالفعل تعود الى المجلس العام او الشعبي *l'assemblée populaire* او *Le Conseil Général*. فبدل كالفن في هذا النظام، واعطى المجالس المذكورة صلاحية اصدار القوانين، اما تعيين رؤساء المجالس، فكان من حق الشعب انتخابهم، الا انه قيدهم بلائحة اسماء مختارة من قبل المجلس الكبير. وبذلك فقدت جنيف الحكم الديمقراطي الذي منحها اياه حكم الاساقفة السابق.

بعد ان لجم كالفن سلطة الشعب، اراد ان يثبت اولوية السلطة الدينية بارغام المجالس على قبولها. الا ان هؤلاء لم يرضخوا بسهولة لنزع حقهم والتنازل عن سلطتهم سواء في اختيار وتعيين وعزل الرعاة او في تعيين الشيوخ في مجلس الشيوخ، وحرمان اشخاص من العشاء الرباني، واراد ان يتم استشارته، وان لا يعطى للسلطة الدينية حق ممارسة السلطة المطلقة بدون رقيب او حسيب. لم يكن هدف المجالس برفضهم هذه السلطة، معارضة الاصلاح، انما كانوا يرغبون فعلا في بقاء ما كا قائما قبل مجيء كالفن، لانهم لم يريدوا، بعد ان تركوا الكاثوليكية، وحطموا سلطة الاساقفة، ان يقعوا في دكتاتورية اخرى.

لذلك كثرت النزاعات بين السلطتان المدنية والدينية.

### قضية بيير اميو *Pierre Ameaux*

بحلول سنة 1546 حظرت القوانين الجديدة ممارسة لعب القمار. عانى احد الاشخاص المدعو بيير اميو، وكان احد اعضاء المجلس الصغير، والذي كان عمله تصنيع ورق اللعب، من خسائر مادية. وفي حفل ما وبعد ان شرب الكحول، هاجم كالفن شخصيا ووصفه ب انه يبشر بعقيدة زائفة وانه رجل شرير. ابلغوا عنه وأرغم على المثول امام المجلس. استمرت المحاكمة بعض الوقت وانتهت الى القرار بالحكم على اميو ان يقدم اعتذارا الى كالفن. لم يكن هذا كافيا بالنسبة لكالفن. وعلل ذلك ان اميو لم يهن كالفن فقط وانما اهان الله ايضا، لذلك يجب ان يعرض عن ذلك، وطالب بعقوبة اشد. اخيرا رضي كالفن بحكم المجلس، ان يطوف اميو المدنية حافي القدمين، عاري الرأس، مرتديا قميصا فقط وحاملا مشعلا، لينتهي به المطاف راکعا على ركبتيه ملتصبا الرحمة من الله والحكومة. ولما انتقد احد الرعاة العقوبة بانها قاسية جدا، سجنه المجلس واقصاه عن رعيته.

### قضية عائليتي بران وفافر *Les Perrin et les Favre*

اراد كالفن، بعد انتصاره في قضية اميو، ان يضرب ويذل هذه المرة الطبقة البرجوازية، التي سمحت لنفسها ان تتجراً وتتحداه وتسخر منه. وجاءت قضية عائليتي بران وفافر لتطعي كالفن هذه الفرصة.

كانت عائلتا بران وفافر من العائلات التي تعتبر نفسها من العائلات المستقلة والحررة، وكانت تدعي انها لا تتبع من النظام الكلفيني الا ما يروق لها. وكان رئيس العائلة امي بران، في بداية الاصلاح، رئيسا للحزب المؤيد للاصلاح، وعمل ساعيا لعودة كالفن الجينيف، الا انه ونسيبيه فافر لم يوافقا على السلطان الذي كان يستعمله المجمع في مراقبة سلوك الناس والحكم عليها.

في عام 1547، حكم على امي بران بالسجن والتوبة في حادثة اخلاقية قديمة. وارسله المجلس البلدي الى مجلس الشيوخ، فحضر الا انه اعترض على صلاحياته في الحكم عليه والتدخل في الامور الخاصة والشخصية. وطلب مجلس الشيوخ من المجلس البلدي ان يعرض بران عن الالهانة التي احاقت بمجلسهم. فرفض المجلس.

وبعد مدة قصيرة طُلب من فرانسواز فافر، ابنة بران، الحضور امام مجلس الشيوخ بتهمة الرقص في حفلة زفاف، وبدل ان تدفع الغرامة التي فُرضت عليها، اجابت انها ستواصل الرقص كما يخلو لها، وزيادة على ذلك اهانت الحكام. اعترض امي بران بشدة وعلانية على حق مجلس الشيوخ في التدخل في الامور الخاصة، وبعد صراع طويل وقف مجلس المدينة بجانب كالفن، وسجن بران عدة ايام. بعد خروجه من السجن، أُرسِل الى الخارج بمهمة دبلوماسية. وبعد عودته ترك الحزب المؤيد للاصلاح وانضم الى الحزب المعارض.

### قضية يعقوب جريه Jacques Gruet

كان كالفن يأمل بكل هذه الاحكام ان يوطد سلطته على سكان جينيف. ولكنه في الحقيقة اثار ضده عددا لا بأس به من مؤيديه الذين انفصلوا عنه وانضموا الى الحزب المعارض، وبدأوا في انتقاد الطغيان والاستبداد.

في 27 حزيران عام 1547، وجد كالفن اعلانا كبيرا ملصقا على منبره جاء فيه: "منافق كبير، انك لن تجني انت ورفقاؤك الا النذر اليسير، واذا لم تنجوا بحياتكم بالهرب، فلن يحول احد دون القضاء عليكم. عندما تزيد من اثارك لنا فنحن نفجر، وعندما تحملنا اكثر مما نطيق نلجأ للانتقام. نحن لا نريد بعد ذلك ان يكون لنا مثل هذا العدد الكبير من السادة". اتهم كالفن يعقوب جريه، احد كبار "جماعة الاحرار". وفتشت الشرطة بيته، ولم يجدوا دليلا على انه هو كاتب المنشور، الا انهم وجدوا بعض الاوراق التي تثبت انه كا يضع الكتاب المقدس موضع الشك، ويهاجم مؤلفات كالفن، حيث كتب في احدى الصفحات: "كل القوانين الهية وانسانية صنعها الناس بمزاجهم". وعلى هامش احد مؤلفات كالفن كتب كلمة "تحريف". فوجهت اليه تهمة التحديف، اذ ان الهجوم على الكتاب المقدس او المبادئ المستمدة منه كان يعتبر هجوما على جلال الله نفسه. عندئذ عذب جريه وحكم عليه بتهمة الخيانة العظمى وقطع رأسه.

### استمرار المعارضة

واستمرت المعارضة تزداد يوما فيوما، وازداد التذمر، ولم يعد احد يتكلم الا عن مؤمرات لطرد الوعاظ. وفي الثامن عشر من كانون اول عام 1547، اندلعت الفوضى والاضطراب في كنيسة القديس بطرس في جينيف، ووجه الحضور الالهانات الى الوعاظ الفرنسيين، وهددوا بالقائهم في النهر. وغدا كالفن منهكا من العمل والحزن، وبدأت صحته تزداد اعتلالا، وتملكه اليأس امام رفض اهل جينيف سماع تنبيهات الله، وتمردهم على رعاته. فكتب بهذه الروح المتضععة الى صديقه فاريل يقول: "لا استطيع ان اتحمل بعد تصرفات هذا الشعب". الا انه عاد واستعاد قواه ووقف من جديد امام اعدائه.

واستمر الصراع ووصل اوجه بين عام 1548 الى 1553. ففي انتخابات عام 1548، ظهرت النتائج لغير صالح كالفن، اذ اصبح مؤيدوه حزب اقلية لأول مرة منذ عودته الى جينيف. وتم اختيار رئيس الشرطة من بين اعدائه. واصبح امي بران في عام 1549، رئيس المجلس البلدي. فاتخذ المجلس عدة تدابير واجراءات تحد من سلطة كالفن. واصابت احدى هذه الاجراءات، احدى النقاط الحساسة لدى كالفن، الا وهي "المهاجرين" الذين كان اعتماد كالفن عليهم كليا. فاصدر مجلس المائتان قرارا عام 1551، يمنع بموجبه قبول أي غريب في سلك البرجوازية،

وبالتالي يمنع قبوله في المجالس، قبل مرور 25 عاما على اقامته في المنطقة. وبذلك اصبح المهاجرون فئة غير مرغوب فيها وعرضة للنفي.

### قضية جيروم بولسك Jerome Bolsec

كانت معظم القضايا التي تعرضنا لها حتى الان خليطا من القضايا السياسية والدينية معا. ولكن قضية بولسك تعتبر من المشاكل العقائدية المهمة جدا، لانه اعترض علانية على تعاليم كالفن في موضوع الاختيار السابق. ولد بولسك في باريس، وانخرط في سلك الرهبنة الكرملية على انه لم يستمر طويلا في الدير، فقد خلع ثياب الرهبان وتخصص في دراسة العلوم الدينية والطب، وحصل على درجة الدكتوراه في العلوم الدينية. انضم الى مذهب الاصلاح، واضطر الى الفرار الى ايطاليا اولا عام 1545، ومن ثم الى جنيف عام 1548، حيث كان يمارس مهنة الطب.

اعتاد بولسك على حضور اجتماع الرعاة الذي كان يعقد كل يوم جمعة. وقد خصص هذا الاجتماع كما قلنا، لدراسة الكتاب المقدس ومناقشة بعض المسائل العقائدية. اظهر بولسك في عدة مناسبات عدم موافقته على تعاليم كالفن الخاصة بالاختيار السابق. واضطر الرعاة عدة مرات الى توبيخه. وفي يوم 16 تشرين اول عام 1551، تحدث في اجتماع الرعاة محتجا بشدة على عقيدة الاختيار السابق، وخاصة الاختيار المزدوج ( Double prédestination). واعلن ان كالفن بقبوله لهذه العقيدة والتعليم، ينسب الى الله فعل الخطيئة، باعتباره (الله) المسؤول عن هلاك الخاطئين، لانه هو الذي سبق وعينهم للهلاك. وهذا الاختيار لا يتم بحسب الاعمال الصالحة او الاعمال الشريفة التي يقوم بها الانسان، بل ان هذا الاختيار يتم حسب مسرة الله وارادته، أي ان تعاليم كالفن هذه تجعل من الله غير عادل وطاغية.

رد كالفن على بولسك بجدة وانفعال، ودافع عن عقيدة الاختيار المزدوج. واستعمل كلمات قاسية بل جارحة. وكان حاضرا في هذا الاجتماع أحد المسؤولين عن النظام والقضاء، فامر حالا بالقبض على بولسك، والقاء في السجن. واستمرت القضية طويلا. وكان النقاش بين المتهم وكالفن نقاشا حادا. وعندما اجتمع مجلس المدينة في 21 كانون ثاني 1551، حكم على بولسك بالنفي المؤبد. على انه لم يعط كل الحق لكالفن. الا انه اعلنه المفسر الرسمي للكتاب المقدس. وعاد بولسك بعد ذلك الى الكنيسة الكاثوليكية وكتب كتابا عن كالفن.

### قضية برتليه Berthelie

كان نفي بولسك من المدينة يُعتبر انتصارا لكالفن ولاتباعه، ولكن بالرغم من هذا الانتصار فقد كان فرصة اضعفت نفوذ كالفن واتباعه. فان الفترة التي قضاها بولسك في السجن اثارت عطف الكثيرين عليه، لا بل ازكت روح المقاومة ضد كالفن. وبدأ حزب المعارضة الاحتجاج من جديد على سلطة كالفن والمجمع. وفي انتخابات عام 1553، اصبح كل اعضاء المجلس البلدي (Syndics) تقريبا من حزب المعارضة، واصدر عدة قرارات تحد من سلطة كالفن الدينية. فاصدر مرسوما اول في اذار 1553، نزع من الرعاة حق الانتخاب في المجلس العام، ومرسوما ثانيا في نيسان، حرم المجمع العام، من حق الحرمان. وتقدم على اثر ذلك، برتليه Berthelie وهو من الحزب المعارض، بطلب الى مجلس المدينة يلتمس ان يسمح له بالاشتراك في العشاء الرباني. وكان برتليه يهدف من هذا الطلب الى هدم وتحطيم سلطان كالفن وسلطان المجمع.

اجتمع مجلس المدينة الذي كانت اغلبية اعضائه من المنافسين والرافضين للاصلاح، وتحت رئاسة امي بران. وقرر ان تترك الحرية الكاملة للسيد برتليه للاشتراك او عدم الاشتراك، كما يوحي له ضميره. وليس للمجمع أي سلطة تمنعه من ذلك، وتمسك بهذا القرار. وكان القرار تحديا صارخا لسلطان الكنيسة وسلطان كالفن.

اعترض كالفن والرعاة على هذا القرار، وتمسك كالفن بشدة، بمنع برتليه وحق المجمع في الحرمان. كان التسليم بهذا القرار يعني بالنسبة الى كالفن انهيار كل النظام السياسي-الديني الذي عمل على بناءه. وبدأ يعد نفسه للرحيل

وترك المدينة، عندما ثارت قضية من اهم القضايا التي تعرض لها كالفن، واصبحت نقطة سوداء في تاريخ الكنيسة الكلفينية، الا وهي قضية ميشيل سرفه.

### قضية ميشيل سرفه Michel Servet

سببت هذه الحادثة مشادات ومجادلات في عصر كالفن واستمر الحوار حولها بين المؤرخين. وقضية سرفه وان افضت الى كسب سياسي لكالفن، فانها الى حد ما انقصت من شهرته وسمعته.

كان سيرفه اسبانيا في سن كالفن تقريبا. درس في فرنسا وسويسرا حيث تأثر بالافلاطونية. اتخذ موقفا من علاقة يسوع المسيح الابن، بالله الاب، شبيها بالمودليزم، أي التوحيد المختص بالقول ان الله اقنوم واحد في اطوار ثلاثة. الف ايضا كتابا منتقدا عقيدة الثالوث، مدعيا انه لا يوجد ما يؤيد هذا التعليم في الكتاب المقدس. سبب هذا الكتاب عاصفة في كلا المجتمعين الكاثوليك والبروتستانت لدرجة ان سيرفه اختبأ وانتحل اسما آخر. وانتقل الى باريس ودرس الطب وتوصل الى اكتشاف هام عن دورة الدم الرئوية.

في حوالي سنة 1555 قام سيرفه، مع استمراره في مهنته كطبيب، وتحت اسم مستعار، بكتابة كتاب عنوانه "اصلاح المسيحية"، هاجم فيه العقائد المسيحية الاساسية مثل الثالوث والهوية المسيح. وكان يغلب على تعليمه مذهب الحلولية Panthéism. في هذه المدة ايضا بدأ سيرفه مراسلاته مع كالفن. ارسل له كالفن نسخة من كتابه "الانظمة" الذي اعاده سيرفه بملاحظات مهينة مكتوبة على الهوامش. عندئذ ارسل سيرفه الى كالفن نسخة من كتابه "اصلاح المسيحية". بعد ان قرأه كالفن، قال لاحد اصدقائه: "هذا الرجل بالتأكيد ابن الشيطان". استمرت بينهما المراسلات بعض الوقت، لكن المواقف كانت متباعدة جدا لدرجة ان كالفن قطع علاقته معه، كاتبها الى فاريل هذه الكلمات: "اذا حضر سرفه الى جينيف لن اسمح بان يخرج حيا".

في نفس الوقت تقريبا كشف صديق لكالفن اثناء كتابته لابن عمه الكاثوليك في فرنسا، ان سيرفه موجود هناك، بل ارسل بعض صفحات من كتاب سرفه. ورغم استمرار سيرفه في انكار هويته الحقيقية، قبضت عليه السلطات الكاثوليكية وقدمته للمحاكمة مذنبا بجريمة الهرطقة. الا انه هرب قبل التمكن من اعدامه، فحرقت دميته ونسخا من كتابه.

تجول سيرفه داخل فرنسا بعض الوقت، ثم اتجه الى ايطاليا، وفي طريقه توقف في جينيف، وصل الى كنيسة القديس بطرس مع كالفن في المنبر. اكتشفوه وقبضوا عليه وقدموه للمحاكمة ب 38 تهمة اهمها الهرطقة.

تطورت هذه المحاكمة الى مناقشة لاهوتية بين كالفن وسيرفه. اتهم كالفن سيرفه باعتناق مذهب الحلولية، وارغمه على التسليم ان بلاط ومقاعد قاعة المحكمة هي في الحقيقة "مادة الله". عندئذ قال كالفن "اذن الشيطان هو الله في المادة" فاجب سيرفه "هل تشك في ذلك؟". اتهم سيرفه ايضا بالتجديف في اقتراحه ان موسى كان مخطئا في تسمية فلسطين ارضا "تدر لبنا وعسلا". وكا واضحا ان سيرفه لم يتوقع تعاطفا من المجلس ازاء هذه الآراء. علاوة على ذلك، طلب المجلس المشورة من برن وبازل وزوريخ، وكانت اجابة الكل ادانة سيرفه.

لو كانت المناقشة اللاهوتية الموضوع الوحيد في قضية سيرفه، لانتهدت القضية عند هذه النقطة. لكن هناك ايضا الوضع السياسي لكالفن، ذلك ان اعداءه كانوا يأملون ان يكون في امكانهم استخدام المحاكمة لاختبار القوة الاحزاب المنافسة في جينيف وثبات قوة كالفن في الهيمنة على المدينة. حاول برتيليه، احد اعضاء حزب المعارضة الدفاع عن المتهم، ليس من منطلق التعاطف مع سيرفه، لكن كوسيلة لانتزاع الثقة من كالفن، هذا بالطبع اضافة بعدا جديدا للمحاكمة. اصبح من المحتم على كالفن ان يكسب لكي يضمن مركزه السياسي.

عند وصول اجابات الادانة باجماع الآراء من المدن الاخرى، تحركت جينيف بسرعة لاصدار الحكم على سيرفه. وفي 26 تشرين اول سنة 1553، صدر الامر باعدامه حرقا. سبق لكالفن ان طلب موتا اقل تعذبا مثل الاعدام بقطع الرأس. لكن المجلس اهمل هذا الطلب. وعندما اقتيد الى المحرقة، توسل اليه فاريل ان ينكر ويتخلى عن

هرطقته. لكن سيرفه كان شجاعا لآخر لحظة. وكان كلماته الاخيرة من وسط اللهب المتصاعد "يا يسوع انت ابن الله الازلي، ارحمني".

كانت مقاضاة كالفن الحالية من الرحمة بدون شك السبب في اداة سيرفه. تأسفت الاجيال المتعاقبة في الكنيسة الكالفينية لهذا العمل، وتمنت لو ان كالفن كان اقل قسوة. ويأخذ البروتستنت ايضا على كالفن، انه شارك الكنيسة الكاثوليكية في مفهومها للحكم على الهراطقة بالموت. لقد هرب سيرفه من الموت الذي اصدرته عليه الكنيسة الكاثوليكية في مدينة فين، وجاء الى قلعة البروتستانتية فوجد فيها الموت ايضا. واعترفت الكنيسة الكالفينية بهذه الغلطة التي ارتكبها كالفن وبعض اتباعه، ولاجل ذلك قررت الكنائس الكالفينية في فرنسا وجينيف ان تعترف بهذا الخطأ بطريقة واضحة، فالفت لجنة لدراسة هذا المشروع. وبعد دراسة طويلة قررت اقامة حجر ضخم في نفس المكان الذي حرق فيه سيرفه في مدينة جينيف. وفي يوم 27 تشرين اول سنة 1903، اجتمعت الكنائس الكالفينية في جينيف، بالاشتراك مع بعض الكنائس الاخرى السويسرية والفرنسية، وفي حفل تذكاري مهيب، ازيح الستار عن الحجر التذكاري الضخم، وقرأ الحاضرون هذه الكلمات: "نحن ابنا كالفن العظيم الذين يحترمونه ويعترفون بفضله، ولكننا ندين غلطة كانت معهودة في عصره. واذ متمسك تمسكا ثابتا بحرية الضمير حسب المبادئ الصحيحة للاصلاح والانجيل نقيم هذا الحجر التكميري في يوم 27 تشرين اول 1903". واقامت كل من مدينة فيينا Vienne وباريس وانماس تمثالا لسرفيه. كما اعطت مدينة ديجون اسم سيرفه لنفس الشارع الذي توجد فيه الكنيسة الانجيلية.

### اكاديمية اللاهوت

وجد كالفن طريقة اخرى لمواصلة عمله في نشر تعاليمه وعقائده، وهي انشاء اكاديمية علمية. وكانت الفرصة التي قضاها في ستراسبورغ فرصة ذهبية لكي يرى عن كثب مدرسة الدراسات العليا التي اسسها يوحنا ويعقوب ستورم في سنة 1538، والتي درّس هو نفسه فيها العلوم الدينية المسيحية.

وبينما كان كالفن يدرس مشروع الاكاديمية ويخطط لها، اندلع نزاع عقائدي سياسي بين حكومتي برن ولوزان، مما اضطر عددا كبيرا من الاساتذة الى الهروب من لوزان الى جينيف وخاصة من الفرنسيين اصدقاء كالفن، مثل مارتن كورديه، ثم صديقه العزيز ومؤرخ حياته ثيودور دي باز، وعدد اخر من الاساتذة الذين طارت شهرتهم الى الخارج.

بدأ كالفن عندئذ تأليف نخبة من الاساتذة الكفاء، وأسند رئاسة الاكاديمية الى صديقه ثيودور دي باز، فاصبح اول عميد لها. وكان يدرّس كالفن الكتب المقدسة، واهتم برو Beraud بتدريس اللغة اليونانية. وكان هناك استادا للعبرية واخر للفلسفة وآخر للغة اللاتينية. ودشنت الاكاديمية في 5 حزيران عام 1559.

اشتهرت هذه الاكاديمية في كل اوروبا. فجاء اليها طالبو العلم من كل انحاء اوروبا، ومن بين هؤلاء الطلبة مصلح المستقبل الاستكلندي جون نوكس John Knox. وامتدت هذه الاكاديمية البلاد الاوروبية بالخدم (القسس)، ومنها خرجت الافواج لنشر الافكار الكالفينية في فرنسا وهولندا وانجلترا والمانيا وبولونيا والمجر.

### تدهور صحة كالفن

اصبحت جينيف الان في قبضة يده، فقد ربح الحزب المؤيد لكالفن في الانتخابات الجديدة، واصبحت الاكثرية في مجلس المدينة، وبناء عليه فان الدستور الذي كان موضوع النزاع المستمر، يطبق الان بطريقة عملية.

كانت هذه الفترة فترة نمو مستمرة لسلطة كالفن وسلطة المجمع. ففي هذه الفترة ايضا حصل كالفن على حق الجنسية الجينيفية. فحتى الآن كان يُعتبر اجنبيا غريبا. وفي عيد الميلاد سنة 1559، أي بعد عدة شهور من تأسيس الاكاديمية، قدم حاكم المدينة للمصلح الفرنسي يوحنا كالفن الجنسية الجينيفية مع كل امتيازاتها.



في نفس اليوم الذي حصل فيه كالفن على الجنسية الجينيفية، وبينما كان يتناول طعام الغداء مع اصحابه في 25 كانون اول 1559، وهو يوم عيد الميلاد، بصق دما، وبكميات ضخمة.

كان كالفن يعلم حالته الصحية وضعف بدنه، فقد كان يعاني منذ شبابه بعدة امراض، ومنها الصداع المؤلم . ثم تراكمت الامراض، بجانب صداع مستمر، ازمت ربو حادة مع رشح. وظهرت بعد ذلك مرض البواسير والحمى، انهكت قواه واضعفت جسده، فاصبح حقلا مهينا لمرض الدرن الذي كان يُعد في ذلك الوقت مرضا خبيثا. كما كان يقاسي من مرض الكلى، ومغص كلوي حاد ومؤلم.

وبجانب هذا تعرض كالفن ايضا الى ازمت نفسية، كان اولها موت ابنه الوحيد الذي لم يتجاوز خمسة عشر يوما. وجاء بعد ذلك اتهام ابنة زوجته التي كان يعتبرها كابنته، بالزنا وحكم عليها مجلس المدينة بحسب القوانين المتبعة في ذلك الوقت بالسجن. ثم مشكلة اخيه انطون الذي جاء مع زوجته، واخته ماري، وكان كلاهما خير مساعد له، الا ان زوجة انطون اتهمت بالزنا، وقضت 9 سنوات في السجن. بيد ان اقصى تجربة كانت موت زوجته. ظل هذا الرجل يعمل حتى الايام الاخيرة من حياته، بالرغم من كل المعوقات، وخاصة العقبات الصحية. فقد بدأت صحته في التدهور بشكل واضح في السنة الاخيرة من حياته. فقد تغيب مرات عديدة عن جلسات المجمع في سنتي 1563-1564. وبالرغم من حالته الصحية المتدهورة، استطاع ان يخرج تفسيره عن ارميا سنة 1563. وفي يوم 4 شباط 1565 القى محاضرة امام تلاميذ الاكاديمية عن سفر حزقيال. وفي يوم 6 شباط، قدم عظة عن توافق الاناجيل، وبعد هذه العظة لم يصعد على المنبر.

## موت كالفن

في يوم 25 نيسان استدعى كالفن الى بيته الكاتب الشرعي، وامل عليه وصيته الاخيرة التي ذكر فيها ما ملخصه، انه يقدم اولا الشكر لله على رحمته ومحبته وطول أناته، وانه يتوسل الى المسيح ان يمنحه رحمته. اما فيما يخص الممتلكات البسيطة، فقد منح جزءا منها على هيئة منح دراسية للطلبة الفقراء، والباقي من ممتلكاته يوزع على اخوته.

اراد ان يذهب في 27 نيسان لمقابلة مجلس المدينة، فرفض المجلس ان يحضر كالفن، بل ذهبوا كلهم الى بيته ، فشكرهم على لطفهم وعلى الصبر الذي اظهره من ناحيته، طالبا منهم ان يغفروا له الاغلاط التي ارتكبها. وفي الغد حضر خدام المجمع فحثهم على مواصلة العمل باجتهد وصبر.

يعرفنا المؤرخ كولادون، ان الايام الاخيرة من حياته كانت الآما مستمرة، ولكنها كانت في نفس الوقت صلاة مستمرة ايضا. وكان يردد المزمور 39 وخاصة الاية "صمت لا افتح فمي لانك انت فعلت"، وفي الاحيان الاخرى كان يصلي قائلا: انك تؤدبني وتضربني، ولكن يكفي ان يدك هي التي تفعل ذلك...".

وفي يوم 27 ايار شعر كالفن بتحسن ملحوظ، وكان يتكلم بطريقة واضحة واعية، استمرت هذه الحالة النهار كله، ولكن عند المساء ساء وضعه، وتوفي في حوالي الساعة الثامنة مساء من نفس اليوم 27 ايار 1564. وفي الغد خرجت المدينة كلها، شعبا واكاديمية واساتذة وطلبة، لتودعه. ودفن كالفن في مقبرة بلانباله Plainpalais، بطريقة بسيطة، ولم يوضع حتى حجر باسمه كما طلب في وصيته، وذلك ظل قبره مجهولا حتى الان.

## كالفن الرجل

قليلون هم الرجال الذين تعرضوا للجدل مثل جون كالفن. فاذا ما كان تلاميذه قد مجلوه اكثر من المعقول، فان اعداءه قللوا من قدره بطريقة غير عادلة، حتى انهم اتهموه باتهامات باطلة، اثناء فترة شبابه<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> تقول احد الشائعات، انه حكم عليه بان يُعَلَّم بالحديد الحامي، واجبر على ترك نويون بسبب اعمال شائنة.

نريد في هذه الاسطر، ان نلقى نظرة على شخصية كالفن، الذي يعد من الوجوه الكبيرة في التاريخ، متجنبيين في نفس الوقت، مبالغة اصدقاءه وتطرف اعداءه.

### من الناحية العقلية Intellectuel

يعتبر كالفن من انشط العقول في عصره. بفضل ذاكرة قوية، وهمة في العمل، وقدرة على الاستيعاب، كان قادرا، في كل عظاته ومحاضراته، وحوارته، ان يستشهد - بدون أي ملاحظات مكتوبة او الرجوع الى النصوص - بفقرات طويلة من كتاب قرأ لهم وحفظ نصوصهم بامانة. كما كان قادرا في الاجتماعات على تذكر القرارات التي أخذت، والحوادث التي مرت، والاشياء التي ارتبكت. كما امتاز كالفن ايضا بقوة تمييز قوية، وبصيرة نادرة. رجل عملي اكثر منه نظري، كان يستطيع ان يقدر بسرعة الاشخاص والاشياء. كان يحسب مقدما المكاسب التي يمكن ان يجنيها، دون ان يقلل من الصعوبات التي سيلقاها.

كان ذكاء كالفن، الذي كان يعتبر من اكثر العقول ثقافة وعمقا، قويا اكثر منه منفتحا. فقد بقي كالفن منغلقا على كثير من العلوم التي تطورت في عصره، وبقي متعلقا بعلم الفلك القديم، وآمن بالتنجيم، وان الله يكشف للبشر عن المستقبل من خلال مراقبة الافلاك، وعندما انتشر وباء الطاعون في جنيف، عزا ذلك الى عمل السحر والسحرة، واعلن عليهم حربا شعواء. كما بقي منغلقا على الفن، فلم تثر فيه المناظر الطبيعية الخلابة لسويسرة أي تأثير او عاطفة. وهو الذي امر بتدمير الاعمال الفنية من صور وتمائيل واجراس والآت موسيقية. ولم يجد الا الغناء الديني والترانيم حظوة في عينيه، ليس كفن، وانما كطريقة واسلوب لنشر تعاليمه الاخلاقية.

ملك كالفن ارادة قوية، ولكنها باردة لا تنتهي، جعلت منه قائدا حقيقيا. ولم يحدث ابدا ان رجلا سياسيا ودينيا - وكان كالفن كلاهما - تابع تحقيق مخططاته بكل مثابرة وعيناد في تنفيذها. لم يسمح للمعارضة ولا للعوائق التي وضعها اعدائه امامه، باربائه، بل اذا ما شعر من وقت الى اخر بلحظات من الضعف وحوار العزيمة، سرعان ما عاد الى متابعة اعماله بهمة ونشاط كبيرين.

فكرة قوية واضحة ثابتة، قادت ودعمت شجاعته، وهي انه كان مقتنعا ان رسالته هي من الله، وانه النبي الجديد، موسى او بولس اخر. وان الله يتكلم ويعلم بواسطته. من هنا ايضا نبع ايمانه بعصمته. ومن ايمانه بعصمته نبع ايضا استنكاره لكل من لا يفكر مثله فنعتهم "بالهراطقة" و "الفاستقن الذين يعادون الله من خلال معارضتهم لمثله". وعلى مثال لوثر وربما باقل بذاءة، نعت كل من عارضه ب "الكلاب" و "الحمير" و "البلاهء". الا انه عرف من وقت الى اخر ان يخفف من حدة عدم تساهله في تعاليمه، وان يتكيف مع بعض الظروف ويتنازل عن بعض مطالباته في سبيل تثبيت دعائم كنيسته.

نقطة ضعف كالفن كانت تكمن في قلبه وعواطفه. كان ينقص كالفن احد الصفات الكبيرة التي تجعل من الكبار كبارا، وهي الطيبة، هذه العاطفة الدافئة، الاخوية، المحيية، والمنفتحة نحو ما هو عالمي. لقد حاول المؤرخون ايجاد الاعذار لقساوة وصرامة كالفن في انه لم يعرف طيلة حياته الا الالام والصعوبات والمعارضة. فمنذ صغره فقد امه، ولم يعرف في بيت ابيه وامراته مهنا للسعادة العائلية، وفي كلية مونتيجه الاقرب الى دير منه الى كلية، لم يلق الا المعارضة. وفي جنيف ولمدة خمسة وعشرين عاما، وبالرغم من صحة عليلة ضعيفة، أُجبر على ادارة معركة طاحنة ضد حتى من آمنوا بانجيله. فلا عجب اذن ان يقسو قلبه وتضعف عاطفته.

### الكاتب:

يدهش المرء عندما يلقي نظرة ولو سريعة على الاعمال والمؤلفات التي صنفها كالفن. فبالرغم من المسؤوليات العديدة التي القيت على عاتقه في تنظيم وسن القوانين الدينية في بعض الاحيان المدنية ايضا، اذ ان مجلس المدينة طلب منه الاشتراك في مشروع عمل بعض القوانين الخاصة بالمدينة ثم قيامه بتنظيم الكنيسة والمجمع، والقيام بالوعظ في ايام الاحاد وفي وسط الاسبوع، كذلك ايضا قيامه بالتدريس واعداد الرعاة، والزيارات الرعوية، وصراعه المستمر مع الحزب المعارض وكذلك صراعه مع الحزب المؤيد لوجود بعض اختلافات بينه وبين بعض الرعاة وبعض اعضاء

هذا الحزب. نرى هذا الرجل النحيف المعتل الصحة يترك خلفه مجموعة ضخمة من المؤلفات: تسعة وخمسون مجلدا من المجلدات الضخمة، خصوصا في تفسير الكتاب المقدس. نكتفي بالكلام عن اهم مؤلفاته:

### *Institution de la Religion Chrétienne* المسيحية أسس الديانة المسيحية

كان الغرض من كتابته هو الدفاع عن الانجيليين المضطهدين في فرنسا. ولاجل هذا السبب كتب كالفن مقدمة طويلة اهداها الى فرانسوا الاول ملك فرنسا الذي شن حربا ضد الانجيليين. كما انه اراد بهذا الكتاب ان يقدم تفسيراً واضحاً وصحيحاً ليس للملك فقد بل لكل الشعب الفرنسي وغير الفرنسي للعقيدة الانجيلية.

الطبعة الاولى: ظهرت الطبعة الاولى في مدينة بازل في شهر اذار عام 1536، باللغة اللاتينية. كان المجلد يحتوي على 516 صفحة من الحجم الصغير الذي يمكن وضعه في الجيب بسهولة. وقد قسم الى ستة فصول، عالج في الفصول الاربعة الاولى: الناموس والهدف منه، قانون الايمان ومحتوياته، الصلاة الربانية ومعناها، وسري العشاء الرباني والعماد. وحاول في الفصلين الاخيرين معالجة الفرائض المزيفة غير الحقيقية، ثم مشكلة الحرية الدينية. في هذين الفصلين قدم كالفن مفهومه للحرية المسيحية وعلاقة الكنيسة بالدولة. و اشار بطريقة غير مباشرة الى قضية المنشورات التي ظهرت في سنة 1543، وموقف الدولة منها والاضطهادات العنيفة التي عاشها الانجيليون بسببها. كان نجاح هذا الكتاب كبيرا، ونفذ من المطبعة بعد سنة من ظهوره.

الطبعة الثانية: عندما نفي المصلح من جنيف وذهب الى مدينة ستراسبورغ، بدأ في توضيح وتوسيع وتطوير الطبعة التي ظهرت في سنة 1536. واحتوت هذه الطبعة سبعة عشر فصلا. بدأت هذه الطبعة بفصلين جديدين تحدث فيهما الكاتب عن معرفة الله ومعرفة الانسان، كما توسع في شرح عقيدة الثالوث. ثم اضاف فصلا كاملا عن علاقة العهد القديم بالعهد الجديد، وتكلم عن العماد، ثم عن فائدة الكتب المقدسة في الرد على اعتراضات اللامعدينين. كما اضاف فصلين تحدث فيهما عن التوبة والتبرير بالايمان. وتكلم للمرة الاولى عن اختيار الله السابق والعناية الالهية، وتحدث في الفصل الاخير عن الحياة المسيحية. وظهرت هذه الطبعة ايضا باللاتينية، الا ان كالفن قام بترجمتها الى اللغة الفرنسية ونشره في جنيف عام 1541.

الطبعة الثالثة: ظهرت هذه الطبعة في سنة 1543 باللغة اللاتينية، اضاف فيها اربعة فصول جديدة، فاصبح الكتاب واحد وعشرين فصلا. وتناول في هذه الفصول شرح النذور والطقوس البشرية وقانون ايمان الرسل والكنيسة، وترجم الى الفرنسية في سنة 1545.

الطبعة الرابعة: تعتبر هذه الطبعة قمة ما كتبه كالفن في مجال العقيدة. ففي كل طبعة من الطبقات السابقة حاول كالفن ان يغير شيئا ويضيف شيئا آخر. وعندما وصل الى الطبعة الرابعة شعر ان حياته تقترب من النهاية، لذلك كان يعمل جاهدا وخاصة بمساعدة اخيه انطون وآخرين، كي يقدم للكنيسة الكالفينية تعليما كاملا عن عقيدته المسيحية. فبالرغم من الآلام القاسية المبرحة التي كانت تلتهم جسده، استطاع ان يعدل ويصحح كل الطبقات السابقة، وظهرت الطبعة في سنة 1559 باللغة اللاتينية، وفي 1560 باللغة الفرنسية. وقفر الكتاب من 21 فصلا الى ثمانين.

اتصفت كتابات كالفن من ناحية المحتوى، بالمنطق الصارم والترتيب والوضوح. امتلك كالفن فن عرض المشاكل وحلها بواسطة تحاليل مختصرة ومتراطة بترتيب واضح. اما من ناحية الاسلوب، فقد غلب على كتاباته الاسلوب الرزين، الجاد، والجاف. وكما وصفه بوسيه Bousset "الاسلوب الحزين". الا انه يجب الاعتراف ان كالفن عرف ان يعبر عن افكاره في صيغ قصيرة وقوية، تنطبع بسهولة في الذاكرة. وهذه ميزة ادبية جعلت منه واحد من افضل الكتاب في القرن السادس عشر.

### تعاليم كالفن

توجد معظم تعاليم كالفن في الطبعة الاخيرة من كتابه "اسس المسحية"، وفيه تعاليم مشتركة مع الكنائس البروتستانتية الاخرى، وبعض التعاليم الخاصة التي تميز بها كالفن.

## 1) التعاليم المشتركة

لا تشكل التعاليم الكالفينية تجديدا في التعاليم البروتستنتية. فقد استقى كالفن تقريبا اكثر عناصر عقيدته من لوثر وملانكتون وزوينجلي، وبوسر. الا انه من الخطأ الاعتقاد انه قام بعرض افكار المجددين الالمان والسويسريين الى الشعب الفرنسي وبلغة فرنسية. بل ان كالفن ذهب ابعد من ذلك، وادخل في الكثير من تعاليمه وخصوصا ما يخص الاختيار السابق والعشاء الرباني وتنظيم الكنيسة، افكارا جديدة من بنات افكاره، ومزجها وشكلها عجينة واحدة، لدرجة نستطيع ان نقول انه خلق عملا اصيلا، تتميز بالتعارض الكامل مع الكاثوليكية. ويعود اليه الفضل بجمع وتنسيق الفكر والمبادئ البروتستانتية بطريقة اصيلة جازمة.

استقى كالفن اولاً من لوثر. ويظهر هذا الارتباط في الطبعة الاولى لكتابه "اسس المسيحية"، الذي ظهر عام 1536. تطابق الفصول الثلاث الاولى ما جاء في كتاب لوثر "التعليم المسيحي الكبير والصغير Le Grand et le Petit Catéchisme" حول الشريعة والايمان والصلاة. ويحتوي الفصلان الرابع والخامس حول الاسرار، استعارات طويلة من كتاب لوثر "الاسر البابلي". اما الفصل الاخير فيُعتبر توسعا في افكار لوثر حول الحرية البشرية، الموجود في كتابه بنفس الاسم.

تبني كالفن تعاليم لوثر حول طبيعة الانسان، والخطيئة الاصلية، والتبرير، والايمان، وقيمة الاعمال الصالحة. وعلم على مثال لوثر ان الانسان الفاسد كلياً بالخطيئة الاصلية، محروم من حرية الاختيار وغير قادر على عمل الخير، وانه يبرر بالايمان فقط، حسب المعنى اللوثيري، أي نظرا لاستحقاقات المسيح، وان الاعمال الصالحة غير ضرورية ولا نفع منها، لانها خالية من أي قيمة اخلاقية.

الا ان كالفن حافظ ايضا على نوع من الاستقلال في ارتباطه بلوثر، ولم يرد ان يُستعبد لمعلم ولا لكتاب. فمثلا فيما يخص موضوع استعمال الصور والتماثيل، بينما ادان لوثر مبدئيا استعمالها، الا انه عمليا تساهل معها، رفضها كالفن كلياً وطالب بتحطيمها "كعبادة اصنام ممقوتة".

اما تأثير ملانكتون على كالفن فكان بدرجة اقل، واقتصر على ارضية الاسرار، حيث استلهم كالفن تعاليمه حولها من كتاب ملانكتون "اقوال اللاهوتيين Loci theologici". وبالرغم من هذا الارتباط العقائدي حول الاسرار وبالرغم من الصداقة التي ربطت بينهما، الا انهما كانا ذا اطباع مختلفة لدرجة انها اثرت على تعاليمهما. ويمكننا ان نتفهم رفض ملانكتون، الرجل المنفتح المتسامح، ان يقبل نظريات كالفن الرديكالية حول الاختيار السابق والعشاء الرباني.

## 2) التعاليم الخاصة

### 1) الاختيار السابق La prédestination

علم كالفن الاختيار السابق بدون تردد. فهو يقول ما ملخصه: نحن نقول، كما يعلم ذلك الكتاب المقدس بوضوح، ان الله في قصده الازلي وغير المتغير قد سبق فعين الذين اراد ان يعينهم للخلاص والذين اراد ان يعينهم للهلاك. واما فيما يختص بالمختارين فنقول: ان هذا القرار نابع من رحمته وبدون اعتبار لأي استحقاق بشري. وعلى العكس، فان باب الدخول للحياة الابدية مغلق امام الذين اراد ان يسلمهم للقضاء (للهلاك)، ولقد اخذ هذا القرار حسب قصده المخفي وغير المدرك، ومع كل هذا فهو عادل وصالح. (من كتاب "اسس المسيحية 3. 21. 7: 3. 21. 5).

ومع ان عملية الاختيار تبدو مرعبة مخيفة وتسبب قلقا واضطرابا، لكن كالفن - على عكس ذلك تماما - كان يعلن ان عملية الاختيار مبهجة ومفرحة للقلوب، بسبب الثمار الحلوة والشهية التي نحصل عليها منها. فان هذه العقيدة تؤكد لنا ان خلاصنا المجاني هو في يد الله وحده وفي رحمته. ورجع كالفن الى الكتاب المقدس لكي يؤيد تعاليمه هذه الخاصة بالاختيار. وكالفن نفسه يعترف ان هذا الامر غير مدرك ويفوق عقولنا، لذلك لا يحاول ان يفهم هذا السر بل يقبله ويؤمن به لانه واضح كل الوضوح بالنسبة له. (كتاب "اسس المسيحية 3. 23). والاساس

الوحيد لقبول هذه العقيدة هوأنها معلنة بوضوح وصراحة في الكتاب المقدس. وبناء عليه يجب قبولها، ولا يجب على الانسان ان يسأل اسئلة ليس من شأنه ان يسألها. فمن هو الانسان حتى يتجرأ ويسأل خالقه؟.

ومع ان كالفن يعترف بعجزنا الكامل عن فهم هذه المشكلة، فانه يحاول ان يرد على الذين رفضوها فيقدم مفهومه لعملية الاختيار. فهو يؤمن ان الله اختار شعبا من وسط الشعوب ليكون شعبه، ولم يكن هذا الشعب كله مختارا، فقد اختار البعض ورفض البعض الاخر. فاسماعيل مثل اخيه اسحاق، لكن ابعد الاول واختار الثاني. وكذلك عيسو ويعقوب، وهذا ما حدث ايضا مع شاؤل الملك وداود.

فعلى أي اساس قبل الله الواحد ورفض الاخر؟ ان الاساس الوحيد لقبول او الرفض - حسب كالفن - هو قول الرسول بولس: "... حسب مسرته التي قصدتها في نفسه" (افسس 1: 9، 3: 11). يعتقد كالفن ان الله سبق وعين قبل خلق العالم مصير كل انسان: عين البعض للحياة الابدية، وعين البعض الاخر للهلاك الابدي. وهنا يظهر سؤال اخر: هل سبق الله فعرف فعين ام عين فعرف؟ يعني: هل سبق الله فعرف سلوك الناس واعمالهم، وبناء على ذلك قضى بخلاص البعض وهلاك البعض الاخر، ام انه عين البعض للحياة الابدية والبعض الاخر للهلاك، قبل ان يعرف اعمالهم وسلوكهم؟

ان بعض البلاجيين وخاصة "نصف البلاجيين" وكثيرين من الذين يؤمنون بعملية الاختيار الازلي السابق، حاولوا ان يجدوا حلا لهذه المشكلة العقائدية. فهم يؤمنون ان الله عادل ومحب ورحيم ولطيف. ولكن هل يمكن ان يحكم هذا الاله العادل المحب والرحيم واللطيف على البعض بالحياة والبعض الآخر بالهلاك قبل ان يولدوا؟ وبما ان هذه الجماعات تتمسك بفكرة قضاء الله السابق، وفي الوقت نفسه تتمسك بعديل الله ومحبتة... فقد حاولت إيجاد حل لهذه المشكلة. ووجدت الحل في نظرية علم الله السابق، أي ان الله يعرف كل شيء، وبناء على هذه المعرفة، فانه سبق وعرف مصير كل فرد. فاذا عين شخصا للحياة الابدية، فذلك لانه سبق وعرف سلوكه وحياته وموقفه ازاء الدعوة التي سيدعي اليها، وانه سيقبل الفداء ويقبل المسيح كمخلص وفاد. فان اساس الاختيار هو معرفة الله بمستقبل كل فرد.

رفض كالفن هذه النظرية رفضا باتا. والسبب هو اعتقاده الجازم ان اختيار الله للمؤمنين ليس مؤسسا على اعمالهم او تصرفاتهم في الماضي او في الحاضر او في المستقبل، بل ان هذا الاختيار تم في المسيح يسوع قبل تأسيس العالم عن طريق النعمة والرحمة. فلو كان الله قد سبق ورأى اعمالهم الصالحة واستعدادهم لقبول الفداء وبناء على ذلك اختارهم، فان الاختيار يكون مبني على ما سبق ورأى الله في علمه الخفي ما سوف يقوم به المختار من عمل، وبناء على هذا العمل وعلى هذا السلوك اختاره الله وليس عن طريق النعمة.

اما بالنسبة لكالفن فالعملية تختلف، فان اختيار الله غير متوقف على الاعمال التي سبق الله ورأى بان هذا الشخص سوف يقوم بها، بل ان العكس هو الصحيح. فان المختار يسلك في طريق البر والقداسة لان الله سبق واختاره ليقوم بهذه الاعمال. لا بل ان كالفن يذهب ابعد من ذلك، فانه يعتقد ان الله اختار البعض للخلاص وللقيام بالاعمال الصالحة لانهم اختيروا بنعمته، وحتى هذه الاعمال الصالحة نفسها سبق الله واعدتها لهم.

وعلم كالفن ايضا ان عملية الاختيار تمت في قصد الله الازلي حسب مسرته. فان الذين اختارهم للحياة الابدية لم يختارهم لاي سبب آخر غير مسرته.

## (2) الاسرار

قَبِلَ كالفن - على مثال زوينجلي - سرين من الاسرار السبعة، وهما سرا المعمودية والافخارستيا. الا انه يرى بهما فقط مجرد علامات خارجية للتبرير، الذي يحصل عليه الانسان بواسطة الايمان. فهما ليسا ضروريان للخلاص، لانه لا يمكن ربط نعمة الله بعناصر حسية مادية، والا اصبحت ارادة الله مرتبطة فيهما لا نعمة حرة ولا متناهية.

## (3) الافخارستيا او العشاء الرباني

شدد كالفن في مفهومه للافخارستيا على فكرة الحضور الروحي. وهنا يختلف في مفهومه للافخارستيا عن الكنيسة الكاثوليكية وعن لوثر وزوينجلي.

رفض كالفن المفهوم الكاثوليكية للافخارستيا، الذي نادى بفكرة التحول Transubstantiation، أي تحول الخبز والخمر الى جسد ودم يسوع المسيح. فمع ان الخبز والخمر يظلان حسب الظاهر خبزا وخمرا، الا انهما تتحولان بطريقة معجزية الى دم وجسد يسوع المسيح.

ورفض كالفن المفهوم اللوثري، وهو الحضور المزدوج La Consubstantiation، وهي النظرية التي تعلم ان المسيح يحل في الخمر وفي الخبز بطريقة فعلية وحقيقية وحرفية، على ان هذا الحل لا يعتبر حلولا بديلا بل ازدواجيا، لان حلول المسيح في هاتين المادتين: الخبز والخمر لا يلاشي الخبز والخمر. فالخبز يظل خبزا، والخمر يظل خمرا. ورفض لوثر أي تفسير رمزي للافخارستيا

ورفض كالفن ايضا المفهوم الزوينجلي الذي كان يعتقد ان العشاء الرباني يعني ذكر لموت وقيامه يسوع المسيح. وان كل مرة يجتمع المؤمنون حول المائدة يتذكرون موت ذلك الذي اسلم نفسه من اجلهم.

اما كالفن فقد شدد على حقيقة ان العشاء الرباني هو طعام روحي يقدمه المسيح نفسه، وهو ضروري لنمو المؤمن في حياته الروحية، وان المسيح حاضر بنفسه وبطريقة روحية في هذا السر، وان الروح القدس هو الذي يعمل في قلب المشترك حتى يدرك بنعمته اهمية هذا الطعام الذي يتناوله: انه ليس مجرد خبز وخمر فقط، بل المسيح الذي قدم نفسه مرة واحدة على الصليب حاضر بطريقة روحية وفعالة في هذا الخبز وهذا الخمر. والمسيح الذي هو حاضر بطريقة روحية، هو نفسه الذي يعمل بروحه في قلوب المشتركين، لكي يقوي ايمانهم ويعمق اختبارهم. لان المسيح الروحي الذي هو حاضر بطريقة غير منظورة وملموسة في الاسرار، هو وحده - وليس عناصر الاسرار الطبيعية او المادية - الذي يقوي الايمان ويعمق الثقة.

#### (4) العبادة او الخدمة الالهية *Le culte*

يقترّب كالفن كثيرا في مفهومه للعبادة م مفهوم لوثر وزوينجلي، وعلى مثالهما فهو يرفض كليا ذبيحة القديس. ولكن بينما حافظ لوثر على الجزء الاساسي الا وهو رتبة العشاء الافخارستي، وابتعد كل ما من شأنه ان يدل على فكرة الذبيحة، فصل كالفن بين العشاء الافخارستي وبين الخدمة الالهية. فكان يتم الاحتفال بالعشاء الافخارستي اربع مرات في السنة باشتراك كل الجماعة المسيحية، اما الخدمة الالهية فكان يتم الاحتفال بها كل ايام الاحاد وبعض الاعياد (اربعية) اذ الغى كالفن جميع الاعياد، وكانت الخدمة تحتوى على العظة، والصلوات وترانيم المزامير. وكان الاحتفال بالخدمة الالهية، التي اعتبر كالفن ان الله ارادها لتمجيده، تتصف بالبساطة، حيث ابتعد عنها كالفن كل ما اعتقده انه خرافات كالصور والتماثيل والزينة والآت الموسيقى. ورفض كالفن، مثله مثل لوثر وزوينجلي، تكريم العذراء والقديسين.

#### (5) الكنيسة والدولة

تختلف فكرة كالفن عن الكنيسة وعلاقتها بالدولة كليا عن فكرة لوثر. فهو يعتقد مثل لوثر ان الكنيسة هي مؤسسة غير منظورة وتتألف من جماعة المختارين في كل مكان وعلى مر العصور، الا ان لوثر يعتقد ايضا ان الكنيسة هي في نفس الوقت مؤسسة منظورة منتشرة على كل سطح الارض، وتعتز بايمان واحد وبعمودية واحدة، وتشارك في مائدة الرب، وغايتها اكرام الله وخدمته. انما الكنيسة الموجودة على الارض والمجاهدة. وهذه الكنيسة المنظورة تتكون من مختارين وغير مختارين (الهالكين)، اذ يوجد فيها قديسون واشرار.

اما بخصوص علاقة الكنيسة بالدولة، فقد انفصل كالفن عن باقي الكنائس البروتستنتية في تعريفها لهذه العلاقة. فرؤوسه ما يدعى بالاصلاح اللوثري الالماني، وبدافع من معارضتهم للسلطة الكنسية الكاثوليكية، تبنا مذهب "حرية التعبير Libre arbitre"، فحل الايمان الفردي مكان الايمان الجماعي العام. وعندما تبين لهم ما نتج عن هذا المبدأ من نتائج وخيمة على المجتمع من فوضى وبلبلة، التجأوا الى ما يسمى "باعتراقات الايمان Formulaires de foi" كدواء لهذه الحالة، وفي نفس الوقت التجأوا الى الدولة لفرض هذه الاعترافات على كل اتباع البروتستانتية. اما كالفن فقد استطاع بذكائه، ان يرى ما في هذا المبدأ من نقص، والخطر الذي قد ينجم عن وضع الكنيسة تحت رحمة السلطة المدنية. ولاعادة مبدأ العالمية او الشمولية والسلطة الكنسية، تجنب اعترافات الايمان، واسس مكانها الجمع العام او المجالس الكنسية consistoire وسلمه السلطة.

## الاصلاح في سويسرا

### زوينجلي

#### مقدمة

اراد ما يدعى بالاصلاح اللوثري ان يكون اصلاحا في العقائد وعودة ضرورية للتعاليم الالهية مجددة ومنقاة من كل الاضافات البشرية سواء في اللاهوت او في الليتورجية. الا اننا رأينا بشكل لا يدعو الى الشك تأثير طباع لوثير واهوائه ومزاجه واختباراته الداخلية على هذه الحركة الاصلاحية. فلوثر هو الذي اعطى للثورة البروتستنتية ميزات الخاصة: الحقد وكره البابوية، الرجوع الى الكتاب المقدس دون سواه، وعقيدة الخلاص بالايمان فقط.

نجد هذه الميزات في الفروع المختلفة التي انبثقت من البروتستنتية، وكثرة هذه الفروع تؤكد لنا، ان كما اثر لوثر بطباعه واهوائه واختباراته على اللاهوت الاصلاحى، كذلك ستأثر طباع واهواء واختبارات بعض من تأثروا به، امثال زوينجلي وكالفن وغيرهم، في هذا اللاهوت المتناقض، وتؤدي الى ظهور الكنائس الكثيرة المتشعبة والمختلفة.

#### 1- الاصلاح الزوينجلي في المقاطعات الالمانية في شمال سويسرا

بينما كان لوثر ينظم كنيسته ويصارع معارضييه سواء من الكاثوليك المتمسكين، او من اللوثريين "المتطرفين"، مما استحق له لقب "بابا ومنتبرج"، ظهر ما يدعى بمصلح اخر في سويسرا، اليرىخ زوينجلي، الذي سيصبح ندا له في العلوم الكتابية وسببا لتوترات بينهم بسبب الاختلافات في تفسير الكتاب المقدس، مما سيسبب ظهور "كنائس بروتستنتية مختلفة ومتعددة".

#### 2- الوضع في سويسرا

مع ان سويسرا كانت في القرن السادس عشر تكون شكليا جزءا من الامبراطورية الرومانية المقدسة، الا انها كانت اكثر بلدان اوروبا تمتعا بالحرية والاستقلال. فبعد نجاح المقاطعات السويسرية في صد الهجوم الذي قام به شارل الجسور (1477)، اتحدت واشتعلت فيها جذوة الاعتزاز والقومية، وشجعها هذا على مقاومة المحاولة التي قام بها ماكسميليان لاختضاعها اسما وفعلا للامبراطورية الرومانية، فتارت المنازعات ودفعت بالمقاطعات الى حافة الحرب الالهية، الا ان الناسك الذي اصبح قديسا، نيكولاوس فون دي دير فلو، اقنعها بان تركز الى السلام. فاتحدت مكونة مجموعة من الولايات او محافظات "كانتونات" ذات حكم ذاتي، متحدة اتحادا كنفدراليا واهيا. كانت حكومة كل مقاطعة مسؤولة كاملة عن شؤونها المحلية. لذلك كانت كل مقاطعة فيها لها حرية اختيار الشكل الذي ترتضيه للمذهب الديني الذي تريد اتباعه. وكانت المدن السويسرية ايضا مراكز للثقافة والحضارة. وكانت جامعة بازل جامعة مشهورة، فيها راجع ارازموس الطبعة التي نشرها للعهد الجديد باللغة اليونانية. وقد تطورت ثلاثة انماط من الفكر اللاهوتي لحركة الاصلاح في الاقاليم السويسرية. فالمقاطعات الناطقة بالالمانية، والتي تقع في شمال البلاد، وتقودها مدينة زيوريخ، تبعت كلها اراء زوينجلي. اما المقاطعات الناطقة بالفرنسية في الجنوب، وتقودها مدينة جنيف اتبعت اراء كالفن.

#### 3- زوينجلي

ولد زوينجلي في الاول من شهر كانون ثاني عام 1484 في قرية ويلدهاوس الواقعة في مقاطعة توجنبرج Toggenberg الجبلية. وكان يصغر لوثر بثمانية اسابيع. وكان ابوه رئيس قضاة ويلدهاوس، يتمتع بدخل كبير اتاح لزوينجلي الحصول على افضل تعليم يؤهله للكهنة. وبدأ دراسته على يد عمه الكاهن في بازل وبرن وفيينا، وبعد ان اتم دراسته عاد الى بازل ودرس اللاهوت على يد توماس فيتنباخ Thomas Wetenbach، الذي هاجم قبل الاوان عام 1508 صكوك الغفران وعزوية الكهنة والقداس، ومنه استقى شغفه بدراسة الكتاب المقدس وابعاء الكنيسة. وحصل زوينجلي على درجة الماجستير وهو في الثانية والعشرين من عمره، ثم رسم كاهنا عام 1506، واحتفل باقامة اول قداس له في هيلدهاوس، واشترى بمبلغ مائة جيلدر جمعت له وظيفة كاهن رعية في جلاروس Glaris. وهناك

تابع دراساته وتعلم اليونانية ليقراً العهد الجديد في لغته الاصلية، وتابع دراساته الكتابية وخصوصاً رسائل القديس بولس. وانجذب نحو اساتذة النزعة الانسانية، واصبح ارازموس مثله الاعلى. وقد كوّن افكاره الدينية، قبل دخول لوثر الى الساحة، لذلك قلل دائماً من تأثير كتابات لوثر على افكاره، مع ان الدراسات الحديثة ستظهر المدى الكبير لتأثير كتابات لوثر عليه.

#### 4- بداية زوينجلي الراعية

ميزتان طبعتا بداية زوينجلي الراعية: الاولى نزعة الانسانية، بمحبته للكتب وشغفه لدراسة اللغة اليونانية. ومراسلاته من هذه المرحلة من حياته تبين لنا اتصاله بكثير من الانسانيين. كما واشتهر بمهارته الجدلية (Dialecticien). والميزة الثانية هي روح الوطنية، فقد اصطحب من عام 1513 الى عام 1515 فرقة الجنود المرتزقة السويسرية من جلاروس الى ايطاليا، بصفته مرشداً لهم. وقد عرف الجنود السويسريون بشجاعتهم ومهارتهم العسكرية، مما جعل الكثير من البلاد كالبابوية، وفرنسا، والبندقية تستأجر خدماتهم العسكرية، وكان هذا من شأنه در الاموال على سويسرا. الا ان الحروب والمعارك التي راح ضحيتها الكثير من الجنود السويسريين، جعلته - وكان في البداية من اكبر مؤيدي خدمة السويسريين للبابوية - يغير رأيه ويعارض بشدة سياسة الحكومة السويسرية وينتقدتها بعظاته، وخصوصاً عادة ارسال الجنود السويسريين للحرب مع الحكومات الاجنبية. كما ورأى في هذه العادة سبباً لتجزئة البلاد وانقسامها وفساد اخلاق شبابها.

ولما فاز الحزب الفرنسي في جلاروس المؤيد لارسال الجنود بسبب ما كان يدخل البلاد من الاموال من جراء ذلك، وغضبه من الاتفاق الذي تم بين البابا وفرنسا، وتصرفات بعض ابناء رعيته، ترك جلاروس، وعمل فترة ما بين عام 1516-1518، راعياً في مزار "سيده Einsiedale". كان هذا مركز للحج، وفيه تحول طبعه الهجومي من الارضية السياسية الى الارضية الدينية، فهاجم الحج وتكريم العذراء مريم، وصكوك الغفران، ولم يهب ان يعظ في الحجاج قائلاً، ان الخلاص عطية مجانية باستحقاق يسوع المسيح، يعطيها الله لمن يطلب بروح الايمان، كما ان الله موجود في الدير، بكيفية لا تختلف عن وجوده في أي مكان آخر. فهو حال في كل مكان، "وهو على استعداد ان يسمع صلواتكم وانتم في بيوتكم. هل تستطيع سفرات الحج الطويلة، او الصور، او التشفع بالعذراء، ان تحصل لكم على نعمة الله؟ وما قيمة الثياب البيضاء، او الحذاء المطرز بالذهب، او القبعة اللامعة في عطية الخلاص؟ ان الله ينظر الى القلب، ولكن قلوبنا بعيدة عنه". كما وقلل من اهمية القداس من اجل الموتى وتعرض للندور الرهبانية.

#### 5- زوينجلي في زيورخ 1519-1522

وبعد قضاء ثلاثة اعوام في انسدلن، وصلته دعوة من كهنة كاتدرائية زيورخ، ليكون واعظاً هناك. وكانت زيورخ تعتبر عاصمة اتحاد المقاطعات السويسرية، وهناك اتاحت له الفرصة للاتصال بأرقى الطبقات، وكان تأثيره عظيماً على كافة المقاطعات، في الوقت الذي كانت سمعته الاخلاقية قد ساءت. وقد حاول ان يبرأ سمعته من هذه الاتهامات، فكتب رسالة الى القانوني هنري اوتنجر Henri Utinger نقطف منها ما يلي:

"لقد مر ثلاث سنوات على اتخاذي مقصداً بالا يكون لي علاقة مع أي امرأة، لان القديس بولس يقول ان من المستحسن ان لا تكون مثل هذه العلاقة. حافظت على مقصدي هذا في جلاروس مدة ستة اشهر وفي انسدلن مدة سنة... ولكن، يا للاسف! سقطت من جديد وعدت الى ما كنت عليه كما يعود الكلب الى قيئه...".

وفي زيورخ بدأ يظهر كمجدد، فلم يسير في عظاته على النمط العادي المتبع في الكنيسة انذاك، أي شرح القراءات المناسبة للأحاد او الاعياد او المناسبات، وهي الطريقة التي تسير عليها الليتورجية في الوقت الحاضر. بل بدأ بشرح متواصل للكتب المقدسة وحياة واعمال المسيح وتاريخ الكنيسة الاولى، حيث عرض رسالتها واخلاقها كمثال لكنيسة المسيح الحقيقية، حتى ان الناس اعلنوا ان مواعظه "من النوع الذي لم يسبق ان سمعوا مثله في زيورخ". فكسب الاحترام الشعبي والرسمي لسطان الكتاب المقدس. بحلول سنة 1520 طلب مجلس مدينة زيورخ من كل الكهنة ان يتبعوا مثاله في الكرازة الكتابية ويمتنعوا عن "التفسيرات البشرية". وفي عام 1519-1520، انفصل عن توجهاته الانسانية، وتحول نحو اقتناعات انجيلية Evangélistes. وبدأت طريقه تتضح حوالي عام 1522، باعلانه صراحة مبدأ الكتاب المقدس وحده كأساس للعقيدة وحياة الكنيسة.



## 6- بيع الغفرانات في سويسرا

كانت مناسبة بيع صكوك الغفران في سويسرا كما كانت في المانيا، بداية حركة ما يدعى بالاصلاح الزوينجلي. وقد عهد الى الراهب الفرنسي سكاني برناردينو شمشون Bernardino Sanson مهمة بيع صكوك الغفران في سويسرا. وان كان شمشون ومعاونه قد ارتكبوا بعض التجاوزات الا انها لم تدوم طويلا، لانه امام احتجاج زوينجلي، منع اسقف كونستانس، جميع كهنته من استقبال وعاظ صكوك الغفران، وقام المجلس البلدي بطردهم خارج المقاطعة. ولما كان البابا ليون العاشر على علم بشيء من الاحداث الجارية في المانيا مع لوثر، تجنب اثاره ثورة اخرى في بلاد اكثر عنفا وتماسكا، فاستدعى المبعوث شمشون، وطلب عمل تحقيق، ومنح زوينجلي لقب Chapelain مع راتب، ولم يمنع ذلك زوينجلي من ان يواصل عظاته ضد الغفرانات التي كان يطلق عليها "لصوصية رومانية".

وفي عام 1519 انتشر وباء الطاعون في زيورخ وقضى على ثلث السكان في خلال نصف عام، ولازم زوينجلي مقره، وواصل العمل ليلا ونهارا في العناية بالمرضى، واصيب هو نفسه بعدوى المرض، واشرف على الهلاك، وما ان عوفي حتى كان قد اصبح شخصية مرموقة في زيورخ، تحظى بالشعبية. ونصب عام 1521 كبيرا كهنة في جروسمنستر. الا ان الصراع الحقيقي بين زوينجلي والكنيسة الكاثوليكية سيندلع في عام 1522 وسيتركز لا على الغفرانات بل على موضوع اخر هو موضوع الصيام. فبعد سلسلة من العظات ضد الصوم حيث قال انه لم يجد أي نص في العهد الجديد يحرم اللحم في الصوم الكبير، سمح لرعايا ابرشيته ان يتجاهلوا اوامر الكنيسة الخاصة بهذا الصوم الكبير وان يأكلوا اللحم. وكلما ازدادت ثقته اشتد قناعة ان المسيحية يجب ان تعود الى بساطتها الاولى في النظام والعبادة. ولقد استفزته ثورة لوثر ورسائله ورسالة هس "عن الكنيسة"، فما ان حل عام 1520، حتى كان يهاجم علنا الرهبانية والمطهر والالتجاء الى القديسين، وطالب ان يكون دفع ضرائب العشور للكنيسة اختياريا. وفي عام 1521 اقنع زوينجلي المجلس البلدي بمنع تطوع الجنود السويسريين في صفوف الجيوش الاخرى.

بدأت مجموعة من اتباع زوينجلي بمقاطعة الرهبان الوعاظ الذين انتقدوا موقف زوينجلي. وقاطع هو نفسه الوعاظ الفرنسي سكاني فرانسوا لامبوت، الذي كان يعظ عن العذراء مريم والقديسين، وفاز عليه بمناظرة حول هذا الموضوع. واستجابة لطلب زوينجلي، طلب المجلس البلدي من الرهبان الاستناد بوعظهم فقط على الانجيل وليس على اللاهوتيين المدرسين "السكولاستيك". احتج اسقف كونستانس امام المجلس البلدي طالبا منهم الحفاظ على الوضع القائم. فرد عليه زوينجلي في كتاب عنوانه "بداية ونهاية" (Apologeticus/Archétéles)، تنبأ فيه بثورة علمية ضد الكنيسة ونصح الاساقفة ان يقلدوا قيصر وان يطووا حولهم ارديتهم، ويموتوا في جلال ووقار. وأكد فيه ان السلطة الكنسية لا تستطيع ان تحكم لانها سجينه الشريعة البشرية، وان الكتاب المقدس هو السلطة الوحيدة. وانكر التهمة انه يفرق ويقسم الكنيسة، او انه يدعو الى التمرد، مشددا على الهدوء الذي يعم زيورخ. وبين ان الكرازة بالانجيل الذي يبشر بالمسيح وترك العادات والاحتفالات البشرية، لا يمكن ان يدعى هرطقة. وفي كتابات اخرى بين ان الله يتوجه بالروح القدس الى الانسان ليفهم الكتاب المقدس. اما العذراء مريم، مع انها "ام الله" الا انه يجب عدم طلب شفاعتها، وانما عرضها كمثال للاقتداء. فاصدر الاسقف مرسوما ضد "البدع المستحدثة" حاثا الشعب على الالتفاف حول الكنيسة، وطلب من السلطات المنعقدة في مجلس عام ان تضع حدا لكل هؤلاء المبتدعين. ولم يكثر زوينجلي لاوامر المجلس الذي منع كل المواعظ التي تثير الشعب والتمرفة، بل قدم عرضا اخر طلب فيه هو واصدقائه من الكهنة، ان يسمح بزواج الكهنة. وكان هو نفسه في هذه الاثناء يعيش مع سيدة تدعى انا راينهارد بصفة عشيقة او زوجة له في الخفاء. سيتزوجها علنا عام 1524 قبل زواج لوثر من كاترين فون بورا بعام. وهكذا اخذ زوينجلي يتخلص من خضوعه للاسقف، وثبته المجلس البلدي في وظيفته، فكرس نفسه للوعظ، واصبح بالفعل وبدعم من المجلس البلدي "الاسقف الحقيقي لزيورخ".

## 7- مناقشات زيورخ عام 1523

استجابة لطلب زوينجلي، قررت السلطات عقد مناظرة عامة في كانون ثاني عام 1523، حيث يقوم كل طرف، الكاثوليكي والمصلح، بعرض ارائه وعقائده على اساس الكتاب المقدس فقط.

وبدأت المناظرة في 29 كانون ثاني 1523، بحضور جمع غفير. وكان زوينجلي قد عرض وثيقة "البنود السبعة والستين" الاكثر تطرفا من بنود لوثر، وفيها اكد على الخلاص بالايمان، وان الكتاب المقدس هو الاساس الوحيد للايمان، وان المسيح هو الرئيس الاوحد للكنيسة، وان سلطة البابا والاساقفة غير شرعية، وان القداس ليس ذبيحة، وانكر المطهر وشفاعة القديسين والاعتراف السري، والحل المحفوظ للكاهن، وما يدعى بالاعمال الصالحة (الاعباد

الدينية، الحج، عزوبة الكهنة والرهبان، النذور الرهبانية). كل هذه كانت بالنسبة لزوينجلي لا اساس لها في الكتاب المقدس ويمكن الاستغناء عنها: "ما الضرر الذي يحدث اذا ازيلت الكومة من مزبلة الشعائر والاحتفالات، ما دام الله يعلن ان العبادة بهذه الاشياء باطلة".

ومن بنود هذه الوثيقة:

- (1) - يخطيء كل من يقول ان الانجيل لا يساوي شيئاً، اذا لم ترضى عنه الكنيسة.
- (15) - يتضمن الانجيل الحقيقة باكملها في وضوح وجللاء...
- (17) - المسيح هو الكاهن الاعظم الخالد الوحيد، والذين يزعمون انهم كهنة عظام، انما يعارضون في الحقيقة شرف المسيح وجلاله.
- (18) - ان المسيح الذي ضحى بنفسه يوماً فوق الصليب، قدّم الذبيحة الكافية والدائمة للتكفير عن خطايا كل المؤمنين، ومن ثم فإن القديس ليس ذبيحة، وانما هو تذكّار للذبيحة الوحيدة على الصليب...
- (24) - المسيحيون غير مكلفين بأية اعمال لم يأمر بها المسيح، ويمكنهم ان يأكلوا في جميع الاوقات كل انواع الطعام...
- (28) - كل ما يبيحه الله ولم يحرمه حلال. ومن ثم فان الزواج مباح لكل الناس.
- (34) - لا اساس للسلطة الروحية التي يطلق عليها اسم "الكنيسة" في الكتب المقدسة وفي تعاليم المسيح.
- (35) - الا ان السلطة الزمنية تؤيدها تعاليم المسيح وسنته...
- (49) - لا اعرف افتراء اعظم من تحريم الزواج الشرعي على الكهنة، بينما يباح لهم اتخاذ حظايا على شريطة دفع غرامة. يا للعار!
- (57) - لا يذكر الكتاب المقدس شيئاً عن المطهر...

ورفض جون فابر، النائب العام لاسقف كونستانس، الذي طلب منه الا يدخل في نقاش مع زوينجلي، وانما ان يعارض على كون الاجتماع غير قانوني، لانه يتعدى على سلطة الاسقف وعلى الجماع، آراء زوينجلي وطلب ان تطرح امام جامعات كبيرة او امام مجلس عام للكنيسة. ورأى زوينجلي ان هذا لا ضرورة له. فبعد ان اصبح العهد الجديد وقتذاك في متناول الناس وباللغات الدارجة، صار في وسع الجميع ان يحصلوا على كلمة الله ليحكموا على هذه الآراء وهذا يكفي... ووافق المجلس واعلن فوز زوينجلي، وامر كل رجال الكهنوت ان تكون عظاتهم مقصورة على ما يجدون له سنداً في الكتاب المقدس، وسمح للكهنة والرهبان والراهبات بالخروج من الدير والزواج. وهنا تولّت الدولة امر الكنيسة كما حدث بالمانيا على يد لوثر.

## 8- المناظرة الثانية

وقبل معظم الكهنة - بعد ان ضمنت لهم الدولة روايتهم - امر المجلس. وتزوج الكثيرون منهم . واغفلوا امر القديس وتخلوا عن تكريم الصور. وبدأت جماعة من المتطرفين في ائتلاف الصور والتماثيل بلا تمييز في كنائس زيورخ. وانزعج زوينجلي من انتشار العنف على هذا النحو، فرتب مناظرة اخرى في 26 تشرين اول عام 1523، حضرها الكثير من عامة الناس والاكليروس، ولم يرسل اساقفة كونستانس وبازل وكور الا عدداً ضئيلاً يمثلونهم. وتمخضت عن امر صدر من المجلس بادخال الاصلاح الذي يقوده زوينجلي اليها. والفت لجنة (زوينجلي من اعضائها) تتولى اعداد كتيب يتضمن تعليمات توضح العقيدة للناس، وان يعملوا على مراقبة تنفيذها، وان يتوقف الناس في غضون ذلك عن العنف بجميع صوره. والى زوينجلي "مقدمة قصيرة في المسيحية"، ارسلت لجميع رجال الدين في المقاطعة.

احتجت السلطة الكهنوتية الكاثوليكية، وايدها في الاحتجاج المجلس النيابي للاتحاد الذي اجتمع في لوسون (26 كانون ثاني عام 1524)، وتعهد في الوقت نفسه بالقيام بالاصلاح. غير ان مجلس مدينة زيورخ تجاهل هذه الاحتجاجات. وسارت في تثبيت الاصلاح. وبدأت بنزع الصور من الكنائس، وتحويل الدير الى مدارس ومستشفيات. وفي عام 1525 اتمت مقاطعة زيورخ انفصالها الاصلاحى بحذف القديس وحل محله خدمة دينية جديدة تتألف من قسمين: العظة والعشاء الرباني او المناولة تحت الشكلين، حيث تضع على طاولة عادية صحون مليء بالخبز وعدة كؤوس من الخمر، وتبدأ الخدمة بصلاة يتلوها خادم الصلاة، يتبعها بقرأة من الكتاب المقدس، يتلو بعدها الحضور قانون الايمان والصلاة الربية، وبينما تقرأ كلمات التقديس، يبارك الخادم الخبز والخمر ويوزعه مساعده على الحضور وتنتهي الخدمة بكلمات "اذهبوا بسلام". وحافظ زوينجلي على القربان المقدس باعتباره جزءاً من الصلاة يقرها الاصلاح الديني، وناول القربان تحت الشكلين، ولكنه لم يناوله الا اربع مرات في السنة. وامر مجلس

مدينة زيوريخ برفع كل الصور الدينية وذخائر القديسين والزينات من كنائس المدينة، بل ان الآت الارغن ابعدت عنها، وترك الصحن الداخلي الفسيح لكنيسة جروسنمنستر عاطلا كئيب المنظر. وعوقب كل من يحضر القداس الكاثوليكي بغرامة، وحرّم مبدأ اكل السمك بدلا من اللحم يوم الجمعة. وانتقلت سلطة ادارة الكنيسة، وتشريع الزواج، والنظام الاخلاقي، وادارة المدارس والمؤسسات الخيرية للمجلس البلدي.

وصاغ زوينجلي عقيدته بتوسع في كتاب باللاتينية: "الدين الحقيقي والزائف" "De vera e falsa religione" (1925) وقبّل تعاليم الكنيسة الاساسي: اله في ثلاثة اقانيم، وسقوط ادم وحواء من الجنة، وتجسد الاقنوم الثاني، والولادة البتولية، والفداء، ولكنه فسر "الخطيئة الاصلية" بانها نزعة غير اجتماعية، تكمن في طبيعة الانسان وليست لوثة اثم ورثتها من ابائنا الاوائل، واتفق في الرأي مع لوثر ان الانسان لا يستطيع ابدان يحصل على الخلاص بالاعمال الصالحة، بل يجب ان يؤمن بالقدرة التكفيرية لموت المسيح. واتفق في الرأي ايضا مع لوثر وكالفن في موضوع القدر: كل حادث وبالتالي المصير الازلي لكل فرد قدّره الله، لا بد وينفذ كما قدّره سبحانه، ولكن الله لم يقدر اللعنة الابدية الا على الذين اعرضوا عن الانجيل، الذي بُشروا به، وكل طفل من ابوين مسيحيين يموت، وهو طفل، يكتب له الخلاص، حتى ولو لم يعمد، لانه اصغر من ان يرتكب خطيئة. وجهنم حق، اما المطهر فهو خرافة... "مهنة مريحة لمن ابتدعوه". وليس في الكتاب المقدس اشارة عنه. اما القرابين المقدسة فانها ليست وسائل معجزة بل رموز نافعة لرحمة الله. والاعتراف السري لا ضرورة له، وليس في وسع كاهن ان يغفر لاحد خطيئته، فالله وحده هو الغفور، وان كان من المفيد غالبا ان نسر بمتاعبنا الى الكاهن. وليس العشاء الرباني، اكلا فعليا لجسد المسيح، ولكنه رمز لاتحاد الروح بالرب والفرد بالجماعة المسيحية.

وفي اواخر عام 1525، اختفت كل المؤسسات الكاثوليكية، ومنع الايمان الكاثوليكي في مقاطعة زيورخ تحت طائل العقاب.

وشكلت زيورخ مجلسا خاصا في تشرين ثاني عام 1524، يتكون من ستة اعضاء لاعداد الاتفاقات اللازمة لفض المشاكل العاجلة او الدقيقة التي كانت تعاني منها الحكومة، وتم بين زوينجلي وهذا المجلس نوعا من التفاهم، اذ سلم له تنظيم كل الشؤون الخاصة برجال الدين والعلمانيين على السواء. وفي عام 1528، الفت لجنة سرية، كان زوينجلي فيها العقل المدبر. واصدرت هذه اللجنة التعليمات حول الاشتراك في العشاء الرباني، واصبح الاشتراك في العبادة واجب اجباري تحت طائل حرمان من يخلي بهذا الواجب من المواطنة، وفرضت رقابة قاسية على الاخلاق. واصبحت الكنيسة والدولة في زيورخ منظمة واحدة، على رأسها زوينجلي بصفة غير رسمية، وفيها ارتضى الكتاب المقدس المصدر الاول والحكم الاخير للشريعة. وتحقق في زوينجلي كما تحقق في كالفن فيما بعد، المثل الاعلى للنبي الذي يرشد الدولة، كما تصوره العهد القديم.

## 9- تقدم الاصلاح

انتقل الاصلاح من زيورخ الى المقاطعات الاخرى في سويسرا. فدخلت عام 1524 في مقاطعة توجنبورج Toggenbourg. وفي مقاطعة ابنزل، ستة من الرعايا الثمانية قبلت الاصلاح. وتأثرت بازل بالاصلاح تحت تأثير عظات اكولامباد Oecokampade في عام 1523، وبالرغم من مقاومة الحكومة والجامعة، الا ان المصلحين استطاعوا الحصول على حرية العمل في عام 1527، وما حل عام 1529 حتى كانت الكنيسة الجديدة قد حلت محل الكنيسة الكاثوليكية. وبشر فرانسوا كولب François Kolb الراهب الكرتوزي السابق، بالاصلاح في برن منذ عام 1522 دون نجاح، الا انه وعلى اثر مناظرة بين المصلحين والكاثوليك في عام 1528، قبلت المقاطعة الاصلاح. وبنفس السنة ادخل الاصلاح الى مقاطعة سان-جال Saint-Gall، وفي عام 1529 دخل الى مقاطعة شافهوس Schaffhouse، تبعتها جلاريس Glaris السنة التالية 1530.

## 10- المعارضة: المقاطعات الكاثوليكية

مزق الاصلاح الديني "الاتحاد" ويبدو انه قدر له ان يقضي عليه، فبجانب المقاطعات التي ايدت زيورخ وانضمت الى الاصلاح، فان باقي المقاطعات ناصبتها العدا. وكونت خمس مقاطعات - وهي لوسرن Lucerne واورى Uri وشفتيز Schwyz وانترفالدين Unterwalden وتسوج Zug - حلفا كاثوليكيا لقمع كل الحركات الهسية واللوثرية والزوينجولية (1524)، وحث الاشيدوق فرديناند النمساوي كل الولايات الكاثوليكية على ان تقوم بعمل

موحد، ووعدها بتقديم المساعدة. وليس من شك في انه كان يطمح في ان يستعيد سلطات آل هابسبورج في سويسرا.

ونظمت عام 1526 مناظرة اخرى بين اللاهوتيين الكاثوليك وعلى رأسهم جون آك John Eck، واتباع الحركة الزوينجالية وعلى رأسهم اوكولمباد Oecolampade، بدل زوينجلي الذي رفض الحضور. ودارت المحاورات حول الافخارستيا، وخصوصا الحضور الحقيقي والفعلي، الذي انكره زوينجلي. انتهت المناظرة بفوز الحزب الكاثوليكي والحكم على زوينجلي. ولم ترض زيورخ بالحكم، واستطاعت بمؤازرة بازل وبيرن على البقاء في الاتحاد.

وفي السادس عشر من تموز وافقت كل المقاطعات باستثناء شافهاوزن على اقصاء زيورخ من المجلس النيابية الاتحادية في المستقبل. وردت زيورخ وزوينجلي على هذا بارسال مبشرين الى مقاطعة ثورجاو لاعلان الاصلاح الديني. وقبض على واحد من هؤلاء، الا ان بعض الاصدقاء انقذوه، وساروا في حشد هائج نهب ديرا واحرقه، وحطم التماثيل في عدة كنائس، واعدم ثلاثة من الزعماء، وثارت روح عسكرية بين الطرفين. وهددت ست مقاطعات بان تترك الاتحاد اذا لم يوقع العقاب على زيورخ.

واشار زوينجلي، وقد اعجبه القيام بدوره الجديد كقائد، على زيورخ ان تزيد من عدد جيشها وطاقة دار صناعة اسلحتها. وان تنشئ التحالف مع فرنسا، وان تشعل نارا وراء فرديناند بالتحريض على الثورة في التيرول وتورجاو وسان-جال بمنحهما املاك الاديرة مقابل تأييدهما لها. وعرض على الحلف الكاثوليكي السلام بثلاثة شروط:- ان يسلم لزيورخ دير سان-جال الشهير وان يتخلى عن الحلف السماوي وان يسلم الى زيورخ توماس مورنر الهجائي اللوسرني، الذي طالما وجه نقدا لاذعا في كتاباته للمصلحين الدينيين. وسخر الحلف من هذه الشروط، فامرت زيورخ ممثلها في سان-جال بالاستيلاء على الدير فاطاعوا (18 كانون ثاني 1529) وخفت حدة التوتر في شباط اثر احداث في بازل.

## 11- الاصلاح في بازل

كان زعيم البروتستانت في بازل هو جوهانس هاوستاين، الذي اسبغ على اسمه صفة الهلينية، اويكو لامباديوس، ومعناه مصباح البيت. وقد نظم الشعر باللاتينية، وهو في الثانية عشرة من عمره، وسرعان ما اتقن اللغة اليونانية فيما بعد، وذاع صيته كمصلح ديني واخلاقي رقيق العاطفة في كل شيء الا الدين. وما ان حل عام 1521 حتى كان يهاجم مساويء كرسي الاعتراف وعقيدة التجسد وتكريم العذراء. وتبنى عام 1525 برنامج زوينجلي الذي يشمل اضطهاد الالامعدانيين، ولكنه رفض التسليم بالقدر وعلم الناس ان "خلاصنا يأتي من الله اما هلاكنا فمن انفسنا". وعندما اعلن مجلس مدينة بازل، وقد رجحت فيه وقتذاك كفة البروتستانت، حرية العبادة (1528) احتج اويكو لامباديوس وطالب بتحريم القداس.

اجتمع في 8 شباط عام 1529 ثمانمائة رجل في كنيسة الفرنسيسكان وبعثوا بطلب الى المجلس التمسوا فيه ضرورة تحريم القداس وعزل كل الكاثوليك من مناصبهم وبسريان دستور اكثر ديمقراطية. وتشاور المجلس في الامر، وفي اليوم الثاني اقبل مقدمو الالتماس الى السوق، وهم مدججون بالسلاح، وعندما حل الظهر، ولم يصل المجلس بعد الى قرار، تحرك الحشد نحو الكنائس بالمطارق، وحطموا كل التماثيل الدينية التي وجدوها. ووصف ارازموس الواقعة في خطاب له بعث به الى بيركهايمر: "لقد رفع الحدادون والعمال كل الصور من الكنائس، وانها لوالا بالشتائم على تماثيل القديسين والصليب نفسه، بصورة تدعو الى الدهشة، لعدم حدوث معجزة، بعد ان رأينا كيف اعتاد الناس حدوث الكثير منها دائما عندما يساء الى القديسين ادنى اساءة. انهم لم يبقوا على تماثيل واحد في الكنائس او في الدهاليز او في الاروقة او في الاديرة. وطمست الصور الجدارية بوساطة تغطيتها بطبقة من الجير، والقى في النار بكل ما يمكن حرقه ودق الباقي حتى استحال الى شظايا. ولم يستبق شيء بدافع الحب او المال".

تلقت المجلس التلميح وصوت بالغاء القداس الغاء كاملا، وغادر بازل ارازموس وبياتوس رينانوس وكل الاساتذة الجامعة تقريبا. وعاش اويكو لامباديوس المظفر حتى شهد اندلاع نيران الثورة.

## 12- اتفاقية كايل Cappel الاولى

وفي ايار عام 1529 احرق مبشر بروتستانت من زيورخ، حاول ان يقدم عظاته في مدينة شفيتزر. واقنع زوينجلي مجلس مدينة زيورخ باعلان الحرب، ورسم خطة الحملة، وقاد بنفسه فرق المقاطعة، ووقفهم رجل يدعى لانديمان ايلي الجلاوسي في كايل، التي تقع على بعد عشرة اميال جنوبي زيورخ، وتوسل اليهم ان يمنحوه، على

سبيل الهدنة، ساعة يتفاوض فيها مع الحلف. وساور زوينجلي الشك في أن الامر ينطوي على خيانة، وأثر ان يتقدم بجيشه فوراً. الا ان حلفاءه من اهل برن تغلبوا عليه هو وجنوده، الذين تأخروا بالفعل مع جنود العدو عبر الحدود الفاصلة بين المقاطعتين وبين اللاهوتيين، واستمرت المفاوضات ستة عشر يوماً واخيراً رجحت كفة التعقل بين السويسريين، ووقعت اتفاقية كايبيل الاولى للسلام (24 حزيران 1529) وكانت شروط الاتفاقية انتصاراً لزوينجلي، اذ وافقت المقاطعات الكاثوليكية بموجبها على دفع تعويض لزيورخ، وانهاء تحالفها مع النمسا، وحظر مهاجمة أي من الطرفين للآخر بسبب الفوارق الدينية، وعلى ان يترك للناس في "الاراضي المشتركة" التابعة لمقاطعة او أكثر ان يقرروا باغلبية الاصوات تنظيم حياتهم الدينية. ومهما يكن من امر فان زوينجلي لم يرض عن هذا الاتفاق، فقد طالب باطلاق حرية البروتستانت في الوعظ بالمقاطعات الكاثوليكية، ولم يتلق ما يفيد اجابته الى طلبه، وتنبأ بوقوع تصدع قريب للسلام.

### 13- زوينجلي ولوتر: محاورة ماربورج

واستمرت الاتفاقية سارية المفعول ثمانية وعشرين شهراً، وفي خلال هذه الفترة القصيرة بذلت محاولة لتوحيد صفوف البروتستانت في سويسرة والمانيا. وكان شارل الخامس قد فض نزاعه مع البابا كليمنطوس السابع، واصبح كل منهما وقتذاك حراً في ان ينضم بقواته لمحاربة البروتستانت، ولكن هؤلاء كانوا يمثلون قوة سياسية عظيمة، فقد كان نصف سكان المانيا من اتباع لوثر، وكان كثير من المدن الالمانية - اولم واوجسبورج وفيرتمبيرج وماينز وفرانكفورت - على - الماين - وشتراسبورج، تتعاطف بشدة مع اتباع زوينجلي، وعلى الرغم من ان المناطق الريفية في سويسرة كانت تدين بالكاثوليكية، فان معظم المدن فيها كانت تدين بالبروتستانتية. وكان من الواضح ان حماية النفس من الامبراطورية والبابوية قد تطلبت اتحاد البروتستانت ولم يقف في الطريق الا اللاهوت.

واخذ فيليب لاندجراف الهيسي زمام المبادرة بدعوة لوثر وميلانكتون وآخرين من البروتستانت الالمان لمقابلة زوينجلي واويكو لامبياديوس وبوسر وآخرين من البروتستانت السويسريين في قصره بماربورج شمالي فرانكفورت. وتقابل الحزبان المتناظران في 29 ايلول سنة 1529، واقدم زوينجلي في سخاء على التسليم ببعض الامور وازال ما ساور لوثر من شك في ان يتشكك في الوهية المسيح، وقبل العقيدة النيقاوية والمذهب القائل بالخطيئة الاصلية. ولكنه لم يتراجع عن رأيه في القربان المقدس باعتباره رمزا وذكري أكثر من معجزة. وكتب لوثر بالطباشير على مائدة المؤتمر هذه الكلمات المنسوبة للمسيح "هذ هو جسدي" ولم يقبل ان يفسرها الا تفسيراً حرفياً. ووقع الطرفان اتفاقاً، تضمن اربعة عشر بنداً، اشتملت على الثالوث - التجسد - القيامة - طبيعتي المسيح - الخطيئة الاصلية - الخلاص - التبرير بالايمان - عماد الاطفال - الكهنوت لكل المؤمنين - وزواج الاكليروس. ولكنهما اختلفا في موضوع القربان المقدس (3 تشرين اول) ولم يكن اختلافهما متسماً بالود، ورفض لوثر ان يصفح اليد التي مدها اليه زوينجلي، وقال: "ان روحك تختلف عن روحنا". واستخلص اعترافاً لاهوتياً من سبعة عشر بنداً، واقنع الامراء اللوثرين برفض التحالف مع أي جماعة لا توقع على كل البنود السبعة عشر. واتفق ميلانكتون في الرأي مع استاذة، وكتب بقول لقد ابغنا اتباع زوينجلي اننا عجبنا كيف تسمح لهم ضمائرهم ان ينادونا باخوتهم في الوقت الذي يتمسكون فيه ان عقيدتنا خاطئة. وفي عام 1532 حث لوثر الدوق البرخت البروسي على الا يسمح لاي شخص من اتباع زوينجلي بالاقامة في ارض بلاده، والا حلت عليه اللعنة الابدية.

### 14- معركة كابل Cappel ومقتل زوينجلي

وعاد زوينجلي بعد ان حطمه هذا الفشل الى زيوريخ، التي اصبحت تموج بالاضطراب تحت وطأة دكتاتوريته. وعم الاستياء من قوانين النفقات الصارمة، وعرقلة التجارة بالاختلافات الدينية بين المقاطعات، ولم يرض الحرفيون عن صوئهم الضئيل في الحكومة، وفقدت عظمات زوينجلي المختلطة بالسياسة الهامها وسحرها. وكان شعوره بالتغير قويا الى الحد الذي طلب فيه من المجلس الإذن له بالبحث عن ابرشية في مكان اخر، ولكنه أقنع بالبقاء. وخصص جانباً كبيراً من وقته آنذاك للكتابة.

واجتمع في 15 ايار عام 1531 مجلس زيورخ وحلفائها، وصوت لاكمال المقاطعات الكاثوليكية على السماح بحرية الوعظ على ارضها، وعندما رفضت المقاطعات اقترح زوينجلي اعلان الحرب عليها غير ان حلفاءه آثروا ان يفرضوا عليها حصاراً اقتصادياً. فما كان من المقاطعات الكاثوليكية الا ان اعلنت الحرب. وسار من جديد جيشان متناظران، وتقدم زوينجلي مرة اخرى، وحمل العلم، وتقابل الجيشان مرة ثانية في كايبيل (11 تشرين اول 1531).

كان جيش الكاثوليك يضم 8000 رجلا، وجيش البروتستانت يضم 1500، واشتبك الجيشان في هذه المرة، وانتصر الكاثوليك. وكان زوينجلي البالغ من العمر سبعة واربعين عاما من بين 500 رجل قتلوا من اهل زيورخ. ومزق جسده الى اربعة اجزاء، ثم احرق على محرقة نصبت فوق الروث. وعندما سمع لوثر بموت زوينجلي هتف يقول "ان هذا حكم السماء على كافر وانتصار لنا". ويروي انه قال: "كم اود من اعماق قلبي لو امكن انقاذ حياة زوينجلي ولكن اخشى ان يحدث العكس لان المسيح قال انه "ملعون كل من يكفر به".

## 15- معاهدة كابل الثانية

كانت امنية الطرفين ان تتوقف الحرب وان ينهيا العداء بينهما، فتوصلا الى توقيع معاهدة كابل الثانية. نصت هذه المعاهدة على ان كل اقليم حر في ان يدبر شؤونه الدينية بدون تدخل من الخارج. وارغم كل من الكاثوليك والبروتستنت على التخلي عن أي محالفات خارجية.

وخلف هينريخ بولينجر في زيورخ سلفه زوينجلي، اما في بازل فقد اضطلع اوزوالد ميكونيوس بالعبء بعد وفاة اويكو لامبيادوس، وتجنب بولينجر الخوض في الامور السياسية، واشرف على مدارس المدينة، وتستر على اللاجئين من البروتستانت، ووزع اموال البر على المحتاجين، بغض النظر عن المذهب الذي يعتنقونه، وانضم الى ميكونيوس وليوجود في صياغة اول اقرار للسويسريين البروتستانت من اتباع زوينجلي، الذي ظل جيلا كاملا التعبير الرسمي عن آراء زوينجلي، وتوصل مع كالفين الى اتفاق تيجورينوس (1549) Consensus Tigurinus، الذي يتضمن في الاساس عقيدة كالفن الافخارستيا، ملغيا بذلك استقلال الزوينجالية ووضعها في اطار البروتستانتية العام

وعلى الرغم من هذا الاتفاق الوقائي فان الكاثوليكية استعادت في السنين الاخيرة كثيرا من ارضها المفقودة في سويسرة، ويرجع جزء من ذلك الى انتصارها في كابل. واعتنقت الكاثوليكية سبع مقاطعات - وهي لوسرن واوري وشفيتز وتسوج وافترفالدن وفريبورج وسولوثورن. وتمسكت اربع مقاطعات بالبروتستنتية نهائيا: وهي زيورخ وبازل وبرن وشلافهاوزن، اما بقية المقاطعات فقد ظلت تتأرجح بين العقدين لا يستقر رأبها على قرار على وجه اليقين، ووفق فالنتيت تشودي، خلف زوينجلي في جلاروس، بين وجهتي النظر، بأن قال باقامة قداس في الصباح للكاثوليك، والقاء عظة حسب تعاليم الكنيسة الانجيلية - من الكتاب المقدس لا غير - في المساء للبروتستانت، وناقش مبدأ التسامح المتبادل بين الطرفين، وقبول بالتسامح، وكتب مدونة تاريخية، اتسمت بعدم التحيز، الى حد انه لا يستطيع امرؤ ان يجرم بالعقيدة التي كان يؤثرها.

## الاصلاح في فرنسا

### 1- اصل الاصلاح في فرنسا

وصل الاصلاح الى فرنسا متأخرا عن المانيا وسويسرا. ويمكن تحديد ثلاث فترات للاصلاح في فرنسا.

### 1) الاصلاح السلمي: 1509-1525 Le Fabrisme

يدعى هذا الاصلاح على اسم اول ممثل له وهو جاك ليفيفر Jacques Lefèvre. ولد جاك في اتابل Etaples في بيكاردي عام 1455. ولم يكن ليفيفر فقط عالما قديرا ذو ثقافة عالية في اليونانية والعبرية ومدرسا للرياضيات والفلسفة، بل كان انسانيا umaniste ورعا، تقيا، وصوفيا، كثير الاهتمام بالامور الدينية

حلم جاك ككل ذوي الارادة الصالحة والنفوس المستتيرة في ذلك العصر باصلاح الكنيسة، ولكن اصلاحا بعيدا جدا عن التمرد بقدر ما هو اصلاح داخل الكنيسة ومن الكنيسة. وبذلك يختلف عن كل زعماء الاصلاح الآخرين امثال لوثر وزونجلي وكالفن، الذين قاموا به خارج الكنيسة وضدها.

بنى ليفيفر اصلاحه على صعيدين:

**الصعيد العقلي Intellectuel:** مما لا شك فيه ان لاهوت المدرسة السكولاستيكية، كان يمر بمرحلة من الانحطاط بعد ان وصل الى اوجيه في عصر القديس توما الاكوييني والقديس بونافنتورا. واخذ السكولاستيكيون يقضون وقتهم في مجادلات عقيمة حول مواضيع عويصة لاطهار براعتهم. شعر ليفيفر والانسانيون الذين تبعوه ان هذا الاسلوب السكولاستيكي اصبح متدنيا وفسادا ويجب استبداله بلاهوت وضعي مبني على دراسة الكتاب المقدس والآباء.

**الصعيد الاخلاقي Moral:** كانت كنيسة فرنسا كباقي الكنائس الاخرى قد انحرفت عن مسارها ورسالتها. كثيرون هم الاساقفة الذين كانوا يعيشون في البلاط الملكي، يرافقون الملك ويتبعونه في كل تحركاته وتنقلاته بدلا من الإقامة والثبات في ابرشياتهم. زد على ذلك ان معاهدة 1516 بين فرنسا والكرسي الرسولي والتي منحت فيها الملك امتيازات خاصة في التدخل بامور الكنيسة، زادت من المساوىء التي عُيرت الكنيسة بها: كشرء المناصب وتجميع الوظائف. كما لم يعد عدد كبير من الكهنة والرهبان يحافظون على العزوبة والعفة، وكان اهتمامهم بمصالحهم المادية اكثر من اهتمامهم بالامور الروحية والكنيسة. باختصار لم يعد الاساقفة والكهنة يملكون الفضائل والصفات المنتظرة منهم، هذا ان لم يكونوا يملكون المساوىء والمفاسد المثيرة للشكوك.

آمن ليفيفر بكل صدق ان الدواء لهذا الداء هو في العودة الى الكتاب المقدس والى فهم اعمق للانجيل. وهذا لن يكون دون ترجمة هذه الكتب الى اللغة العامية، وبالتالي وضعها بين ايدي الناس وخصوصا الاكليروس. ولهذا الهدف ترجم ليفيفر اولا سفر المزامير في عام 1509، ثم رسائل القديس بولس في عام 1512.

حازت افكار ليفيفر الاصلاحية عى دعم وموافقة النخبة المثقفة في فرنسا وغيرها وخصوصا جيوم برسونة Briçonnet Guillaume الذي عندما اصبح اسقفا لمدينة Meaux، اجتمعت حوله هذه النخبة وأسسوا ما يدعى "حلقة موا" Le groupe ou Cénacle de Meaux. وتابع ليفيفر في هذا الجو ترجمة الاناجيل واعمال الرسل وسفر الرؤيا عام 1523، وأرفقها ايضا لكتاب تفسير للرسائل والاناجيل ليكون دليلا للوعظ في ايدي الاكليروس. وهكذا نرى ان الاصلاح في فرنسا بدأ قبل ان يبدأ به لوثر في المانيا بسنوات.

كانت نوايا ليفيفر في الاصلاح حسنة وصادقة في ذاتها، الا انه في مقدمات اعماله وفي تفاسيره، حدث ان عبّر بعض الاحيان عن تعاليم وافكار قريبة جدا من التعاليم اللوثرية التي بدأت بالانتشار في ذلك الوقت في فرنسا. فقد كتب مثلا بخصوص رسائل بولس: "توجد تعاليم المسيح في الكتاب المقدس، فلنتعلق بالمسيح وحده فقط وبالتعاليم الرسولية، لانها هي الضرورية وتكفي للخلاص. ويجب ان ننتظر الخلاص من الايمان بالمسيح فقط... خلاصك ليس في اعمالك الصالحة، ولكن في اعمال المسيح. لا تستطيع ان تخلص نفسك. المسيح وحده يخلصك. ليس صليبك بل صليبه".

اراد ليفيفر ان يقول بذلك ان النعمة الالهية واستحقاقات المسيح هي وسائل ضرورية للخلاص، وان الاعمال أي التوبة والحج والالتجاء الى القديسين، ما هي الا مظاهر خارجية ثانوية للايمان. هذه كانت افكار ليفيفر لانه يقول في مكان اخر يجب "اضافة الاعمال بحسب يعقوب الى الايمان بحسب بولس".

الا انه بالاضافة الى امكانية تفسير اقواله تفسيراً صحيحاً ارتودوكسياً، كانت اقواله قابلة أيضاً للتفسير الخاطيء. وهذا ما فعله اعداؤه عندما قارنوا بين تعاليمه وتعاليم لوثر، فادان البرلمان ترجمات ليفيفر للعهد الجديد في عام 1525. فانحلت مجموعة مو Meaux، والتجىء ليفيفر الى ستراسبورغ واتصل بزعيم الاصلاح فيها بوسر، وبقي فيها الى ان استطاع العودة الى فرنسا، بعد ان تشفعت له مرجريت اخت الملك، فاستدعاه فرانسوا الاول وعينه امينا للمكتبة الملكية ومربياً لاطفاله. وفي عام 1531، عندما اغضبت الملك اعمال البروتستنت التي تجاوزوا فيها الحد، لجأ ليفيفر الى مرجريت في جنوب فرنسا، وعاش هناك حتى وفاته عام 1537، بالغا من العمر 87 (82)؟ دون ان يتخذ موقفاً لا مع ولا ضد الاصلاح. وبقي اكثرية تلاميذه كاثوليك، وانضم بعضهم وهم قلة الى البروتستنت.

## (2) دخول اللوثرية والزونجيلية الى فرنسا 1520-1540

انتشرت اللوثرية في فرنسا بين عام 1520 و 1540. ومما لا شك فيه ان حادثة تعليق لوثر لبنوده الستة والتسعين على باب كاتدرائية وتبرج في 31 تشرين اول 1517، اثارت ضجة ايضاً في فرنسا. الا ان مبادئ وتعاليم لوثر لم تدخل فرنسا الا بعد "حوار لينزغ" بين لوثر وجون آيك (1519). فقد رأينا ان جامعة باريس اختيرت ايضاً لتعطي حكمها في هذا الحوار. وبهذه المناسبة استلمت كلية اللاهوت فيها نسخاً من تعاليم لوثر وكتابات، وتعرف عليها وذاق طعمها واستذوقها بعض اساتذتها وتبنوا افكارها.

ظهرت في نفس الوقت تقريباً تعاليم زونجيلي عن طريق اتباعه من التجار، ولم تكن تختلف عن تعاليم لوثر الا حول قضية العشاء السري.

لاقت هذه التعاليم العطف والقبول بين جميع طبقات المجتمع الفرنسي. ورحب الانسانيون بها لانهم وجدوا في نقد هؤلاء المصلحين شبيهاً بدعوتهم. ورحب بها ايضا الاشراف ورأوا فيها مناسبة لقلب الاوضاع الاجتماعية، وازعاج السلطة الملكية، وفرصة للاستيلاء على املاك الكنيسة كما فعلت المانيا. ورحب بها الشعب، لانه رأى في هذه الثورة الانجيلية الجديدة دواء لكل الاوضاع السيئة التي كان يعاني منها. واخيراً رحب بها الكثير من الكهنة والرهبان، الذين دخلوا الحياة الرهبانية دون دعوة حقيقية، وكانوا قد سئموا حياة العزوبة والعفة، ورأوا في قبولهم هذه التعاليم الجديدة والالتقاء اليها، وسيلة للتخلص من النذور الرهبانية ومن ثم الزواج.

هذه الاسباب مجتمعة تفسر الانتشار السريع للبروتستنتية في اجزاء كثيرة من فرنسا.

## (3) دخول الكلفينية الى فرنسا 1540-1559

اعطي نشر كتاب **Institutio christianae religionis** دفعة قوية لانتشار الافكار الاصلاحية. الا ان الحركة الكلفينية كثفت نشاطها بعد التنظيم الاول للكنيسة في جنيف عام 1540. فأخذ الوعاظ الكلفينيون السويسريون ينتقلون من بلد الى اخر يكرزون في كل مكان بهذه التعاليم الجديدة، ووزعوا الكتاب المقدس على كل البيوت. وانتشرت بسرعة الجماعات الكلفينية المؤسسة على مثال كنيسة جنيف، وبواسطة رعاة تدرّبوا في اكااديمية كالفن، في كل انحاء فرنسا تقريباً وتغلغت ايضاً في كل طبقات المجتمع. وضمت اليها الاتباع حتى من بين اعضاء البرلمان ومن بين رجال البلاط الملكي.

ولما اشرف ملك هنري الثاني على الانتهاء، كان اتباع الكنيسة الكلفينية قد احرزوا تقدماً كبيراً جعلهم قادرين على ان يعقدوا مجمعهم العام الاول في باريس في 25 ايار 1559. وفي هذا المجمع الذي حضرته 11 كنيسة تحت رئاسة فرانسوا دي موريل François de Morel، راعي الكنيسة المصلحة في باريس، تبنوا قانون اعتراف ودستور من القوانين من ايجاء كالفن. ومن المفارقات ان هذا المجمع الذي اقر حرية الرأي وحرية الاختيار وحق كل انسان في تفسير الكتاب المقدس حسب تنوير الروح القدس (بند 4، 5 من الدستور العقائدي) اضاف ايضاً ان على الرعاة فقد تقع مسؤولية تعليم وشرح وتقديم كلمة الله، ولا يحق لأي انسان ان يتدخل - بدون تفويض - في امور ادارة الكنيسة (بند 25، 31). فضّل كالفن ان يكون مناقضاً لتعاليمه الاصلاحية، ان يستفيد من وجود سلطة كنيسية علياً، سلطته هو في الوقت الحاضر، لانها وحدها كفيلة بالحفاظ على الوحدة وعدم التشرذم وتجنب الفوضى في كنيسته.



## 2- معارضة الافكار الاصلاحية

واجه المصلحون عدة معارضين حدّوا من انتشارهم. ومن اهم المعارضين: جامعة السربون والبرلمان.

**(1) جامعة السربون:** اعتبرت جامعة السربون نفسها حامية الايمان الارثوذكسي، لذلك اظهر منذ البداية معارضتها لكل تعليم وكل عقيدة وكل مدرسة تتعارض ومبدأها في التعليم. فاتخذت في الحال موقفا معارضا من اللوثرية والزونجالية والكلفينية، وعارضت تعاليمهم وعملت على ادانتها. وأنشأت وظيفة خاصة بالجامعة دعيت "المراقب" Syndic، من مهامه مراقبة التعاليم غير الارثوذكسية وعهدت بهذه المهمة الى نوثيل بيدي Noël Beda رئيس كلية مونتيجي Montaigu المعروف بصرامته وتشدده ازاء الهرطقات. فادانت السربون تعاليم ليفيفرواضطرته الى الالتجاء الى ستراسبورغ. وادانت مئة بند من تعاليم لوثر واعتبرتها هرطوقية وخطرة.

**(2) البرلمان:** كانت جامعة السربون تدين الهرطقات والتعاليم الخاطئة، وكان البرلمان يعاقب الهرطقة واصحاب التعاليم المضللة. وبما ان نصف اعضاء البرلمان كانوا من الاكليروس، فقد اتحدوا مع السربون في محاربتهم الهرطقة ليحافظوا بذلك على وحدة الايمان، ووحدة المملكة والسلام العام.

فبعد ان أدانت السربون التعاليم اللوثرية، اصدر البرلمان مرسوما منع فيه أي من الكتابات حول المواضيع الدينية دون موافقة كلية اللاهوت.

وانعقدت اربع مجامع في فرنسا: بوج وباريس وريمس وليون، لتحديد التعاليم الخاطئة، وتحديد العقوبات لكل حالة منها. واصدر مجمع باريس مرسوما عاما، يذكر الاساقفة بواجبهم في محاربة الهرطقات عامة وهرطقة لوثر خاصة. وقرر ان يُنزل ويحط الاكليروس الذي يتبع هذه الهرطقات من رتبته ويُسلمه الى المحاكم المدنية. ومنع حفظ ونشر الكتب اللوثرية، والوعظ بدون تفويض، وطلب من الملك ان يتخذ الاجراءات الصارمة ضد هذه الهرطقات.

وتبع هذا المرسوم 16 قرار ايمان يعرض العقائد الكاثوليكية: (وحدة وعصمة الكنيسة 2) منظورية الكنيسة (3) سلطة المجمع (8) عزوبية الكهنة (9) النذور الرهبانية (10) الاسرار السبعة (11) ذبيحة القديس (12) المطهر (13) تكريم القديسين، (14) تكريم الصور المقدسة، (15) حرية الاختيار (16) ضرورة الاعمال الصالحة للخلاص كضرورة الايمان.

وكان القرار الاخير قد اظهر ضلال لوثر الذي اراد ان يحارب الاعتماد الزائد على الاعمال، فشدد على اهمية الايمان لدرجة انه الغى ضرورة الاعمال الصالحة. فقدم هذا القرار مقابل اقتباسات لوثر من الكتاب المقدس في صالح نظريته، اقتباسات كتابية اخرى لا تقل اهمية لصالح الاعمال الصالحة. وقال القرار انه صحيح ان "بدون الايمان من المستحيل ان نكسب رضى الله" (عبرانيين 11، 26)، ولكنه صحيح ايضا ان "من كان له من الايمان ما يستطيع به ان يحرك الجبال، ولم تكن فيه المحبة، فليس بشيء" (1 كور: 13، 2). نحن نبرر بواسطة الايمان وانما قيل ايضا "ان مريم المجدلية عُفّر لها كثيرا لانها احبت كثيرا" (لوقا 7: 47). "اذا احبني احد، حفظ وصاياي، واحبه ابي، ونجعل عنده مقامنا" (يوحنا 14: 23). من الفضائل الثلاث الايمان والرجاء والمحبة "واعظمن المحبة" (1 كور: 13، 13)، "الايمان بدون الاعمال ميت" (يعقوب 2، 17)، "ليس من يسمع للشرعة يبررون ولكن من يحفظ الشرعة" (روما 2، 13)، لان كل واحد يتسلم بقدر اعماله (متى 25، 35). وتبع القرارات الستة عشر العقائدية 39 تعليما تمت ادانتها، و 40 بندا تنظيميا بهدف الغاء المساوىء وبدء برنامج للاصلاح.

ولم يكن للسربون ولا للبرلمان ان ينجح في محاربة الهرطقات لو لم يحصل على دعم اكبر قوتين في المملكة: الاسرة المالكة والشعب.

## 3- فرانسوا الاول وقمع الهرطقة

لم يكن النظام الملكي ليربح أي شيء من تغيير الديانة. فقد تحررت فرنسا ومنذ حكم فيليب الجميل من وصاية البابوات. ووضعت معاهدة 1516 الاكليروس تحت إمرة الملك. كما ولم يكن للملك أي رغبة في الاستيلاء على املاك الكنيسة، اذ كان بوسعها التصرف بها كما يشاء. واذ لم يكن للملكية ما تريحه من تغيير الديانة، كان لها الكثير لتخسره. فالاصلاح في نشر مبادئ الاستقلال، كان من شأنه ان يحرك طبقة الاشراف على التحرر من السلطة الملكية، وعلى المطالبة بالامتيازات التي كانت تتمتع بها سابقا، وبالتالي تفكك وحدة المملكة التي عمل ملوك فرنسا الكثير لتحقيقها.

كان مزاج الملك فرانسوا الاول في معاملته للهراطقة يتغير تبعا لتغيرات دبلوماسيته. فطالما بقيت الحركات الهراطوقية مسالمة، وجدت الافكار الاصلاحية قبولا لها حتى في البلاط الملكي. فكانت مارجريت دأنجوليم اخت الملك المفضلة، تشجع وتؤيد مثالا "حلقة موا". وكان فرانسوا الاول وبجكم انتمائه الى حركة الانسانيين، يميل ايضا الى مثل هذه الافكار، ولم يبدأ في مقاومتها الا عندما بدأ اتباعها يلتجئون الى العنف والتمرد. فعندما كان في حاجة الى المال لافتداء ولديه اللذين كان قد سلمهما لشارل مقابل حصوله على حريته، ووافق رجال الدين على منحه مبلغا كبيرا من المال مقابل وقفة اكثر حزما مع الهراطقة. وفي 31 ايار سنة 1528 هاله ان يعلم بتحطيم رأس العذراء والابن في تمثال لهما خارج كنيسة في ابرشية سان جرمان اثناء الليل. صاح الناس يطالبون بانتقام وعرض فرانسوا الاول مبلغا من المال مكافأة لمن يعثر على المخربين، وقاد موكبا حزينا من الاساقفة وموظفي الدولة النبلاء وعمامة الناس لترميم التمثال المحطم برأسين من الفضة.

وفي عام 1532، وقد اغضبه تعاون البابا كليمنضوس السابع مع شارل الخامس، قدم عروضاً للامراء اللوثريين والامان، وسمح لروسيل Russell ان يعظ صيام 1533 في اللوفر، وعندما احتجت السوربون نفى زعماءها من باريس.

وفي تشرين اول سنة 1533، وعندما كان على وفاق مع كليمنضوس، عقد معه حلفا، مع وعد بالزواج بين كاترين دي مديتشي، ابنة اخ البابا مع هنري، الابن الثاني لفرانسوا، ووعد باتخاذ اجراءات فعالة ضد الفرنسيين البروتستنت. وفي اول تشرين ثاني القى نيكولاوس كوب بتحريض من كالفن خطابا في جامعة السوربون أثار فيه غضب الجامعة، ارسل فرانسوا اوامره بقمع الهراطقة من جديد. فهرب كالفن من باريس. ولكن عندما اشتدت وقتذاك حدة نزاعه مع الامبراطور شارل الخامس، ارسل جيوم دي بلاي المناصر للاصلاح الى فتبرج ليطلب من ملانكتون ان يتوصل الى صيغة توفيق بين العقيدة القديمة والافكار الجديدة (1534). وبهذا يجعل في الامكان عقد تحالف بين المانيا البروتستنتية وفرنسا الكاثوليكية. فاذعن ملانكتون واخذت الامور تتحرك بسرعة عندما حدثت بما يسمى "حادثة المنشورات".

#### 4- حادثة المنشورات

حادثة مهمة في تاريخ الاصلاح الفرنسي. كان الملك فرانسوا الاول ضد جماعة البروتستانت، وكان ينوي التخلص منهم، ولكنه كان يخشى رد الفعل من الداخل ومن الخارج، وخاصة انه كان يبحث عن ابرام معاهدة مع الامراء الالمان ضد الامبراطور شارل الخامس، لا سيما وان عددا لا بأس به من هؤلاء الامراء كانوا بروتستانت.

يبدو ان بعض الافراد ارادوا ان ينتهزوا هذه الفرصة، ففكروا ان يقدموا الى الشعب ملخصا لتعاليم الكنيسة اللوثرية، وبناء عليه ارسلوا الى سويسرا ممثلا لهم لكي يناقش هذا الامر مع بعض اللوثريين في نيوساتل. فرجعوا ومعهم منشورات قام بكتابتها انطون ماركورت Antoine Marcourt. وعند وصول هذه المنشورات الى باريس قامت جماعة بتوزيعها. ففي ليلة 17-18 تشرين اول سنة 1534، علقتم هذه المنشورات في باريس واورليان، ووصلت الجراة بهم الى تعليق احد هذه المنشورات على باب مخدع الملك. وكان هذا المنشور يحتوي على نقد لاذع للكنيسة الكاثوليكية ممثلة في البابا والكرادلة والاساقفة والكهنة، وضد مفهوم الكنيسة لعقيدة الافخارستيا، وبعض العقائد الاخرى. وقد كُتب هذا المنشور بأسلوب هجومي عنيف خال من الادب ومن اللياقة، مستعملا بعض الالفاظ غير المهذبة.

عندما اطلع الملك فرانسوا الاول على هذا المنشور ثار ثورة عارمة، معتبرا هذا الامر تحديا لشخصه وجلالته الملكية. فشن حملة اضطهادات عنيفة مريعة، واعداء بمكافأة مالية لكل من يعلن عن اسم وعنوان أي لوثري. وصلت بعض الشكاوي تحمل اسماء وعنوان بعض اللوثريين فقبض عليهم، والقى البعض منهم في السجون. وفي يوم 7 تشرين ثاني حكم بالموت على سبعة منهم.

ثم قام الملك مع الاكليروس واولاده الثلاثة بتطواف تكفير في يوم 21 كانون ثاني 1535، وسار الملك في هذه المسيرة عاري الرأس مع اولاده الثلاثة ممسكا بيده شمعة مشتعلة. وفي عشية هذا اليوم، اعلن الملك اثناء العشاء امام الاكليروس وسفراء الدول الاجنبية، انه سيعامل كل هرطوقي بنفس المعاملة، حتى ولو كان من عائلته، واصدر الاوامر بالقبض على كل من ينتمي الى هذه الطائفة ومصادرة املاكه.

في هذه اللحظة شعر كالفن بعدم الاستقرار، وسئم التنقل بين انجوليم ونويون وباريس واورليان، فقرر ان ينطلق الى مدينة بازل في سويسرا في كانون اول عام 1534.

وشهدت السنوات من 1539 الى سنة 1547، السنة التي مات فيها فرانسوا الاول، سلسلة من الاعدامات طالت الكثير من اللوثريين والكالفينيين، والاحرار *libres penseurs*، اصحاب المطابع والناشرين، الذين ساهموا في طباعة ونشر كتب الهرطقة. وتميز عام 1545، بمذبحة الوالديين *Vaudois*، الذين قاموا بدافع من الحقد على الكاثوليكية، وتحت تأثير معتقداتهم الدينية الى الهجوم على بعض الكنائس، وحطموا تماثيل العذراء والقديسين، واساءوا الى بعض الكهنة.

## 5- هنري الثاني ومقاومة الهرطقة (1547-1559)

استمرت البروتستانتية بعد فرانسوا الاول تتقوى في فرنسا، وكان كالفن وآخرون غيره يرسلون مبعوثين. وما ان حل عام 1559 حتى كانت عدة مدن، كايين وبواتيه ولاروشيل ومدن كبيرة في بروفانس، يغلب عليها الهوجينوت، وقدر احدهم ان البروتستنت الفرنسيين كانوا ربع السكان تقريبا في ذلك العام.

وتبنت البروتستانتية الفرنسية في لاهوتها آراء كالفن في كتابه "النظم"، فقد كان مؤلفه فرنسيا ولغته فرنسية واستهوى منطقته العقلية الفرنسية. وكاد لوثر ان يُنسى في فرنسا بعد عام 1550، والحق ان اسم هوجنوت بالذات ورد من زيورخ عن طريق جينيف الى بروفانس. وفي ايار عم 1559، شعر البروتستنت انهم اصبحوا من القوة الى حد يمكنهم من ارسال مندوبين الى اول مجمع مقدس عام لهم عقد سرا في باريس. وما ان حل عام 1561 حتى كان هناك 2000 كنيسة اخذت باصلاح الديني او الكالفينية في فرنسا.

اتخذ هنري الثاني، ومنذ بداية حكمه، موقفا واضحا ضد الهرطقة. فقد اعتقد ان كل ثورة دينية ستكون مضرة للسلطة الملكية، فقرر سحق الهرطقة. وقد شجعه على ذلك ايضا حاشيته، امثال عشيقته ديان دي بواتيه، وخصوصا عائلة الجيز *Les Guises*.

**الغرفة المتأججة:** نظم المجلس النيابي لباريس، بناء على تعليمات هنري الثاني لجنة خاصة (1549) لقمع الخروج على الرأي، وارسل من ادينوا الى المحرقة، واطلق على المحكمة الجديدة اسم "الغرفة المتأججة" بسبب احكامها القاسية جدا، واصدرت ما يقارب الخمسمئة حكما، منها ستين حكما بالحرق. واعترض الاكليروس على تأسيس هذه المحكمة، اولا بسبب احكامها القاسية، ورأوا فيها سببا لانتشار الهرطقة بدل تحميمها، اذ ان دم الشهداء بذار للبروتستانتية، وثانيا لانهم اعتبروها تعديا على حقوق الاكليروس. وتنازل الملك قليلا، واصدر مرسوما في تشرين ثاني 1549، خفف من اجراءات هذه المحكمة.

**مرسوم شاتوبريان (1551):** هدف هنري الثاني من مرسوم شاتوبريان هو ان يوحد وينظم كل الاجراءات التي اتخذت ضد الهرطقة، وبيّن في مقدمة هذا المرسوم، انه بالرغم من كل الاجراءات التي تم اتخاذها، الا ان البروتستانتية انتشرت "مثل انتشار وباء الطاعون"، وانه حان الوقت لمضاعفة الاجراءات لتطهير المملكة منهم. فاعاد العمل بكل الاجراءات السابقة. ثم نظم عملية طبع ونشر الكتب، فاعلن ان طبع او حيازة كتب الهرطقة يعد جريمة عظيمة، وان الاصرار على الآراء البروتستنتية يعاقب عليه بالاعدام، ونص على ان يتسلم المبلغون ثلث اموال المحكوم عليهم. وكان عليهم ان يبلغوا المجلس النيابي عن أي قاض يعامل الهرطقة باللين، ولم يكن في وسع أي رجل ان يُعيّن قاضيا الا اذا كانت عقيدته المحافظة لا يرقى اليها شك.

**محكمة التفتيش:** ولم تستطع كل هذه الاجراءات والمراسيم ان تقضي او تقلل من الهرطقة. وفي عام 1557، ستة سنوات بعد ارتقائه العرش، عرض هنري على البابا بولس الرابع اقامة محكمة التفتيش في فرنسا طبقا للنموذج الروماني الجديد، ولكن المجلس النيابي اعترض على السماح لسلطة اخرى ان تحل محل سلطته، فتخلى الملك عن عرضه. الا انه تمكن من ان يحقق غرضه باسلوب اخر، عندما طلب الملك من البابا بولس الرابع، ان يمنح كرينالا فرنسا الصلاحيات الضرورية لملاحقة الهرطقة، مع امكانية تفويض صلاحياته للاساقفة او اساتذة اللاهوت، مما سمح بتأسيس مفتشين *Inquisiteurs*، في كل انحاء المملكة.

**مرسوم كامبيج *Edit de Campiège*:** فشلت معظم الاجراءات في كبح انتشار الهرطقة. فاصدر هنري الثاني في 24 تموز 1557، مرسوم كامبيج، حوّل فيه الى المحكمة المدنية، صلاحية الحكم على الهرطقة، كل مرة اثاروا شكوكا او عنفا او فوضى. كما قرر الملك في هذا المرسوم، ان عقوبة الموت هي العقوبة الوحيدة لمثل هذه الاعمال، بعد ان كان في وسع القضاة الاختيار بين الغرامة او السجن الموقت، وبين السجن المؤبد او الاعدام. هكذا فكر هنري انه بإمكانه القضاء على الهرطقة.

الا ان هذه السياسة كسابقتها لم تعمل الا على تثبيت الهراطقة في اعتقاداتهم، وعملت على انضمام اتباع جدد لهم، وزادت من حدة حقدهم وضغينتهم ضد الكاثوليكية. ورد الهراطقة على ذلك بمزيد من اعمال العنف والدمار ضد الكنيسة، واستخفوا بتكريم العذراء والقديسين، وقاموا بتحطيم تماثيلهم وصورهم. فمثلا في ايلول 1554، قام الهراطقة بتدنيس صورة للعذراء "سيدة الرحمة" بطعنات عدة بخنجر. فامر الملك بالقيام بتطواف للتعويض عن هذا العمل. وسار في هذا التطواف اعضاء البرلمان، وجموع غفيرة من الرجال والنساء.

جابه الهراطقة مظاهرات الشعب التقوية بمظاهرات اخرى معادية ادت الى الاصطدامات بين الطرفين وادت في بعض المرات الى مآسي مؤلمة مثل مأساة شارع القديس جاك *Affaire de la rue Saint Jacques*، وحادثة بري او كليرك *Incident Pré-aux-Clercs*.

**مأساة شارع القديس جاك *Affaire de la rue Saint Jacques***: كان من عادة اتباع الكنيسة الكالفينية ان يجتمعوا كل مرة في احد البيوت الخاصة التي تعود الى اتباعهم، لتفادي اعين المراقبين. وفي الرابع من ايلول عام 1557، اكتشف بعض طلبة كلية دبليسييس *Du Plessis*، احدى هذه الاجتماعات في احد المنازل في شارع القديس جاك، يعود الى برتومية *Berthomiet*. فأثار الطلبة الشعب ونبهوا الحراس، وهجموا على مكان الاجتماع، وقبضوا على اكثرية المجتمعين بينما هرب الباقون. فعذبوا وسجنوا واعدموا سبعة منهم بالموت حرقا.

**حادثة بري او كليرك *Incident Pré-aux-Clercs***: كان لهذه الحادثة اهمية كبرى لانها اظهرت ان الاصلاح كان قد انتشر، ليس فقط بين عامة الشعب والطبقات الوسطى، ولكن ايضا بين طبقة الاشراف، وحتى بين شخصيات كبيرة في المملكة. وبالرغم من قساوة الاجراءات، لم يخشى البروتستنت من ان يقوموا في ايار 1558، بتظاهرات عامة. فقد تجمع ما يقارب الثلاث الى اربع الآف شخص منهم في منطقة بري او كليرك، وقاموا بترسيم الترانيم البروتستنتية. وكان يرافق هذا الجمع ما يقارب سبعمئة من الاشراف واثنان من الامراء، الذين دخلوا المدينة وهم يرمون المزامير.

اثارت هذه المظاهرة استياء الملك، وشدت في عزمه على القضاء عليهم بأي ثمن. ولما حانت الفرصة له بعد عقد اتفاقية سلام مع شارل الخامس، ولم يعد بحاجة الى دعم الامراء البروتستنت، قرر ان يضرب الضريبة القاضية لايقاف انتشار الهراطقة. وسنحت له الفرصة عام 1559، عندما نقضت احدى المجالس البرلمانية حكم الموت على بعض الهراطقة التي اصدرته احدى المحاكم البدائية، حسب تعليمات الملك. فثارت ثائرة المتشددين وطلبوا عقد مجلس عام لدراسة وتحديد القانون حول هذا الموضوع. واثناء مداوات هذا المجلس، عارض بعض المندوبين الاجراءات ضد الهراطقة، وطلبوا اعطاء الهراطقة المحكوم عليهم مهلة ستة اشهر للارتداد، كما ادانوا مساوئ الكنيسة، وطلبوا عقد مجمع. اقترح احد اعضائه، آن دي بوج، بجرأة ان تتوقف كل مطاردة للهراطقة حتى يستكمل مجلس ترانت تحديده للعقيدة الكاثوليكية. واستنكر ان يتم "الحكم على الذين يستنجدون بالمسيح من وسط لهيب النار على المحرقة، الشيء الذي لا يطبق على من يرتكبون الزنا". وكان الملك هنري الثاني حاضرا، ورأى في هذه الكلمات نقدا موجها له شخصيا بسبب علاقاته بديان دي بواتيه. فامر هنري بالقبض على خمسة من المستشارين. وبينما تراجع المستشارون الخمسة عن ارائهم، حكم على آن بوج بالموت، فحُنيق ثم احرق جثته في 23 كانون اول 1559.

## 6- خاتمة

مات هنري الثاني، وفشلت سياسته في قمع الهراطقة. وفي نهاية حكمه، كان الاصلاح قد انتشر في الكثير من انحاء فرنسا. والمقلق اكثر ان الاصلاح استطاع ان يكسب الى صفه شخصيات مرموقة ومؤثرة من المجتمع الفرنسي. ولم يكن صعبا على المطلعين على الامور، التكهن بتحول النزاعات الدينية الى نزاعات سياسية، تجر وراءها الحروب. وهذا ما حصل في "الحروب الدينية *Les Guerres de religion*" وهذا ما سنراه في فصل آخر.

## الانفصال الانجليكاني

### مقدمة

كان للانفصال الانجليكاني - لأن الإصلاح في انكلترة بدأ بالانفصال قبل ان يصبح هرطقة - اسبابه البعيدة Lointaines وسبب قريب prochaine او بالاحرى مناسبة هي طلاق هنري الثامن.

### 1- الاسباب البعيدة:

تنقسم الاسباب البعيدة التي حضّرت وجعلت دخول الإصلاح الى انكلترة، الى اسباب دينية، وثقافية وسياسية واجتماعية.

### (1) اسباب دينية

ان السبب الديني الرئيسي الذي اثار حركة الإصلاح، كانت حالة الكنيسة. ففي انكلترة كما في المانيا، وجدت نفس المساوىء التي شوهدت صورة الكنيسة الكاثوليكية وزرعت في نفوس الكثيرين الرغبة في الإصلاح.

فرجال الكنيسة من اعلاها الى اسفلها، لم يكونوا يملكون الصفات اللازمة التي تليق بمكانتهم. فالاساقفة كانوا يصلون الى المناصب الكنسية بدون دعوة او تحضير، ولاسباب مادية. وكانوا يعيشون عيشة دنيوية اشبه بالامراء والاسياد، والكثير منهم لم يكونوا يحافظوا على واجب الاقامة residence في ابرشيتهم، ولا يكثرثون كثيرا بالعناية الروحية لرعاياهم.

وعندما اعتلت العرش عائلة تودور (1465-1601) وارادت ان تثبت سلطتها القوية المستبدة، التجأت الى الاكليروس لمناصرتها امام معارضة البرلمان، واتخذت من هذا الاكليروس الوزراء والسفراء والمستشارين الذي كان بلاط انكلترة يعجُّ بهم. وكانوا يعيشون كموظفي حكومة اكثر منهم رجال كنيسة، وحكموا الكنيسة كما حكموا الدولة بدون اعطاء اهمية لروما. وبهذا كانت كنيسة انكلترة قد اصبحت كنيسة قومية قبل ان تصبح منفصلة. واشهر مثال على رجال الدين هؤلاء هو الكردينال ولسي Wolsy، رئيس اساقفة يورك الذي عمل من عام 1518 الى 1529، مبعوثا بابوية ورئيسا للكنيسة الانجليزية بالاضافة الى عدة مناصب اخرى كانت تدر عليه الاموال الكثيرة، فعاش حياة ترف وبذخ بعيدة جيدا عن الإصلاح في حياته الخاصة. ولم يكن الاكليروس العادي اكثر صلاحا من رؤسائه، اذ كان الكثيرون منهم اصحاب اخلاق فاسدة، جهلاء، بدون ثقافة لاهوتية، وغير ملمين بالوعظ.

وهكذا كانت الكنيسة في حالة ضعف بحيث لم تستطع ان تقاوم حركة الانفصال الذي سيقوم بها الملك هنري الثامن.

### (2) اسباب ثقافية:

لعبت النزعة الانسانية دورا مهما وفعالا في حركة الإصلاح في انكلترة كما حصل في البلاد الاخرى. وعندما تبنت النزعة الانسانية رفض او التقليل من دور التقليد المسيحي واعطت لنفسها الحق في نقد الكتب المقدس بحجة "حرية البحث" Libre examen، مستعملة اساليبها المعارضة للاساليب السكولاستيكا، القى رجال النهضة بذور عدم الثقة في تعليم الكنيسة الرسمي.

كانت عملية هدم هذا الصرح التعليمي التقليدي للكنيسة قد بدأ في انكلترة في بداية حكم هنري الثامن على يد ثلاثة من كبار اصحاب النزعة الانسانية، اثنان هم من انكلترة نفسها: جون كولت John Colet وتوما مور Thomas More والثالث هولندي ديزري ارازموس Désiré Erasme جمعتهم صداقة قوية. وعندما اجتمعوا معا في جامعة اكسفورد - لذلك يطلق عليهم "مصلحي اكسفورد" - عملوا دون ان يعلموا على انجاح حركة الإصلاح الانجليكاني. فثلاثتهم حملوا بكنيسة متجددة مطهّرة من كل ما اضيف اليها من ممارسات دينية ومغالاة، اصبحت

في نظرهم مساويء، كتكريم القديسين والصور المقدسة والحج والغفرانات. ارادوا كنيسة مساحمة، تُعطي العقائد اهمية اقل، وتجمع جميع الطوائف والشيع المسيحية في جماعة وعبادة واحدة.

**جون كولينت John Colet:** في إنجلترا تدرّب جون كولينت (1467-1519) على فلسفة النزعة الانسانية على يد "ميراندولا" من فلورنسا بايطاليا. رجع ليحاضر في أكسفورد عن رسائل بولس. اصبح مشهورا بمواعظه التفسيرية في كاتدرائية القديس بولس في لندن. كان كولينت صديقا حميما لسير "توماس مور" و "ايرازموس". كانت احدى انجازاته الكبرى تأسيس مدرسة للاولاد في كنيسة القديس بولس. كانت حينئذ فريدة من نوعها، فقد قبلت 150 ولدا كانوا محرومين من كل فرصة للتعليم، وذلك لتدريبهم على اليونانية واللاتينية والفضائل المسيحية. وقد استخدم كولينت ثروته الشخصية لدعم المدرسة.

**توماس مور Thomas More:** لا شك ان اشهر فلاسفة النزعة الانسانية كان السير توماس مور (1478-1535). واذ كان صديقا حميما لجون كولينت وايرازموس، قدم اساسا جديدا في دراسة اللاتينية واليونانية. دافع عن ترجمة ايرازموس اليونانية للعهد الجديد ضد منتقديها، وعبر عن اهتمامه باصلاحات الكنيسة. كان مور، بصفة خاصة، يندد بالفلسفة اللاهوتية للقرون الوسطى قائلا: "يمكنني ان احصل على التغذية الجسدية، بحلب جدي في غرابل بنفس السهولة التي احصل بها على التغذية الروحية من قراءة فلاسفة اللاهوت في القرون الوسطى". على أي حال كان مور مفكرا سياسيا اكثر منه لاهوتيا. عمل الكثير لمساندة هنري الثامن في طلباته ضد البابوية. وقد عينه هنري وزيرا حامل الاختام في سنة 1529. اشهر كتبه هو "اليوتوبيا Utopia" او الدولة المثالية، الذي تخيل في حكومة ديموقراطية كاملة لدولة خيالية حيث يعيش جميع الناس في سلام وراحة وسعادة. يؤسس الدين في اليوتوبيا على العقل، والطيبة، وتتمركز العدالة في الاسرة. وبالرغم من الهرطقة الظاهرة في اليوتوبيا، بقي مور كاثوليكيًا امينا. وعارض الاصلاح اللوثري. ولما اصر الملك على سيادة الملكية فوق الكنيسة، استقال من منصبه، ومات في سنة 1535 بقطع رأسه.

**ايرازموس Erasmus:** يتفق المؤرخون على ان ايرازموس (1469-1536) كان ابرز فلاسفة النزعة الانسانية واكثرهم تأثيرا. ولد في هولندا ابنا غير شرعي لاحد الكهنة، وتلقى تعليمه المبكر بين "اخوة الحياة المشتركة". كان راهبا اوغسطينيا لوقت وجيز. وفي اثناء وجوده في الدير طوّر اسلوبه الادبي اللاتيني المؤثر. وصار في فترة لاحقة سكرتيرا لاسقف Cambria في فرنسا، ثم رُسم كاهنا سنة 1492. حصل على شهادة من جامعة السوربون سنة 1498. لكنه اصبح فاقد الامل بسبب الافق الضيق في طريقة التعليم لفلسفة اللاهوت في القرون الوسطى. وعلى مثال الآخرين من معتنقي مذهب النزعة الانسانية، رأى قيمة ضئيلة في جدال هذا السؤال: "هل الصلاة لمدة عشر دقائق تقام لاجل عشرة اشخاص يكون لها تأثير مثل صلوات لمدة دقيقة واحدة".

بعد حصوله على درجته العلمية زار إنجلترا، وفيها سمع مواعظ كولينت عن الرسالة الى اهل رومية، وتحقق لاول مرة من القيمة الحقيقية للكتاب المقدس كتوضيح للايمان المسيحي. كانت زيارته لانجلترا وتضامنه مع كويت ومع "مور" بداية لحقبة جديدة بالنسبة له في كل من المعرفة والايمان.

اول عمل لايرازموس كان كتابا عن اقتباسات المؤلفين اللاتين المشهورين. اسم الكتاب "اقوال مأثورة Adages". لاقى الكتاب رواجا عظيما واكد شهرته. شعر ان رسالته هي ان يحو الجهل، خاصة بين العلمانيين. ولهذا الغرض الف "انشريديون The Enchiridion" او كتاب "الفارس المسيحي". وهو كتاب صغير عن الاخلاق المسيحية، مركزا على خطة الله للخلاص وتلبية الانسان لهذا الخلاص. انتقد الكنيسة مباشرة عندما كتب انه لا قيمة للصيام، ولا لزيارة الاماكن المقدسة ولا للتوسل الى القديسين، ولا لشراء صكوك الغفران. لانه بالتقوى والمحبة فقط يمكن ان يحيا الانسان حياة مسيحية حقيقية.

ازداد ايرازموس اقتناعا أن السبيل للاصلاح هو عن طريق الكتاب المقدس. لذلك شرع في اعداد نسخة علمية للعهد الجديد مع ترجمته الشخصية باللاتينية. الواقع ان ايرازموس كرسها للبابا ليو العاشر الذي امتدحها، بالرغم من انها اظهر اخطاء متعددة في الفولجاتا. انتشرت هذه الترجمة انتشارا واسعا واستخدمها لوثر وآخرون من قادة الاصلاح في اخراج ترجمات باللغة الدارجة.

اشهر اعمال ايرازموس كان كتابا بعنوان "الثناء على الطيش"، وهي عبارة عن قصة رمزية هجومية انتقد فيها اساليب واخلاق طبقات المجتمع من الملوك والعلماء الى الجنود والتجار. ولقد وجه اعظم سهامه النفاذة الى الكنيسة، الى البابوات والرهبان، الى الخرافات والاوثنان داخل اعلى وظائف الكنيسة. لكنه فعل ذلك بطريقة اليد الناعمة .

حُكِم التاريخ على ايرازموس هو انه لم يكن رجل الساعة بالنسبة لعصره. فبالرغم من اعماله الادبية الكبرى، فان عدم رغبته في مناصرة هذا الجانب او ذلك، بأي طريقة حاسمة، حرمة من تعاطف الكاثوليك والبروتستانت. ذكر بعض نقاد الكاثوليك كتابات ايرازموس كانتها وحي "الاصلاح" وفي سنة 1559 حرّمها البابا بولس الرابع. يقول عنه المؤرخ الكاثوليكي العصري لورتر: "ايرازموس بقي في الكنيسة... لكن كمنصف كاثوليكي... حائر، متردد، معلق في الوسط". اما حكم لوثر فهو مثال الفكر البروتستانتى للقرن السادس عشر حيث قال " لقد فعل ايرازموس ما رسم لفعله. ادخل اللغات القديمة مكان الدراسات الفلسفية اللاهوتية المؤذية".

### (3) اسباب سياسية

كانت الصراعات بين الكرسي الرسولي وبين انكلترا من اعنف واكثر الصراعات التي شهدتها العصور الوسطى. فقد رأينا في القرن الثاني عشر الصراع الذي دار بين البابا الكسندر الثالث وهنري الثاني، والتي اضطر على اثرها هنري الثاني المهزوم، ان يركع امام قبر عدوه توما بيكيت Thomas Becket. وفي القرن الثالث عشر الصراع بين انوسنت الثالث وجون سن تير John sans Terre، الذي عزله البابا، واضطر على اثرها ان يقدم مملكته كهبة للكرسي الرسولي وتعهده ان يدفع ضريبة سنوية ليحصل على رضا البابا.

عملت كل هذه الانهزامات على اثاره حفيظة الشعب الانكليزي، وولدت فيه النزعة القومية. وعندما ضعفت سلطة البابوية اولا في القرن الرابع عشر، على اثر السبي البابلي (البابوات في افنيون)، ثم الانشقاق داخل البابوية، ثم في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، على اثر الفوضى والحروب في الولايات البابوية وايطاليا، اخذت كنيسة انكلترا تنفض عنها رويدا رويدا السلطة البابوية. ولم يهب اللاهوتيون الانكليز من وضع اولوية البابا موضع الشك، ورفض ويكليف تابعة انكلترا الى الكرسي الرسولي، ورفض سلطة البابا، واعلن ان الانجيل هو القانون الاعلى للمسيحية، وهو اول من دعى الى اعادة الكنيسة الى طهارتها الاصلية، بالاستيلاء على املاكها.

عملت السلطان الدينية والمدنية على خنق مثل هذه التعاليم الخطرة على الكنيسة وعلى المجتمع، الا انها لم تمنع انتشارها خارج اوروبا، واثرت على اشخاص آخرين ادعوا الاصلاح امثال جون هس في هنغاريا، ومارتن لوثر في المانيا، وزفينجلي وكالفن في سويسرا، ومن هذه البلاد ستعود الى انكلترا موطنها الاصلى في القرن السادس عشر وستساهم في نجاح حركة الانفصال الانكليكاني.

### (4) اسباب اجتماعية:

اصبحت الكنيسة قوة زمنية قوية بواسطة املاكها وثروتها الواسعة وامتيازاتها التي حصلت عليها وخصوصا في العصور الوسطى مما اثار ضدها عدااء وحسد ونقمة كل طبقات المجتمع الانكليزي، بما فيهم البرلمان، وطبقة الشعب الوسطى، وطبقة التجار، الذين رأوا ان اموال الكنيسة ستكون اكثر فائدة في ايديهم منها في ايدي الرهبان، كما طالبوا بمنع رجال الاكليروس من مزاوله التجارة او الصناعة، ومنع الاساقفة من اقتناء المزارع. لذلك لم يجد هنري الثامن بعد انفصاله عن الكنيسة صعوبة في جر الشعب وراءه ضد كنيسة روما.

## 2- السبب القريب للانفصال: طلاق هنري الثامن

### هنري الثامن

ولد هنري الثامن في مدينة غرينفيتش Greenwich عام 1491، وهو الملك الثاني من عائلة تدور، كان عمره ثمانية عشرة سنة عندما ارتقى العرش بعد موت ابيه عام 1509، وكان وهو في عمره الثامنة عشرة، يعد من أكثر الملوك اناقة، ذا بشرة رقيقة وتقاطيع منتظمة جعلته يظهر كفتاة، وتبارى السفراء الاجانب مع المادحين الوطنيين في الثناء على شعره، ولحيته الذهبية، الا ان ما كان يتمتع به من قوام رياضي وجرأة سرعان ما قضت على أي مظهر انوثي فيه. ففي تقرير كتبه سبستيان جيوستينياني سفير فينيسيا الى مجلس شيوخ البندقية وصفه بانه مغرم بلعب التنس، ورمي السهام والمصارعة، ويجب الصيد كثيرا والمبارزة.

من الناحية الثقافية والاخلاقية، كان انسانا مثقفا، يتكلم الفرنسية واللاتينية والايطالية والاسبانية، يجب الفنانين، محبا للموسيقى واطهر براعة كبيرة في العزف على عدة الآت موسيقية. كما كان متدينا جدا، يحضر ثلاث قداديس يوميا اثناء الصيد وخمسة في الايام الاخرى، ويشترك في صلاة الغروب وصلاة النوم التي كان تقام ليلا في غرفة الملكة.

كان امينا للكنيسة، ووثق روابط قوية مع جميع البابوات الذين توالوا من عام 1509 وحتى 1527. وانضم في عام 1512 الى حلف كمبريه الذي اسسه يوليوس الثاني ضد ملك فرنسا. كما خدم الكنيسة بسيفه وبقلمه، ففي سنة 1518 كتب كتابا عن ضرورة الصلاة، كما يعلمنا ارازموس، الا ان كتابه هذا فُقد. وعندما اصدر البابا براءته بجرمان لوثر في عام 1520، لم يكتب هنري باعلانها الرسمي الاحتفالي في كنيسة القديس بولس، بل كتب كتابا اخر عن الاسرار السبعة، ليرد على افكار لوثر المهرطقة. لذلك اعلنه البابا ليون العاشر "حاميا الايمان".

### قضية طلاق هنري

جاءت كاترين الارجوانية، ابنة فرديناند وايزابلا الى انجلترا عام 1501، وكانت في السادسة عشرة من عمرها وتزوجت من ارثر ابن الملك هنري السابع البالغ من العمر خمسة عشرة عاما. ومات ارثر في 2 نيسان عام 1502، دون ان يتم دخول ارثر على زوجته، حسب ادعاء كاترين. وبعد مرور شهرين انتقل لقب امير ويلز الى شقيقه الاصغر هنري. وخوفا من ضياع البائنة (المهر) التي احضرتها كاترينا معها، ومع رغبة في الحفاظ على علاقة مع فرديناند القوي، اقترح هنري السابع ان تتزوج كاترين من الامير هنري مع الرغم انها كانت تكبره بستة سنوات. وكانت هناك آية في الكتاب المقدس في سفر اللاويين 21/20، تحرم هذا الزواج: "واذا اخذ رجل امرأة اخيه فذلك نجاسة.. يكونان عقيمين". الا ان الزواج تم بعد الحصول على التفسيح اللازم من البابا يوليوس الثاني، ولما كان هنري لا يزال في الثانية عشرة من عمره فقد أُجِلت المعاشرة. وفي عام 1505 طلب الامير هنري اعلان بطلان الزواج، لان اباه اكرهه عليه ولكن أُقنع بصحة الزواج على اساس انه في مصلحة انجلترا.

وفي عام 1509، وبعد ستة اسابيع من ارتقائه العرش احتفل علنا بالزواج. وبعد سبعة شهور انجبت كاترين اول طفل لها، مات عند الولادة، وانجبت بعد ذلك بعام ابنا وابتهج هنري بولادة وريث ذكر، ولكن الطفل مات بعد بضعة اسابيع وسقط ابن ثان وثالث بعد الولادة مباشرة. وبدأ هنري يفكر في الطلاق، او بعبارة اخرى اعلان بطلان الزواج باعتباره غير صحيح. وحاولت كاترين المسكينة مرة اخرى، وفي عام 1516 انجبت طفلة قدر لها ان تعيش. واذعن هنري وقال لنفسه: "اذا كانت هذه المرة ابنة فان الابناء سوف يجيئون بعدها". وفي عام 1518 انجبت كاترين ابنا آخر ولد ميتا. واشتدت خيبة امل الملك والبلاد لان ماري البالغة من العمر عامين، كانت قد خطبت الى ولي عهد فرنسا، وان لم يُرزق هنري بولد فان ماري سوف ترث العرش الانجليزي، وعندما يصبح زوجها ملكا على فرنسا فسيكون في الواقع ملكا على انجلترا ايضا، وتصبح بريطانيا مقاطعة تابعة لفرنسا. وعبر هنري عن خوفه من ان يكون حرمانه من انجاب ولد عقابا من الله لان زواجه محرم. واقسم ان يقود حملة صليبية ضد الاتراك اذا انجبت له الملكة ولدا. غير ان كاترين لم تحمل بعد ذلك. وما ان حل عام 1525 حتى تحلى عن كل امل في الحصول على ذرية اخرى منها.

### آن بولين

وكان هنري منذ أمد بعيد قد فقد الميل الى كاترين، وكان وقتذاك في الرابعة والثلاثين، أي في عنفوان الرجولية، وكانت هي في الاربعين وتبدو أكبر من سنهما، فقد شوهد المرض المتكرر. وكانت كاترين زوجة صالحة مخلصه، تحب زوجها حبا كبيرا صادقا. وكان هنري قد اتخذ في حوالي عام 1518 اول عشيقه له عرفها بعد الزواج وهي اليزابيث بلاوتد، انجبت له ابنا عام 1519، وانعم هنري على الصبي بلقب دوق رتشموند وسومرست، وفكر في ان يقف وراثه العرش عليه. وفي عام 1524 اتخذ عشيقه اخرى هي ماري بولين.

وفي عام 1527 حول هنري انظاره الى آن بولين شقيقة ماري. وكان والدها سير توماس بولين، تاجرا دبلوماسيا حظي منذ وقت طويل بعطف الملك، اما امهما فكانت من ال هوارد، وهي ابنة الدوق مورفولك. وارسلت آن الى باريس لاتمام دراستها فيها، وهناك عينت وصيفة للملكة كلود ثم لمرجريت دي نافار، ولعلها تشربت منها بعض النوازع البروتستانتية. وعندما عادت الى انجلترا وهي في الخامسة عشرة من عمرها (1522) اصبحت وصيفة للملكة كاترين. لم تكن رائعة الجمال، وكانت قصيرة القامة لها بشرة قائمة وفم واسع ورقبة طويلة، ولكنها خلبت لب هنري وآخرين بعينها السوداويين البراقبتين وشعرها البني المسترسل ورشاقتها وذكاؤها ومرحها.

وتمنعت آن بولين على الملك ورفضت ان تسلمه نفسها الا بالزواج وبعد ان تصبح ملكة. فقرر هنري طلب بطلان زواجه من كاترين عام 1527.



## التفكير بالطلاق

يبدو ان ولزي، رئيس اساقفة يورك، لم يكن على علم بنية الملك الزواج من آن بولين عندما ذهب في تموز عام 1527 الى فرنسا لاعداد للزواج بين هنري ورينيه ابنة لويس الثاني عشر. واتفق ولزي مع الملك في هذا الموضوع واكد له انه يمكن الحصول على قرار من البابا ببطلان الزواج، وكانت سلطة البابا في منح مثل هذا الانفصال امراً مقبولاً بوجه عام، كاجراء لتلبية مثل هذه الضرورات الوطنية تماماً، ويمكن تقديم سوابق كثيرة. بيد ان تقدير الكاردينال المشغول لم يعمل حساباً لتطورين بغضين: فهنري لم يكن يريد رينية بل كان يريد آن بولين، وبطلان الزواج سوف يصدر من بابا، كان عندما وصلته المشكلة اسيراً للامبراطور، كان له اكثر من سبب لمناسبة هنري العدا. وربما كان شارل حرياً ان يعارض بطلان هذا الزواج ما دامت عمته تقاومه، وكان يعارض اكثر لو عقد زواج جديد، كما دبر ولزي، يربط إنجلترا بحلف قوي مع فرنسا. ولم يكن السبب الاول للانفصال الديني الانجليزي جمال آن بولين الصاعد، بل الرفض العتيد الذي بدا من كاترين وشارل في ادراك رغبة هنري في الحصول على ولد. ولكن السبب النهائي للاصلاح الديني الانجليزي لم يكن طلب هنري بطلان الزواج بقدر ما كان ارتفاع شأن الملكية الانجليزية وبلوغها درجة من القوة جعلتها قادرة على ان ترفض التسليم بسلطة البابا في التدخل في شؤون إنجلترا وتحكمه في مواردها.

واكد هنري ان رغبته العارمة في الحصول على بطلان الزواج انما دعا اليها جبريل جي جرامون، الذي اقبل الى انكلترا في شباط عام 1527 لمناقشة الزواج المقترح بين الاميرة ماري والاسرة الملكية الفرنسية. فقد اثار جرامون، كما يروي هنري، سؤالاً عن شرعية بنوة ماري، على اساس ان زواج هنري بكاترين قد يكون غير صحيح باعتباره مخالفة لاحد نواهي الكتاب المقدس ولا يستطيع البابا ان يحوها. وظن البعض ان هنري لفق هذه القصة، ولكن ولزي ردها، وابلغت الى الحكومة الفرنسية، ولم ينكرها بقدر ما هو معروف جرامون، وجاهد جرامون لاقتناع كليمنت ان طلب هنري بطلان الزواج امر عادل، وابلغ شارل سفيره في إنجلترا انه كان ينصح كليمنت برفض التماس هنري.

وأبلغ ولزي وهو في فرنسا ان هنري لا يرغب في الزواج من رينية بل من آن بولين. وتجاوز الملك ولزي في خريف عام 1527، وبعث بكاتم سره وليم نايت Knight، ومعه ثلاثة التماسات للبابا. الاول يتضمن ان يسمح البابا لهنري بالاحتفاظ بزوجتين، لقاء الخدمات التي قدمها في صراعه ضد التمرد اللوثري. والثاني الذي لا يقل غرابة، يطلب من البابا ان يمنحه التفسيح من الزواج من امرأة كان للملك علاقات غرامية مع اختها، هذا التفسيح كان من شأنه ان يسمح لها الزواج رأساً بعد اعلان الطلاق من زواجه من كاترين. والمتمس الثالث ان يُعين ولزي مبعوثاً لعقد محكمة في انكلترا تصدر حكماً في شرعية زواجه دون امكانية الاستئناف الى روما.

وبدأ هنري يلح الى انه يعاني من وخز الضمير حول شرعية زواجه من كاترين، ارملة اخيه، التي اتخذها بالرغم من منع مثل هذا الزواج في الكتاب المقدس. وانه يرى في حرمانه من الذرية وموت كل ابنائه عقاباً على هذا الزواج. الا انه لم يكن هناك احد كان فعلاً يفكر بعدم صلاحية التفسيح الذي اعطاه يوليوس الثاني<sup>1</sup>.

عندما وصل نايت الى روما كانت قد احدثت وتُهبّت من قبَل الجيوش الاسبانية. وكان البابا كلمنت السابع اسيراً في قلعة سانت انج. ولما نجح البابا في الهرب الى اورفيتو، قابله السفير الانجليزي فيها، طلب منه الموافقة على المتمس الثاني والثالث، اذا كان هنري قد سحب المتمس الاول. ووافق البابا على شرط ان يعلن اولاً بطلان زواجه وتوافق عليه كاترين، وان توافق روما بعد موافقة كاترين.

فهم هنري ان كاترين لن توافق ابداً على بطلان الزواج، فطلب من البابا كلمنت السابع عام 1528 ان يرسل الى انكلترا الكاردينال كامبجيو Compeggio لعقد محكمة مع ولزي ليصدر الحكم، وان يصدر بنفس الوقت قراراً يعلن عدم صلاحية التفسيح الذي اصدره يوليوس الثاني لانه ضد الشريعة الالهية. ووافق كلمنت على هذين الطلبين على شرط ان يبقى هذا الاتفاق سراً وان تحرق المستندات بعد اطلاع ولزي والمبعوث البابوي عليها، واعطى البابا تعليمات لمبعوثه ان يعمل على اطالة المباحثات. وابلغ الكاردينال البابا بعزم الملك على الزواج من آن بولين وكتب يقول: "ان هذه العاطفة امر خارق للعادة، انه لا يرى شيئاً ولا يفكر في شيء سوى حبيبته آن، انه لا يستطيع ان يستغني عنها ساعة واحدة. واني لاشعر بالاشفاق عليه عندما ارى ان حياة الملك واستقرار البلاد بأسرها يتوقف على هذه المسألة وحدها".

<sup>1</sup> كانت شريعة موسى تمنع فعلاً الزواج بين الاخ ورملة اخيه اذا كانت هذه قد انجبت بنين، فيما وصى الكتاب المقدس بل جعل ذلك واجباً ان يتزوج الاخ امرأة اخيه اذا لم يكن لها اولاد، ليقم لاجه منها نسلاً. بالفعل ليس فقط ان ارثر اخ هنري مات بلا اولاد، ولكن ايضا بحسب شهادة كاترين ان زواجها مع ارثر لم يكتمل.

وفي 31 ايار 1529 افتتح كامبجيو مع ولزي المحكمة المختصة بالنظر في الالتماس المقدم من هنري، بعد ان اجلها لاطول مدة ممكنة. فاستعانت كاترين بروما، واطهرت وثيقة التفسيح التي اعطها البابا يوليوس الثاني، وابت ان تعترف باختصاص المحكمة. الا ان الملك والملكة حضرا يوم 31 حزيران، وخرت كاترين على ركبتها امامه وتوسلت اليه بكلمات مؤثرة ان يستأنفا حياتهما الزوجية، وذكرته باعمالها الكثيرة واخلاصها التام، وصبرها على لوهه خارج الاسوار، واقسمت ان الله يشهد على انها كانت عذراء عندما تزوجها، وتساءلت أي شيء صنعته أساء اليه؟ فأنهضها هنري واكد لها انه لم يكن هناك ما يتمناه اكثر من التوفيق في زواجهما ووضح لها ان الاسباب التي حملته على الانفصال ليست شخصية بل املتها عليه مصلحة الاسرة المالكة والامة. ورفض رفع امرها الى روما، على اساس ان الامبراطور يسيطر على البابا، فانسحبت وهي تبكي. ورفضت ان تشترك بعد ذلك في الاجراءات القضائية. وتكلم الاسقف جون فيشر مدافعا عنها فاكسب عدااء الملك. وطلب هنري اصدارا قرار واضح من المحكمة. وعمل كامبجيو على المماطلة في اصدار الحكم. واخيرا في 23 تموز 1529، اجل المحكمة بحجة العطلة الصيفية، والتي لم يتم لها ان تتعقد بعد، اذ ندم البابا على موافقته على العرض الذي قدمه هنري، وقبل دعوة كاترين وحول القضية الى روما.

### 3- التحضيرات للانفصال

**سقوط ولزي:** استشاط هنري غضبا اذ فهم انه برفع دعوته الى روما يعني عدم الاستجابة لها. وشعر ان كاترين عبيدة بصورة غير مقبولة، فرفض ان تربطه بها أي علاقة بعد ذلك، واخذ يقضي ساعات لوهه علنا مع آن بولين. وشكت آن بولين من ان شباها يضيع في الوقت الذي يماطل البابا والكرادلة. ولامت ولزي لانه لم يتعجل البت في طلب هنري بعزم اشد وشاركها الملك استياءها. كما كان لدى الملك اسباب كثيرة لعدم الرضا من ولزي. فقد فشلت السياسة الخارجية واثبت ان التحول من صداقة شارل الخامس الى الحلف مع فرنسا خطأ ادى الى عواقب وخيمة.

ولم يكن احد في انكلترة في ذلك الوقت راضيا عن ولزي ولا سيما البرلمان لانه ابعده عن اخذ القرارات، ولكبريائه وثروته التي تضاعفت سريعا. وفي اليوم التاسع من تشرين اول عام 1529، صدر قرار قضائي باستدعاء ولزي للمثول امام قضاة ملك للرد على التهمة بأنه خالف قانون الخضوع لسلطة التاج Bill de praemunire<sup>2</sup>، بحجة انه خرق هذا القانون بقبوله ان يكون مبعوث البابا. وقبل ولزي التهمة مع انه كما يعلم انه قبل المهمة بناء على طلب الملك، وانه استخدمها لصالح الملك. فارسل الى الملك التماسا ذليلا يعترف بفشله ويلتمس ان يتذكر الملك ايضا خدماته وولائه. فاستولى هنري على ممتلكاته ومحتويات قصره الثمينة، الا انه سمح له بالاحتفاظ بمنصب رئيس اساقفة يورك. وخلف الدوق نورفولك ولزي في رئاسة الوزراء وخلفه توماس مور في منصب حاجب الملك Chancelier.

واقبل الكردينال الذي جرد من سلطانه على عمله ككبير اساقفة في ورع ومثالية. واخذ يزور ابرشيته بانتظام ويدير ترميم الكنائس. الا ان سقوطه هذا لم يشف غليل اعدائه، فاتهم بالخيانة بأنه اشار على البابا بحرمان هنري. فصدر الامر بالقبض عليه. واستسلم ولزي في هدوء (4 تشرين ثاني 1530) وودع اسرته وانطلق الى لندن واصيب في شفيلد بارك بدسنتاريا شديدة الزمته الفراش. وهناك قبض عليه الجنود لاقتياده الى سجن البرج. فاستأنف رحلته، ولكن بعد يومين من الركوب بلغ من الضعف حدا جعل حراسه يسمحون له ان يلزم الفراش في دير ليسستر حيث نطق امام ضابط الملك سير وليام لنجستون بالكلمات الشهيرة التي اقتباسها شكسبير: "لو انني خدمت الله باخلاص وجد كما خدمت الملك، لما تركني في شيخوختي، ولكن هذا ما استحقه". ومات ولزي وهو في الخامسة والخمسين من عمره في دير ليسستر في 29 تشرين ثاني 1530.

### المستشارون الجدد: كرانمر Cranmer وكرومول Cromwell:

اختار هنري بعد سقوط ولزي شخصيتين ذليلتين، بلا وازع ولا ضمير، ليكونا مستشارين له هما توماس كرانمر الذي سيصبح رئيس اساقفة كانتربري، وتوماس كورمول.

<sup>2</sup> من الكلمة اللاتينية praemonere وتعني التنبيه قبل حدوث الشيء. وكانت تطلق على القانون الانجليزي الذي صوت عليه البرلمان عام 1353، على زمن الملك ادوارد الثالث، والذي يمنع تدخل السلطات الكنسية وخصوصا روما، في امور السلطة الزمنية. ومنعت ادخال قرارات ومراسيم وبروات ورسائل البابا، او رفع الدعاوي الى محكمته دون موافقة الملك. وكل من يخالف هذا القانون يعرض نفسه للسجن ومصادرة املاكه.

اقترح توماس كرانمر على هنري ان تبدي الجامعات الكبرى في اوربا رأبها فيما اذا كان في وسع البابا ان يسمح لرجل بالزواج من ارملة شقيقه. واستطاع بواسطة الدسائس والرشاوي الحصول على اجوبة تناسب موقف الملك. ليس فقط الجامعات الانكليزية (كامبردج واكسفورد)، بل من جامعات فرنسية امثال جامعة باريس واوليان وانجه وتولوز، وحتى بعض الجامعات الايطالية مثل جامعة فيرارا وبافي بادو وكلها اعطت رأبها ببطلان زواج هنري وعدم شرعية تفسيح البابا يوليوس الثاني، إما بسبب نواقص قانونية او لان زواج الاقارب من الدرجة الاول هو مانع الهي ولا يقدر أي انسان على الارض حتى البابا ان يعفي منه.

اما رد البابا فقد جاء بعد شهرين، معربا فيه عن رأيه ان أي قرار متسرع سيمس ضمير الملك كما سيمس ضمير البابا. وبذلك حافظ البابا على سياسة المماطلة في اصدار حكم كان يعلم انه سيكون في صالح كاترين، حتى يتم استيفاء جميع وسائل المصالحة. وحتى لا يقدم هنري على خطوة لا يمكن اصلاحها، ارسل له رسالة بابوية يمنعه من الاقدام على زواج ثان قبل صدور القرار المحكمة البابوية، تحت طائل اعلان زواجه الثاني باطلا واعلان اولاده منه غير شرعيين، ثم ارسل رسالة اخرى يلزمه بالعودة الى امراته الشرعية كاترين.

**اجراءات انفصالية:** عندما شعر هنري انه لا امل له بالحصول من روما على قرار ببطلان زواجه، استغل فرصة مماطلة البابا لاتخاذ بعض الاجراءات التي حضرت للحركة الانفصالية التي كان ينوي القيام بها. وبدأ هنري بالاكليروس الذي اراد ان يمنعه من الطاعة للبابا، وليسيطر عليه لخدمة مشاريعه الخاصة. وفي هذا الخصوص اعتمد على البرلمان الذي كان تحت السيطرة الكاملة لكرومول الذي اتخذ سلسلة طويلة من الاجراءات التعسفية في حق الاكليروس، باتهامهم انهم باعترافهم بسلطة ولزي كمبعوث للبابا خالفوا قانون المنع "Praemunire" وقانون الولاء للنتاج، تهمه كان من نتائجه مصادرة املاكهم. وبدلا من ان يقاوموا اذعنوا لهنري واستعدوا لدفع تعويض مالي كبير. فوافق الملك على شرط ان يعترف به رجال الاكليروس "حاميا للكنيسة ورجال الدين في إنجلترا والرئيس الاعلى الوحيد للكنيسة والاكليروس في إنجلترا". أي ان ولاءهم للبابا لا بد ان ينتهي. وعارضت ابرشية يورك بشدة هذا القرار، وعرضت عدة صيغ اخرى لهذا الاعتراف. الا ان هنري اصر على ان يجيبوا بنعم او بلا. واخيرا في 11 شباط 1531، ادخل الاسقف فيشر على قرار الملك عبارة "بقدر ما تسمح به شريعة المسيح". ووافقت المجلس الكنيسة على هذه الصيغة، واصبحت الصيغة قانونا.

وعندما انعقد المجلس النيابي والمجلس الاكليروسي مرة اخرى في 15 كانون ثاني 1532، حصل هنري منهم على تشريع اخر مناهض لرجال الاكليروس، يقضي على ان الرسوم والغرامات التي تتقاضاها المحاكم الكنسية، والرسوم على الموتى، وعلى تثبيت صحة الوصايا، يجب ان تخفض او تلغى، وان موارد السنة الاولى للاسقف حديث التعيين يجب الا تدفع بعد ذلك للبابا وانما للملك، وان تحويل الاموال الانكليزية الى روما من اجل التفسيح او الحليات وصكوك الغفران او أي خدمات بابوية اخرى يجب ان يتوقف.

في هذا الوقت انحازت غالبية من الاساقفة الى الرأي القائل انهم لن يفقدوا شيئا من السلطة او الدخل اذا استقلت الكنيسة الانكليزية عن روما. وفي اذار 1532 اعلن المجلس الاكليروسي استعدادا للانفصال عن البابوية، وفي 5 ايار 1532 قبل الاساقفة بما عرف "بمضوع الاكليروس" "Soumission du Clergé"، الذي ينص على ان لا يصدر الاكليروس أي شرائع او قوانين دون ان تعرض على الملك، ولا ان يعمل بها دون اذنه. وتم تأسيس لجنة نصفها من الاكليروس والنصف الاخر من العلمانيين لها الحق في الاعتراض على أي قوانين ترى انها ضارة بالمملكة. وهكذا ولدت كنيسة إنجلترا واصبحت عضوا تابعا للدولة.

وفي نفس اليوم استقال توماس مور من منصبه كحاجب الملك Chancelier احتجاجا، واعتزل الاسقف فيشر في ابرشيتته، اما رئيس الاساقفة الطاعن بالسن واهرام فقد مات حزنا وكمدا بعد ان املى وهو على فراش الموت رسالة ابدى فيها رفضه لخضوع المجلس الاكليروسي للملك. واستبدل الملك توماس مور بتوماس اودلي واهرام بتوماس كرانمر.

#### 4- اكتمال الانفصال

وفي 15 كانون ثاني سنة 1533، تزوج هنري سرا من آن بولين التي كانت حاملا منذ اربعة اشهر. وبعث الملك بطلب آخر للبابا دون ان يؤدي الى نتيجة. فحصل من المجلس الاكليروسي على موافقة على طلاقه في نيسان 1533. وفي 23 ايار اعلن كرانمر بصفته رئيس الاساقفة الجديد لكتنبري<sup>3</sup>، ان الزواج بكاترين مخالف للشريعة

<sup>3</sup> كان كرانمر رجلا طموحا خالي من الذمة والضمير، وكان العوبة طاعة بيد الملك، وخصوصا انه لم يكن خاليا من كل عيب، اذا انه كان يظهر ميولا لوثرية وكان قد تزوج مرة ثانية.

وباطل. وفي 28 ايار اعلن آن زوجة شرعية لهنري، وتوجت آن ملكة في احتفال مهيب في كنيسة وستمنستر في الاول من حزيران 1533.

اعلن البابا كلمنت السابع بطلان الزواج الجديد، وان الاولاد الذين سيكونون ثمرة هذا الزواج غير شرعيين، وحرم كل من الملك والملكة وكرامر، في الحادي عشر من تموز 1533، معطيا اياهم مهلة ثلاثة اسابيع للرجوع، مهلة مددت الى عدة شهور، حاول خلالها ملك فرنسا تقريب وجهات النظر بين البابوية وانكلترة دون نتيجة، اذ تعنت الملك بمواقفه بل وارسل مبعوثا يهدد البابا باعلان مجمع عام بموافقة فرنسا.

واتخذ الملك في هذه الفترة بعض الاجراءات الاخرى التي كان من شأنها تقوية الانفصال. اذا اصبح تعيين الاساقفة من اختصاص الملك، يختاره ويقدمه لمجلس الكنيسة الذي يجب ان يقر هذا الاختيار خلال 12 يوما، واذا لم يتم ذلك، يقوم الملك بالتعيين المباشر دون الرجوع اليهم. وعلى الاسقف المختار ان يقسم الولاة للملك فقط ويتم تنصيبه من قبل رئيس اساقفة مقاطعته. ولم يعد للبابا - اسقف روما، كما سيدعي من الان وصاعدا في انكلترة - أي سلطة في هذا المجال اذ سيتم نقل جميع الصلاحيات الى رئيس اساقفة كانتربري.

وفي مجمع الكرادلة في 23 اذار 1534 اعلن البابا رسميا الحكم النهائي في قضية طلاق الملك، حيث اعلن شرعية التفسيح الذي منحه يوليوس الثاني، وبالفعل نفسه فان الزواج الاول لهنري هو شرعي، وتثبت الحرمان الذي اعلنه ضد هنري وآن بولين وكرامر.

## 5- اجراءات انفصالية جديدة والمعارضة

(1) **قانون وراثته العرش L'acte de succession**: في الثالث والعشرين من اذار عام 1534 وفي اليوم نفسه الذي تم الاعلان في روما الحكم النهائي في قضية طلاق هنري، صوت مجلس اللوردات على ما يسمى "قانون الوراثة" "L'Acte de Succession"، الذي ينص على بطلان زواج الملك من كاترين، واعلن ابنتها ماري ابنة غير شرعية، وعيّن اليزابيث ابنة آن بولين وريثة للعرش الا اذا انجبت آن ولدا. وبهذا الفعل يتم الاعتراف بشرعية زواجه الثاني. وفرض على كل انجليزي بلغ سن الرشد ان يحلف الولاة لهذا القانون واي شخص يرفض يستحق اقصى عقوبة.

(2) **قانون سيادة الملك على الكنيسة "L'Acte de suprématie"**: وصوت المجلس النيابي على قانون السيادة في الثالث من تشرين ثاني 1534، حيث اعلن سيادة الملك على الكنيسة والدولة في انكلترة. واطلق على الكنيسة الوطنية الجديدة اسم "الكنيسة الانجليكانية"، وخوّل الملك كل السلطات على الاخلاق والتنظيم والهرطقة والعقيدة والاصلاح الكنسي.

(3) **قانون الخيانة "Les Lois sur la Trahison"** نص هذا القانون على ان يعتبر خائنا كل من تحدث عن الملك واتهمه انه مغتصب او طاغية او انقسامي او هرطوقي او كافر، او تعرض بأي شكل من الاشكال للملك او الملكة او لوراثتهم.

وطلب من جميع الاكليروس، اساقفة وكهنة ورهبان، ان يحلفوا بيمين الولاة على هذه القوانين، وامام المعارضة التي لاقاها في البداية بدأ عصر ما يسمى "الارهاب الانكليزي" انتشرت فيه قوات الحكومة لشل كل حركة معارضة لهذه المراسيم التي لم يسبق لها مثيل. وتظاهر رجال الاكليروس بالخنوع شيئا فشيئا. وقبّل الكثير من الرهبان الخضوع، الا انه ظهرت ايضا معارضة لا بأس بها كانت نتيجتها ان استحققت للكنيسة موجة جديدة من الشهداء. من الرهبان الكرتوزيين

## 6- اوائل الشهداء

**الرهبان الكرتوزيون**: كان الرهبان الكرتوزيين اول من عارض هذه الاجراءات. واثارت معارضتهم حنق هنري وكرومول خاصة، وجاء ثلاثة من كبار رؤساء الاديار الكارتوزية وهم جون هوغتون John Houghton، وروبرت لورنس Robert Lawrence، واغوسطين وبستر Augustin Webster، الى كرومول ليقدموا له ايضا عن احجامهم عن الاعتراف بأي علماني رئيسا لكنيسة انكلترة استنادا الى ما ورد في الانجيل. فالمسيح عندما قال لتلاميذه "ساعطيك مفاتيح ملكوت السموات" كان يعني بهذه الكلمات بطرس، ثم الاثني عشر رسولا، ومن بعدهم البابوات والاساقفة خلفائهم وليس ملكا علمانيا. فبعث بهم كرومول الى سجن البرج. وفي يوم 27 نيسان سنة 1535 حوكموا هم

وراهب اخر بارز، ريتشارد رينولدز Richard Reynolds، مع كاهن علماني اخر جون هال John Hale، امام محكمة وستمنستر وحكم عليهم بالموت وعلقوا واحدا بعد الاخر واسقطوا بقطع الجبال وهم احياء وقطعوا اربا، وعلقت ذراع مبتورة لتلقين الرهبان الباقيين درسا، ولكن واحدا منهم لم يتراجع عن رفضه. وسجن ثلاثة كرتوزيون اخرون في البرج وشد وثاقهم وهم منتصبون بسلاسل من حديد حول اعناقهم واقدامهم، واكرهوا على الوقوف في هذا الوضع سبعة عشر يوما، وقدم اليهم الطعام ولكن لم يفك وثاقهم لقضاء أي حاجة طبيعية، ثم شنقوا. اما باقي الرهبان الكارتوزيون فقد تشتتوا في اديرة اخرى ما عدا عشرة منهم سجنوا في نيوجيت ومات تسعة من هؤلاء في السجن.

**الفرنسيسكان:** كانت الجمعية الفرنسييسكانية تملك سبعة اديرة، ولما رفض رهبان دير Greenwich اداء القسم، اغلقت الاديرة السبعة، وتم تفريق معتي راهب كانوا يعيشون فيها، وارسل الاكثر اصرارا على الرفض الى البرج، ومات خمسون منهم في السجن.

### **استشهاد الكاردينال جون فيشر John Fisher 22 حزيران 1535:** بعد اعدام الرهبان الكارتوزيين

بثلاثة ايام، دفع اسقف روشستر Rochester، جون فيشر، حياته ثمنا لامانته للبابا وللملكة كاترين. اشتهر جون فيشر ايضا بفضائل عالية، خصوصا بنبل اخلاقه، فلم يكن ابدا متملقا، كان مُعْرِفاً للملكة كاترين وبقي امينا لها في سرائها وضرائها. ولما استُشِيرَ حول شرعية الزواج الاول للملك، اجاب، بأنه وبعد فحص متين عميق وصادق، مقتنع انه لا يوجد ولا أية شريعة الهية تمنع اخا من الزواج بامرأة اخيه، اذا كانت بدون اولاد، وان لا شيء يمنع البابا من اعطاء التفسيح اللازم. وجلب له هذا الجواب حقد الملك هنري وآن بولين. وفي مجلس عام 1531، كما رأينا سابقا، رفض الاعتراف "بسيادة الملك على الكنيسة" الا بعد ان اضيفت عبارة "بقدر ما تسمح بذلك شريعة الرب". وفي جلسة اخرى عقدت للمجلس الاكليروسي في 26 اذار ام 1532 للتصويت لصالح طلاق هنري، كان جون فيشر الوحيد الذي اعترض. ومنذ ذلك الحين قرر الملك القضاء عليه.

وسيمنح "قانون وراثة العرش" المناسبة لهنري ليضرب عدوه اللدود. وكان هذا القانون لا يكتفي باعلان اليزابيت ابنة آن بولين الورثة الشرعية لعرش انكلترة، واقضاء الاميرة ماري ابنة الملكة كاترين، وانما كان ايضا يرفض سلطة البابا ويعلن سيادة الملك على الكنيسة. ولم يكن ضمير فيشر ليقبل مثل هذه القوانين، فرفض اداء القسم، ولم يستطع احد ان يثني عزمه، فزج في سجن البرج في اليوم نفسه.

جاءه وبعد عام من وجوده في السجن، المدعي العام ريتش Rich في 27 ايار عام 1535، ليعرض عليه من جديد قانون "السيادة الملكية" واخبره ان هنري لطمانة ضميره يرغب في معرفة رأيه حول هذا الموضوع، ووعدته المدعي العام ان رأيه لن يعرفه احد غير الملك، فاعلن جون فيشر رأيه وانكر ان يكون الملك الرئيس الاعلى للكنيسة. وتردد هنري في الحكم عليه، الا ان الخبر الاعظم البابا الجديد بولس الثالث، جاهلا حدة التوتر الذي كان يسود بين الملك وفيشر، عين الاسقف المسجون كرتينالا. وعلى الرغم من ان فيشر اعلن انه لم يسع الى هذا الشرف، استشاط هنري غضبا، ورأى في ذلك تحديا له، واقسم بالاطاحة برأس الاسقف قبل ان تصله القبعة الحمراء.

وفي 12 حزيران عام 1535 قُدمَ الاسقف، وكان وقتئذ في الثمانين من عمره، الى محاكمة اخيرة، رفض فيها مرة اخرى ان يوقع على قسم يعترف بهنري رئيسا لكنيسة انكلترة. وفي 22 حزيران اُخْبِرَ جون فيشر من مسؤول السجن انه سيتم اعدامه في ذلك اليوم. فقام واغتسل ولبس بعناية كبيرة. وامام دهشة خادمه قال له: "الا تعلم ان اليوم هو يوم عُرسِي". واقتيد الى مكان الاعدام. ووصفه شاهد عيان انه "جسد طويل، اعجف، لا شيء فيه سوى الجلد والعظام، الى حد ان معظم من شاهدوه دهشوا من رؤية رجل لا يزال فيه رمق من الحياة على رغم من بلوغه هذا الحد من الوهن". وصعد درجات المقصلة بدون مساعدة احد، وتلقى وهو على المنصة عرضا بالعفو عنه اذا حلف اليمين فرفض. وركع وصلى نشيد الشكر "اللهم نمدحك TE DEUM" ثم مزموه "فيك يا رب وضعت رجائي..". وقطع رأسه وعلق فوق جسر لندن. وقال هنري: في وسعه ان يذهب الان، اذا استطاع، الى روما ويحصل على قبعة الكاردينال.

**استشهاد توماس مور 6 تموز 1535:** تمتع توماس مور بعقل راجح، بحكمة وثقافة عالية، ورؤية صائبة في الأعمال، وسهولة في الكلام رافقها روح دعاية ماهر، وشعور عالي بقيمة الشرف، غير مستعد للمساومة ولا لتضحية الواجب للمصلحة. كل هذه الصفات جعلت منه احدي الشخصيات المرموقة في انكلترة.

التقى مور بارازموس عام 1499، وكان في الحادية والعشرين من عمره، وافتتن بالمذهب الانساني، وارتبط بارازموس بصداقة قوية. فقد وُهب كلاهما روح الدعاية، وجعلا لدراستهما طعما مستساغا بالهجاء الضاحك. وكانا يشتركان في كراهية الفلسفة الكلامية. وكانا يأملان في اصلاح الكنيسة من الداخل وتجنب تفكك اواصر الوحدة الدينية. ولم يكن مور ندا لارازموس في العلم والتسامح، والحق ان رفته المألوفة وكرمه كان يشوبهما في بعض الاوقات تطرف في الدين، وكان في الجدل يميل الى مواجهة خصومه بهجوم شديد مرير. ولكنه كان يفوق ارازموس في الشجاعة والاحساس بالكرامة والاخلاص للقضية. وفي الثالثة والعشرين من عمره ظن انه مدعو لحياة الرهبنة، ولكن بعد مدة اربعة سنين من التجربة قضاها في دير للرهبان الكرتوزيين، حيث كان ساكنا، فهم انه مخطيء في الاتجاه، وعلى اثر نصائح معرّفه جون كوله John Colet، تخلّى عن هذه الفكرة. وفي عام 1505 تزوج بجان كولت Jeanne Colt، التي ماتت بعد خمس سنين من الزواج تاركة له اربعة اطفال، ثلاث بنات وولد. فتزوج مرة ثانية بارملة تكبره بسبع سنين، السيدة Middleton، كانت سيدة بيت بسيطة ساعدته على تربية اولاده.

واختير وهو في السادسة والعشرين من عمره عام 1504، نائبا في البرلمان. وعيّن في عام 1518 مستشارا وسكرتيرا للملك، وعهد اليه بمهام دبلوماسية دقيقة، واصبح من اكبر رجال الدولة في انكلترة. وفي عام 1523 انتخبه مجلس العموم خطيبا له Speaker. وبعد سقوط ولزي عينه هنري الثامن حاجبا له Chancelier، وكانت اول مرة يعطى ختم الدولة لرجل علماني.

ولما حاول هنري الثامن اضعاف الشرعية على زواجه مع آن بولين، وجد مور نفسه لا يوجه السياسية بل يخدم الاحداث التي تسير في اتجاه مضاد لاعمق مشاعر الولاء التي يكنها لمبادئه. ولما سئل عن رأيه حول طلاق هنري من كاترين، رأي انه يتجاوب مع ضميره، عندما اعلن انه غير شرعي. ولما عرض الملك على المجلس قانون "السيادة العليا على الكنيسة" فكر مور بالاستقالة. الا انه بقي، ولم يستقيل الا بعد سنة في 16 ايار 1532، عندما عُرض قانون "الخضوع الاكليروسي"، وانسحب الى خلوة بيته في تشلسي. وكان يشك في انه سيعيش طويلا. وحاول ان يهيء اسرته للمأساة بالحديث عن حياة الشهداء الاحرار وعن جلدتهم العجيب وعمّا كابدوه من الام وعن ميّتهم التي آثروا فيها ان يتعرضوا للعذاب على ان يسيئوا الى الرب. فأى شيء اسعد واكثر بركة من ان يحب الله وان يتعرض لفقد المال والسجن وضياع الارض بل والحياة ايضا.

وفي السابع عشر من نيسان حكم على مور بالسجن في البرج لانه رفض ان يحلف اليمين على قانون الوراثة، الذي رأى عندما قدم اليه انه ينطوي على انكار لسيادة البابا على كنيسة انكلترة، وانه يعلن شرعية الطلاق.

وعلى مدار سنة جرت محاولات عديدة لتغيير موقفه. وكتبت اليه ابنته الاثيرة مرجريت رسالة مؤثرة ترجوه فيها ان يحلف اليمين. فرد عليها ان توسلها سبب له الما اشد ما سببه له سجنه. وزارته زوجته في البرج وعنفته لموقفه: "اني لا عجب منك يا مستر مور، يا من كنت احسبك حتى الان رجلا عاقلا، لماذا تتظاهر بالحمق، فترقد هنا في هذا السجن الضيق القدر، وترضى بأن تحبس بين الفئران والجرذان، بينما في وسعك ان تكون حرا في الخارج، وتنعم بحظوة ورضى الملك ومجلسه، اذا فعلت فقط ما فعله كل الاساقفة وخيرة المتعلمين في هذه المملكة. وعندما ارى ان لك في تشلسي بيتا جميلا لائقا، وارى مكتبك وكتبك وقاعة صورك وحديقتك وبستانك وكل الضروريات الاخرى، تبدو جميلة من حولك، حتى تستطيع ان تسعد برفقتي انا زوجتك، ورفقة اولادك واسرتك. فاعجب من مكوثك هنا واطالتك هذه المدة". فاجابها بعد ان سمعها يهدوء: "ليس هذا البيت ايضا قريبا من السماء كيبتي".

وبُذلت محاولات اخرى لرحزته عن موقفه، بيد انه قاومها كلها بابتسامة.

وزاره اخيرا كرومول في 30 نيسان 1535 وسأله هل يعرف ان نتائج الخيانة والنتائج السيئة التي يجلبها موقفه على الملك. فاجاب مور: "انا رجل امين للملك، لا اعمل شرا لاحد، ولا اتكلم بالشر على احد. واذا كان ذلك لا يكفي لخلاص حياة انسان، فانا لا ارغب بالعيش بعد".

وفي الاول من تموز سنة 1535 قدم لمحاكمة اخيرة. فدافع عن نفسه جيدا ولكنه أدين بتهمة خيانة الدولة. ولما صدر الحكم طلب اليه ان كان عنده ما يقوله فاجاب: "بما اني حُكمت - والله يعلم كيف - ارغب ان اتكلم

بحرية عن قانونكم لاربح ضميري. مدة سبع سنين وانا ادرس المسألة، ولم اجد عند احد معلمي الكنيسة ، ان اميرا علمانيا، يقدر او يستطيع ان يكون رئيسا للكنيسة". فرد عليه حاجب الملك اودلي: "اتريد ان نعتبرك اعلم واحكم واكثر ضميرا من جميع الاساقفة ونبلاء المملكة؟" - "سيدي - اجاب مور - امام اسقف واحد من اسقفتك يوجد عندي مئات الاساقفة القديسين، وامام برلمانك - والله يعلم ماذا يساوي - عندي كل المجامع العامة منذ الف عام، وامام مملكتك، عندي فرنسا وكل ممالك العالم المسيحي". "لقد اظهرت مكرك الان" رد نورفولك. اجاب مور: "ان ما اجبت به كان ضروري لاراحة ضميري، وادعو الله شاهدا على ما اقول وهو الذي يفحص قلوب البشر".

وفي السادس من تموز 1535، اخبر انه سيتم قطع رأسه في نفس الصباح قبل الساعة التاسعة. فسار نحو المقصلة بثبات وبهدوء، وعندما ارتقى منصة المقصلة، ووجد انها ضعيفة توشك ان تنهار قال لاحد احرس: "ارجوك ايها الملازم ان تساعدنا على اعتلاها، بالنسبة لنزولي فلا تهم فسوف ادبر نفسي". وكان هنري قد اصدر تعليمات بالا يسمح للسجين الا يبضع كلمات. وطلب مور من المشاهدين ان يصلوا من اجله، وان يشهدوا انه يموت في سبيل عقيدة الكنيسة الكاثوليكية المقدسة. ثم طلب منهم ان يصلوا من اجل الملك، وان ينعم الله عليه بمشير صالح، وقال انه يموت خادم صالح للملك ولكنه خادم الرب اولا. وتلا المزمور الحادي والخمسين المحب اليه. وطلب منه الجلالد الصفح والمغفرة فاحتضنه وقبله مور، وقال له: "سوف تؤدي الي اجمل خدمة يمكن ان يقدمه انسان. ان رقبتي صغيرة، ارجو ان لا تسيء الي سمعتك واضرب جيدا. ثم وضع رأسه على المقصلة، ورتب بعناية لحيته البيضاء الطويلة وقال: "مما يؤسف له انها سوف تقطع، مع انها لم ترتكب جريمة خيانة الدولة". وعلق راسه على جسر لندن.

وسرت موجة من الرعب في إنجلترا التي ادركت قسوة الملك، وسرت في اوربا قشعريرة من الفزع. وشعر ارازموس كأنه هو نفسه مات "ليس لنا الا روح واحدة تتردد بيننا". وقال انه لم تعد لديه أي رغبة في الحياة. وبعد عام مات هو ايضا. وعلم شارل الخامس بالحادث وقال للسفير الانجليزي: "لو كنت سيديا لخادم مثل هذا لكنت افضل ان افقد احسن مدينة من ممتلكاتي ولا افقد مثل هذا المستشار الجليل".

وفي الذكرى الاربعمئة لاعدام توماس مور وجون فيشر في 19 ايار 1935، ادرجهم البابا بيوس الحادي عشر في مصاف قديسي الكنيسة الكاثوليكية.

## 7- طلاق وموت آن بولين

ماتت كاترين في 7 كانون ثاني 1536، عن عمر خمسين عاما، فامر الملك الحاشية باعلان الحداد، فرفضت آن.

وفي اليوم الذي دفنت فيه كاترين ولدت آن طفلا ميتا، وبدأ هنري الذي كان لا يزال متلهفا على ولد يفكر في طلاق اخر او بطلان للزواج بحجة ان زواجه الثاني تم تحت اغراء السحر، ومن ثم فهو باطل. وكان هنري قد بدأ منذ تشرين اول 1535، يولي اهتماما خاصا باحدى وصيفات آن وهي جين سيمور. وعندما اثبتت آن امرها ان تتحمل بصبر، كما فعل من هن افضل منها، ثم اتهمها بالخيانة، و اشار الى الشائعات الدائرة عن غرامياتها التي وصلت الى مجلسه. صدق هنري الشائعات فاستقصى الامر، واثبت الملك انها اقترفت الزنا مع خمسة اعضاء من البلاط، فارسل الرجال الخمسة الى البرج وتبعتهم آن في اليوم الثاني من ايار سنة 1536. وفي يوم 15 ايار حوكت آن هي واخوها، وحكم عليهما بالحرق او بقطع الرأس.

وطلب الملك من رئيس الاساقفة كراغر ان يعلن عدم صحة الزواج من آن وان اليزابيث ليست ابنته. فاطاع كراغر ولا نعرف الاسباب التي بنى عليها هذا الحكم. ولكن يُظن ان زوج آن السابق المزعوم بلورد مورثبرلاند اعلن وقتذاك انه حقيقي. وركعت آن عشية موتها امام زوجة الحارس، وطلبت منها ان تذهب وترقع امام ماري طالبة الصفح. ثم طلبت ان ينفذ فيها الاعدام فورا يوم 19 ايار، فاقترنت الى المقصلة وقُطع رأسها. ولم يكن هناك احد يؤكد انها مذنبه ولكن قليلون هم الذين أسفوا لسقوطها.

## 8- جين سيمور

منح كراغر يوم وفاة آن بولين الملك تفسيحاً للزواج مرة اخرى في سعيه للحصول على ولد. وفي اليوم التالي خطب هنري جين سيمور وتزوجا يوم 30 ايار 1536، ونودي بها ملكة يوم 4 حزيران. وكانت جين سليلة اسرة ملكية، اذ انها تنحدر من ادوارد الثالث، وكانت لها صلة قرابة من الدرجة الثالثة او الرابعة بهنري، مما ادى الى الحصول على تفسيح آخر من كراغر المطيع.

لم تكن جين تتمتع بجمال خاص، بيد انها أثرت في الجميع بذكائها ورفقتها وتواضعها. ومات الدوق رتشموند ابن هنري غير الشرعي، وتعلقت آمال الملك كلها في حمل جين. وهللت إنجلترا معه عندما ولدت في 12 تشرين اول 1533 ولدا هو ادوارد السادس. غير ان جين التي ارتبط بها الملك وقتذاك ارتباطا عميقا، ماتت بعد ولادة ابنها باثني عشر يوما. وظل هنري رجلا محبطا بعض الوقت، وعلى الرغم من انه تزوج ثلاث مرات بعد جين، الا انه طلب عند وفاته ان يدفن بجانب المرأة التي ضحت بحياتها في سبيل النجاب ابنه.

## 9- هنري الثامن والاديرة

كانت اكبر معضلة واجهها هنري هي انه كان مفلسا على الرغم من عظم سلطته. وكان الملك يتوق الى زيادة حجم البحرية والاكتثار من سفنه وموانيه وتحسينها. وكانت حاشيته تتجاوز الحدود ونفقاته الشخصية باهظة، ونظام كرومويل في الحكم يحتاج الى الكثير من المال. فكيف يجمع المال؟

كانت الضرائب مرتفعة، وكان الاساقفة قد استنفذوا ابرشياتهم لتهدئة سورة الملك. الا انه كانت في انكلترا مؤسسة واحدة ثرية وموضع ريبة لأن ولاءها الاخير كان للبابا، وعاجزة لا تجد من يدافع عنها، وهي الاديرة.

كان المجلس النيابي قد صوت عام 1533 على الموافقة على تحويل الحكومة سلطة التفتيش على الاديرة واجبارها على اصلاح نفسها. فارسل كرومويل عام 1535 المتفتشين لفحص الاديرة. وقدم كرومويل للمجلس النيابي في 3 شباط عام 1536 "كتابا اسود" يكشف عن المساوىء في الاديرة، وينصح باعتماد استراتيجي، باغلاق اديرة الرهبان والراهبات التي يبلغ دخلها 200 جنيه او اقل في العام. فوافق المجلس النيابي الذي كان معظم اعضائه قد اختيروا بواسطة معاوين كرومويل. وعين الملك محكمة المزايدات لكي تتسلم لصالح خزنة الملك املاك وموارد هذه الاديرة الصغيرة البالغ عددها 376 ديورا. واطلق سراح الرهبان ليذهبوا الى اديرة اخرى او يخرجوا الى العالم.

قامت على اثر هذه الاجراءات بعض الثورات دفاعا عن اديرة الرهبان والراهبات وخصوصا في الشمال، اخدها هنري كلها اما بالمكر والخداع والرشاوي واما بالعنف والقتل والاعدامات، وكان بينهم الكثير من الكهنة والرهبان.

وتشجع كرومويل امام نجاح الملك في اخماد الثورات، فمضى قدما في اغلاق الاديرة الباقية في إنجلترا، ثم جاء يوم حُلت فيه كل اديرة الرهبان والراهبات التي كانت قد انضمت الى الثورة وصودرت ممتلكاتها لمصلحة الدولة.

وفي المجموع أُغلق 578 ديورا للرهبان وحوالي 139 للراهبات. وتشتت 6521 راهبا و1560 راهبة. وفقد 12000 شخص، كانت الاديرة تستخدمهم فيما مضى او كانوا يعتمدون عليها في معيشتهم دخلهم.

وكانت النتيجة من الناحية السياسية زيادة السلطة الملكية وفقدان الكنيسة آخر معقل للمقاومة. وكانت النتائج من الناحية الاخلاقية ازدياد الجرائم والتسول وتقلص الموارد اللازمة لاعمال البر، وأُغلق ما يزيد على مائة مستشفى كانت تديرها الاديرة. وكانت اقصى النتائج في مجال التعليم. فقد كانت اديرة الراهبات تدير مدارس البنات بينما ادار الرهبان مدارس الاولاد، فحُلت كل هذه المؤسسات.

## 10- اعترافات الايمان الثلاث لهنري الثامن

اصبح من مهام هنري بعد ان أُعلن "الرئيس الروحي لكنيسة انكلترا"، تحديد امور العقائد والنظم والعبادة، التي كانت سابقا من مهام سلطة البابا. ولم يُهمل هنري هذا الواجب بل قام فيه بكل غيرة وحماس يساعده لفيف من المعارضين، انقسموا الى حزبين: حزب التقدميين وحزب المعتدلين، ومال هنري نحو الواحد او الاخر حسب ما تتطلبته مصالحه.

أن يكن هنري قد فصل كنيسة انكلترا عن روما، وإن يكن عمل على مصادرة الاديرة وممتلكاتها، الا انه منع بقدر الامكان المساس بالعقائد. وكان دافعه لذلك اولا اقتناعه الشخصي، فقد ظل هنري في داخله كاثوليكيًا، وثانيا للحفاظ على الوحدة في بلده، بعد ان تحقق له ان اكثرية شعبه بقي متعلقا بالكاثوليكية، وبالتالي فان افضل طريقة للحفاظ على الوحدة هي الحفاظ على الايمان التقليدي.

الا ان التذبذب بين الكاثوليكية والبروتستنتية التي ظهر في "اعترافات الايمان الثلاث Les trois confessions de foi"، 1536 و1537 و1543، فرضتها عليه الظروف السياسية الخارجية. فعندما كان يشعر بالخطر من تحالف شارل الخامس وفرنسا الاول ملك فرنسا بدعم من البابوية، كان هنري بحاجة الى دعم الامراء الالمان،



وبالتالي الى التنازل لهم على الارضية الدينية، وعندما كان شارل الخامس وفرنسوا الاول يدخلا في صراع مع بعضهما، كان هنري يأمن جانبهما بأن يعود عن تنازلاته ويتمسك بقوة في العقائد الكاثوليكية.

## (1) اعتراف ايمان هنري الاول (1536)

اثار البابا بولس الثالث، بعد موت الاسقف فيشر ومور، الامراء في اوربا، ضد هنري الثامن لعزله. امام هذا التهديد التجأ هنري الى حلف شمالالكالدي البروتستنتي، بمشورة حزب التقدميين وعلى رأسهم كرومويل. التقى الوفدان للتباحث، واراد هنري ان يكون هذا الحلف سياسيا، الا ان اللوثريين رفضوا التوصل الى اتفاق سياسي قبل التوصل الى اتفاق ديني. فاجتمع اللاهوتيون الانكليز والالمان في وتنبورج Wittenberg عام 1536. ولما عاد الوفد الانكليزي بعد اربعة اشهر من المداوات، كان الخطر السياسي قد خف بتصالح هنري والامبراطور شارل الخامس. فخرج اعتراف الايمان الاول حلا وسطا بين العقيدة الكاثوليكية واللوثرية، واحتوى على عشرة بنود Dix articles:

(1) بحث القسم الاول في العقائد الضرورية للخلاص، في الاسرار وفي التبرير. فقبل كعقيدة ايمان قانون الاسفار المقدسة بكامله (عكس اللوثريين الذين رفضوا عدة اسفار منه). وقبل قانون الايمان الرسولي، وقانون مجمع نيقية، وقانون القديس اثناسيوس حسب تعليم الآباء (عكس اللوثريين الذين لا يقبلون سلطة التقليد). وادان التعاليم الهرطوقية التي ادانتها المجامع: نيقية، والقسطنطينية، وافسس، وخلقيدونيا. وعرض قانون الايمان الاول في قسمه الاول العقيدة الكاثوليكية حول ثلاث اسرار: المعمودية والافخارستيا والتوبة، واغفلت ذكر الاسرار الاربعة الباقية دون انكارها (تنازل للبروتستنت). ويتبع الاعتراف عقيدة اللوثريين حول التبرير، وبما انه لا يوضح الطريقة التي يتم فيها التبرير ولا يذكر ان التبرير يتم فقط بالايمان، فقد جعل تفسير هذه النقطة مقبولا في كلا الاتجاهين.

(2) بحث القسم الثاني الرتب والطقوس والمراسيم والاحتفالات المستعملة في الكنيسة، وتكريم القديسين وصورهم. فأوصت بالحفاظ على الطقوس القديمة التقليدية: الماء المبارك، الخبز المبارك، الشموع، الرماد، الجمعة العظيمة، الصلاة من اجل الموتى من حسنات وتقديمت وقدايس من اجل راحة نفوسهم، وان لم يأت على ذكر المطهر. التنازل الوحيد الذي اعطي للبروتستانت في هذا القسم هو حول شجب الغفرانات وضرورتها للانفس المطهرة.

لم يتعد اعتراف الايمان الاول كثيرا عن الارثوذكسية. وزيادة على ذلك، لم يكن الملك راضيا كثيرا عن هذه التنازلات. لذلك امر ان تعلن هذه البنود العشرة دون التعليق عليها.

## (2) اعتراف الايمان الثاني (ايلول 1537)

اندلعت الثورات المؤيدة للاديرة لشهرين بعد اعلان اعتراف الايمان الاول. وكان الثوار يطالبون ليس فقط بالحفاظ على الاديرة وانما ايضا بالحفاظ على الايمان القويم التقليدي الكاثوليكي. وكان الملك هنري الثامن ميالا للاستجابة الى هذا المطلب، وخصوصا ان الخطر الخارجي قد تلاشى بموت كاترين، بسبب اندلاع الصراع من جديد بين الامبراطور شارل الخامس وفرنسوا الاول، ملك فرنسا.

دعى الملك هنري الى اجتماع مجلس مؤلف من الاساقفة واللاهوتيين، بقصد اعادة النظر في البنود العشرة المؤلفة لاعتراف الايمان الاول. وبحث هذا المجلس وعلى مدى ستة اشهر البنود المختلف عليها، وخصوصا الاسرار السبعة. وخرج من هذا الاجتماع بما سمي "اعتراف الايمان الثاني" "Eléments pour servir à l'instruction d'un chrétien".

قسمت المواضيع فيه الى اربعة اقسام: (1) قانون الايمان، (2) الاسرار، (3) الوصايا العشرة، (4) ابانا والسلام. فحافظ قانون الاعتراف الثاني، على قانون الايمان بنصه الكاثوليكي، ما عدا الاعتراف بكنيسة روما، كعضو فقط في الكنيسة الجامعة وليس الرأس. وأعيد الاعتراف بالاسرار السبعة كاملة. ولم يتم التنازل للبروتستنت الا في موضوع التبرير، حيث قبل قانون الاعتراف الثاني، انه يتم فقط استنادا الى استحقاقات المسيح، الا انه فرض على المسيحي ممارسة الاعمال الصالحة. ورفض اعتراف الايمان الثاني، تعليم الكنيسة الكاثوليكية حول المطهر، الا انه اوصى بالصلاة من اجل الموتى.

تبع اعتراف الايمان الثاني، الذي حل محل الاعتراف الاول، مرسومان ملكيان. يمنع الاول كل المجادلات حول الافخارستيا، ويوصى باستعمال الماء المقدس، والركوع امام الصليب، وعزل الكهنة الذي يعيشون في حالة تَسَرٍ

(العيش مع امرأة بدون زواج). و امر المرسوم الثاني بتدمير كتب الهراطقة وملاحقتهم مع اعطائهم مهلة ثمانية ايام للخروج من المملكة.

تغيير الجو السياسي الديني مرة اخرى عام 1538، فقد تعكرت العلاقات السياسية بالنسبة لهنري الثامن. فقد استطاع البابا بولس الثالث ان يوطد السلام بين الامبراطور شارل الخامس وفرنسا الاول بهدنة نيس Trêve de Nice. و امام تحالف هذين الملكيين، التجأ الملك هنري من جديد، وبمشورة كرومول ايضا، الى اعادة روابطه مع الامراء البروتستنت في المانيا. فدعاهم الى ارسال وفود الى لندن لمواصلة البحث في النقاط المختلف عليها، والتي اصر حلف سمالكال البروتستنتي على تبنيها، للتوصل الى عقد حلف سياسي بينهما. واتخذ المجتمعون من انكليز وبروتستنت، بحضور الملك هنري، اعتراف ايمان اوغسبورج كاساس للنقاش. فتوصلوا الى اتفاق سهل في معظم نقاط القسم الاول منه، واضعين قضية الاسرار الاربعة على حدة. اما في الجزء الثاني منه، والمتعلق بالمساوىء، فلم يتوصل المجتمعون الى اتفاق لا على عزوية الكهنة، ولا على تناول تحت الشككين، ولا على القداديس الخاصة Privées. وانتهى الاجتماع بفشل، الا ان البنود الثلاث عشر التي توصلوا الى اتفاق حولها، ستكون مستقبلا اساسا للبنود الـ XLII لادوارد الرابع (1553).

## 11- البنود الستة (1539)

خفت حاجة هنري الى التحالف مع الامراء البروتستنت، بسبب استتباب الامور في القارة الاوروبية، واصبح في استطاعته العمل على اعادة الوحدة الدينية في المملكة. فاخذ يلاحق ويضطهد الكاثوليك الذين رفضوا الخضوع لسلطته الروحية، واللوثريين، الذين كانوا يعملون على ادخال التعاليم البروتستنتية للمملكة.

فاصدر في بداية شهر اب 1539، وبعد مغادرة اللاهوتيين الالمان، قانون "البنود الستة" بعنوان "حول الغاء تعدد المعتقدات". (1) فأكد البند الاول على الحضور الفعلي للمسيح في القربان الاقدس بواسطة الاستحالة Transsubstantiation. (2) و اعلن في البند الثاني ان المناولة تحت الشككين ليست ضرورية للخلاص. (3) وفرض البند الثالث العزوية على الكهنة. (4) ومنع البند الرابع زواج الرجال والنساء الذين ارتبطوا بنذر العفة (5) واكد البند الخامس ان القداديس الخاصة مقبولة لدى الله. (6) و اعلن البند السادس ان الاعتراف السمعي قانون الهي.

و فرضت هذه البنود الستة تحت طائل اقصى العقوبات. فنفي الحضور الفعلي للمسيح في الافخارستيا تستوجب عقوبة الموت حرقا ومصادرة الاملاك. المخالفة الاولى (اول مرة) للبنود الخمسة الباقية يستوجب مصادرة الاملاك والسجن. والمخالفة الثانية (ثاني مرة) تستوجب عقوبة الموت مع حرمان المحكوم عليه من المساعدة الروحية.

وحتى موت هنري الثامن (1547)، تعرض الكثير من الكاثوليك والبروتستنت لمثل هذه العقوبات القاسية، وأدّت الى الكثير من الضحايا من كلا الطرفين. غضب الامراء البروتستنت من هذه الاجراءات، وخشي الملك هنري من نوايا الامبراطور شارل الخامس وفرنسا الاول ملك فرنسا، فعمل على كسب ودّهم بمحاولته الزواج من الاميرة آن كليف Anne de Clèves.

## 12- زواج هنري الرابع

ظل هنري عامين دون ان يتزوج، فامر كرومويل ان يبحث له عن حلف بالمصاهرة يقوّي سلطانه ضد شارل الخامس. فنصح كرومويل بالزواج من آن كليف اخت زوجة الامير المختار لسكسونيا، وشقيقة الدوق اوف كليف الذي كان وقتذاك على خلاف مع الامبراطور. وآلى كرومويل على نفسه ان يتم هذا الزواج الذي كان يعلق عليه آمالا بتكوين حلف من الولايات البروتستانتية، وبهذا يجبر هنري على الغاء المواد الست المناهضة للوثر. وارسل هنري الرسام هولبين لرسم صورة للسيدة، ولعل كرومويل اضاف بعض التعليمات للفنان، وجاءت الصورة، ورأى هنري انها محتملة. وعندما جاءت آن بشحمها ولحمها، ووقعت اظار هنري عليها (عام 1540)، مات الحب في قلبه من اول نظرة، واغمض عينيه وتزوجها، آملا ان تمنحه ولدا يوطد به وراثة العرش في آل تيودور.

## 13- سقوط كرومويل

لم يصفح هنري عن كرومويل - الذي افاده اكثر من أي وزير آخر - لفعلته، فامر بالقبض عليه بتهمة الفساد. وقُطع رأسه يوم 28 تموز سنة 1540.

## 14- اعتراف الايمان الثالث

نُشر اعتراف الايمان الثاني في ايلول عام 1537، وكان عبارة عن صيغة مؤقتة لمدة ثلاث سنوات. فوكل الملك هنري عام 1540، الى لجنة من الاساقفة واللاهوتيين، مهمة اعادة النظر في هذه الصيغة. وكان على اعضاء اللجنة ان يردّوا كتابة على مجموعة من الاسئلة، وضعها كرانمر، وتدور حول سبعة عشرة بنداً، واهمها البنود التي تتعلق بطبيعة الاسرار وعددها. أنهت اللجنة عملها بعد ثلاث سنوات، وعرضت نتيجة عملها على الملك هنري، الذي اعاد مراجعتها، وزاد عليه ملاحظاته. وخرج النص النهائي ونشر عام 1543، وقدم له الملك، وأطلق عليه اسم "كتاب الملك The King's Book".

لم تختلف صيغة اعتراف الايمان هذا عن سابقتها الا بكونها اكثر توسعا ووضوحا، وخصوصا حول الاسرار. فاكد بقوة على الاستحالة وحضور المسيح الفعلي في القربان الاقدس، وفعالية المناولة تحت شكل واحد، وضرورة القدايس الخاصة. وعلم عن التبرير وضرورة الاعمال الصالحة، وتبنت وحافظت على التقليد الكاثوليكي بما يخص باقي البنود المختلف عليها مع اللوثريين، فيما يخص تكريم العذراء والقديسين، والمطهر، والندور الرهبانية، وعزوبية الكهنة. بهذا الاعتراف بالايان الثالث تمت القطيعة الكاملة بين كنيسة انكلترا والمصلحين اللوثريين.

وعهد الملك الى لجنة ثانية مراجعة الكتب الليتورجيا: كتاب Ordinal، وكتاب القدايس، وكتاب الانتيفونات، وكتاب الفرض. ولم يتم نشر هذه الكتب، بامر من كرانمر، الذي اراد مراجعتها، ليتم حذف كل ذكر لاسقف روما فيها، والقصص المنحولة، والصلوات الخرافية.

وكان هنري قد طلب تحضير ترجمة اخرى للكتاب المقدس. ووكل كرانمر مايلز كوفردال في اعداد ترجمة جديدة. وظهرت اول نسخة كاملة بالانجليزية في زوريخ عام 1535، ونشرت عام 1539 طبعات منقحة، وامر كرانمر ان يوضع الكتاب المقدس في كل كنيسة انجليزية. ومنح هنري المواطنين امتياز تلاوة الكتاب المقدس في بيوتهم، وسرعان ما اصبح تقليدا يوميا عند كل اسرة انجليزية تقريبا. ولكنه كان ايضا مصدرا للشقاق والانقسام، فقد انتبت كل قرية مفسرين هواة، اثبتوا أي شيء او عكسه بما ورد في الكتاب المقدس، وتجادل المتعصبون حوله في الكنائس، وتعرضوا لضربات بشأنه في الحانات. ومنح بعض الرجال زوجاتهم الطلاق، او احتفظوا بزوجتين في آن واحد، بحجة ان هذا عمل سليم أباحه الكتاب المقدس.

أسفَ الملك لهذه الحرية التي منحها للناس، وحث المجلس النيابي عام 1543، فسَنَّ قانونا منع فيه حياة الكتاب المقدس الا للنبلاء والاشراف. ومنع الناس من قراءته، واجاز فقط للكهنة مهمة الوعظ عنه وتفسيره.

## 15- الزواج هنري الخامس 1540

اعلن هنري انه تزوج عن غير رضی، وانه لم يدخل بزوجته قط. واعترفت آن انها لا تزال عذراء ووافقت على بطلان الزواج، مقابل معاش يوفّر لها سبيل الراحة. وكرهت ان تواجه اخاها، فاخترت ان تعيش وحيدة في انجلترا، وماتت عام 1557.

وفي اليوم نفسه تزوج هنري من كاثرين هوارد، البالغة من العمر عشرين عاما، وهي من اسرة كاثوليكية متمسكة. وكانت كاثرين اجمل زوجاته، وتعلم الملك ان يحبها تقريبا، وحمد الله انه وهبه اخيرا امرأة طيبة يعيش معها. ولكن في اليوم الذي عبر هنري عن حمده (2 تشرين ثاني 1541)، سلمه رئيس الاساقفة كرانمر وثائق تدل على ان كاثرين كانت لها علاقات سابقة للزواج. وحزن هنري، وكان يميل الى الصفح عن كاثرين، ولكن قُدِّم اليه دليل على انها اقترفت الزنا مع ابن عمها بعد زواجها بالملك. واقرت كاثرين انها اسقبلت ابن عمها في جناحها الخاص من ساعة متأخرة بالليل، ولكن في حضور الليدي روشفورد، وانكرت انها ارتكبت أي ذنب وقتها، او في أي وقت منذ زواجها. وشهدت ليدي روشفورد بصحة هذه البيانات. بيد ان المحكمة الملكية اعلنت ان الملكة مذنبه. وفي يوم 13 تشرين ثاني 1542 قطع رأسها في نفس البقعة التي سقط فيها رأس آن بولين قبل ذلك بست سنوات.

## 16- زواج هنري السادس 1543

يعد موت كاثرين اصبح الملك هنري محطما، وأُعييت قرحته طب عصره، واستشرى مرض الزهري في جسده. وبعد ان فقد لذة الحياة سمح لنفسه ان يصبح كتلة ضخمة من اللحم. وكان خداه مهتلين ويكادان يغطيان فكيه، وكادت عيناه الضيقتان ان تختفيا في وجهه. ولم يكن في وسعه ان يسير من غرفة الى اخرى دون ان يستند الى احد.

وادرك الملك هنري انه لن يعيش طويلا، فاصدر عام 1543 مرسوما جديدا يحدد فيه وراثة العرش: يتولاه اولاد ادوارد ثم ماري ثم اليزابيث. وقام بمحاولة لكي ينجب ولدا صحيحا معافي، بعد ان حثه مجلسه مرارا، فتزوج للمرة السادسة في 12 تموز سنة 1543 من كاترين بار. كانت كاترين بار ارملة قد تزوجت مرتين، وكانت امرأة على حظ وافر من الثقافة والفطنة. فقامت برعاية مريضها الملك في صبر، وصالحته مع ابنته اليزابيث، التي طال اهماله لها، وحاولت ان تلتطف لاهوته، وتخفف حماسه للاضطهاد.

## 17- موت الملك هنري الثامن

اشتبك هنري عام 1543 في حرب مع اسكتلندا ومع فرانسيس الاول، وتحالف مع عدوه القديم شارل الخامس. ولكي يمول حملاته طالب رعاياه بتقديم "قروض" جديدة، وامتنع عن سداد قروض عام 1542 وصادر الهبات للجامعات. وحمل الى ميدان القتال ليشارك فيها شخصا واشرف على حصار بولونيا والاستيلاء عليها. وغزت جيوشه اسكتلندا، ولكنها عادت وانهزمت في انكروم مور عام 1545، وابرم هنري اتفاقا مع فرنسا عام 1546. وكان وقتئذ ضعيفا واهنا الى حد ان الاسر النبيلة اخذت تتنازع فيما بينها على من تكون الوصاية على ادوارد الصغير.

ومات الملك هنري في اليوم الثامن والعشرين من كانون ثاني عام 1547. وكان في الخامسة والخمسين من عمره، بعد ملك دام سبعة وثلاثين عاما، وترك مبلغا كبيرا يُدفع لاقامة قداديس عن روحه لكي يرقد في اطمئنان.

## 18- دخول البروتستنتية على زمن الملك ادوارد السادس 1547-1553

ومات هنري الثامن تاركا وراءه ثلاثة ابناء: ماري ابنة كاترين دي ارغون، واليزابيث ابنة آن بولين، وادوارد ابن جان سيمون. فملك الثلاثة بالتوالي، وانتهج كل واحد منهم سياسة دينية مختلفة.

### ادوارد السادس: دخول البروتستنتية تحت وصاية سومرست

لم يكن ادوارد يبلغ التاسعة عندما أُعلن ملكا. لم يرث شيئا من طباع ابيه هنري الثامن، ولكنه ورث عن امه رقتها وضعفها الجسدي. لم يوفق يوما في الحصول على القوة التي تعينه على الحكم. ومع ذلك فانه قام بالتبعات الملقاة على عاتقه باعتباره اميرا او ملكا باخلاص نبيل. درس اللغات والجغرافيا وفن تدبير الحكم، وابدى للجميع ما عدا الكاثوليك الراضين، شفقة عظيمة وحسن نية كبيرة، الى حد ان انكلترا ظنت انها دفنت عؤلا لتتوج ملكا.

تعلم ادوارد على يد الاسقف كرانمر، فاصبح بروتستانتيا متحمسا، لم يكن من انصار توقيع أي عقوبة قاسية على من يتهم بالهرطقة، ولكنه منع اخته ماري الكاثوليكية من حضور القداس، لانه كان يؤمن باخلاص ان القداس اشد ضروب العبادة الاوثان كفرا.

قبل ادوارد مسرورا القرار الذي اتخذه المجلس الملكي باختيار خاله ادوارد سيمور وصيا عليه. فانعم عليه حالا بلقب دوق اوف سومرست.

كان دوق سومرست متعاطفا مع الفكر البروتستانت، لذلك شجع الملك الصغير على وضع الاسس والقوانين التي تتيح اجراء التغييرات التي تجعل من الاصلاح في انجلترا اصلاحا دينيا ولاهوتيا. فصدورت على زمنه المزيد من املاك الكنيسة والاديرة، وحطمت وازيلت الصور والتماثيل من الكنائس. وافر البرلمان المناولة تحت الشكليات للعلمانيين، والغى قوانين الخيانة والهرطقة، والغى وثيقة البنود الستة. كما جعل البرلمان زواج الكهنة شرعيا في عام 1549.

من القرارات المهمة ايضا التي اتخذها الدوق سومرست في توطيد البروتستنتية، أن جعل خدمات العبادة في الكنائس بلغة الشعب العادية بدلا من اللاتينية. واهم عمل قام بزمنه، هو ادخال "كتاب الصلاة المشتركة" Book of Common Prayer، عام 1549، كاساس للعبادة في الكنائس الانجليزية. كان هذا الكتاب في اغليته من صنع رئيس الاساقفة كرانمر. وقد دعم هذا الكتاب استخدام اللغة الانجليزية في خدمات الكنيسة، وفي قراءة الكتاب المقدس وفي مشاركة الجمهور في العبادة. اثارت هذه التغييرات عدة ثورات في عدة مناطق من المملكة، ادت في اخر الامر الى سقوط سومرست عن سدة الحكم. وقبض فيما بعد على سومرست وحوكم وادين بناء على دليل قدمه سير توماس بلمر، وزير واوريك، خليفة سومرست، امرا صادرا من الملك بالدعوة الى اعدام سومرست، فلقي حتفه بشجاعة وإباء، في 22 كانون ثاني سنة 1552.

## وصاية وارويك Warwick 14 تشرين اول 1549 - 9 حزيران 1553

تابع وارويك، الذي منحه الملك لقب دوق نورثمبرلاند، السياسة الدينية التي انتهجها سومرست في جرّ المملكة نحو البروتستانتية بتصميم أكبر وبطريقة جذرية. واستغل الناس الحرية التي منحها لهم فطعن قسم الحزب المتطرف من البروتستانتية في الدين الكاثوليكي طعنا قاسيا، وتهمك طلبة جامعة أكسفورد على القديس بمحاكاته في مسرحياتهم الهزلية، ومزقوا كتب القديس اربا، واختطفوا القديس من المذبح ووطأوه بالاقدام. وقضى المجلس النيابي (1550) بازالة كل اللوحات والتمائيل التي ما زالت في الكنائس، ما عدا "الصور التذكارية للملوك او النبلاء، واتلفت كتب الصلاة ما عدا كتب كراغر. وصدورت او بيعت ووهبت الثياب الكهنوتية.

واعد كراغر بيانا بالهرطقات التي يعاقب مرتكبوها بالاعدام ان لم يرتدوا عنها، وتضمنت تأكيد وجود المسيح حقا في القديس الاقدس، او السيادة الكنسية للبابا، وانكار الوحي في العهد القديم او الطبيعتين في المسيح او التبرير بالايمان. فسجن الكثير من الكاثوليك لحضورهم القديس او لانتقادهم علنا العقيدة البروتستانتية. واقيل الكهنة الكاثوليك المتمسكون بأرائهم من مناصبهم وأرسل بعضهم الى سجن البرج.

وفي عام 1552، اصدر كراغر الاصدار الثاني من "كتاب الصلاة العامة"، وهي الطبعة الاكثر قربا للبروتستانتية. وتأثرت بالكالفينية عن طريق مارتن بوس الذي احضره كراغر لتتقيحه. وأمرت الكنائس باستخدام هذا الكتاب بقوة القانون الذي صدر لتوحيد نظام العبادة. وامتازات هذه الطبعة من كتاب الصلاة العامة، بتجنب أي اشارة عن حضور المسيح الفعلي بالخبز والخمر (القديس الاقدس)، وحذفت الصلوات من اجل الموتى، واستعيض عن المذبح بمنضدة العشاء. وظل كتاب الصلاة العامة هذا، بعد اجراء القليل من التعديلات عليه في فترة حكم اليزابيت، الكتاب المستخدم في الكنيسة الانجليكانية حتى يومنا الحاضر.

وساهم كراغر ايضا في صياغة قانون للايمان بمساعدة بعض اللاهوتيين مثل جون نوكس، يتضمن 42 بندا، وتم اعتماده قانونا لايمان الكنيسة الانجليكانية بقرار ملكي سنة 1553. وكانت هذه البنود صيغة كالفينية وبالذات في موضوع الاختيار السابق والرأي حول التناول.

### موت ادوارد السادس

واوشك الملك على نهايته في اوائل شهر تموز، 1553، وسعل وبصق دما، وتورمت ساقاه تورما مؤلما، وتفشى الطفح على جسده، وسقط شعره، ثم سقطت اظافره، ولم يستطع احد ان يعرف المرض الغريب الذي كان يعاني منه. وراود الشك الكثيرون ان دوق نورثمبرلاند سممه. واخيرا مات ادوارد بعد ان عانى الكثير في 6 اب 1553، ولم يتعد الخامسة عشرة من عمره، واصغر بكثير من ان يشارك فيما ارتكب في عهده من آثام.

## 19- اعادة الكاثوليكية الى انكلترة في عهد ماري تودور 1553-1558

بينما كان الملك ادوارد يقترب من الموت، عينت ماري تودور بمقتضي قانون اصداره المجلس النيابي، ولية للعهد اذ ظل ادوارد بلا ذرية. وفهم دوق نورثمبرلاند، انه لو قُدرَ لماري ان تصبح ملكة فانها سوف تعمل على اعادة الكاثوليكية، وتنتقم من جميع الذين حولوا انكلترة عن العقيدة الكاثوليكية. وشعر ان حياته معرضة للخطر، فاستطاع بدهائه ان يجعل الملك المحتضر يقرر التاج لليدي جين جراي، ابنة دوق سفولك وحفيدة شقيقة الملك هنري الثامن، وزوجة ابن الدوق نورثمبرلاند. ولم يكن ادوارد قد حول مثل ابيه السلطة الى المجلس النيابي لتعيين خلفه، وكانت انكلترة باسرها تقريبا ترى ان ارتقاء الاميرة ماري العرش امر لا منه وعادل.

واحتجت جين انها لا ترغب في ان تكون ملكة، الا ان زوجها امرها ان تقبل العرش فاطاعت. واعد دوق نورثمبرلاند العدة للقبض على كبار انصار ماري وايداع الاميرة نفسها في سجن البرج. وفي صباح اليوم التالي لوفاة الملك ادوارد، ركب الدوق نورثمبرلاند الى هنسدون للقبض على الاميرة، الا انها هربت، بعد ان حذرها اصدقاؤها واختبأت عند اصدقاء كاثوليك في سفولك. وعاد نورثمبرلاند الى لندن دون ان يحصل على فريسته. واقنع المجلس الخاص بالوعود او التهديدات او الرشاوي بالانضمام اليه في المناداة بجين جراي ملكة، الا انها ظلت تحتج انها لا تصلح لهذا الشرف. وتوسل اليها اقاربها بحجة ان حياتهم تتوقف على قبولها. وفي التاسع من تموز اقرت في نفور انها ملكة انكلترة.

ولكن في العاشر من اب تموز وصلت الى لندن انباء تقول ان ماري قد نادت بنفسها ملكة، وان النبلاء في الشمال كانوا يتقاطرون لتأييدها، وان قواتهم بدأت تزحف على العاصمة. وحشد نورثمبرلاند سريعا ما استطاع جمعه

من جنود، وابلغه جنوده انهم لن يسيروا خطوة اخرى للقتال ضد ملكتهم الشرعية. وارسل نورثمبرلاند اخاه مزودا بالذهب والمجوهرات والوعد باعطاء مقاطعة كاليه وجينس لفرنسا كرشوة لهنري الثاني ملك فرنسا، للقيام بغزو إنجلترا. وعلم المجلس الخاص بالمهمة ومنعها، واعلن ولاءه لماري. وانطلق دوق اف سفولك الى غرفة ابنته جين وابلغها ان حكمها الذي استمر عشرة ايام قد انتهى. فرحبت بالانباء وسألت ببراءة ان كان بإمكانها ان تذهب الى البيت. ولكن المجلس امر بسجنها في البرج، وسرعان ما سجن هناك ايضا نورثمبرلاند.

### ماري تودور تعيد الكاثوليكية الى انكلترا

كانت ماري عند اعلانها ملكة تبلغ السابعة والثلاثين من عمرها، وكان الزمن القاسي قد ترك بصماته على وجهها وعلى صحتها. فقد كان جسدها نحىلا هزيلا وجبينها ممتلئا بالتجاعيد وشعرها المائل للاحمرار تتخلله شعرات بيضاء وعيناها ضعيفتين جدا.

ظهر احسن جانب من خلقها في التسامح النسبي في اول عهدها، فصفحت تقريبا عن كل من حاولوا ابعادها عن العرش. واصدرت الملكة في 13 اب اعلانا رسميا اعلنت فيه انها لن "تكتره الضمائر او تلزمها بشيء في مسألة المعتقد الديني".

وكانت ماري تتلهف الى اعادة الكاثوليكية الى إنجلترا. الا ان الامبراطور شارل الخامس، الذي ظل يحارب البروتستانتية اثنين وثلاثين عاما، حذرهما، وطلب منها ان تتحرك ببطء. وبعثت برسول الى البابا تطلب منه ان يرفع الحرم الذي فرضه على اقامة الصلوات بالإنجلترا. ولكن عندما ابدى الكاردينال بول رغبته في الحضور الى انكلترا قاصدا رسوليا، قررت ان الوقت لم يكن بعد للقيام بمثل هذه الحركة الجريئة.

وافق المجلس النيابي الذي اجتمع عام 1553، على الغاء كل تشريع يتعلق بالدين صدر في عهد ادوارد، وخفض العقوبات المنصوص عليها في قوانين هنري الثامن وادوارد السادس. ولكن المجلس رفض اعادة املاك الكنيسة وقاوم أي تلميح الى اعادة سيادة البابا على كنيسة انكلترا. وترك هذا ماري رئيسا للكنيسة الانجليزية رغم انها. وبمقتضى هذه السلطة استبدلت الاساقفة البروتستانت بالاساقفة الكاثوليك الذين كانوا قد اقصوا عن مناصبهم، وطرد الكهنة المتزوجون من رعاياهم، وسمح باقامة القداس مرة اخرى. قال في هذا مؤرخ بروتستانتى: "ان اللهفة التي ابدتها البلاد باعادة العقيدة الكاثوليكية تدل بلا شك على ان الشعور العام كان مع الملكة، فيما عدا لندن وبضع مدن كبيرة". واعيدت العبادة الكاثوليكية الى ما كانت عليه تماما بمقتضى مرسوم صدر في 4 اذار سنة 1554. وعدت الهراطقات الاخرى غير شرعية وحرم كل وعظ بروتستانتى او نشرة بروتستانتية.

### خطأ فادح: زواج ماري من الامير فيليب الاسباني

ارادت ماري ان تتزوج املا في انجاب وريثا يحول دون ارتقاء اليزابيث البروتستانتية العرش. واوصى مجلسها باختيار ادوارد كورتناي حفيد ادوارد الرابع، ولكن طرق عيشه المبتذلة لم تجده هوى في نفس ماري. فعرض شارل الخامس على ماري الزواج من ابنه فيليب الذي كان يوشك ان يوصي له بكل شيء سوى اللقب الامبراطوري، وتعهد بتقديم هولندا لاي ولد يكون ثمرة لهذا الزواج. وتهللت ماري عندما خطر لها ان زوجها سيكون حاكما لاسبانيا والفلاندرز وهولندا ونابولي والامريكتين، وكانت تحلم بإنشاء اتحاد سياسي وديني بين إنجلترا واسبانيا. وقيل فيليب على مضض هذا الزواج، اذ كانت ماري تكبره بعشر سنوات، وقد اقنعه والده شارل الخامس بضرورة هذا الزواج من الناحية السياسية، اذ سيتيح هذا الزواج لاسبانيا حليفا قويا ضد فرنسا وعونا ثمينا في هولندا التي كانت مرتبطة تجاريا بالإنجلترا، وان البروتستانتية في المانيا يمكن قمعها بعمل موحد من اسبانيا وفرنسا وإنجلترا باعتبارها دولا كاثوليكيتين. ثم ان المصاهرة بين آل هابسبورج وآل تيودور يؤلف قوة قادرة على منح اوروبا الغربية سلاما يدوم اجيالاً.

ادرك مجلس الملكة والشعب قوة هذه الاعتبارات، ولكنهم خشوا ان يؤدي الزواج الى تحويل إنجلترا الى بلد تابع لاسبانيا ويورط إنجلترا في الحروب المتكررة مع فرنسا. وواجه شارل الخامس الموقف باجراء مضاد، فعرض باسم ابنه عقد زواج بمقتضاه لا يحمل فيليب لقب ملك إنجلترا الا في حياة ماري ولها ان تحتفظ وحدها بالسلطة الملكية الكاملة على الشؤون الانجليزية ولها ان تشارك فيليب في جميع القابه، واذا مات دون كارلوس (وهو ابن فيليب من زواج سابق) دون ان يعقب ذرية ترث ماري او ابنها الامبراطورية الاسبانية. وعلاوة على هذا اضاف الامبراطور الداهية ان لماري الحق في ان تتلقى مدى الحياة 60000 جنيه من الموارد الامبراطورية. وبدا هذا كله عرضا سخيا، فصدق المجلس الانجليزي على الزواج مع تعديلات بسيطة في النصوص.

ولكن الشعب الانجليزي استاء من اختيارها، فالاقليّة البروتستانتية التي كانت تصبر على الاضطهاد، مع الامل في ان تخلف اليزابيث قريبا ماري العاقر الضعيفة، خشيت على حياتها من تحالف انجلترا واسبانيا. وارتجف النبلاء الذين اغتنوا بضم الاملاك الكنسية عندما خطر لهم انهم سوف يضطرون الى اعادتها. واعترض ايضا بعض الكاثوليك الانجليز على وضع اجنبي على العرش. وارتفعت اصوات الاحتجاج في كل مكان، ووضع اربعة من النبلاء خططا لثورة تبدأ في 18 اذار سنة 1554. وأخطأ المتآمرون بان اسرّوا بخططهم لكورتناي، وكانت مهمته تنحصر في ضمان اشتراك اليزابيث معهم. وكان الاسقف جاردنر يراقب كورتناي باعتباره انسانا منبوذا من ماري يحاول الانتقام. فامر بالقبض عليه، وافشى كورتناي اسرار المؤامرة. وآثر المتآمرون ان يلاقوا حتفهم في المعركة بدلا من المقصلة، فاشتعلت نيران الثورة في عدة مناطق من انجلترا. وذهبت ماري واجتمعت مع بعض الثائرين، وقالت انها على استعداد تام عن التخلي عن فكرة الزواج اذا كانت هذه رغبة العموم، ولكنها لن تسمح ان يكون زواجها سببا للحروب. واستطاعت ان تكسب تأييد الحاضرين، واستطاعوا ان يحشدوا 25000 رجلا مسلحا، وقبض على سفولك زعيم المتمردين واستسلم الجميع. فشعرت ماري بالامان ولكنها لم تعد الملكة الرقيقة.

### عودة العلاقات مع روما

أرسل البابا يوليوس الثالث مبعوثه الكاردينال بول Pole، قاصدا رسوليا الى انجلترا، في 20 تشرين ثاني عام 1553، التي كان قد تركها منذ اثنين وعشرين عاما. وقوبل بترحيب حار من رجال الحكومة والاكليروس والشعب، الذي عبر عن رضاه بعودة العلاقات مع البابوية. وعندما علم المجلس النيابي ان الكاردينال بول جاء ومعه موافقة البابا على احتفاظ المالكين الحاليين باملاك الكنيسة المصادرة، فرح المجلس واعرب اعضاء المجلس وهم راكعون عن ندمهم لما الحقوه من اساءات بالكنيسة. ومنح الاسقف جاردنر التائبين الغفران. واعترف بسيادة البابا في الشؤون الكنيسة.

### ماري الدموية

اظهرت ماري الرأفة والصفح بعد انتصارها على الثورة، الا ان مستشاريها السياسيين، والامبراطور شارل الخامس لامها لسماحها بالحياة بل وبالحرية لاشخاص تآمروا ضدها، وانهم سوف يكونون احرارا لتكرار هذا. وكان من رأى الاسقف جاردنر ان الرحمة بالامة تتطلب اعدام الخونة. وتملك الذعر الملكة ومالت الى العمل بارائهم، وامرت باعدام جين غراي التي لم ترغب قط في ان تكون ملكة، وزوج جين، الذي اراد ان يكون ملكا. وقطع رأس والدها سفولك، وشنق مائة من صغار الثوار. ومن بين الذين حكم عليهم بالحرق، الاساقفة البروتستنت الثلاثة: هوبر وريدي ولايتمر، واخيرا حكم على رئيس الاساقفة كراغر. وكانت وفاته دليلا على بلوغ الاضطهاد ذروته ومات نحو 300 شخص في اثنا عشر منهم 173 في السنوات الاربع الاخيرة من عهد ماري. وقد ذكرهم جون نوكس في كتابه "كتاب الشهداء" الذي ظل كتابا يطالعه كل بيت انكليزي ولمدة قرنين من الزمن. وكلما مضت المحرقة قدما اصبح من الواضح انها كانت خطأ. واستمدت البروتستنتية القوة من شهدائها، وافزع الكثير من الكاثوليك وشعروا بالخزي من ملكتهم الدموية.

### نهاية الملكة ماري

دخل فيليب الذي اصبح ملكا على اسبانيا، في حرب مع فرنسا ومع البابوية، وطلب المساندة من انكلترة، واقنع الملكة ماري بالدخول معه في هذا الحرب بصفتها حليفة لاسبانيا. وكانت ماري مستعدة لارضاء فيليب لاقتناعها ان هنري الثاني قد ساند المتمردين الانكليز. فاعلنت الحرب على فرنسا. وفقدت انكلترة في هذه الحرب كاليه (1558) التي كانت قد احتفظت بها انكلترة مدة 211 سنة، وهرب الاف الانجليز الذين عاشوا هناك، واصبحوا لاجئين معدومين في انكلترة، واتهموا الملكة ماري بانها اهملت اهمالا اجراميا في الدفاع عن اخر ممتلكات انكلترا في القارة. وعقد فيليب مع فرنسا صلحا موافقا له دون ان يطلب استرجاع كاليه.

وفي اوائل عام 1558 اعتقدت الملكة مرة اخرى انها حامل. وكتبت وصيتها اذ كانت تتوقع ان تكون ولادتها خطيرة، وبعثت برسالة الى فيليب تتوسل اليه ان يحضر الحادث السعيد. فبعث فيليب اليها بتهانيه ولكن لم تكن هناك ضرورة لحضوره، فقد كانت ماري على خطأ. وكانت وقتذاك امرأة مهجورة من الجميع، ولعلها اصبحت مخبولة الى حد ما. وكانت تجلس على الارض الساعات الطوال وركبتها مرفوعتان الى ذقنها، وكانت تتجول في قاعات القصر مثل الشبح.

وفي ايام الصيف الاخير من حياة ماري انتشر وباء حمى البرداء في إنجلترا. واصيبت به الملكة في ايلول عام 1558، فاضعفتها الى حد ان رغبتها في الحياة تلاشت. وفي 6 تشرين ثاني بعثت بجواهر التاج الى اليزابيث. وكان هذا عملا كريما لرغبتها في منح إنجلترا وراثه منظمة للعرش. وتعرضت للغيوبه فترات طويلة، واستيقظت من احدي هذه الغيوبات لتروي كيف رأت حلما سعيدا عن اطفال يلعبون ويغنون امامها. وفي 17 تشرين ثاني سمعت القداس مبكرا وردت على صلوات القداس بحرارة، وماتت قبل الفجر.

لقد ادى الحزن والمرض وكثرة ما تعرضت له من الالام في حياتها، الى انحراف عقلها. ولم تتحول من الحلم الى القسوة، الا بعد مؤامرات كانت تستهدف حياتها، وسمعت في ثقة زائدة لرجال سعوا الى الانتقام بعد ان تعرضوا هم انفسهم للاضطهاد. وكانت تعتقد حتى اخر لحظة في حياتها انها بالقتل انما تؤدي واجبها نحو العقيدة التي احبتها. وهي لا تستحق اللقب "ماري الدموية" ما لم تطلق هذه الصفة على عصرها باسره.

كان هدف ماري هو العمل على اعادة انكلترا الى الكاثوليكية، بعد ان عمل ابوها واخوها على ابعادها، الا انه بقسوتها اظهرت لانكلترا، أسوأ جانب للكنيسة التي خدمتها. ولما ماتت كانت انكلترا مهياة أكثر من ذي قبل لاعتناق العقيدة البروتستنتية التي جاهدت للقضاء عليها.

## 20- تثبيت الكنيسة الانجليكانية في عهد الملكة اليزابيث 1558-1603

عندما ارتقت اليزابيث ابنة الملك هنري الثامن من آن بولين العرش وهي في الخامسة والعشرين من عمرها، واجهت العديد من المشاكل. كان لماري ستيوارت حق في المطالبة بالعرش، وكانت اسبانيا على استعداد للتدخل لدعم مطالبة فيليب بعرش إنجلترا بصفته زوجا للملكة المتوفاة، بل وكانت إنجلترا نفسها منقسمة بين الكاثوليكية والبروتستانتية. ولم يكن امام اليزابيث من اختيار الا ان تصبح من البروتستانت وذلك لان رجال الكنيسة من الكاثوليك ما كانوا ليقرؤا بشرعية زواج والديها. ولكنها لم ترغب في اتخاذ مخاطرة الصراع المباشر مع القوى المؤيدة للبابا. ولهذا السبب فضلت اليزابيث ان تسلك المنهاج الذي يمكن ان يكون مقبولا من غالبية شعب إنجلترا، الذي يفضل استقرارا معتدلا في الامور الدينية يتجنب التطرف بكل اشكاله. اتخذت مجلسا استشاريا، ابقته فيه ثمانية من الكاثوليك واطافت اليه ثمانية اخرين من مؤيدي الاصلاح، رغبة منها في حفظ التوازن بين الاحزاب المتعارضة. الا انها وبعد مدة اتضح توجه الملكة الواضح في تأييدها للمصلحين.

### "قانون السيادة Les Actes de Supérmatie"

جعلت اليزابيث البرلمان يقر قانونا جديدا للسيادة في عام 1559، حيث جعل هذا القانون الملكة "الحاكم الاعلى لهذه البلاد" في الامور الروحية والكنسية كما في الامور الدينية ايضا. وكان هذا اللقب الجديد اقل في تأثيره من عبارة "الرئيس الاعلى للكنيسة" التي اصر عليها هنري الثامن، وذلك لانه بينما تعطي الملكة السلطة الادارية الا انها توصي ان الشؤون الخاصة بالعقيدة والاخلاق يجب ان تحسمها كنيسة إنجلترا.

### "قانون التوحيد Acte d'Uniformité"

ثم جاء قانون توحيد نظام العبادة ليقرر استخدام كتاب الصلاة العامة الذي صدر في 1552 بعد اجراء بعض التعديلات الطفيفة عليه. وفرضت غرامة قدرها شلنا واحدا عقوبة على الغياب عن حضور الكنيسة. وتمت مراجعة البنود الاثني والاربعين التي تضمنها قانون الايمان حيث تم حذف البنود التي تدين المعارضين من حركة اعادة المعمودية والالفين، وتم اعادة صياغة البعض الاخر حتى انتهى الامر بتسع وثلاثين بندا. واعتمد البرلمان هذه البنود في عام 1563، لتصبح قانون الايمان للكنيسة الانجليكانية، واصبح مطلوبا من كل الرعاة الالتزام به. وظل هذا القانون للايمان بعد اجراء تعديلات طفيفة عليه في 1571، وهو قانون الايمان المعتمد للكنيسة الانجليكانية منذ ذلك الحين.

### مقاومة الكنيسة الكاثوليكية واضطهادها

اثارت الخطوات التي اتخذتها اليزابيث باعادة البروتستنتية الى انكلترا حفيظة الكاثوليك وحفيظة البابا، الا انه لم يتخذ أي اجراء عقابي قبل ان يستنفذ كل وسائل المهادة والمصالحة من شأنها اعادة الكاثوليكية. وفي عام 1570 اصدر البابا بيوس الخامس قرارا بابويا بحرمان اليزابيث واعفاء رعاياها من واجب الولاء لها. فردت اليزابيث الضربة



بعمل عدائي وجهته الى اليسوعيين الذين كانوا يخططون لاستعادة انكلترا لنفوذ البابوي. كانت هناك كلية للاهوت اسسها في فلاندرز في بلدة دواي شخص اسمه وليم الن عام 1568، حيث كان اليسوعيون يدرسون العاملين بهدف ارسالهم سرا الى انكلترا لرعاية الانجليز الذين ما زالوا يتبعون البابا. فاعدت اليزابيث عددا من الرهبان اليسوعيين. فما كان من البابا الا سعى الى تجنيد امكانات فيليب ملك اسبانيا لاستعادة انكلترا تحت النفوذ البابوي. سُر فيليب جدا بالقيام بهذا الدور لانه كان ابنا بارا لكنيسة روما، وايضا لانه كان يعرف ان اليزابيث كانت تدعم سرا رعاياه المتمردين في هولندا. وفي عام 1588 جمع فيليب اسطولا هائلا عرف باسم "الارمادا الاسبانية" واجر نحو انكلترا. الا ان هذا الاسطول العظيم واجه هزيمة ساحقة من الاسطول الانجليزي الذي كان يتألف من سفن اصغر حجما واكثر قدرة على المناورة تقودها اطقم من البحارة المحنكين. وكان لهذا الانتصار دوره في تأكيد مكانة انكلترا في زيادة حركة البروتستانت في اوروبا. وانهى اخر امال البابا في استعاد نفوذ الكنيسة الكاثوليكية في انكلترا.

قدم الاصلاح الكتاب المقدس الى الشعب الانجليزي بلغته الخاصة. واصبحت انكلترا زعيمة الحركة البروتستانتية في اوربا ودعمت الكالفينيين البروتستانت في هولندا وفرنسا ضد حكامهم من الكاثوليك. استقرت الاوضاع في الكنيسة التابعة للدولة وتزايدت حدة المرات في قلوب الايرلنديين تجاه انكلترا لان ايرلندا بقيت على ولائها للبابا. وقد ساهمت ثورة وتمرد قام به الايرلنديون في نهاية حكم اليزابيث الى استنزاف مواردها المالية الى اخر حد. وادى بيع الاراضي التي انتزعت ملكيتها من كنيسة روما الى الطبقة الوسطى الى خلق فئة جديدة من نبلاء اسرة تيودور. اما رؤساء الاديرة الذين فقدوا اديرتهم فلم يعد لهم مكان في مجلس اللوردات. وادى الاحتياج الى وجود مؤسسة جديدة تقوم بدور الكنيسة في اعمال الخير والعمل الاجتماعي الى امتداد نشاط الدولة في هذه المجالات. وضع الاستقرار الذي حققته اليزابيث انكلترا على طريقها لتكون امبراطورية عظمى، الا ان هذا الطريق لم يكن سهلا ابدا او بدون مشاكل وتركت هزيمة اسبانيا والبابا الحرية الكاملة للحكام الانجليز للتركيز على مشكلة التطهيرية (البيورتان). فمن عام 1567 الى 1660 كان التطهريون قوة سائدة في كل شؤون انكلترا الداخلية. فقد كان سعيهم موجها الى تغيير الكنيسة الانجليكانية وليس التخلص منها.

## 21- حركة التطهيرية Le Puritanisme

لم يحقق الانتصار على الكاثوليكية الراحة المنشودة بالنسبة للملكة اليزابيث وذلك بسبب القوة النامية التي ظهرت مع الحركة التطهيرية، حيث كانت تمثل تهديدا بتغيير النظام الاسقفي من كنيسة تابعة للدولة الى كنيسة مشيخية او مستقلة.

كان التطهريون يعترضون على تعلق الكنيسة الانجليكانية بالكثير من الاشكال المرتبطة بالنظام البابوي. وكانت دعوتهم لتطهير الكنيسة الاسقفية في انكلترا لتكون اكثر توافقا مع الكتاب المقدس الذي قبلوه دستورا وحيدا للايمان والاعمال. وهذا هو السبب في اطلاق لقب "التطهريون" عليهم بعد عام 1560. وحتى 1570 كانت اعتراضاتهم الرئيسية موجهة ضد الاستمرار في استخدام الملابس والطقوس المرتبطة بالنظام البابوي في نظم العبادة في الكنيسة الانجليكانية. فعارضوا الاحتفال باعياد القديسين، والحل الكهنوتي للخطاة، ورسم علامة الصليب، وعادة تعيين اب روعي للطفل (اشبين)، وعادة الركوع عند تناول، وارتداء الخادم الثياب الليتورجية فوق ملابسه. وكان لهم موقف متشدد من عدم حفظ الانجليكان ليوم الاحد. لم يكن التطهريون حزبا خارج الكنيسة، بل كانوا حزبا داخل الكنيسة الانجليكانية يطالبون اما:

**بالنظام المشيخي Presbytérienne.** كما كان الحال مع كاترايت واتباعه. ففي محاضرات القاها كاترايت حول سفر اعمال الرسل في عام 1570، عارض وجود نظام الاساقفة في ادارة الكنيسة، وقال ان الكنيسة يجب ان تكون تحت سيطرة مجمع من الشيوخ ليس له الا مسؤوليات ومهام روحية. كان هذا النظام في اساسه هو النظام الكالفيني لادارة الكنيسة بواسطة شيوخ ينتخبهم الشعب. ترجم كاترايت كتاب والتر ترافيرز Walter Travers بعنوان "النظام الكنسي" والذي دعا فيه الى اقامة مجمع في كل ابرشية للكنيسة. فوضع بذلك اساسا لنظام الكنيسة المشيخية الانجليزية، والتي كان لها نفوذ في الفترة ما بين 1643-1648. وتدين المشيخية الحديثة في انكلترا الى ما عمله كاترايت في ذلك الوقت. وقد تأسست اول كنيسة مشيخية عام 1572 في واندزورث Wandsworth.

**نظام الكنيسة المستقلة Independents.** كنيسة دولة يحكمها الشعب كما في حالة جاكوب واتباعه. وقد نظمت جماعة جاكوب Henry Jacob (1563-1624)، نفسها لتصبح جماعة التطهريين الذين عرفوا بالاستقلاليين Congregationalists. رأي جاكوب ان يترك لشعب كل كنيسة محلية في كنيسة الدولة حرية اختيار

راعيه بنفسه، وتحديد سياسة تلك الكنيسة وادارة شؤونها الداخلية. نمت حركة التطهريين المستقلين في انكلترا ببطء بداية متواضعة، حتى اصبح، تحت قيادة اوليفر كرومويل، اقوى من المشيخية.

### مقاومة الكنيسة الانجليكانية للحركة التطهيرية

احست الملكة اليزابيث ان الحركة التطهيرية تهدد كل التسوية التي دبرتها لتهدة الصراع الديني، واحتقرت النظريات التطهيرية المتشددة من كل قلبها، وربما اكثر من كراهيتها للكاثوليك. كما ورات الملكة في الانتخاب العام للكهنة وفي حكومة الكنيسة عن طريق الشيوخ والمجالس الكنسية المستقلة عن الحكومة، نوعا من النظام الجمهوري الذي يهدد الملكية. فشجعت الاساقفة على التكيل بمثيري الفتنة. فاقفت مطبوعاتهم، ومنعوا من الوعظ في الكنائس، كما منعت اجتماعاتهم. وطُلب من جميع رجال الدين الانكليز ان يؤدوا قسما بقبول "المواد التسع والثلاثين"، واتباع "كتاب الصلاة العام" لسنة 1559، وسيادة الملكة الدينية.

عهدت الملكة لرئيس الاساقفة باركر مهمة تنفيذ هذه التعليمات. فحاول اعادة الوحدة في الكنيسة الانجليكانية باتخاذ اجراءات صارمة ضد زعماء التطهريين. وعندما توفي، خلفه ادمون جرنال، وكان من اتباع كالفين، فاستغل التطهريون وجوده وتأييده لهم، فتابعوا معارضتهم الاستفزازية. فاقفته الملكة عن العمل. ولما مات عام 1583، عينت في منصبه كرئيس اساقفة كنتبري، قسيسها الجديد، جون ويجتفت John Whitegift، الذي وان كان ميالا للتعاليم الكالفينية، الا انه كان من انصار الاسقفية. فعمل على ملاحقة كل اتباع هذه الحركات، واستطاع بمساندة الملكة ومجلسها الاستشاري، ايقاف انتشار الراء الكالفينية. الا ان التطهريين بدأوا عملهم بالخفاء، وبدأت معركة المنشورات المجهولة المؤلف، هاجموا فيها الاساقفة واخلقهم الشخصية في نقد لاذع بذيء مليء الشتائم.

أملت هذه النشرات الملكة فاطلقت يد ويتجفت في كبح جماح التطهريين. فقبض على من قام بنشر هذه المنشورات، وتم اعدام مجموعة منهم، كما شنق اثنين من زعماء الحركات الانفصالية. واصدر البرلمان قانونا ينص على ان كل من يعترض على السيادة الدينية للملكة، او يتغيب عمدا عن الصلوات في الكنيسة الانجليكانية، او يحضر "اجتماعات او صلوات سرية غير مشروعة او لقاءات تحت ستار ممارسة العقيدة...". يعاقب بالسجن، واذا لم يتعهد بالتزام العقيدة الرسمية، عليه ان يغادر انكلترا دون رجعة، والا كان جزاءه الموت. فهاجر كثير منهم، ورحبت بهم هولندا، وقامت الجامعات الانجليزية في مدلبرج وليدن وامستردام، وهناك عمل المنفيون وذريتهم بجد وعلموا ووعظوا وكتبوا، وبذلك مهدوا الطريق في هدوء لنجاحهم في انكلترا وامريكا.

## الفصل التاسع والاربعون

### الاصلاح في بلدان اوروبا الاخرى

#### أ) الاصلاح في البلدان الاسكندنافية

دخل الاصلاح البلاد الاسكندنافية - أي الدانمرك والسويد والنرويج التي استطاعت الملكة مارغريت في عام 1397 توحيدها تحت رئاسة الدانمرك - لنفس الاسباب التي رأينا الاصلاح فيها يدخل المانيا وسويسرا وخصوصا تطلع الملوك والامراء على الاستيلاء على ممتلكات الكنيسة.

#### 1) الدانمرك

لعبت السياسة الدور الاول في انحياز الدانمرك الى اللوثرية. فقد كانت طبقة الاشراف والاكليروس تؤلفان طبقتين غنيتين وقويتين، حددت من سلطة الملك بحيث اصبح تولي العرش فيها بالانتخاب، ولم يكن بالامكان تولي العرش دون التقيد مسبقا بعدة شروط تنازلية انتخابية.

**كريستيان الثاني:** اراد الملك كريستيان الثاني (1513-1523)، الحد من تأثير سلطة الارستقراطية الكنسية، فقرر ادخال الاصلاح الى بلده، مما يسمح له الاستيلاء على املاك الاكليروس وبذلك يحد من قوته ونفوذه. فدعى الى كوبنهاغن مارتن رينهارد Martin Reinhard، احد تلامذة ملانكتون، وعهد اليه وظيفة استاذ في الجامعة، بهدف تحضير الطريق الى اللوثرية. ثم قام باعدام عدة رهبان واساقفة وعلى رأسهم رئيس اساقفة لوند Lund، الذين عارضوا مخططاته. الا انه بسبب قسوته وصرامته، ثار عليه الاشراف بالاتحاد مع الاكليروس، وعملوا على اطاحته عن العرش في عام 1523. وبذلك فشلت المحاولة الاولى لانتشار الاصلاح.

**فردريك دي هولستين Frederic de Holestien:** كان ذا ميول لوثرية. ومع انه وعد يوم تتويجه بالمحافظة على العقيدة الكاثوليكية ومقاومة المصلحين كهراطقة، الا انه انتهج سياسة مغايرة. فسمح للوعاظ اللوثرين بالوعظ، واعلن في عام 1526 انضمامه الرسمي للكنيسة اللوثرية. ونجح عام 1527 في جعل مجلس الامة المنعقد في اودنسه Odensee يصوت على منح المصلحين نفس الحقوق التي يتمتع بها الكاثوليك. ثم سمح بزواج الكهنة، واحتفظ لنفسه بحق تعيين الاساقفة، وامر بدفع الضرائب التي كانت تدفع سابقا الى الكرسي الرسولي الى الخزينة الملكية. وبذلك قطع كل الروابط التي كانت تربط الكنيسة الدانمركية بكنيسة روما.

لم يظهر الاساقفة أي معارضة تذكر، بينما شاركت طبقة الاشراف مع الملك في الاستيلاء على املاك الكنيسة والاديرة مستسلمين للامر الواقع، واعلنوا اخيرا انضمامهم رسميا للكنيسة اللوثرية في مجلس الامة الذي انعقد عام 1530 في كوبنهاغن.

**كريستيان الثالث:** حاول كريستيان الثاني بعد موت عمه فردريك، استعادة عرشه، الا انه خسر امام ابن فردريك، فتم انتخابه ملكا باسم كريستيان الثالث. وكان هذا صديقا شخصيا للوثر، تابعا متحمسا لتعاليمه. تم في عهده توطيد اللوثرية بكل الوسائل وخصوصا بالعنف. فأمر عام 1536 بسجن جميع الاساقفة الكاثوليك، ولم يطلق سراحهم الا على شرط ان يستقبلوا من مناصبهم او ينضموا الى الاصلاح. فرضخ جميعهم ما عدا الاسقف Roenow، اسقف مدينة Roskild، الذي رفض ان يشترى حريته بهذا الثمن، وبقي في السجن الى ان مات عام 1542. وتم عزل الكهنة الذين رفضوا الانضمام الى اللوثرية، وطرد الرهبان من الاديرة. ثم طلب الملك المساعدة من لوثر، فارسل اليه احد تلامذته Jean Bugenhogen، فعمل هذا على اعطاء الكنيسة الدانمركية، دستورا يلائم العقائد اللوثرية. وقام ايضا - مع كونه مجرد كاهن - برسم سبعة من الكهنة المرتدين، ليكونوا الاساقفة السبعة الجدد للبلاد. ثم قام بتأليف القوانين لتنظيم الليتورجية والتعليم وكل المسائل الدينية. واصبح الملك بالاستناد الى هذه النظم الرئيس الاعلى للكنيسة الدانمركية، على ان يتم تقسيم الممتلكات الكنسية بين الملك والاشراف.

وفي عام 1546 - واثناء انعقاد مجلس الامة - تم التكريس النهائي لانضمام الدانمرك الى الكنيسة اللوثرية، وانهى الملك آخر معارضة للكاثوليك، بسجن الكهنة او باجبارهم على مغادرة البلاد. اما العلمانيين الكاثوليك، فقد تم اعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية، وحرمو من الوظائف الرسمية، ومن الكثير من الحقوق ومنها حق الوراثة.

## (2) النرويج وايسلندا Norvège et Island

تم انضمام النرويج الى اللوثرية في نفس الوقت الذي تم انضمام الدانمرك. فتم إيقاف رئيس اساقفة Trondjha الكاثوليكي مع اربعة من اساقفته، وعين مكاتم اساقفة لوثرين، وصدورت املاك الكنيسة لصالح الاشراف والملك. اما في ايسلندا فقد بُشر باللوثرية فيها ما بين عام 1536 و 1540. عارض الشعب في البداية معارضة شديدة دخول اللوثرية اليها بمساندة ودعم اسقف هولار Holar، جون اريسن John Aresen. الا ان المعارضة انتهت عندما قُبض على هذا الاسقف، وقطع رأسه في 7 تشرين ثاني 1550. ولم تمض سنتان حتى اختفت اثار الكنيسة الكاثوليكية فيها.

## (3) السويد

دخل الاصلاح السويد مع دخوله الى الدانمرك، الا ان الثورة الدينية في السويد تميزت بكونها ثورة سياسية، نتيجة محاولة السويد الحصول على استقلالها من حكم الدانمرك. حاول الملك الدانمركي كريستيان الثاني القضاء على هذه الثورة، فجاء الى ستوكهولم واعدم رؤوساء الحركة التمردية، مما زاد في اشعال نيران الثورة بدل اخمادها. فقام على رأس الحركة التمردية، شاب من طبقة الاشراف يدعى جوستاف واسا Gustave Wasa (1523-1560). وكان والده من الذين اعدمهم الملك كريستيان. واستطاع جوستاف ان يخلص بلاده من الاحتلال الدانمركي، وأعلن ملكا في عام 1523، وبدأ بادخال اللوثرية مدفوعا باسباب عديدة، منها اقتناعه الشخصي، وانما بالاكتر بدافع من الانتقام من الاكليروس الذي اتخذ موقفا ضد الثورة وساند الملك كريستيان الثاني، واخيرا بدافع من المصلحة، اذ سيكون بإمكانه الاستيلاء على املاك الكنيسة وتسديد ديونه التي استحق عليه ابان الثورة. شجع جوستاف الوعاظ اللوثرين بكل قوة، وعين واحدا منهم رئيس اساقفة ابسال Upsal. ووجد العون والمساندة الكبيرة في شخص سكرتير الوزارة (Chancelier) لورانس اندري Laurentius Andrae، الذي ترجم الكتاب المقدس الى اللغة السويدية، وهو الذي اعلن الاستيلاء على املاك الكنيسة بعد ان اتهم الاكليروس بالتقدير، وعدم مساعدة الكنيسة للدولة بالرغم من موارده الكبيرة. ووافق الاشراف على ذلك اذ تقاسم مع الملك هذه الاملاك.

واخيرا أعلنت الكنيسة اللوثرية الكنيسة الرسمية للدولة. وحافظت هذه الكنيسة على الهيئة الاسقفية، وعلى الكثير من العادات والعبادات كي لا تبعد الشعب الذي كان متعلقا بها. حاول الملك اريك الرابع عشر، الذي خلف والده عام 1560، تحويل الكنيسة الى الكالفينية، الا ان اللوثرية التي كانت قد توطنت وقويت، استطاعت مقاومة الملك وخلعه عن العرش في عام 1568.

اما اخوه الملك جون الثالث (1568-1592)، فقد حاول اعادة الكاثوليكية الى البلاد بمساعدة زوجته الكاثوليكية، كاترين، اخت ملك بولندا، ومساندة المبعوث البابوي اليسوعي انطون بوسيفان Antoine Possevin. الا ان اخاه شارل الذي كان يطمع في العرش والامراء اللوثرين، اجبروه على التمسك بالشروط الاثني عشر التي وضعها لاعادة العلاقات مع روما. وكان البابا غريغوريوس الثالث عشر، قد رفض هذه الشروط، اذ كانت تنص على استعمال اللغة المحلية في الليتورجية، والمناولة تحت الشكليات للعلمانيين، والسماح بزواج الكهنة. فغادر المبعوث البابوي البلاد عائدا الى روما في عام 1579، ولم يكمل الملك مشاريعه في اعادة الكاثوليكية.

خلف جون الثالث ابنه سيجموند Sigismond، الذي كان في ذلك الوقت قد اصبح ملك بولندا، وكان كاثوليكيا. اغتنم عمه شارل فرصة فراغ العرش، لتقوية اللوثرية، وعندما جاء سيجموند لتسلم العرش، وجد معارضة كبيرة من قِبَل اللوثرين، حتى استطاعوا ان يسقطوه عن العرش، بحجة انه هرطوقي، لانه انكر دين الدولة أي اللوثرية، وعينوا مكانه عمه شارل الذي ملك من عام 1604 وحتى 1611، باسم شارل التاسع. وفي عهده وعهد ابنه جوستاف-رودلف (1611-1632)، انتصرت اللوثرية وعمت جميع بلاد السويد.

## (ب) الاصلاح في شرق ووسط اوروبا

### (1) بروسيا Prusse

دخل الاصلاح بروسيا على يد البرت براندبورغ Albert de Brandebourg، الرئيس الاعلى لجمعية التتونيك Ordre Teutonique، الذي اثر لقاءه مع لوثر، علمن املاك جمعيته، وحوّلها الى دوقية وراثية Duché de

Prusse، تحت حماية بولنדה (1525). وتزوج في عام 1526 من الاميرة دورتيه Dorothee الداخركية اللوثرية. وجاء بالوعاظ اللوثرين، ووكّل اليهم تنظيم الكنيسة. فحُطمت الصور والتماثيل، ومنع الحج، وحلت الليتورجية اللوثرية باللغة البولندية، محل الليتورجية القديمة. وفرض عام 1530 "اعتراف ايمان اوسبورغ" وفتح جامعة Koenigsberg، وعهد بادارتها الى ساينوس Sabinus سلف ملانكتون. وحرّم الاكليروس الذي عارض هذه الاصلاحات من مناصبهم ومدخولهم، وطردهم من منازلهم. وعند موته عام 1568، كانت اللوثرية قد تأصلت في معظم البلاد.

## (2) بولنדה

وجد الاصلاح في بولنדה ارضا مهياة بسبب الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية. وكانت الظروف السياسية من اكبر العوامل التي ساهمت في نجاح التجديدات. فإلى جانب اقطاعية جشعة تبحث دائما عن توسيع سلطتها، كان الملك عاجزا عن فرض ارادته سواء في المجال الديني او المدني. وكانت طبقة الاشراف تصبو دائما الى ان تلعب دورا رئيسيا في الحياة السياسية، بينما كانت البرجوازية المؤلفة، بنسبة كبيرة من العناصر الالمانية المهاجرة، تتنافس مع الكنيسة حول ضريبة العشور وامتداد السلطة الكنسية. فكان الكل مهياً لاستقبال عقيدة تسمح له بمحاربة حقوق الكنيسة، وبالتالي التحرر من اعبائها، فوجودا هذه العقيدة في الاصلاح.

تسلل الاصلاح الديني الى بولنדה من المانيا وسويسرا، بواسطة الكثير من الهراطقة المهاجرين، الذين التجأوا اليها هربا من الاضطهاد في بلادهم، وبواسطة الجامعات ايضا، وخصوصا الالمانية، حيث ذهب الكثير من ابناء الطبقات العليا للدراسة.

بجانب هذه الظروف السياسية والاجتماعية، ساهم عنصر آخر لا يقل اهمية عنها في اعداد البلاد لقبول الافكار الاصلاحية، الا وهي النزعة الانسانية. اهتم الاساقفة في بولنדה في ذلك الوقت، بحماية ونشر الفنون والعلوم، اكثر منه من الاهتمام في الحياة الروحية لرعاياهم. ونادرا ما كانوا يقيمون في ابرشياتهم، بل كانوا يقضون معظم وقتهم من البلاط، يعيشون حياة دنيوية، ويتهافون وراء المناصب العليا.

حاول الملك سيجموند الاول (1506-1548). وكان كاثوليكيا صالحا ان يقاوم بقدر المستطاع تقدم اللوثرية في ولاياته، الا ان الحرية الدينية، التي ضمنها التاج البولندي للكاثوليك، عودت الامة على التسامح الديني، وما كان يتمتع به ايضا اللوردات الاقطاعيون من شبه سيادة، والذين اسبغوا الحماية على الحركات الاصلاحية المحلية، ساهموا في تقدم وتغلغل الاصلاح في بولنדה.

توطنت الافكار الاصلاحية بالخصوص ما بين سنة 1525 و 1530، واخذ الاشراف، بالتعاون مع الوعاظ، بتجريد الاسقفيات والاديرة من ممتلكاتها. وكان الاساقفة الذين يعينهم الملوك رجالا مثقفين محبين لوطنهم، من انصار الاصلاح ولكن من داخل الكنيسة وليس ضدها، قد اظهروا في اول الامر، قبولا وتسامحا نحو المصلحين، لكن عندما وجدوا انفسهم مهددين باملاكهم وامتيازاتهم، قرروا مقاومة التجديدات، بدافع من المصلحة اكثر منه بدافع اقتناعهم الشخصي.

وزادت حدة المقاومة في عهد الملك سيجموند الثاني اوغست (1548-1572). وكان هذا الملك قد تربى بميوعة من قبل والدته الملكة بونا سفورزا، في وسط بلاط ملكي غلب عليه روح اللهو والفساد، حيث كثر فيه الانسانيون مؤيدوا الاصلاح. وفي عصر هذا الملك انتشرت اللوثرية والكالفينية على السواء بسرعة، وترجم الكتاب المقدس الى اللغة البولندية، وبدأت اللغة الدارجة تحل محل اللغة اللاتينية في الشعائر الدينية. واعلن بعض الكهنة المبرزون مثل جان لاسكي، ابن اخ الاسقف لاسكي الذي قاوم بشدة الاصلاح، انضمامهم الى البروتستانتية، وكتبوا من دعايتهم واحرزوا تقدما ملحوظا. وفي عام 1547، انتقل الاخوة البوهيميون من بلادهم الى بولنדה، وسرعان ما كانت هناك ثلاثون جمعية سرية من طائفتهم في البلاد. وصوّت المجلس النيابي الوطني في عام 1555، وافر صفة الشرعية على زواج الكهنة، والمناولة تحت الشكين. ووصل الاصلاح الديني في بولنדה الى اوج ازدهاره.

كان لتشعب الفرق الاصلاحية واختلافها من لوثرية وكلفينية واخوة بوهيميون وغيرهم، نزاعها مع بعضها البعض، السبب في تخفيض قوتها.

وقفت الكنيسة الكاثوليكية هذه المرة بجزم، وحاربت هذه التطورات بقوة، ووجدت دعما في شخص الاسقف ستانسلاوس هوزيوس (Stanislas Hozius (Housius)، الذي اصبح كاردينالا فيما بعد، واحد ممثلي البابا في مجمع

ترانت، اذ كان مثقفا وشجاعا وعمل جاهدا من اجل الاصلاح الكنسي الكاثوليكي. ولم يكتف بمحاربة الهرطقة، وانما عمل على احضار اليسوعيين الى بولندا، وعهد اليهم بادارة الكليات التي اسسها في عدة اماكن من البلاد. فهِم المنشقون انهم لن يستطيعوا المقاومة ما داموا منقسمين، وحاولوا ايجاد ارضية مشتركة توحدتهم، ف عقدوا مجمعا عاما عام 1570 في سندومير Sandomir، وتوصلوا الى الاتفاق حول صيغة ايمان مبهمة. وجاءت معاهدة "السلام الديني الفرسوفي La paix religieuse de Varsovie" عام 1573، لتمنحهم حرية العبادة ونفس حقوق الكاثوليك المدنية.

وبعد حكم قصير لهنري دي فالو Henri de Valois، الذي عاد الى فرنسا ليحكمها باسم هنري الثالث، اعتلى عرش بولندا هنري باتوري Henri Bathoury (1576-1586)، وكان مخلصا للكاثوليكية، فحمى اليسوعيين، وسلم اليهم هو ايضا ادارة الكليات التي أنشأها في بولندا وغيرها من الولايات التابعة لها.

وعندما اعتلى الملك سيجموند الثالث العرش (1587-1632)، وكان هذا قد تعلم وترى في السويد على يد اليسوعي الشهير Varsewichi، اكمل اعادة الكاثوليكية الى بولندا. وعلى كل حال، فان البروتستانتية، مع انها مرت في مرحلة من الانتصار، الا انها لم تتأصل في بولندا. فالاشراف الذين رأوا في الاصلاح مجرد وسيلة للاستيلاء على املاك الكنيسة، والتقليل من امتيازاتها، والخلاص من ضرائبها، استكفوا بما احرزوه في هذا المضمار، ولم يهتموا كثيرا بالامور العقائدية، وحافظ معظمهم على الايمان الكاثوليكي التقليدي. كما ان اليسوعيين المدربين المخلصين، ضمنوا مناصب استراتيجية في النظام التعليمي، واستمالوا اليهم الشخصيات البارزة في المجتمع البولندي، واعادوا الشعب الى حضن الكنيسة الكاثوليكية.

### (3) هنغاريا

عرفت هنغاريا الاصلاح الديني عن طريق المهاجرين الالمان، والطلاب الذين ترددوا على الجامعات الالمانية، وبواسطة التجار المجرين الذين تعاملوا مع التجار الالمان.

تطلع الفلاحون المجرين الذين ظلمهم الاقطاع الذي تساعده الكنيسة لبروتستانتية يمكن ان تضع حدا لضرائب العشور والمكوس التي تجبها الكنيسة. وتطلع البارونات الاقطاعيون بعيون جشعة الى املاك الكنيسة الشاسعة، التي كانت منتوجاتها تنافس منتوجات اراضيهم. ورأى عمال المدن، الذين اصيبوا بعدوى مبادئ "المدينة الفاضلة"، ان الكنيسة هي العقبة الكبرى التي تقف في طريق احلالها. فانتشرت البروتستانتية بلا قيود في شرقي هنغاريا في ظل حكم تركي ينظر باحتقار وبلا مبالاة الى الاختلاف بين المذاهب المسيحية.

ساعدت الظروف السياسية ايضا انتشار اللوثرية. فقد انقسمت البلاد الى حزبين. انتخب الحزب الاول ملكا، فرديناند دي هابسبورج، ليؤمن دعم الامبراطور الالماني في مقاومة الاحتلال التركي، واختار الحزب الثاني، الذي رفض ان يكون المانيا ملكا عليهم، احد ابناء البلاد، جون زابوليا Jean Zapolya. وكان الملكان كاثوليكين، ولكن خوفا من ان ينضم الهرطقة الى اعداءهما، هادونهم. فاغتنم الوعاظ هذه الهدنة لنشر افكارهم وتعاليمهم. ووجدوا في الاقطاعيين عونا كبيرا، اذ استغل هؤلاء الديانة الجديدة للاستيلاء على املاك الكنيسة فطردوا الكهنة الكاثوليك من مناصبهم، ووضعوا مكانهم الوعاظ الهرطقة.

استطاع الهرطقة تأسيس كنيسة مجرية مؤلفة من الالمان ومن المجرين (Magyars)، التي تبنت اعتراف ايمان اوغسبورغ. وما ان حل عام 1550 حتى بدا ان هنغاريا باسرها سوف تصبح بروتستانتية. الا ان الكالفينية بدأت تنافس اللوثرية، بواسطة أحد مبشريها المشهورين، ملبوس Melius، الذي استطاع ان يكسب الى الكالفينية معظم الشعب. فقد أيد المجرين، وهم بفطرتهم مناهضون للالمان، النمط السويسري من الاصلاح، وما ان جاء عام 1558، حتى كان الكالفينيون من الكثرة الى حد انهم استطاعوا عقد مجمع مقدس في زنجر، كان له الاثر الكبير.

بدأت المقاومة الكاثوليكية بمجيء اليسوعيين الى Trynau (1561). وازدادت ابتداء من القرن السابع عشر، على عهد الملك فرديناند الثاني (+1637)، واثين من المرتدين عن البروتستانتية: استرهازي Esterhazy، والكاردينال بازاماني Pazamani. ولد الاول في عائلة اميرية لوثرية، فارتد الى الكاثوليكية، وعمل على اعادتها الى املاكه الواسعة، وحث الاسياد الآخرين على التمثل به وطرد الوعاظ الهرطقة من اراضيهم. اما بيير بازاماني، فبعد ان ارتد عن الكالفينية، انضم الى الجمعية اليسوعية، واصبح رئيس الاساقفة الاول في المملكة (1606)، ومن ثم

كردينالا (1627). وعندما توفي عام 1637، كان قد اعاد الى حضن الكنيسة الكاثوليكية عائلات كثيرة من الاشراف ومن الشعب، بواسطة المدارس والمعاهد الاكليريكية التي أنشأها، وبواسطة مواظبه وكتاباته.

#### 4) البلاد الواطئة Les Pays-Bas

كانت البلاد الواطئة تتألف من سبعة عشر مقاطعة، سبعة منها في الشمال - وهي هولندا حاليا -، غلب عليها الطابع البحري، فاشتهرت بصيد السمك والحيتان، وكانت جغرافيا اقرب الى المانيا، وتتكلم اللغة واللهجات الالمانية. وعشرة مقاطعات في الجنوب - هي بلجيكا اليوم -، تميزت بالتجارة والصناعة، وكانت جغرافيا اقرب الى فرنسا وتتكلم اللغة الفرنسية. الا ان الشمال الفقير او الجنوب الغني، اتفقا في تعلقهما بتقاليدهما وعاداتهما وامتيازاتهما واستقلالهما. فكانت كل مقاطعة مستقلة بذاتها تحكم ذاتها بواسطة حاكم، يوحد بينها "مجلس المقاطعات".

وجد الاصلاح في البلاد الواطئة ما وجده من الاسباب السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية، التي ساهمت في دخوله الى سائر البلاد الاوروبية الاخرى. وكانت النهضة والنزعة الانسانية في اوجها، اذ ان هولندا هي موطن ارازموس اشهر الانسانيين واكبرهم.

من الناحية الدينية: كانت كنيسة البلاد الواطئة تتألم من نفس المساوىء التي تعرضت لها الكنائس في البلاد الاخرى: اكليروس غير مثقف، بدون غير، يقضي وقته في البطالة والملذات. لم يكن في المقاطعات السبعة عشر الا اربعة اساقفة، اهتموا بمصالحهم الزمنية اكثر منه بخلاص النفوس.

من الناحية الاجتماعية والسياسية: كان شعب البلاد الواطئة متعلقا باستقلاله، يخضع مكرها لسلطة اجنبية. زد على ذلك ان سكان الشمال الفقير وسكان الجنوب الغني، وخصوصا طبقة الاشراف، اعتادت على عيش البذخ واللهو، فجعلهم ذلك في حالة دين دائم، وكانت تتحين الفرص للاستيلاء على املاك الكنيسة لسد ديونها. كما وكانت في حالة استنفار دائم للتخلص من الحكم الاسباني.

دخل الاصلاح الى البلاد الواطئة بانواعه الثلاث. فدخلت اولاً اللوثرية، واصبح دير الاوغسطينيين في انفير Anvers، مركزها الاول، ومنه انتشر الى المقاطعات الاخرى، وان كانت اللوثرية انتشرت في البلاد الواطئة الا انها لم تتأصل فيها بعمق. ثم جاء اللامعديون Anabaptistes المهاجرين من المانيا، وكسبوا اتباعا كثيرين في مقاطعات الشمال. وجاءت الكالفينية متأخرة من جينيف، عن طريق الحدود الفرنسية، وانتشرت في المقاطعات القريبة منها. ومن ثم وبفضل التجارة استطاعت ان تكسب كل الساحل، وحلت في كثير من الاماكن محل اللوثرية.

#### مقاومة الهراطقة:

شارل الخامس: رأى شارل الخامس في انتشار البروتستنتية في البلاد الواطئة خطرا على الوحدة والسلام الوطني، وخشى ان تؤدي البروتستانتية في البلاد الى تعريض حربه للخطر في نزاعه مع فرنسا ومانيا. فأيد الكنيسة في مقاومة الهراطقة. فاستقدم محكمة التفتيش، وخول موظفيها سلطة سحق الحركة وكل الهراطقات الاخرى. وحكم على اثنين من الاغسطينيين بالحرق. ثم اخذ بين عامي 1521 و1555، يصدر مجموعة من القرارات عرفت باسم "الملصقات Placard"، حرم فيها طباعة او كتابة او نسخ او شراء او بيع أي كتاب من تأليف لوثر وزوينجلي وبوسر وكلفن وغيرهم، او تحطيم الصور والتمائيل ومنع الاجتماعات السرية... وأعلن حكم الموت ليس فقط على الهراطقة بل ايضا على كل من يعرف عنهم ولا يبلغ السلطات. لاقت هذه الملصقات عدم القبول من الكاثوليك او من البروتستنت، لذلك بقيت بدون تنفيذ بكل حذافيرها. وطال العقاب خصوصا اللامعديين، حيث من بين 871 ضحية، 717 كانوا منهم.

فيليب الثاني: تنازل شارل الخامس في عام 1555 عن عرش اسبانيا لصالح ابنه فيليب الثاني. وكان هذا كاثوليكيا صميما، الا انه كان مترفعا وجامدا وصارما. ففكر انه يستطيع بالقوة ان يكسر شوكة الهراطقة. وادت سياسة الملك الى تركيز السلطة في يديه، والاستغلال المالي للبلاد لصالح اسبانيا، وتجنب اهالي البلاد في اعطاء الوظائف والمناصب الرسمية، اثارت مشاعر العدا لى اهل البلاد الواطئة وادت الى اثاره الفتن والتمرد. واقترنت الحركة البروتستانتية هناك بحركات التحرر الوطني، خصوصا عندما ارسل فيليب الثاني الجيوش الاسبانية لتحل مكان الشرطة المحلية الوطنية، لتحافظ على النظام.

وتزعم الثورة وليم اوف اورنج Guillaume de Nassau, prince of Orange، الملقب "بالصامت"، بسبب فطنته وروح التفكير الذي تحلى بها، زيادة على نُبل اخلاقه وعقله الواسع وقلبه الرحيم.

ذهب وفد الى مدريد ليطلب من الملك تخفيف اجراءات "الملصقات". فاستدعى فيليب جيوشه من البلاد الواطئة، علامة للمصالحة. الا ان البروتستنت اعتقدوا انها نقطة ضعف، فاستمروا في الانتشار وفي اثاره الفتن. فقرر فيليب ان يأخذ المبادرة وينهي التمرد بعملية قمع صارمة.

امام عملية القمع هذه، اجتمع عام 1565 عشرون نبيلاً في قصر بردا Breda، التابع للامير ولیم اوف اورنج، واسسوا حلفاً عُرف باسم "حلف بردا La Ligue de Breda". وارسلوا عام 1566، الى بروكسل، وفداً من أربعمائة من النبلاء ليقدموا عريضة الى نائبة الملك، مارغريت، طالبين الغاء الاجراءات، والا سيستخدمون وسائل لذلك وتحمل الحكومة مسؤوليتها.

رفض الملك طلب النبلاء، الا ان الملكة مارغريت أبعدت مستشارها الكردينال غرانفيل Granvelle، أملاً في تهدئة الاوضاع. فثارت عدة فتن في عدة مدن ضد الكاثوليك. وقام وعاظ جاؤوا من جينيف، باثارة الجموع، فهجم الشعب على الكنائس، فمزقوا الصور، وحطموا التماثيل، وحرقوا كتب الصلاة، ودنسوا الاواني المقدسة، واسأوا معاملة الكهنة والرهبان والراهبات. الا ان الحكومة استطاعت ان تحطم الثورة. وانسحب ولیم اوف اورنج الى المانيا.

كان ممكناً ان تستتب الامور في البلاد، لولا ان فيليب الثاني، الذي شعر بالاهانة، لم يرسل اليها احد اقوى قواده وأعنفهم، الدوق دالبا Duc d'Albe، مع فرقة جيش كبيرة، وتعليمات باستعمال القسوة. فاستقالت نائبة الملك مارغريت استنكاراً، واصدر المجلس الحاكم عدة احكام بالاعدام، وفُرضت الضرائب الباهظة، مما ادى الى تراجع التجارة والصناعة، والى زيادة الفتن والتمرد. وعاد ولیم اوف اورنج لتزعم حركة المقاومة، واضطر الملك الى استدعاء دوق دالبا.

واعلن ولیم اوف اورنج انضمامه الرسمي الى الكالفينية عام 1573، وانضمت اليه مقاطعات هولندا وزيلندا، وتم فيهما منع الديانة الكاثوليكية كديانة وثنية. واعلنت المقاطعات السبعة التي انضمت الى البروتستنتية، تأليف اتحاد فيدرالي جمهوري. واصبح ولیم اوف اورنج اول حاكم لهذا الاتحاد. اما المقاطعات الجنوبية - بلجيكا حالياً - فقد استطاع الجنرال فرنزي Alexander Farnèse ابن مارغريت ان يحفظها في حضن الكنيسة الكاثوليكية.

## 5) الاصلاح في سكتلندا

دخل الاصلاح مبكراً في سكتلندا، كما يشهد على ذلك احد قرارات البرلمان سنة 1525، الذي منع فيه، ادخال وتداول كتابات لوثر في المملكة. وكان التجار وطلاب الجامعات الالمانية قد ادخلوا الكثير منها.

قمع الملك جيمس الخامس (1527-1527) الهرطقة بحزم بمساندة رئيس اساقفة سانت اندروز، جان بيتون، ومن بعده ابن اخيه دافيد بيتون. فلم تحرز الهرطقة الكثير من الاتباع. الا ان النبلاء والاشراف، كانوا ينظرون بحسد الى انكلترا التي استطاعت ان تنفصل عن البابوية، وانتزعوا املاك الكنيسة. وعندما شن جيمس الخامس الحرب على انكلترا، رفض النبلاء ان يؤيدوه. فهُزم وهرب الى فولكلاند، ومات هناك في 14 كانون اول عام 1542، وكانت زوجته قد انجبت من ثمانية ايام من الشهر نفس، ابنة، ماري ستيوارت، التي اصبحت ملكة وعمرها ستة ايام.

وابرز دافيد بيتون وصية من الملك عينه فيها وصيا على الملكة الرضيعة، تشكك النبلاء في صحة الوثيقة، وسجنوا الكردينال، واختاروا جيمس هاملتون، ايرل اوف اران Erel of Arran، وصيا على العرض. فاطلق هذا سراح بيتون وعينه رئيساً للوزراء.

كان هاملتون ميالاً للافكار الاصلاحية. فرفع البروتستنت في عهده رأسهم، وبدأوا يبشرون بتعاليمهم بلا خوف. ولما حكم بيتون على احد الوعاظ جورج ويشارات (1546) وأحرق، دبروا له مؤامرة وقتلوه. وكان زعيم المؤامرة تلميذاً لويشارات، اسمه جون نوكس.

## جون نوكس 1505-1574

ولد نوكس بين عامي 1501 و 1515، قرب هندنجتون. نذره والداه الفلاحان ليكون كاهناً، ودرس في جلاسجو ورسم كاهناً حوالي عام 1532، واصبح معروفاً بتضلعه في القانون المدني والقانون الكنسي على السواء. ولا تقول سيرته الذاتية "تاريخ اصلاح الدين داخل مملكة اسكتلندا" شيئاً عن شبابه، ولكنها تقدمه فجأة (1546) بوصفه مؤيداً متحمساً لجورج ويشارات وحارساً شجاعاً له. واخذ نوكس يتجول من محباً الى آخر بعد القبض على ويشارات، ثم انضم في عيد الفصح عام 1547 الى المؤامرة التي قتلت الكاردينال بيتون.



التجأ المتأمرين بعد مقتل الكردينال، الى قلعة سانت اندروز. وفي تموز ابحر اسطول فرنسي وقذف القلعة بالقنابل. وقام المحاصرون اربعة اسابيع، واخيرا غلبوا على امرهم، وقُبض على نوكس وآخرين، وعملوا عبدا في السفن الفرنسية تسعة اشهر. وعندما اطلق سراح الاسرى سنة 1549، ذهب نوكس الى انكلترا، واستقبله كرامر، وحاول جعله اسقفا، الا انه رفض، فعينه واعظا للملك ادوارد السادس.

ولما ارتقت الملكة ماري تيودور العرش، خاف نوكس، فترك انكلترا، وذهب اولا الى فرانكفورت، للاهتمام بجماعة تتحدث الانكليزية، ولكن مبادئه وملاحظته كانت قاسية جدا بالنسبة لمستمعيه، فطلبوا منه ان يرحل. فذهب الى جينيف، حيث اصبح تلميذا وصديقا لكالفن. وفي جينيف ترجم الكتاب المقدس الى اللغة الاسكتلندية، وكتب كتابه المشهور "كتيبة النساء المروعة The Monstrous regiment of women"، الذي كتبه ضد الملكة ماري تيودور، ملكة انكلترا، وماري دي لوري وصية عرش سكوتلندا.

واصل نوكس مراسلته مع اتباع الكالفينية في سكوتلندا، الذين كانوا يكسبون التأييد والاتباع يوما بعد يوم، وخصوصا بين طبقة الاشراف. اظهر النبلاء والاشرف قبولاً اكبر لدخول الاصلاح، لتطلعهم في الاستيلاء على املاك الكنيسة، وتسلم بعض سلطات الاسرة الحاكمة، مغتتمين فرصة ضعف حكم الوصية ماري دي لورين، والى ضعف الاكليروس، الذي اصبح مكروها لانخطاطه وسوء اخلاقه وحبه للمال. وفي الثالث من كانون اول عام 1557، اجتمعت في ادنبرة مجموعة من النبلاء ووقعوا اول "ميثاق اسكتلندي"، واطلقوا على انفسهم اسم "جماعة المصلين ليسوع" لتعارض "جماعة المصلين للشيطان" أي الكنيسة الكاثوليكية. وتعهدوا بالمحافظة على "كلمة الله المباركة اكثر من أي شيء"، ودعوا الى "اصلاح في الدين والحكومة"، وطلبوا من الوصية على العرش الحرية، التي تبيح لهم ان يمارسوا امور الدين والضمير كما ينبغي استجابة لامر الله. وصمموا على إنشاء كنائس تأخذ باسباب الاصلاح، واعلنوا ان كتاب الصلاة العامة الذي كُتب لانكلترا يجب ان تعمل به كل جماعات المصلين. وارسلوا في ذلك الشهر رسالة الى نوكس طالبين منه العودة، واكدوا انهم يتكفلون بحمايته.

تمهل نوكس في العودة، ولكنه وصل الى ادنبرة في اليوم الثاني من ايار سنة 1559، والقي في مدينة برث، خطابا عنيفا ضد "عبادة الاوثان" أي القديس الكاثوليكي، فاثار الجموع، التي هجمت بقيادة لوردات "جماعة المصلين ليسوع"، على الكنائس والاديرة، فحطموا، وكسروا، وذنسوا، واجبروا الكهنة والرهبان والراهبات، تحت تهديد الموت، على انكار ايمانهم. وما هي الا يومان او ثلاثة، حتى كانت هذه الكنائس والاديرة، وخصوصا كاتدرائية سانت اندروز، قد دمرت ولم يبق منها قائما سوى الجدران.

### فرض العقيدة الكالفينية

عندما حاولت ماري دي لورين ان تواجه المتمردين، استطاعوا بمساعدة جيوش الملكة اليزابيت، ملكة انكلترا، ان يهزموها، فانسحبت ماري الى قلعة ادنبرة، ماتت هناك في العاشر من حزيران سنة 1560. وفي شهر تموز، وقّع ممثلوا "جماعة المصلين ليسوع" والملكة ماري ستيوارت، وفرنسا وانكلترا "معاهدة ادنبرة"، التي من شروطها: خروج جميع الجيوش الغربية من سكوتلندا، وعدم مطالبة ماري ستيوارت بعرش انكلترا، وتم الاعتراف بماري ملكة لسكوتلندا.

وقبل المجلس النيابي، الذي اجتمع في الثاني من آب 1560، اعترف ايمان اعده نوكس دُعي "باعتراف سكوتلندا Confessio Scotica"، وكانت بنوده كلها كالفينية خالصة. وفي الرابع والعشرين من شهر آب تم الغاء سلطة البابا، ومنع اقامة القديس تحت طائلة عقوبة مصادرة الاملاك، ومن يصير على ذلك يتعرض للنفي او الاعدام. وعُهد الى نوكس بتنظيم الكنيسة الجديدة، فنشر في عام 1560، كتاب "في قواعد السلوك والانضباط The Book of Discipline"، حوى المبادئ الكالفينية، التي ادت الى تأسيس كنيسة مشيخية Presbytérienne في سكوتلندا، أي كنيسة بدون اساقفة، يتم فيها انتخاب الرعاة من قبل الشعب، ويؤلفون هؤلاء مع الشيوخ "المجمع Consistoire".

وعندما حضرت ماري ستيوارت الى سكوتلندا بعد موت زوجها فرانسوا الثاني، ملك فرنسا، كانت البروتستنتية قد توطنت فيها. وتأمّلت الكنيسة الكالفينية، التي هدمت كل ما يمت الى العبادة الكاثوليكية بصلة، ان تتضمن الملكة الى عقيدتهم. الا ان ماري ستيوارت البالغة من العمر تسعة عشر عاما، الاسكتلندية الاصل، الكاثوليكية الصميمة، رفضت ذلك. ولكن كانت ضعيفة السلطة، عابثة، ولم ترى بُدا من الرضوخ وقبول الثورة الدينية التي احرازها نوكس، ولم تستطع الحفاظ على القديس الا في مصلاها الخاص. ولم تستطع ان تخضع النبلاء والاشرف بقيادة الاخ غير الشقيق كونت موري Murray، الذي كان يطمح الى العرش. فاضطرت الى الزواج من ابن عم لها، هنري دارنللي

Henri Darnley، املا في مساعدتها، الا انه زاد في خطورة الوضع بفظاظته وعدم كفاءته، وخصوصا انه كان يطمح الى لقب الملك، فقام بتمرد ضد الملكة، اغتيل على اثره.

ارتكبت ماري غلطة فظيعة عندما تزوجت بعد ذلك الكونت بوتول Bothwell البروتستنتي، وكان من الذين اشتركوا في اغتيال زوجها. فنار عليها اللوردات، واتهموها بالاشترك بالمؤامرة، وبالزنا. وطالب نوكس بحضورها امام المحاكمة، اجبرت اخيرا على التنحي عن العرش لصالح ابنها جيمس السادس، البالغ من العمر سنة واحدة. وعين موري وصيا على العرش. وهربت ماري ستيوارت الى انكلترا املا بالحصول على الدعم من ابنة عمها الملكة اليزابيث، الا انها لم تلق سوى ثماني عشرة سنة من الاعتقال، انتهى بها الى المقصلة في الثامن من شباط عام 1587.

ادى سقوط ماري ستيوارت الى انتصار الاصلاح النهائي في سكتولندا. فاعلن البرلمان البروتستنتية "دين الدولة"، واصبح واجبا على كل ملك، عند ارتقائه العرش، ان يقسم على قبول اعتراف الايمان الكالفييني. وتبنت كنيسة سكتولندا النظام المشيخي الديمقراطي، حيث يتم انتخاب الرعاة والشيوخ من قبل الشعب. وتعرض الكاثوليك القلائل الذين بقوا في البلاد الى الاضطهاد، على مدى الوصايات المتتالية على العرش: موري، ونوكس ومورتون (1568-1578). وخف قليلا عندما اصبح جيمس السادس، ملكا ايضا على انكلترا (1603)، وحاول دون نجاح احلال الانجليكانية مكان الكالفيينية. وبالرغم من كل هذه المحاولات التي قامت بها عائلة ستيوارت، الا ان المشيخية بقيت صفة الكنيسة الاسكتلندية. وعندما ارتبطت اسكتلندا بانكلترا، ومنذ عام 1707، بحلف المملكة المتحدة (Acte d'Union)، نص الاتفاق على ان تحافظ كنيسة اسكتلندا على نظام الكنيسة المشيخية.

لم تحتف الكاثوليكية من سكتولندا، ولكن أخذ اتباعها ينقصون يوما بعد يوم. ثم عاد يزداد بشكل ملحوظ ابتداء من القرن الثامن عشر.

## (6) الاصلاح في ايرلندا

ساهمت الانقسامات الداخلية بين القبائل الايرلندية في القرون الوسطى، على عهد الملك هنري الثاني (1154-1189) في فرض الهيمنة الانكليزية على جزء كبير من ايرلندا. واعطى ادخال الاصلاح اليها الفرصة السانحة لانكلترا لاحتلال ايرلندا كاملا. وبذلك وعلى مدى قرنين ونصف، امتزج الصراع الديني مع الصراع السياسي، في خلق تاريخ ايرلندا حتى اليوم.

بدأ ظهور الاصلاح في ايرلندا عندما انفصل هنري الثامن عن روما، وحصل من البرلمان الايرلندي الذي كان اغلبية اعضاءه من المستوطنين الانكليز، اعترافا منهم برئاسته للكنيسة الايرلندية (1536). ولكن عندما اراد فرض اداء حلف اليمين على هذا الاعتراف، رفض اكرثية الاساقفة والشعب، وعارضت بشدة وبجزم، وظلوا امناء على ايمانهم الكاثوليكي التقليدي. فبدأت مجموعة من الاجراءات القمعية. ففرض ان تدفع العشور الكنسية الى الملك، واستولى على املاك الكنيسة، ودخل المصلحون الدينيون الكنائس في منطقة النفوذ الانكليزي، وحطموا الصور والتمائيل، واغلقت الاديرة جميعها، واستولت الحكومة على املاكها، وطرد الرهبان.

استمرت هذه الاجراءات في عهد ادوارد السادس، وهدأت قليلا زمن الملكة الكاثوليكية ماري تيودور، الا انها زادت قسوة زمن الملكة اليزابيث، التي حلمت باحتلال كل ايرلندا، واحلال البروتستنتية فيها. وبدأت بذلك بالقوة العسكرية، وبقدر ما كانت جيوشها تتوغل في البلاد، كانت تدخل الانجليكانية معها. فاغلقت الاديرة، وتوقفت كل الصلوات الكاثوليكية، وطردت واعدمت الاساقفة والكهنة، واحلت محلهم القساوسة الانجليكان، وملكتهم ممتلكات الكنيسة. وعندما اتضح لها ان كل هذه الوسائل لم تنجح، قامت بعملية هدم كامل للمجتمع الايرلندي، لم يرى التاريخ له مثيلا من قبل. فحرمت الامة الايرلندية من حقوقها، وحولت الشعب كله الى عبيد، وحرمته من ممتلكاته، وصادرت اراضيه.

وعندما ثار الايرلنديون، صادر البرلمان بقوة القانون عام 1557 كل اراضي المتمردين المنهزمين ومنح ثلثها الى المستوطنين الجدد من الانكليز. وكان ذلك بمثابة تطبيق سياسة الاستعمار التي تسببت في تقسيم ايرلندا الى اليوم.

تأمل الايرلنديون ان تتحسن احوالهم في عصر الملك جيمس الاول، الذي كان ينحدر من اصل ايرلندي، الا ان املمهم خاب، اذ قرر استعمار ايرلندا الشمالية بواسطة مستوطنين من البروتستانت، ومعظم هؤلاء كانوا من اتباع

الكنيسة المشيخية. فاجبر الكهنة الكاثوليك على مغادرة البلاد تحت طائل عقوبة الموت، وفرض اداء يمين الولاء لرتاسة الملك الكنسية من جميع الايرلنديين، وفرض عليهم حضور طقوس العبادة الانجليكانية.

لم يجلب حكم شارل الاول (1625) أي تغيير، مع انه أكد في بداية عهده على حق الايرلنديين في حرية العبادة واستعادة ممتلكاتهم. الا ان حاكم البلاد الانكليزي، اللورد ستراford، لم يعر هذه الجهود اهمية، فتم بين عامي 1625 و 1649 مصادرة مليونين ونصف ايكر من اراضي ايرلندا لصالح المستوطنين الانكليز.

بلغ سخط الايرلنديين ذروته عام 1641، فاعلنوا الحرب المقدسة على المحتل، وحملوا السلاح لنفض نير البرلمان ولطرد الانكليز من البلاد. استمرت الثورة احدى عشر سنة، انتهت بهزيمة الايرلنديين، خصوصا عندما استلم اوليفر كرومول، احد اشهر القادة العسكريين الانكليز، ادارة دفة المعارك. فاحتل كرومول الجزيرة وعاث فيها الدمار، وفرض عليها حكما مستبدا قاسيا، فباع حوالي عشرين الفا من الايرلنديين كعبيد الى امريكا، وطرد اغني الملاكين الى جزيرة Connaught، وصادر املاكهم البالغة حوالي خمسة ملايين ايكر من الاراضي، ووزعت على الجنود الانكليز الذين شاركوا في المعارك. وجعل مكافأة لكل من يفشي عن الكهنة والرهبان، وفرض عقوبة الاعدام بتهمة الخيانة العظمى لمن يأوي في بيته واحدا منهم.

لم تتحسن الامور عندما اعتلى العرش وليم الثالث اف اورانج Guillaume III of Orange (1688-1702)، فاستمرت مصادرة الاراضي، بدرجة انه في بداية القرن الثامن عشر، كان الايرلنديون قد سُلبوا تقريبا من كل اراضيهم، ولم يعودوا يملكون الا جزءا بسيطا منها. ولم يحرموا فقط من حقوقهم الدينية، بل المدنية والسياسية ايضا. ولم يكتف -من الناحية الدينية- حرمانهم من العصور الكنسية، بل فُرض عليهم دفع ضريبة للقساوسة البروتستانت، ومُنعوا من امتلاك الكنائس، وسُمح لهم بامتلاك امكان للصلاة بدون ابراج او اجراس. اما من الناحية المدنية والسياسية، فلم يعد بإمكانهم ان يرثوا او يبتاعوا اراضي من شخص بروتستنتي، ولا حتى ان يستأجروها لمدة ثلاثين عاما. وفُرض على التجار الايرلنديين دفع غرامات اضافية. وحرموا من حق فتح المدارس، ومن تبوء أي مناصب حكومية، ولم يعد يحق لهم ان يكونوا قضاة او محامين او ضباط، ولا حتى اوصياء، ولا يستطيعوا ان يَنْتخبوا او يُنْتخبوا. فهاجر ما يقارب من 200 الف منهم الى امريكا الشمالية. وفي عام 1750، كانوا قد نُجحوا في زرع المسيحية في امريكا وبالذات في المنطقة المحيطة بمدينة بتسبيرج.

بقيت الحالة على هذا الوضع حتى عام 1778، بعد استقلال امريكا، عندما حصل الايرلنديون على حق الامتلاك وتبوء المناصب المدنية وفتح المدارس بأذن من الاسقف الانجليكاني.

اظهرت ايرلندا، وعلى مدى كل فترة الاضطهاد التي تعرضت لها، مثالا عظيما في الشجاعة والأمانة لايمانها. فاصبحت ارضا للارسلالات، واعيد تبشيرها على يد كهنة تخرجوا من المعاهد الكهنوتية الايرلندية، التي فتحت في عدة اماكن من القارة الاوروبية، كباريس وليل وانفير وتورنيه ولشبونة وروما. ولم تحصل على استقلالها الا بعد صراع طويل. سيكون هذا موضوع دراسة في فصول لاحقة من تاريخ الكنيسة في العصر الحديث.

## ج) الاصلاح في جنوب اوروبا

دخل الاصلاح جنوب اوروبا - أي ايطاليا واسبانيا - كما في سائر اوروبا. الا انه اتضح سريعا ان هذه البلاد لم تكن ارضا ملائمة ومستعدة لقبول الاصلاح. فبجانب ان التجديدات التي اتى بها الاصلاح لم ترق للشعب، فقد وجد الاصلاح، في السلطة المدنية والسلطة الدينية، خصوما اقوياء ومصممين على الوقوف في وجهه. فقد سيطر البابا، صاحب النفوذ الاول في ايطاليا، من جهة، والامبراطور شارل الخامس، وفيليب الثاني، من جهة اخرى، وعلى مثالهما رؤساء دول أخرى، على الهرطقة وقضوا عليها.

### 1) ايطاليا

ما ان بدأت عملية ما يدعى بالاصلاح، حتى وجد له مؤيدين في المدن المهمة في ايطاليا، وخصوصا في المدن التي تحمست لافكار النهضة.

ميلانو والبندقية: ظهرت بعض كتابات لوثر في اكشاك الكتب في ميلانو في عام 1519، وفي البندقية عام 1520. واجترأ راهب في كاتدرائية القديس مرقس على التبشير بتعاليم لوثر. وكتب الكردينال كارافا الى البابا كليمنطوس السابع (1532) يقول ان الدين هبطت اسهمه في البندقية، وان القليلين جدا من اهل البندقية يراعون الاصوام او يقتربون من كرسي الاعتراف. وان كتب الهرطقة رائجة هناك. ووصف كليمنطوس نفسه البدعة اللوثرية انها

واسعة الانتشار بين صفوف الكهنة والعلمانيين في ايطاليا. وفي عام 1535 زعم المصلحون الدينيون الالمان ان لهم ثلاثين الفا من الاتباع في موطن الكنيسة الكاثوليكية.

**فرارا:** كانت ارفع السيدات مقاما في فرارا بروتستنتية غيورة. فقد تشربت رينيه ابنة لويس الثاني عشر الافكار الجديدة من مارجریت النافارية من جهة، ومن مريبتها مدام سوبيز من جهة اخرى. وجهت محكمة التفتيش ب الاتهام الى رينيه واربعة وعشرين شخصا من بيتها. فأدينت بالهرطقة وحكم عليها بالسجن المؤبد (1554). واعربت رينيه عن ندامها وارتدت الى الكاثوليكية ولكن اراءها الحقيقية استمرت واو صامتة.

**مودينا:** كذلك مرت مودينا بلحظة بروتستانتية مثيرة. وذلك ان اكاديمية العلماء والفلاسفة فيها سمحت بقسط كبير من حرية النقاش، واشتبه في هرطقة بعض رجالها. وكان راهب سابق ويدعى باولو ريتشي يندد بالبابوية صراحة في عظاته. وراح الناس يناقشون الافكار اللوثرية في الحوانيت والميادين والكنائس. وقُبض على ريتشي وآخرين. وبسط الكردينال سادوليتو حمايته على الاكاديميين بحجة انهم موالون للكنيسة وان من الواجب اطلاق حرية البحث لهم بوصفهم علماء. وقع البابا بولس الثالث بتوقيعاتهم على الاعتراف بالايمان، ولكن حاكم الولاية فض الاكاديمية (1546)، واعدم لوثرنا عنيدا في فرارا (1550). وفي عام 1567، احرق ثلاثة عشر رجلا وامرأة واحدة بتهمة الهرطقة في مودينا.

**نابولي:** ساهم سكرتير نائب الملك في نابولي، الاسباني جون فالديز Jean Valdez في ادخال الافكار اللوثرية الى نابولي. عينه البابا كليمنطوس السابع امينا في القصر البابوي حين كان في الثلاثين من عمره. الا انه رحل فيما بعد الى نابولي، وانقطع للتأليف والتدريس، وظل على ولائه للكنيسة، ولكنه مال الى عقيدة لوثر في التبشير بالايمان. ورأى في التصوف الصادق، قدرا يسمو فوق أي طقس خارجي من طقوس العبادة. والتف حوله جماعة من الرجال والنساء. وبعد ان مات جون فالديز (1541) تفرق تلاميذه في أرجاء اوروبا. وظل بعضهم وفيا للكنيسة وطور آخرون تعاليمه فبلغوا بها الهرطقة السافرة. وقُطعت رؤوس ثلاثة من صغار تلاميذه واحرقوا في نابولي عام 1564.

**سيينا وبرنادينو اوكينو:** عاش اوكينو في مدينة سيينا بقرب مسقط رأس القديسة كاترين السيانية، حياة تضارع حياتها تقوى وورعا. وانضم الى رهبان الفرنسيسكان ولكنه وجد نظامهم أكثر رخاوة مما لا يلائم مزاجه، فانتقل الى رهبنة الكبوشيين الأكثر صرامة. وقد تعجب الرهبان من نكرانه النسكي لذاته، واذلاله العنيف لجسده. ولما نصبوه رئيسا عاما عليهم أحسوا انهم اختاروا قديسا. وترددت مواعظه في أرجاء ايطاليا: في سيينا، وفلورنسا، والبندقية، ونابولي وروما، اذ لم تسمع البلاد نظيرها حرارة وبلاغة منذ عهد سفونرولا قبل ذلك بقرن. وذهب الامبراطور شارل الخامس ليسمعه، وتأثرت فكتوريا كولونا به اعمق التأثير.

التقى اوكينو بفالدز في نابولي، وبفضله اُمّ بؤلفات لوثر وكالفن. ووافقت عقيدة التبشير بالايمان روحه. فبدأ يلمح لها في عظاته. وفي عام 1542 دُعي للمثول اما السفير البابوي في البندقية ومُنع من الوعظ. وما لبث البابا بولس الثالث ان دعاه الى روما ليناقش معه الآراء الدينية لبعض الرهبان الكبوشيين. ولكنه خاف ذراع محكمة التفتيش الطويلة، فقرر قدس ومعبود ايطاليا، بعد ان التقى بيترو فرميلي في فلورنسا، ان يخذو حذوه ويعبر جبال الالب الى بلد بروتستنتي، فمضى اولا الى زوريخ ومنها الى جنيف. وقد ابدى استحسانه للنظام الذي كان كالفن يرسي اسسه هناك، ولما كانت لغته الالمانية اقوى من لغته الفرنسية، انتقل الى بازل ثم الى ستراسبورغ، محاولا كسب قوته بلسانه وقلمه. وفي عام 1547 دخل شارل الخامس اوسبورغ بعد ان سحق البروتستانت في مولبرج. ونمى اليه ان الراهب الكبوشي الذي سمعه في نابولي يعيش هناك متزوجا، فامر القضاة بالقبض عليه، ولكن اصدقاءه تستروا عليه وهرب الى زوريخ وبازل. ولما اوشك زاده على النفاد، تلقى دعوة من رئيس الاساقفة كرامر للذهاب الى انجلترا. وهناك عكف مدة ست سنوات على العمل بوصفه قسيسا فخريا يتقاضى راتبا تقاعديا في كنتبري، ولكنه عجل بالعودة الى سويسرا حين اعتلت ماري تيودور العرش. وحصل في زوريخ على وظيفة راع للكنيسة، ولكن الشعب استاء من آرائه التوحيدية، وطرد حين نشر حوارا بدا فيه المدافع عن تعدد الزوجات. ورفضت بازل الإذن له بالاقامة فيها. وسمح له بالمكوث فترة وجيزة في نورمبرج، وما لبث ان غادرها مع اسرته قاصدا بولندا. كانت بولندا يومها بالقياس الى غيرها ملاذا للهرطقة. واشتغل بالوعظ في كركوا زمنا ولكنه طُرد حين نفى الملك جميع الاجانب غير الكاثوليك (1564). وفي الطريق من بولندا الى مورافيا قضى الطاعون على ثلاثة من ابنائها الاربعة. ولم يعيش بعدهم سوى شهرين، ومات في شاكوا في كانون اول 1564. وكانت اخر كلماته تقريبا: لا اريد ان اكون بولنجريا ولا كالفينيا ولا بابويا، بل مسيحيا فقط".

اما ان تتحول ايطاليا الى البروتستانتية فكان بالطبع ضربا من المحال. فقد كان عامة الشعب هناك رغم عدائهم للاكليروس، متعلقين بالدين وان لم يؤموا الكنائس. كانوا يحبون الاحتفالات والمراسيم التي قدسها مرور الزمن، ويحبون القديسين، ويحبون العقيدة التي ندر تشككهم فيها. واعان خضوع ايطاليا السياسي لاسبانيا المتمسكة بالدين على ابقاء

شبهي الجزيرة كاثوليكيين. وكانت ثروة البابوية ميراثا ايطاليا ومصلحة ايطالية راسخة، واي ايطالي يرى القضاء على هذه المنظمة الجابية للاموال كان يبدو في نظر معظم الايطاليين مجنونا. وقد اختلفت الطبقات العليا مع البابوية باعتبارها قوة سياسية تتسلط على وسط ايطاليا، ولكنها اعترت بالكاثوليكية عونا لا غنى عنه للنظام الاجتماعي والحكومة الحافظة للسلام، وادركت ان عظمة الفن الايطالي مرتبطة بالكنيسة بفضل الهام عقائدها وقصصها ورواياتها ومعونة ذهبها.

## (2) اسبانيا

اتاح تولي الامبراطور شارل الخامس الحكم على كل من اسبانيا والمانيا، خلق اواصر الاتصال بين هذين البلدين، وبالتالي الاطلاع على تعاليم الاصلاح. لذلك وُجد بعض المؤيدين للاصلاح في اسبانيا.

ثلاث اسباب عملت على فشل الاصلاح في اسبانيا. الاول، هو ان الكنيسة الاسبانية، كانت ومنذ اواخر القرن الخامس، قد بدأت عملية اصلاح في داخل الكنيسة، بفضل الكردينال المشهور كزيمنز Ximenes (+1517)، الذي وقبل ان يصبح رئيس اساقفة طوليدو، عمل كرئيس اقليمي لجمعية الفرنسييسكان، على اصلاح الاديرة التابعة له، مما دفع الكثير من الجمعيات الاخرى على الاحتذاء به. عمل اللاهوتيون، وكانوا كُثر، بجد وحزم على محاربة كل انواع التجديدات. السبب الثاني، هو موقف السلطات المدنية الحازم امام كل المبتدعين. والسبب الثالث، السهر واليقظة والشدة التي اظهرتها محكمة التفتيش، حيث لاحقت بلا رحمة ولا هوادة كل من اثار شبهات بانتماؤه الى الهرطقات مهما كان مركزه الاجتماعي.

## الاصلاح الكاثوليكي

### أ- الاصلاح قبل مجمع ترانت

يُعتَقَدُ عادة ان الاصلاح بدأ مع مجمع ترانت وأن الكنيسة قررت ان تعالج المساوىء التي كانت تعاني منها تحت ضغط انتشار البروتستنتية السريع، والذي كان يهدد ان يكتسح جميع انحاء اوروبا. ان هذا الاعتقاد خاطيء وناقص. فالحقيقة ان ناقوس الاصلاح دق ثلاثين عاما قبل مجمع ترانت وقبل وقت طويل من تعليق لوثر قضاياها على باب كاتدرائية وتنبرج.

وإن يكن مجمع ترانت يُعتبر نقطة الانطلاق الرسمية للاصلاح، الا انه قد سبقته حركة اصلاح عفوية، يعود الفضل فيها الى مبادرات فردية خاصة، كانت ايطاليا واسبانيا مركزها. ويمكن الاعتقاد ايضا ان المجمع لم يكن له ان يتحقق ولا ان يصل الى اهدافه لولا جحافل المصلحين من اساقفة امثال جيرتي Giberti، ومجدي الرهبانيات القديمة امثال بول جوستينياني Paul Guistiniani، ومؤسسي الرهبانيات الجديدة امثال القديس جيتاني Gaetani والقديس انطون ماريا زكريا Antoine-Maria Zaccaria، والقديس جيروم اميليا Jerome Emilia، واشهرهم القديس اغناطيوس دي لويولا Ignace de Loyola الذين مهدوا للمجمع طرق الاصلاح وساعدوه على اتمام مهمته بنجاح.

ان تكون الكنيسة في اصولها الهية لا يمنع كونها ايضا مؤسسة مؤلفة من عناصر بشرية، وبالتالي معرضة للسقوط والضعف، وهذه حقيقة واضحة اختبرتها وتحققنا منها من خلال دراستنا لتاريخ الكنيسة. ويبدو ان هذا ينبع من القانون التاريخي La Loi historique، الذي يقضي على ان الحقبات المجيدة تتبعها عادة حقبات من الانحطاط، حيث تظهر الكنيسة غير امينة لرسالتها وتشعر بالحاجة لان تصحح مسارها وان تقترب اكثر من مُثُلها.

كانت حوادث الحقبة الاخيرة التي درسناها: الاسر البابلي (البابوات في افنيون) والانشقاق البابوي، وبابوات عصر النهضة، حقبة مؤلمة للكنيسة. كان اصحاب الضمائر الحية يرغبون برؤيتها تنتهي، مما ادى الى ان يكون الاصلاح دائما من اولوية المتطلبات. وقد رأينا ان الاصلاح كان واحدا من الاهداف الثلاث للمجمع اللتران الخامس (1513-1517). وقد حُصِصت الجلسة التاسعة، وهي احدى اهم جلسات هذا المجمع، بكاملها، لدراسة قضية الاصلاح. واصدر المجمع قرارات اصلاحية هامة تخص البابا والكرادلة والمجلس البابوي، وتدعو الى رفع مستوى الكهنوت وتثقيف المؤمنين الديني. الا انه للأسف بقي الكثير منها حبرا على ورق بسبب اهمال تطبيقها من قبل الكثير من المسؤولين المستفيدين من الوضع القائم.

الا ان هذا لم يمنع ظهور نخبة من الانفس المخلصة التي استجابت بسخاء لنداء المجمع، ومن مثلهم السامية التي اعطوها للكنيسة، ستخرج الى حيز الوجود الحركة الاصلاحية الكاثوليكية.

تسمى هذه الحركة داخل الكنيسة والتي كانت تجري بمؤازة الاصلاح البروتستنتي نفسه عادة "الاصلاح المضاد Confre Réforme". لكن هناك من يجادلون ان هناك كلمات اكثر دقة لوصف هذه الحركة وهي "الانتعاش الكاثوليكي: او "التجديد الكاثوليكي"، لان رؤية هذه الحركة فقط مجرد رد فعل للبروتستنتية هو تقديمها بصورة ناقصة، كما يوضحها احد المؤرخين: "الاصلاح في جانبه الديني، والاصلاح المضاد له في نفس المجال، يمكن اعتبارهما بانصاف حصيلتين مختلفتين لنفس التلهف العام الى التجديد الديني الذي شمل اوروبا في اواخر القرن الخامس عشر واول القرن السادس عشر... بينما يمكن القول عن الاصلاح البروتستنتي انه كان يحتوي على عامل مساعد على سرعة ونوع الاصلاح الكاثوليكي وجدديته، الامر الذي لم يكن ليتحقق لو حدث العكس. فقد كان الاصلاح المضاد اكثر تعقيدا من مجرد رد فعل للتحددي البروتستنتي"<sup>1</sup>.

وعلى العكس مما جرى مع الاصلاح اللوثيري والكلفيني الذي ادى الى ثورة وانقسام، وتدمير وزعزعة الكنيسة، ليس فقط في قوانينها ونظمها، بل ايضا في عقائدها وداستها، سيعمل رواد الاصلاح الكاثوليكي من داخل

<sup>1</sup> H.O.Evebber: *The Spirit of the Counter Reformation*, the Birkbeck Lectures in Ecclesiastical History, University of Cambridge, May 1951, p. 9.

الكنيسة ومع الكنيسة وبدعم من رؤساء الكنيسة، وبدلا من الاكتفاء بالتشهير بالمساوىء والمفاسد، سيقومون من خلال حياتهم المستقيمة الصالحة، ومن خلال اعمالهم الجليلة، باظهار الوجه الحقيقي للاصلاح، وسيسعون الى جرّ الاكليروس والشعب وراءهم.

## الاصلاح من خلال تأسيس الرهبانيات

### أ) الرهبانيات الجديدة

**(1) مُصَلِّي الحب الالهي L'Oratoire de l'Amour Divin (1517):** بينما كان اعضاء البلاط البابوي مستمرين في عيش الحياة الدنيوية، مهتمين بمصالحهم المادية أكثر منها بالروحية. وبينما كان البابا ليون العاشر يعطي اهتمامه الأكبر للسياسة والفن والادب، تكونت جماعة من البلاط البابوي، عرفت باسم "جمعية المحبة الالهية" "Compagnie "del Divin Amore" او "مصلّي الحب الالهي L'Oratoire "del Divin Amore". كانت هذه الحركة عبارة عن رابطة غير رسمية جمعت ستين من ابرز رجال الكنيسة والعلمانيين الذين اهتموا بتعميق الحياة الروحية بالممارسات والتقوية. وكان من مجهوداتها ايضا دعم اعمال الخير وجهود الاصلاح. وكان من اهم اعضاء هذه الجمعية: جيوفاني بيترو كارافا Giovanni Pietro Caraffa (1476-1559) والذي سيصبح البابا بولس الرابع، وجيتانو دا تيان Gaetano di Tiene (1480-1547) وبيترو كونتاريني Pietro Contarini والذي سيصبح كاردينالا، وغيرهم. وكانت هذه المجموعة من رجال الكنيسة الذين كانوا على استعداد حقيقي لدعم أي حركة ستساهم في اصلاح حقيقي داخل ومع الكنيسة.

**(2) التياتين Les Théatins:** كانت رابطة "المحبة الالهية" وخصوصا اثنان منهما: جيتانو دا تيان وجيوفاني بيترو كارافا، وراء تأسيس انظمة هذه الرهبانية الجديدة. وقد لزم هذا النظام الكهنة الذين لا يخدمون كنائس معينة ان يعيشوا معا في حياة جماعية محافظين على النذور الثلاث: الفقر والعفة والطاعة. ولكن هذا النظام ترك لهم الحرية لكي يخدموا الشعب على غرار كهنة الكنائس او الرعايا. وقد ادى الوعظ والتعليم والخدمة الاجتماعية التي قام بها هؤلاء الكهنة الى اعادة نوع من الاحترام والتقدير للكنيسة في ايطاليا. وانتشرت هذه الحركة سريعا في كل انحاء البلاد.

**(3) البرنايبيت Les Barnabites:** على مثال التياتين، اسس انطون-ماري زكريا في عام 1528، جمعية من الكهنة الرهبان "Clers réguliers". بدأ حياته طبيبا ثم كاهنا، وكرس حياته اولا لخدمة النفوس في كرمونا بلده، ثم انتقل الى ميلانو وبالتعاون مع برتولوميو فراري Bartolomeo Ferrari، ويعقوب موريجيا Giacomo Morigia، اسسوا جمعية وافق عليها البابا كليمنطوس الثامن عشر من شباط عام 1533.

اراد المؤسس ان تكون جمعيته مؤلفة من كهنة رهبان Clers réguliers، مهمتهم محاربة الهرطقة البروتستنتية ولكن ليس بالجدال والمناقشات، وانما بالعمل على اصلاح مساوىء الاكليروس، التي يتذرع بها البروتستنت، بالمثل الصالح والوعظ، على مثال القديس بولس، ومنه اتخذوا اولا اسمهم "كهنة القديس بولس"، ثم اطلق عليهم الشعب لقب برنايبيت نسبة الى الكنيسة التي اتخذوها في روما مركزا لهم وهي مكرسة على اسم القديس برنابا مساعد بولس الرسول.

عملت هذه الجمعية بكل غير في عملية اصلاح الاكليروس والشعب المسيحي. ومن اجل جذب المستمعين للوعظ، فقد عملوا على تزيين الكنائس باهتمام خاص، ومارسوا الاحتفالات الدينية بكل ابهة ولكن بكل تقوى وخشوع، وادخلوا المحاضرات الدينية شبه اليومية للاكليروس. ولم يكتفوا بالوعظ بل قاموا بالمساعدة في المستشفيات لمعالجة المرضى وتضميد الجراح ومساعدة المنازعين. ويعرف عن البرنايبيت انهم ادخلوا ايضا السجود الدائم، وقرع الجرس ظهر ايام الجمعة ذكرا لموت المخلص.

مات انطون-ماريا زكريا، الرأس المحرك لهذه الجمعية، رافضا دائما ان يكون رئيسا لهذه الجمعية، مُجهدا في الخامس من تموز 1539 على عمر يناهز السابعة والثلاثين. وقد قام البابا ليون الثالث عشر بتطويبه في 3 كانون اول 1890، واعلن قداسته في 27 ايار 1897. وبعد مماته استمرت الجمعية بالازدهار، وازافت الى مهامها رسالة التعليم وخصوصا تعليم الشباب، ففتحت المدارس والكليات في كل انحاء بلاد اوروبا، وكانت سدا منيعا امام تقدم البروتستنتية.

**4) السوماسك Les Somasques:** في نفس الوقت تأسست جمعية السوماسك Les Somasques، ويعود تأسيسها الى القديس جيروم اميليان 1486-1537. ولد في البندقية وكان والده ممثلا في البرلمان، انضم في شبابه الى الجندية وعاش حياة خفيفة متحررة، وأسر في احدى المعارك، فاتيح له الوقت للتفكير في حالته، وعند عودته من الاسر، انضم الى جماعة "مصلى الحب الالهي" واتخذ من كارافا مرشدا له.

تعرف على التياتين ونظر باعجاب الى عملهم وغيرتهم وتواضعهم في خدمة المرضى. واثناء انتشار الطاعون في عام 1528، عمل بغيرة على معالجة المصابين، ودفن الموتى، حتى اصابته عدوى التيفوس. وبعد ان شفي، جمع الاولاد اليتامى الذين فتك الطاعون بوالديهم، وفتح لهم اول الميتمات في البندقية ثم في بريشيا. وافتتح في وبرجامو وبدعم من اسقفها Lippomeno، بيتين احدهما للايتام والاخر للفتيات التائبات.

وعندما اجتمع حوله بعض التلاميذ، استقر معهم جيروم اميليان في بلدة سوماسك Somasque بين ميلانو وبرغامو، وهناك اسس جمعياته الكهنوتية Les Somasques التي استمدت اسمها من اسم البلد.

مارس اعضاء هذه الجمعية الاهتمام بالايتام ومعالجة المرضى والفقراء، واضافوا مهمة اخرى سيعمل القديس جان باتيست ده لا سال على تطويرها بعد قرن من الزمن، وهي مهمة تعليم اطفال الشعب.

**5) اليسوعيون Les Jésuites:** شكلت جمعية اليسوعيين والى حد بعيد، اشهر هيئة للاصلاح الكاثوليكي. ومع ان مؤسسها لم يقصد بتأسيسها اصلا ان تكون اداة لمحاربة البروتستنتية، الا انها اصبحت وبسرعة قوة كبرى، بل في الحقيقة كانوا في بعض الاوقات اقوى سلاح في حركة الاصلاح الكاثوليكية كلها.

ادرك لويولا ان جمعياته يجب ان تكون نوعا من فرقة عسكرية لتحارب معركة الكنيسة ضد الشكوك والمهرطقات، ففضلا عن النذور الرهبانية الثلاثة - الفقر والعفة والطاعة، وضعوا لذاتهم ندرا رابعا هو الطاعة المطلقة للبابا، وواجبوا على نفوسهم اتمام كل ما يأمرهم به والذهاب سريعا حسب توجيهه الى كل مكان يرسلهم اليه بدون تردد. كانت غاية الجمعية كما حددها القانون، نشر وتثبيت الايمان والكنيسة، والوسائل لهذا يجب ان تكون: الارساليات الى الوثنيين والمسلمين والمهرطقة، واقامة مؤسسات ومعاهد علمية تهذيبية، والوعظ والاعتراف. وبما اتهم كرسوا ذواتهم للنضال ضد مملكة الشيطان فهم بهذه الصفة جنود المسيح، فاعطوا لذاتهم اسم "جمعية يسوع". وثبت البابا بولس الثالث، الذي رأى في هذه الجمعية سلاحا ممتازا ضد البروتستنت وللاصلاح الكنيسة، قوانين الجمعية في عام 1540. وكما البابا بولس الثالث هكذا خلفاؤه، وخصوصا يوليوس الثالث الذين حافظوا على هذه الجمعية واعطوها حقوقا وامتيازات لم تنلها جمعية من قبل.

نظمت الجمعية نفسها على شكل فرقة عسكرية منظمة بقائد اعلى وضباط مرؤوسين على نمط الخطوط العسكرية. لم يلتزم اليسوعيون بساعات صلاة محددة اوارتداء ثياب بشكل معين مثل الانظمة الرهبانية الاخرى. كل عضو مدرب على استخدام محكم "الرياضات لويولا الروحية". فالطاعة المطلقة هي موضوع نظام اليسوعيين. ويشمل عهدهم الاتي: "في كل ما ليس خاطئا يجب ان اتبع ارادة الرئيس الاعلى وليس ارادتي، لان الله يتكلم على لسان كل رئيس". يجب ان اعتبر نفسي جثة لا ارادة لها ولا شعور.

### انجازات اليسوعيين

مارس اليسوعيون نشاطهم على صعيدين: في الخارج بواسطة الارساليات والمرسلين (وسندرس ذلك في فصل اخر)، وفي اوروبا، بالعمل بهمة ونشاط كبيرين في سبيل الاصلاح الكاثوليكي بالرياضات الروحية، والتعليم المسيحي، ولكن خصوصا بتربية الشبيبة في الكليات والجامعات، وبهذا وجهت ضربات شديدة الى هرطقات العصر الحديث: البروتستنتية Le Protestantisme، والجنسية Le Janénisme، والغليكانية Le gallicanisme، والمودرنيزم Le modernisme. وكان اليسوعيون دائما متواجدين حيث ارادهم البابا واحتاجهم للدفاع عن العقيدة الكاثوليكية وحقوق الكرسي الرسولي.

وان لم يكن الهدف الاساسي لتأسيس اليسوعيين محاربة البروتستنتية التي اجتاحت جزءا كبيرا من اوروبا، الا انهم سخرروا لاحقا كل امكانياتهم لمحاربتها بلا هوادة.

فتح البروتستنت المدارس والجامعات والاكاديميات لنشر تعاليمهم الجديدة. فرد عليهم اليسوعيون بان منحوا التعليم المجاني في الكليات الكبرى التي أسسوها، والتي انتسب اليها مئات الطلاب. وكثف اليسوعيون نشاطهم في الاماكن التي استفحلت فيها هذه البدعة، المانيا، والتي ارسل اليها اغناطيوس منذ عام 1540، بيير ليفير Pierre Le



Fèvre، وكلود لي جي Claude Le Jay، ونقولا بوباديللا Nicolas Bobadilla، ثم انضم اليهم بعد ان غادر بيير ليفير، بيير كانيزيوس، وفيها عملوا لسنوات عديدة. واخذ كل واحد منهم يتنقل من مكان الى اخر، يعلم، ويكتب، ويناقش، ويحاضر، ويصلح الاكليروس. ومنهم من ارسلوا ممثلين عن الاساقفة لحضور مجمع ترانت. فاعادوا بغيرتهم ونشاطهم وكفائتهم الكثير من البروتستنت الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية.

وعمل ايضا اليسوعيون بنفس الحماس والغيرة والنشاط في هولندا Les Pays-Bas، حيث حاربوا البروتستنتية والجنسية بعزم، ويعود اليهم والى جامعة اللوفان Louvain في بقاء القسم الجنوبي من هذه البلاد، المعروف اليوم ببلجيكا، كاثوليكية.

وفي انكلترا واسكتلندا، نشطوا في العمل على اعادة الكاثوليكية بواسطة مرسلين شجعان، تخرجوا من كلياتهم، ودخلوا انكلترا وسكتلندا متكرين.

حظى اليسوعيون في باقي انحاء اوربا التي بقيت كاثوليكية، بتأثير كبير على التعليم العالي، حتى يمكن ان يقال ان التعليم كان حكرا عليهم. ففي روما، حيث اقام اغناطيوس، تم تأسيس الكلية الرومانية Collège Romain، والكلية الالمانية Collège germanique 1552، ومنهما خرج افواج من الرسل والمرسلين الى المانيا وسائر اوربا. وفتح اغناطيوس ايضا في روما بيتا لهيئة المبشرين المخصصين لتعليم التائبين ولهداية اليهود. وفتح دير مريم المجدلية لاستقبال النساء التائبات واللواتي اردن اعتناق الحياة الرهبانية، ودير القديسة مرتا من اجل من لم يرغب بالحياة الرهبانية، ودير القديسة كاترينا ملجأ لحماية الفتيات، وميتمين احدهما للاولاد والاخر للبنات.

اما في فرنسا فقد واجه اليسوعيون اولا المعارضة. فقد عاداهم البرلمان واصدر بحقهم اوامر اعتقال. ولما اعتلى هنري الرابع عرش فرنسا تحقق له انه من الافضل الاستفادة هو من خداماتهم، بدل ان يرى اسبانيا تستغلهم ضده، واختار معرّفا له من بينهم. فحازوا في جميع البلاد الشهرة والسمعة الجيدة، وامتألت كلياتهم بالاف الطلاب وخصوصا من بين طبقة الاشراف والبرجوازية.

ضمت جمعية اليسوعيين بين اعضائها واعطت للكنيسة نخبة من اعظم واشهر رجال وقديسي الكنيسة، لمعوا في كل المجالات الدينية وغير الدينية، يضيق بنا المجال لذكرهم، ولكن نكتفي هنا بذكر بعض اهم القديسين الذين انجبتهم هذه الجمعية التي لا تزال حتى اليوم من اكبر واقوى الجمعيات الرهبانية: - القديس اغناطيوس دي لويولا - القديس فرنسوا بورجيا - القديس فرانسيس كسفاريوس - القديس بيير كلافر - القديس رودريغز - القديس جان-فرانسوا ريجيس. وهناك ثلاثة قديسين مات في عمر الشباب وهم القديس ستينسلاس كوستكا المتوفى عام 1568 عن عمر 18 عاما - والقديس لويس غونزاغا المتوفى عام 1591، عن عمر 23 عاما - والقديس جان برغمانس المتوفى عام 1621 عن عمر 22 عاما.

## ب) اصلاح الرهبانيات القديمة

مما لا شك فيه ان اكثرية الرهبانيات القديمة فقدت من حماسها وحرارتها الاولى. ولكنه ايضا من غير العدل ومبالغ فيه القول ان هذه الرهبانيات خلت من الرهبان الصالحين. الواقع هو ان هذه الرهبانيات خفتت من شروط قبول الاعضاء الجدد والمبتدئين كما ضعفت المحافظة على النظم والقوانين الرهبانية، مما ادى الى نوع من التراخي والتراجع والى بعض الانحطاط الذي كان كثير من الرهبان الحقيقيين يتذمرون منه.

ادى هذا الخليط من الرهبان الاتقياء المحافظين والرهبان الفاسدين الى الانقسامات والصراعات داخل هذه الجمعيات مما سبب نتائج سيئة على الحياة الرهبانية. كيف يمكن تصليح هذا الوضع؟ هل، كما فكر البعض، بالاطاحة والغاء الجمعيات القديمة وتأسيس غيرها جديدة؟ ام، كما اعتقد البعض الاخر، وهم على حق، ان الامور لا تستدعي اللجوء الى مثل هذه الاجراءات المتطرفة، وان الداء غير مستعصي الشفاء، ويكمن في اعادة تأهيل واصلاح جماعات رهبانية، بالعودة الى اتباع القانون الاساسي الاول للجمعية بكل امانة وبكل ما فيه من صرامة، تكون مثلا يحتذى للبيوت الاخرى من نفس الرهبانية. هكذا فعلت الرهبانيات المتسولة من الفرنسيين والدومنيكان... وهكذا فعلت ايضا رهبانية الاوغسطينيين الذي خرج منها لوثر، والرهبانيات البندكتية... كلها عملت على اصلاح نفسها بالعودة الى قوانين مؤسسها الاولى.

من هذه الاصلاحات الرهبانية يجدر بنا ان نذكر بنوع خاص:

**(1) الكمالدييل Les Camalduls:** فكر القديس بول جيوستينياني Paul Giustiniani، باصلاح جمعية الكمالدييل التي كان ينتمي اليها، بالعودة الى اتباع القوانين الاساسية. فترك عام 1520 دير كمالدولي Camaldoli، الدير الرئيسي للجمعية، وأسس مع بعض رفقائه من نفس الجمعية دييرا جديدا على جبل كورونه Monte-corone، حيث فرض اتباع نظام القانون الاساسي، وما عتمت ان تبعته، جماعات اخرى، وتوحدت الجمعية من جديد واتخذت دير Camaldoli من جديد دييرا رئيسيا في عام 1540.

**(2) الكبوشيون Les Capucins:** وهي حركة ولدت داخل الرهبانية الفرنسيسكانية، وادت الى ولادة فرع ثالث لها عرف بالكبوشيين. اسسها ماتيو دي باسيو Matteo da Bascio عام 1525، واراد بها العودة الى قانون القديس فرنسيس الاساسي بكل صرامته، بعيش الفقر التام، والعودة الى الممارسات التقوية الصعبة، والاماتات القاسية، وحتى العودة الى ارتداء الثوب الذي لبسه فرنسيس، ذات اللون البني، وذات القلنسوة<sup>2</sup> Capuchon، ومن هنا تسميتهم بالكبوشيين. لم يهتم الكبوشيون كثيرا بالتعليم، لذلك كانوا اكثر جاذبية للفلاحين بما امتازت به من روح تضحية وانكار الذات، الى جانب الطابع الشعبي في الوعظ. وقد صادفت هذه الجمعية الكثير من الصعوبات في اوائلها وخصوصا من الفروع الفرنسيسكانية الاخرى، وكانت تحت خطر الغائها بعد ان هرب رئيسها العام Bernardino Ochino وانضم الى اللوثريين. الا انهم ثبتوا بالرغم من كل المحن واعطوا الكنيسة مجموعة من القديسين الكبار امثال: القديس لوران دي برندزي Laurent de Brindes (1559-1619)، الذي اصبح احدى معلمي الكنيسة، والقديس فيلكس دي كانتليس Felix de Cantalice (1513-1587)، وهو اخ علماني، والقديس فيديل ده سجمارينجين Fidèle de Sigmaringen (1577-1622)، استشهد على يد الكلفينيين، ويوسف ده ليونسا Joseph de Séraphin de Montegrano (+ 1612) وكان يعد من اكبر الوعاظ في عصره، وسرافين ده مونتغراناو Séraphin de Montegrano (1540-1604) المشهور بعطفه ومحبه للفقراء، وانحطافته المتكررة امام القربان الاقدس، واخيرا واثناء تحضير هذه الصفحات الطوباي الاب بيو Padre Pio.

<sup>2</sup> يقال ان القديس فرنسيس ظهر له عدة مرات قائلا: "اريد ان يحافظ على قانوني حرفيا حرفيا". وما انه في كل ظهوراته كان يلبس القلنسوة (capuce) الربعة، فقد تبناها ماتيو لرهبانه.

## الفصل الحادي الخمسون

### مجمع ترانت او التردانتيني

### Le Concile de Trente

اوضحنا في الفقرات السابقة ان الكنيسة لم تنتظر تمرد لوثر واتباعه حتى تبدأ الاصلاح الضروري. واوضحنا ان ظهور الجمعيات الرهبانية الجديدة والقديمة المتجددة، لا يعود الفضل فيها الى ظهور البروتستنتية وكرد فعل لها، بل انها تتجذر في قلب تقوى وروحانية العصور الوسطى.

الا اننا نستطيع ان نقول، وبدون حرج، ان مجمع ترانت هو نتاج مباشر للتمرد البروتستنتي، مع أن بعض المؤرخين يرفضون اعتبار مجمع ترانت "اصلاحا مضادا" لان ذلك يقود الى اعتبار تمرد لوثر اصلاحا. وسيظهر مجمع ترانت ان ما يدعى بالاصلاح البروتستنتي ما هو الا تشويه للعقائد المسيحية وانحراف هرطوقي، وسيعمل المجمع على اصلاح المساويء التي ادت الى ولادة هذا التمرد دون ان يبرر الانحرافات.

كما وان الاصلاح العفوي الذي قامت به الرهبانيات والقديسون خلق جوا ملائما ومساعدوا للاصلاح، الا ان اصلاحا نهائيا شاملا لا يمكن ان يتم دون عقد مجمع. فالجمع كان بالنسبة الى الكثيرين هو الوسيلة الربانية الكفيلة بالقيام باصلاح الكنيسة. ولكن لماذا تطلب الامر ثمان وعشرين سنة بعد تمرد لوثر في عام 1517 ليتحقق عقد مثل هذا المجمع. لماذا كل هذا التأخير؟

### 1- موقف البابوات من عقد المجمع: من ليون العاشر وحتى بولس الثالث

#### البابا ليون العاشر (1513-1521):

لم يأخذ ليون العاشر فكرة عقد مجمع على محمل الجد، اولا لان البابا بيوس الثاني كان قد منع الدعوة الى مجمع، مما جعل دعوة لوثر غير قانونية. كما ان مقررات مجمع اللتران الخامس التي بقيت حبرا على ورق احبطت همة البابا لدعوة مجمع اخر، كما انه لم يأخذ في اول الامر تمرد لوثر بعين الاعتبار، معتبرا اياه "معارك رهبان سكارى"، وعندما اتضحت له خطورة الوضع اعتقد ان حرمان لوثر كاف ليضع حدا لهذا التمرد.

#### البابا ادريان السادس: 1522-1523

كان ادريان من مؤيدي الاصلاح. وما ان اعتلى الكرسي البابوي حتى بدأ يظهر ذلك بالقول والفعل. فوقف جميع اعمال الزخرفة في غرف الفاتيكان، وابعد جميع السائسين الاربعمائة الذين كان ليو يستخدمهم في اسطبلاته عدا اربعة منهم. ولم يبق من خدمه الخصوصيين الا اثنين لا اكثر - كلاهما من الهولنديين - وامرهما ان يخفضا نفقات بيته الى دوقية واحدة في اليوم.

وكان هم ادريان الاول اثناء ولايته ان يعود بالكنيسة من حالها الراهن الى ما كانت عليه في عهد المسيح. ولهذا اتخذ اقصر الطرق دون مجاملة لاصلاح ما استطاع ان يصل اليه من المفسد الكنسية. فالغى ما لا ضرورة له من المناصب، وقال البابا لاقاربه الذين جاءوه يطلبون ان يعينهم في مناصب دينية ذات مرتبات ان يعودوا ويكسبوا العيش بالعمل الشريف. وقطع دابر الرشاوي ومنح المناصب للاقارب، وتعقب ما في الحكومة البابوية من فساد، وفرض عقوبات صارمة على الرشوة واختلاس الاموال العامة. وعاقب الكرادلة المذنبين بنفس العقوبات التي كان يوقعها على اصغر رجال الدين. وامر الاساقفة والكردالة ان يعودوا الى مقر مناصبهم، والقى عليهم دروسا في الاخلاق التي يريد منهم ان يتصفوا بها، وكان مما قاله لهم ان سمعة روما السيئة اضحت تلوكها اللسنة في جميع انحاء اوروبا. ولم يشأ ان يتهم الكردالة انفسهم بالزديلة، ولكنه اتهمهم انهم يتركون الرذيلة تتفشى في قصورهم دون ان تلقى عقابا.

اصابه المرض ومات في الرابع عشر من ايلول عام 1523. واوصى بتوزيع املاكه على الفقراء، وكان آخر ما صدره من التعليمات ان تكون جنازته هادئة قليلة النفقة.

## كليمنضوس السابع 1523-1534

بدأ عهده احسن بداية، فوزع على الكرادلة جميع المناصب الدينية التي كانت له، والتي كانت تدر عليه دخلا سنويا مقداره 60000 دوقة. وجمع حوله قلوب العلماء والنساحين ونفحهم بالهبات، ووزع العدالة بين الناس، واستمع الى كل من له شكاية، ومنح الصدقات بسخاء، مما دفع سفير بولونيا Bologne لدى البلاط البابوي الى القول: "انه اعطى باول يوم من حبريته أكثر مما اعطى ادریان في كل حياته".

وبما انه لم يكن يبلغ الا الخامسة والاربعين من عمره، تأمل الايطاليون لحكمه ان يكون طويلا ومجيدا. الا انه اتضح سريعا ان البابا كليمنضوس السابع لم يكن على تلك الصورة الباهرة، فقد كان ضعيف الارادة، خائر العزيمة، غير قادر على اخذ القرارات، كثير التردد، لا يتخذ موقفا في الوقت المناسب ولا يملك روح المثابرة في تنفيذ ما تم الاتفاق عليه.

وكان العمل الاول الذي واجه كليمنضوس هو استتباب السلام بين الامراء المسيحيين ليتمكن من مواجهة الخطرين الذين كانا يتهددان الكنيسة في ذلك الوقت: التمرد اللوثري والخطر التركي. واتخذ له من المستشارين جيانماتيو جبرتي Gianmatteo Giberti الذي كان يميل الى فرنسا، ونيقولاولوس فن اسكونبرج Bikolaus von Segonberg الذي كان يميل الى الامبرطورية، وترك عقله مشتتا بين الرجلين.

وافق كليمنضوس بعد توقيع معاهدة بولونيا Bologne عام 1530 على دعوة المجمع تحت الحاح الامبراطور، ووافق مجمع الكرادلة ايضا بالاجماع. ولكن البابا وضع خمسة شروط لعقده: (1) ان يتم في هذا المجمع بحث الهرطقة وحرب صليبية ضد الانتراك وليس الاصلاح، (2) ان يحضر الامبراطور المجمع حتى نهايته، (3) ان يتم عقد المجمع في ايطاليا، (4) لا يصوت الا من لهم حق التصويت التقليدي: أي الكرادلة والاساقفة، والرؤساء العامون ورؤساء الاديرة، (5) ان يحضر اللوثريون المجمع. وافق الامبراطور على هذه الشروط ما عدا الاخير، ولكن المشروع لم يرى النور بسبب معارضة ملك فرنسا.

سيعود الفضل في تحقيق عقد المجمع الى خليفته السندرو فارنزي Alessandro Farnese، البابا بولس الثالث.

## بولس الثالث والتحصير للمجمع 1534-1549

بدا خليفة كليمنضوس لاول وهلة حائزا على جميع شروط الذكاء والخلق، وافر الجميع ان السندرو فارنزي Alessandro Farnese، الذي اتخذ اسم بولس الثالث، هو الرجل الاصلح لارفع منصب في العالم المسيحي.

ارتقى الى مقام رئيس مجمع الكرادلة، ثم انتخب لكرسي البابوية بالاجماع في عام 1534، وكان يبلغ السابعة والستين من عمره وله اربعة ابناء قبل ان يصبح كاهنا في 1519.

واصل بولس الثالث حبه لحياة الترف والصيد، والتسلية، واستشارة المنجمين. كما وواصل سياسة تفضيل الاقرباء Népotisme التي اشتهر بها بابوات عصر النهضة. فرفع الى منزلة الكرادلة اثنين من احفاده، والثالث اوكتاف فارنزي اعطاه ولايتين من الولايات البابوية كاميرينو Camerino و نبي Nepi في عام 1540. واصبح على ابنه بيير فارنزي المعروف بسمعته الاخلاقية السيئة، لقب دوق برما وبلازنس Duc de Parme et de Plaisance في عام 1545.

جلبت هذه السياسة العائلية لبولس الثالث سمعة سيئة والكثير من المشكلات. ومع ذلك فقد قام بواجب منصبه بطريقة اختلفت عن سابقه. فقد فهم اهمية الاصلاح في حياة الكنيسة، وفهم ان هذا الاصلاح لن يتم الا بعقد مجمع عام. ولكنه بذكائه فهم ايضا انه لكي ينجح المجمع يجب ان يبدأ الاصلاح من الرأس الى الاعضاء، وفهم ان عليه ان يتم ذلك على مراحل وبكل تروي.

كانت المرحلة الاولى البلاط البابوي، بدأ بالبابا نفسه ثم الكرادلة، معتبرا انه لا يمكن ان يكون هناك تأثير على الرعية دون ان يعطي الراعي المثل اولا. واذا اراد البابا ان يكون صوته مسموعا في المجمع عليه ان يبدأ اولا بمحاربة واجتثاث المساوىء المنتشرة في ادارته. وهكذا لا يكن للمجمع عذر لاتهامه ومن ثم اخذ المبادرة باصلاحه.

بدأ بولس الثالث بدون اضاءة الوقت باصلاح البلاط البابوي فاوصى كرادلته بشدة ان يعيشوا عيشة تليق بدعوتهم، وان يعطوا المثل لمن حولهم بعيشة صالحة وان يستبدلوا الملابس السيادية بالملابس الكنسية. واراد لهذه العلامات الخارجية ان تكون دليلا للشعب عن اصلاح داخلي. وكون لجننتين من الكرادلة، وضع على رأس الاولى مطران اوستي Ostie جيوفاني بكولوميني Giovanni Piccolomini، المعروف بصلاحه وكفائته، ووكل اليه واجب مراقبة

سلوك الاكليريوس في روما. وعلى الثانية وضع اسقف سابين Sabine لورنزو كامبجيو Lorenzo Campeggio ووكل اليه مراقبة ومتابعة الولايات البابوية.

عمل بولس الثالث، وهو الذي لم يكن مشهورا بتقواه، على تشجيع تأسيس وتطوير الجمعيات الرهبانية مثل الكيوشيين Capucins والتياتيين Théatins والبرناييت Barnabites والسوماسك Somasques والارسلين Ursulines. ولما وافق على نظام جمعية اليسوعيين اعطى الكنيسة واحدة من اكبر واقوى المؤسسات الكنسية التي ستساهم الكثير في عملية الاصلاح.

وامام خطر تسرب البدعة البروتستنتية في ايطاليا اعاد تنظيم "محاكم التفتيش" تحت الحاح الكردينال كارافا Carafa والقديس اغناطيوس دي لويولا Ignace de Loyola. وأنشأ مكتبا خاصا دعي فيما بعد "بالمكتب المقدس Saint-Office" للسهر على نقاوة الايمان في الكنيسة وملاحقة المرتدين والمشبهين، دون تفرقة بين الاشخاص والمناصب، اسلم ادارته الى الكاردينال كارافا Carafa.

واتضح لبولس الثالث ان الاصلاح لن يتم بهذه السرعة والسهولة، وانما يتطلب جهدا وصبرا ووقتا، وايقن ان الاصلاح في البلاد البابوي وبين الكرادلة لن يتم الا بجيل جديد من الكرادلة، لذلك قام بتجديد مجلس الكرادلة بتعيين اشخاص كفوئين لامعين بعلمهم واصحاب سيرة صالحة اخلاقيا ودينيا امثال سفير فنسيا جاسبار كونتاريني Gaspar Contarini، والاسقف كارافا Carafa احد مؤسسي جمعية التياتيين Théatins (الذي سيصبح البابا بولس الرابع)، وجاك سادوليه Jacques Sadolet اسقف كارينتراس وعضو قديم في "مصلى الحب الالهي"، وريجنالد بول Reginald Pole الانساني الانجليزي، ابن عم هنري الثامن، ومارسيل شرفيني Marcel Cervini (الذي سيصبح البابا مارسيل الثاني)، والاسقف موروني Jean Morone. وعهد اليهم مهمة اعداد مخططات للاصلاح العام.

## 2- مجمع ترانت

يتألف تاريخ مجمع ترانت من ثلاثة مراحل: مرحلة الاولى تحت حبرية بولس الثالث (1545-1548)، والثانية تحت حبرية يوليوس الثالث (1551-1552)، والمرحلة الثالثة تحت حبرية بيوس الرابع (1562-1563).

### (1) الدعوة الى المجمع

يعود الفضل في دعوة مجمع ترانت الى البابا بولس الثالث. ولتقدير ما قام به هذا البابا من جهود في سبيل انعقاده، علينا ان نعي عظم العوائق التي جابهها واستطاع التغلب عليها:

- فالامراء كانوا معارضين للمجمع واثاروا امامه الصعوبات الجمة.
- الملك هنري الثامن "المدافع عن الايمان" كان انذاك محروما.
- الملك فرانسوا الاول، بينما كان يعلن تأييده للمجمع، كان يحالف الامراء اللوثريين، ويخاف من المجمع على امتيازات الكنيسة الفرنسية.
- الملك شارل الخامس، كملك اسبانيا، كان يعتبر من اكبر طالبي الاصلاح، ولكنه كامبراطور كان يرغب في مصالحة جميع رعاياه، فلم يكن يرغب بمجمع يدين البروتستنتية.

فكان لا بد للبابا بولس الثالث من تسع سنين من الثبات والعزم حتى تمكن من التغلب على هذه العوائق واصبح بوسعه دعوة المجمع الى الانعقاد في مدينة مانتوا في الثامن من حزيران عام 1536. الا ان الامبراطور شارل الخامس الذي اغضبه اختيار هذه المدينة الايطالية، عمل على ارباب حاكمها فاعلن انه لا يمكنه ان يضمن الأمان للمجمع، وفي الوقت المحدد لم يحضر احد.

فحول البابا مكان انعقاد المجمع الى مدينة فيشنسا Vicence، وحدد تاريخ الاول من ايار 1538 موعدا لانعقاده. ولم يحضر سوى خمسة اساقفة.

وبعد عدة مداوات ومباحثات تم الاتفاق على مدينة ترانت، المدينة الايطالية اصلا ولغة، والواقعة تحت سلطة الامبراطور. فوافق شارل الخامس، ودعى البابا من جديد الى عقد المجمع، الا انه اضطر الى تأجيل انعقاده من جديد بسبب الحرب التي اندلعت بين فرانسوا الاول وشارل الخامس. ولم انتهت الحرب، تابع البابا امر دعوة المجمع، فاصدر

مرسومه Laetare Jerusalem، وفيه دعى الى انعقاد المجمع في مدينة ترانت في الخامس عشر من اذار 1545، وفي الموعد المحدد وامام العدد الضئيل من الحضور، طلب المبعوثون الباباويون من البابا تأجيله الى شهر كانون اول.

## (2) المرحلة الاولى 1545-1549

افتتحت الدورة الاولى من مجمع ترانت في 13 كانون اول 1545 متأخرة تسعة اشهر عن الموعد المحدد. كرست الجلسات الثلاثة الاولى للامور التنظيمية، ودارات المناقشات حول بعض الاجراءات العامة وتحديد جدول الاعمال.

كان حق التصويت في مجع كونيستانس وبازل متاحا للكهنه والامراء وبعض العلمانيين، كما كان متاحا للاساقفة، وكان التصويت يتم حسب المجموعات القومية. قرر مجمع ترانت ان يكون التصويت بالافراد، واعطاء حق التصويت فقط للكرادلة والاساقفة والرؤساء العاميين ورؤساء الاديان.

اما تحديد مواضيع المناقشة فكان من اصعب الامور التي تعرضت لها الجلسات الثلاث الاولى. ودارات المناقشات فيها حول المواضيع التي يجب بحثها. فالبابا ومؤيدوه ارادوا البدء بدراسة وتعريف وتحديد العقائد المسيحية Dogmes. واما الامبراطور ومؤيدوه فارادوا البدء باصلاح النظم الكنسية Réforme des abus، املا من الامبراطور شارل الخامس في تهدئة البروتستنت او اضعافهم او احداث مزيد من الانقسام في صفوفهم. واما من الاحبار الالمان والاسبان في ان تقلل الاصلاحات من سلطة البابا على الاساقفة والمجمع. وقد امكن الوصول الى حل وسط يتم فيه دراسات وتحضير المواضيع في لجان متزامنة حول العقيدة والاصلاح، وان تعرض هذه القرارات على المجمع بالتناوب. وان يتم اولا دراسة المواضيع التي يقررها مبعوثو البابا من قِبَل لجنة من اللاهوتيين والقانونيين في جلسات إما خاصة وإما علنية، ثم تعرض في "جلسة عامة" Assemblée générale على الاساقفة وممثلي الاساقفة وسفراء الملوك الكاثوليك، ومن ثم يقوم آباء المجمع بالتصويت في جلسة احتفالية Assemblée solennelle.

بدأ المجمع اعماله في الجلسة الرابعة في 8 نيسان 1546، بحضور 59 من آباء الكنيسة، بتحديد العقيدة الكاثوليكية حول مصدر الوحي والايمان: الكتاب المقدس. واصدر مرسوما اصلاحيا حول استعمال الكتاب المقدس وخصوصا في الوعظ.

وتم في الجلسة الخامسة 17 حزيران، وبحضور 64 ابا مجعيا، دراسة وتحديد قضية الخطيئة الاصلية، احدى القضايا التي اثارها لوثر. واصدر قرارا اصلاحيا يجبر الاساقفة والكهنه المسؤولين عن النفوس بالوعظ.

وانتقل المجمع في جلسته السادسة في 13 كانون ثاني 1547، وبحضور 69 ابا مجعيا، الى دراسة المشكلة الاساسية في تعليم لوثر وهي "التبرير". وبعد مداوات امتدت ستة اشهر تم تحديد الايمان "بالتبرير"، واصدر مرسوما اصلاحيا حول واجب الاساقفة والكهنه الاقامة في ابرشيتهم ورعاياهم<sup>3</sup>.

وتم في الجلسة السابعة في 3 اذار 1547، وبحضور 72 ابا مجعيا، دراسة موضوع الاسرار بنوع عام، وسري المعمودية والتثبيت بنوع خاص. واصدر المجمع مرسوما اصلاحيا حول واجبات الاسقف، ومنعه من جمع المناصب، وحدد واجب الزيارة السنوية لكل الكنائس التابعة له.

## نقل المجمع الى بولونيا Bologne 11 اذار 1547

تعرض المجمع اثناء ذلك الى عدة مشاكل منها، كثرة تدمير البلاط البابوي من القرارات الاصلاحية التنظيمية التي اصابته في مصالحه. ومن جهة اخرى اصرار الامبراطور على مزيد من السرعة في مناقشات الاصلاحات التنظيمية، وترك القرارات العقائدية التي من شأنها ان تثير البروتستنت.

امر البابا مندوبيه ان يقترحوا نقل المجمع الى بولونيا، التي تسمح لروما بان تشرف على اعمال المجمع اشرافا اسرع لانها واقعة في الولايات البابوية. وافق الاساقفة الايطاليون، اما الاساقفة الاسبان والامبراطوريون فاحتجوا. وظهر في ترانت طاعون في الوقت المناسب قضى على اثنين من الاساقفة، وانتقلت الاغلبية الى بولونيا. وبقي في ترانت خمسة عشر اسقف.

<sup>3</sup> ارتفعت في هذه الجلسة مناقشات عنيفة حول هذه النقطة، وامسك احد الاساقفة بلحية اخر وانتزع منها حفنة من الشعر الابيض. ولما سمع الامبراطور بما وقع، ارسل رسول الى المجمع يقول انه ان لم يهدأ مسيأمر بالقاء نفر من الاساقفة في النهر.

رفض شارل الاعتراف بدورات بولونيا، وهدد بعقد مجمع منفصل في المانيا. ولم يبحث ابا المجمع في بولونيا في الجلسة التاسعة والعاشره سوى في بعض الاجراءات البسيطة ولم يتخذ أي قرار في مدة السنتين والنصف التي قضاها في بولونيا، وفعل مثلهم الاساقفة الذين بقوا في ترانت. واستمر اللاهوتيون والقانونيون في متابعة اعمالهم لتحضير مواضيع المناقشات للجلسات القادمة.

### تعليق المجمع 17 ايلول 1549

بعد عامين ونصف من الجدل والمناورة، حاول خلالها البابا بولس الثالث الوصول الى اتفاق مع شارل لوضع حدّ لهذه الحالة دون جدوى، اعلن البابا في 17 ايلول 1549، تعليق عمل المجمع. ومات البابا بعد شهرين من هذا الموعد في 10 تشرين ثاني 1549، عن عمر الثانية والثمانين بعد حرية دامت خمسة عشرة سنة، وكانت واحدة من امجد الحريات واغناها، لانه بوضعه اسس الاصلاح وعقد مجمع ترانت، دشّن عملية الاصلاح الكاثوليكي.

### (3) المرحلة الثانية للمجمع تحت حرية يوليوس الثالث

#### 1 ايار 1551 وحتى 28 نيسان 1552

اخرت الصراعات السياسية والقومية، وخصوصا بين الامبراطورين والفرنسيين، والانقسامات في المجلس الكرادلة المنقسمين الى حزبين، حزب الاصلاحيين، والحزب المعارض للاصلاح، انتخاب بابا خلفا ليوليوس الثالث، وبعد فراغ طويل، تم انتخاب الكردينال دل مونتي Del Monte واتخذ اسم يوليوس الثاني.

لم يكن هذا البابا خاليا من الضعف والنقص، فقد كان من رجال النهضة، وانجرف هو ايضا مثل اكثرية بابوات النهضة الى الممذات الدنيوية، والى الترف وحب الجمال. كما لم يترفع عن محاباة الاقارب Népotisme. ولكنه كان اكثر من أي شخص اخر على دراية بافكار البابا بولس الثالث، إذ كان من اقرب المعاونين له قبل وبعد المرحلة الاولى من المجمع، حيث اظهر الكثير من المعرفة والمهارة وروح الحزم.

توصل يوليوس الثالث الى تفاهم مع الامبراطور، ودعا المجمع الى الانعقاد مرة اخرى في ترانت في ايار 1551، وعقد المجمع جلسته الحادية عشرة في الاول من ايار 1551، وكان عدد الحاضرين ضئيلا، فتأجل الى الاول من ايلول. وفي الاول من ايلول، عقد المجمع جلسته الثانية عشرة الا انه لم يتم اخذ أي قرارات في هذه الجلسة.

بحث المجمع في جلسته الثالثة عشر في 11 تشرين اول 1551، وبحضور 52 ابا مجمعيًا، عقيدة القربان الاقدس، وحدد التعليم الكاثوليكي بشأنه، وادان تعاليم البروتستنت. وبعد هذا لم يعد هناك جدوى من الاستماع الى البروتستنت. ولكن شارل اصر على هذا، واختار هؤلاء وفدا بروتستنتيا، ووضع ملانكتون بيانًا للعقيدة اللوثرية لرفعه الى المجمع. وضمن شارل للمندوبين سلامة المرور، ولكنهم اذ تذكروا مجمع كونستانس وهس، طلبوا ايضا ضمانا لسلامة المرور من المجمع ذاته. وبعد نقاش طويل منحهم المجمع الضمان.

افتتحت الجلسة الرابعة عشر في 25 تشرين ثاني 1551، بحضور 56 ابا مجمعيًا، واصدرت قرارات عقائدية حول سري التوبة ومسحة المرضى، وقرارا اصلاحيا تنظيميا حول حقوق الاساقفة في الرسامات الكهنوتية.

وصل في شهر كانون ثاني 1551 المندوبون البروتستنت. وفي الجلسة الخامسة عشر طلبوا تأجيل المداوات حتى وصول اللاهوتيين البروتستنت. وافق آباء المجمع الذين بلغ عددهم سبعين. واستلم المجمع اعترافي ايمان Confessions de foi واحد من ورتنبورج Wurtenbourg كتبه برامز Brenz، والآخر ساكسوني، كتبه ميلانكتون الذي منذ موت لوثر عام 1546، اصبح رئيسا للكنيسة اللوثرية في وتنبورج Wittenburg. واعلن البروتستنت ان على مجمع ترانت تأكيد المراسيم والقرارات التي اصدرها مجمع كونستانس وبازل بشأن تحويل المجمع سلطان اعلى من البابوات، وان يحل اعضاء المجمع الحاضر من عهود الولا للبابا، وان يعتبر جميع القرارات التي وصل اليها المجمع حتى ذلك التاريخ لاغية، وانه يجب ان يعيد عقد مجمع موسع يمثل فيه البروتستنت تمثيلا كافيا مناقشة الموضوعات من جديد. منع يوليوس الثالث بحث هذه المقترحات، وقرر المجمع تأجيل البت فيها الى 19 اذار، وهو التاريخ الذي يتوقع فيه وصول المزيد من المندوبين البروتستنت.

## التعليق الثاني لمجمع ترانت 28 نيسان 1552

طرأت في هذه الاثناء تطورات حربية على نحو غير متوقع. ففي كانون ثاني 1552، وقع ملك فرنسا حلفا مع البروتستنت الالمان، وفي اذار زحف موريس امير سكسونيا البروتستنتي، مخالفا المعاهدة مع شارل الخامس، على انزبروك Innsbruck. وهرب شارل، وما كان لاية قوة ان تمنع موريس ان شاء الاستيلاء على ترانت والاطاحة بالمجمع. واختفى الاساقفة واحدا بعد الاخر، وفي 28 نيسان 1552، اعلن البابا تعليق المجمع للمرة الثانية. واعطى فرديناند بمقتضى معاهدة باساو (2 اب) الحرية الدينية للبروتستنت المنتصرين حربيا، فلم يعد يهتمهم المجمع في شيء بعد ذلك.

حاول البابا يوليوس الثالث طيلة السنوات من 1552-1553 ان يجعل القرارات والمراسيم التنظيمية التي اتخذها المجمع نافذة المفعول، وخصوصا ان بعض الاساقفة البرتغاليين والاسبان اخذوا بتطبيقها في ابرشياتهم بمحض ارادتهم ومبادرتهم، قبل تصديقها من قبل الكرسي الرسولي. وبدأ بتحضر براءة لاعطاء الصفة القانونية لهذه المقررات، ولكن البابا يوليوس الثالث توفي في الخامس والعشرين من شهر اذار 1555، قبل ان يعلنها.

### مارسيل الثاني

خلف الكردينال شرفيني Cervini البابا يوليوس الثالث، واتخذ اسم مارسيل الثاني، وكان اقرب الى القديسين، وحياته بلا لوم، وتقواه عميقة، وكان خال القديس روبرت بلارمينو Robert Bellarmino احد معلمي الكنيسة. وكان اختياره للمناصب مثاليا، وجهد لاصلاح الكنيسة مخلصا، ولكنه مات في اليوم الثاني والعشرين من تقلده منصب البابوية في 5 ايار 1555.

### بولس الرابع 23 ايار 1555 - 18 اب 1559

خلف جان بيير كارافا Jean- Pierre Caraffa، البابا مارسيل الثاني، واتخذ لنفسه اسم بولس الرابع. وكان قد بلغ التاسعة والسبعين من عمره، محافظا على نشاطه العقلي والجسدي. عرف عنه بقداسة سيرته وصرامة اخلاقه، وثبات آرائه ورسوخ ارادته. كتب عنه السفير الفلورنسي يقول: "ان البابا رجل من حديد، بل ان الحجارة التي يمشي عليها تنفت الشرر". كان مولده في مقاطعة نابولي، لذلك حمل حرارة جنوبي ايطاليا في دمه.

عرف عنه قبل ارتقائه العرش البابوي انه كان روح حركة الاصلاح في الكنيسة وصوتها، وهو الذي اسس جمعية التياتين Théatins مع جيتانو دي تيان Gaetan de Thienne. وانما اراد اصلاحا على طريقته وعن طريقه فقط او بواسطة اشخاص يختارهم هو. لذلك وبعد انتخابه رفض ان يسمع عن متابعة المجمع. فقد كان يعتقد ان المجمع لا يسير بالسرعة اللازمة لكثرة التدخلات الامبراطورية ومعارضة الملوك والامراء (اسبانيا وفرنسا)، وان المجمع لا يأخذ القرارات الاصلاحية المطلوبة والضرورية. ولكنه في اول خطاب له للكرادلة اعلن انه سيعمل على اصلاح الاكليروس مبتدئا بروما.

حافظ البابا على وعده، وفي 17 تموز 1555، الف "لجنة الاصلاح العام" واليها وكل دراسة الطرق العملية، الاسهل والاسرع، لاصلاح الاكليروس. فاصدر قرارات صد السيمونية ومنع الكرادلة من جمع المناصب. ولم يكتف باخذ القرارات والمراسيم، بل تعداه الى النفي والسجن، كان من نتيجتها انه خلع روما من مئات الاساقفة والكهنة والرهبان الطوافين Vagabonds، واعادهم الى ابرشياتهم ورعاياهم واديرتهم.

وانطلقت محاكم التفتيش تعمل بكل طاقتها لوضع حد لنشر التعاليم الهرطوقية، ومراقبة اليهود والمسلمين، واللوثريين والكلفنيين الذين تحت ستار التجارة كانوا يروجون تعاليمهم الهرطوقية في كل انحاء ايطاليا. وفي عام 1559 نشر بولس الرابع اول فهرس بابوي بالكتب المحظورة Index، تم جمعه تحت رعاية الكردينال Ghislieri (القديس البابا بيوس الخامس)، وفيه ثمان واربعون طبعة للكتاب المقدس، ووقع الحرم على واحد وستين طابعا وناشرا. وفرض على كل كاثوليكي الامتناع عن قراءة أي كتاب نشر منذ سنة 1519 دون ان يحمل اسم المؤلف والطابع ومكان النشر وتاريخه. وحرمت قراءة أي كتاب بعد ذلك لم يحصل على اذن كنسي "Imprimatur" بطبعه.

ازداد التذمر ضد اعمال البابا وعندما مات البابا في 18 اب 1559 عن عمر ثلاثة وثمانين سنة وبعد اربع سنوات من الحبرية، كان التذمر قد وصل ذروته، واحتفلت روما بموته باربع ايام من الشغب، حطمت خلالها تمثاله وجرت في الشوارع. ثم اغرقته في نهر التيبر. واحرقت مباني محكمة التفتيش، واطلقت سجناءها، واتلفت وثائقها.



## (4) المرحلة الثالثة من المجمع

### البابا بيوس الرابع 18 كانون ثاني 1562 – 4 كانون اول 1563

تنفس الناس الصعداء حين اختار مجمع الكرادلة سنة 1559، جوفاني دي مديتشي حبرا اعظم باسم البابا بيوس الرابع. لم يكن من عائلة مديتشي المشهورة وانما ابن جاب للضرائب من ميلانو، اشتغل بالمحاماة ليكسب قوته، وظفر باعجاب بولس الثالث وثقته، فعين كرديناالا. واشتهر بالذكاء والميل الى اعمال البر. فلما ارتقى عرش البابوية ابتعد عن الحرب، ولم يقض على محكمة التفتيش، ولكنه اشعر قضاؤها انهم "يسرونه اكثر لو باشروا عملهم بلطف السادة المهذبين لا بجلافة الرهبان". واراد اغتياله متعصب حسبه مفرطا في اللين، ولكنه سُئل رهبة حين مر به البابا هادئا مجردا من اسباب الدفاع.

لم يترفع بيوس الرابع هو ايضا عن محاباة الاقارب Népotisme، ولكنه اختار الافضل منهم، فعين كرديناالا ابن اخته شارل بوروميه Charles Borromée، البالغ من العمر اثنتين وعشرين سنة، ووكل اليه امانة سر الدولة Secrétaire d'Etat. وسيكون شارل المحرك الرئيسي للاصلاح وعونا كبيرا لحاله البابا، وزيادة على ذلك قديسا كبيرا.

اتضح للبابا ومنذ بدء حبريته انه لا يمكن للاصلاح ان ينجح دون اعادة عقد المجمع. فاصدر في عام 1560 براءته البابوية Ad Ecclesiae Regimen، حدد فيها موعدا لاعادة انعقاد المجمع في احد الفصح عام 1562. ودعا اليه جميع الامراء المسيحيين سواء الكاثوليك او البروتستنت الذين رفضوا الدعوة، بينما جلب المندوبون الفرنسيون معهم قائمة رهيبة بالاصلاحات التي ينشدونها: القداس باللغة القومية، والتناول تحت الشكلين، وزواج الكهنة، واخضاع البابا للمجمع العامة..

بعد تأجيلات كان دافعها الروية او الاستراتيجية، التأم شمل الجلسة السابعة عشرة للمجمع في 18 كانون ثاني 1562، بحضور خمسة كرادلة وثلاثة بطاركة، واحد عشر رئيس اساقفة، وتسعين اسقفا، واربعة رؤوسا عامين، واربعة رؤوسا اديار، وخمسة واربعين لاهوتيا، وتختلف الممثلون العلمانيون للامراء الكاثوليك. واستجابة لطلب فرديناند، عرَضَ ضمان سلامة المرور لاي مندوب بروتستانتى يرغب في الحضور، ولكن احد لم يحضر.

انقضت الجلسات الاولى التي ادارها كالسابق المندوبون الباباويون بالجدال المضطرب لان امبراطور المانيا وملك فرنسا واسبانيا طلبوا بواسطة سفرائهم واساقفتهم البدء باصلاح الكنيسة مع اصلاح البلاط البابوي وتحديد السلطة البابوية. تمكن البابا بواسطة سفارات ومفاوضات وعود بالاصلاحات الممكنة من خفض مطالب هؤلاء الملوك وصارت اعمال المجمع مهدوء.

### انتهاء المجمع 4 كانون اول 1563

تمكن المجمع في جلساته الباقية من الثامنة عشرة وحتى الخامسة والعشرين، من اخذ الكثير من القرارات العقائدية والتنظيمية. وفي الجلسة الخامسة والعشرين، في اليوم الرابع من كانون اول عام 1563، اجمع البابا والامبراطور ان المجمع قد ادى ما عليه، فقام سكرتير المجمع وعمل ان يوقع آباء المجمع الحاضرون والذين بلغ عددهم 6 كرادلة و 3 بطاركة (منهم بطريك القدس) و 25 رئيس اساقفة، و 169 اسقفا، وسبعة رؤوسا عامون، وسبعة رؤوسا اديار، على جميع مقررات المجمع. فاعلن فض المجمع نهائيا وسط ابتهاج المندوبين المرهقين، بعد ان حدد المجمع طريق الكنيسة لقرون قادمة.

### 3- انجازات مجمع ترانت

اهتم مجمع ترانت في وقت متزامن بالمسائل العقائدية والتنظيمية. واصدر نوعين من القرارات، القرارات العقائدية والقرارات التنظيمية. كانت القرارات العقائدية تتألف عادة من قوانين canons، أي صيغ Formules قصيرة حيث كان يعلن بواسطتها محروما كل من ينكر العقيدة المعروضة في ال Canon. وكانت العقيدة عادة تعرض اما بمقدمة صغيرة او في فصول طويلة تتقدم القانون canons بينما لم يسبق القرارات التنظيمية التي كان الهدف منها اصلاح الكنيسة من المساوىء أي عقاب او حرمان.

#### (1) القرارات العقائدية

حدد مجمع ترانت عقائد كنسية كانت عرضة لانتقاد وتشويه الهرطقة. وكانت الهرطقة البروتستنتية قد تعرضت الى النقاط التالية: مصادر الوحي، والخطيئة الاصلية، والاسرار، والمطهر، وتكريم القديسين، والغفرانات.

## أ. مصادر الوحي

ردا على تعليم لوثر بان مصدر الايمان هو الكتاب المقدس فقط، أكد المجمع اعتبار التقليد أي كتابات اباة الكنيسة، ومقررات الجماع المسكونية، وتعليم الكنيسة العادي مصادر للوحي والايمان والاخلاق بجانب الكتاب المقدس. ورشق بالحرمان الذين يرفضون التقليد، والذين لا يقبلون الكتاب المقدس بكل اسفاره القانونية، واعلن ان ترجمة القديس ايرونيموس اللاتينية (الفولغاتا) هي الترجمة والنص النهائي للكتاب المقدس، واعطى المجمع الكنيسة الحق دون غيرها في شرح الكتاب المقدس وتفسيره. وبذلك واجهت الكنيسة تعليم لوثر حول مصدر الايمان: "الكتاب المقدس فقط"، ب "الكتاب المقدس والتقليد":

"ان المجمع المقدس يقتدي بالآباء المستقيمي الايمان، فيتلقى ويكرم بنفس التقوى والاحترام، جميع اسفار العهدين القديم والجديد، اذ ان الله هو صاحب هذا وذاك، وكذلك التقاليد المتعلقة بالايمان والاخلاق، كأنها صادرة عن لسان المسيح او ملامة من قبل الروح القدس، ومحفوظة في الكنيسة الكاثوليكية بتعاقب متواصل" (الجلسة الرابعة 1546/4/8).

## ب. الخطيئة الاصلية:

خلط لوثر بين الخطيئة والشهوة، ونفى ان المعمودية تمحيها. فقرر المجمع (1) ان آدم بعصيان له لوصية الله فقد البراءة الاصلية واستحق غضب الله والموت، وانه اصبح ضعيفا في جسده ونفسه. (2) وان خطيئته اصابته واصابت نسله واورثهم ليس فقط العقاب وانما ايضا الخطيئة. (3) وان هذا العصيان لا يتم بالتقليد او المماثلة وانما بالانتشار، وان الخطيئة لا يمكن ان تمحي الا باستحقاقات السيد المسيح المعطاة بواسطة المعمودية. (4) وبالتالي فان العماد ضروري للجميع للاطفال كما للبالغين. (5) وان النعمة الممنوحة بالمعمودية تحل من عقاب الخطيئة وتمحي من النفس "كل ما يحتوي على عناصر الخطيئة".

## ج. التبرير

علم لوثر ان التبرير يتم بالايمان فقط، أي بفعل ثقة بسيط باستحقاقات السيد المسيح الممنوحة لنا، بدون الحاجة الى الاعمال الصالحة، التي لا اجر لها نظرا لفقدان الحرية. وانه يكفي ان يكون لنا هذه الثقة او الايمان البسيط باستحقاقات المسيح حتى نكون من المخلصين مهما فعلنا. وردا على هذه التعاليم الغربية، فسر المجمع ان التبرير يتم بالنعمة الالهية التي تنبه الايمان في الانسان. واما الانسان من جهته فانه حر في ان يساعد هذه النعمة بقواته الخاصة. لذلك ثبت المجمع وجوب الاعمال الصالحة لاجل الخلاص:

"ان قال احد ان الانسان بوسعه ان يتبرر امام الله باعماله التي ينجزها، اما بقوى الطبيعة، واما بتعليم الشريعة، بمعزل عن النعمة الالهية الممنوحة عن يد يسوع المسيح، فليكن ميسلا. ان قال احد ان الانسان، بما لديه من حرية الاختيار (الحرية) ولدى تلقنه الرفعة والحركة من الله تعالى، لا يتعاون قط معه مناصعا الى الله الذي يدفعه ويدعوه الى التأهب لنيل نعمة التبرير وانه ليس بوسعه ان شاء ان يرفض موافقته، بل هو عاجز كل العجز كالكائنات الجامدة عن انجاز أي عمل، ويلبث في حالة السلبية المطلقة، فليكن ميسلا" (الجلسة السادسة).

## د. الاسرار

**1) المعمودية والتثبيت:** بما ان تعليم الكنيسة عن الاسرار قد تم توضيحه وعرضه من قبل اللاهوتيون السكولاستيك امثال بيير لومبارد وتوما الاكوييني، لم ير آباء المجمع ضرورة لاعادة عرض هذا التعاليم في فصول، وانما استكفوا باصدار 13 قانونا حول الاسرار عامة، و14 قانونا حول المعمودية خاصة و3 قوانين حول التثبيت، وادان الاراء البروتستنتية بشأن هذه الاسرار، وثبت عددها السبعة والطريقة التقليدية للكنيسة الكاثوليكية التي يتم فيها منح هذه الاسرار بدون استثناء:

"ان قال احد ان يسوع المسيح لم ينشئ جميع اسرار الشريعة الجديدة، وان هناك اكثر او اقل من سبعة، وان احد السبعة ليس سرا بالمعنى الحصري، فليكن ميسلا" (الجلسة السابعة 1547/3/3).

**2) القربان الاقدس:** كان تعليم الكنيسة حول الافخارستيا مع قضية التبرير من اكثر القضايا التي شوهها البروتستنت. فكرس المجمع لسر الافخارستيا ثلاثة من جلساته: الثالثة عشرة، والواحدة والعشرين والثانية والعشرين. فاصدر في الجلسة الثالثة عشرة قرارا في ثمانية فصول و11 قانون، مؤكدا على (1) الحضور الحقيقي والفعلي والجوهري substantive للمسيح كاملا في كل شكل من الشكليات وفي كل جزء من الشكليات منفصلين (ضد تعاليم كالفن

الذي كان يقول بالاستحالة الرمزية للمسيح)، كما وأكد على الاستحالة Transsubstantiation (ضد تعاليم لوثر الذي علم بـ Impanation).

وعرض المجمع في جلسته الواحدة والعشرين وفي اربعة فصول المناولة تحت الشكليات ومناولة الاطفال واصدر 4 قوانين يدين فيها كل من يعلم او يعتقد (1) ان المناولة تحت الشكليات هي شريعة الهية وضرورية للخلاص لجميع المؤمنين. (2) وان الكنيسة لم تعتمد على اسباب ضرورية وعادلة لمنع المناولة تحت الشكليات للعلمانيين وللكهنة خارج القديس. (3) وان من يتناول تحت شكل واحد لا يقبل المسيح كاملا. (4) وان المناولة ضرورية لخلاص الاطفال الذين لم يبلغوا بعد سن الرشد.

وفي الجلسة الثانية والعشرين، اصدر المجمع قرارا عقائديا في 9 فصول حدد فيه القديس بانه ذبيحة حقيقية تجدد ذبيحة الصليب وتمنح استحقاقات المسيح. وان المسيح عندما لفظ بكلمات "اعملوا هذا لذكرى" رسم الرسل كهنة العهد الجديد، وان القديس هو ذبيحة تكفيرية للاحياء وللأموات ولا تخالف déroge ذبيحة الصليب، وان هذه الذبيحة تقدم لله، مع انه درجت العادة في الكنيسة بتقديمها ايضا تكراما للقديسين. وان قانون القديس خال من كل ضلال. وان الكنيسة انما اضافت الطقوس والاحتفالات المرافقة للقديس لاطهار جلال وعظمة هذه الذبيحة الكبيرة. واخيرا ادان المجمع كل من يرفض استعمال اللغة اللاتينية، ولفظ كلمات التقديس بصوت خافت، ومزج الماء والخمر في الكأس معتبرا هذا مخالفا لذبيحة المسيح.

"ان انكر احد ان سر الافخارستيا يحتوي حقيقة وفعليا وجوهريا، جسد يسوع المسيح ودمه مع نفسه ولاهوته، بل قال انه ليس فيه الا بالاشارة والصورة فقد او بالقوة، فليكن مبسلا" (الجلسة الثالثة عشرة، 1551/10/11).

**(3) التوبة ومسحة المرضى:** رفض لوثر مسحة المرضى وشوه سر التوبة، مقتصرًا شروط التوبة والمغفرة على الايمان فقط باستحقاقات المسيح، وناكرا قيمة الاعمال الخارجية كالحلة وافعال التوبة: الندامة والاعتراف والتعويض Satisfaction. كما واصدر المجمع 15 قانونا ادان فيه تعاليم البروتستنتية حول سر مسحة المرضى.

**(4) الكهنوت:** نشر المجمع في جلسته الثالثة والعشرين قرارا حول سر الكهنوت في 4 فصول و8 قوانين. وحدد المجمع ان تأسيس كهنوت منظور في الشريعة الجديد، نابع من تأسيس ذبيحة القديس، وان هذا الكهنوت اقامه المسيح عندما اعطى تلاميذه وخلافاتهم سلطة تقديس جسد المسيح ودمه، وسلطة حل وربط الخطايا، وعندما وكل اليهم مهمة التبشير. وذكر الدرجات المختلفة العليا للكهنوت. واعلن ان الكهنوت هو سر حقيقي اسسه السيد المسيح، ويطلع في الشخص المرسوم ختما لا يمحي كالمعمودية والتثبيت.

وحدد المجمع ايضا انه يوجد في الكنيسة الكاثوليكية سلطة تراتبية Hiérachique، وان الاساقفة الذين يقيمهم الروح القدس لقيادة كنيسة الله ومنح اسرار التثبيت والكهنوت هم اعلى من مرتبة من الكهنة. وادان المجمع كل من يعلم تعليما مخالفا، ويعلم حسب التعليم الجديد ان كل المسيحيين هم كهنة، وان الكهنوت الممنوح بواسطة الاساقفة غير شرعي لانه معطى بدون موافقة الشعب والسلطة الزمنية.

وتجنب المجمع الخوض في قضية معرفة اذا كان الاساقفة يستمدون سلطتهم مباشرة من المسيح او غير مباشرة بواسطة البابا. ايد الاساقفة الاسبان الرأي الاول، بينما ايد الايطاليون الرأي الثاني. في الواقع ان آباء المجمع خلطوا بين سلطة الكهنوت Pouvoir d'Ordre وسلطة الحكم Pouvoir de juridiction، وهذا ما حاول شرحه الكاهن اليسوعي P. Laynez، عندما بين آباء المجمع ان سلطة الكهنوت تأتي مباشرة من الله، ولكن سلطة الحكم اتت مباشرة من الله لبطرس وخلفائه، وايضا بطريقة الامتياز Priviliège للرسول الاخرين، بينما للاساقفة تعطى سلطة الحكم مباشرة من الحبر الاعظم وغير مباشرة من الله. بالرغم من صواب ارائه الا ان الآباء تجنبوا الخوض في هذا الموضوع، واستكفوا بان أكدوا ان في الكنيسة سلطة تراتبية اقامها الله مؤلفة من الاساقفة والكهنة والشمامسة.

"ان قال احد بأنه ليس في العهد الجديد كهنوت منظور وخارجي او انه لا وجود لسطان التقديس او لتقريب جسد الرب ودمه الحقيقيين، او لحل الخطايا او ربطها، بل هناك مجرد وظيفة للكراسة بالانجيل وخدمة لاعلان البشارة، او ان الذين ينقطعون عن الوعظ لم يعودوا كهنة، فليكن مبسلا" (الجلسة الثالثة والعشرون 1563/7/15).

**(5) الزواج:** حدد المجمع تعاليمه عن الزواج في جلسته الرابعة والعشرين في فصل قصير عرض فيه الزواج وطبيعته (وحدة وغير قابل الانفصال) والصفات القدسية للزواج في الشريعة الجديدة، تبعة 12 قانونا تدين كل من

يقول ان سر الزواج ليس من الاسرار السبعة التي أسسها المسيح، وان الشرعية الالهية لم تمنع تعدد الزوجات، وان درجات القرابة الدموية consanguinité و Affinité الموجودة في سفر اللاويين هي وحدها تشكل موانع للزواج ولا يمكن للكنيسة ان تمنح الحل منها، ولا تملك صلاحية وضع موانع اخرى، وانه يمكن حل الزواج بسبب الهرطقة، ولصعوبة التعايش المشترك، والزنى، وان الزواج غير المكتمل لا يحل بلفظ النذور الرهبانية.

وادان المجمع ايضا (بالخصوص البروتستنتية) الذين يقولون ان الاكليروس الذي قبل سر الكهنوت والرهبان الذين ابرزوا النذور الدائمة وخصوصا العفة، في امكانهم الزواج زواجا شرعيا، وادانت ايضا من يقول ان الحالة الزوجية هي اسمى من حالة العزوبة والبتولية.

"وان الذين يُقدِّمون على عقد زواج بدون حضور كاهن الرعية او أي كاهن اخر فوضه كاهن الرعية او الاسقف، وامام شاهدين او ثلاثة، يصرح المجمع بانهم غير اهل على الاطلاق لعقد زواج وبان مثل تلك العقود باطلة وغير صحيحة" (الجلسة الرابعة والعشرون، 11/11/1563).

### هـ) المطهر، تكريم القديسين والغفرانات:

اصدر المجمع في جلسته الخامسة والعشرين والاخيرة ثلاثة قرارات:

**(1) حول المطهر:** وجوده على ضوء تعاليم الكتاب المقدس والتقليد القويم للآباء، وامكانية المؤمنين تخفيف عذابات النفوس المطهرية بصلواتهم وبتقديم ذبيحة القداس.

**(2) حول تكريم القديسين** وذخائرهم، وتكريم الصور المقدسة: المسيح والعذراء والقديسين، وحول المساوىء التي يجب اجتنابها في هذا الصدد.

**(3) حول الغفرانات:** السلطة الممنوحة للكنيسة من السيد المسيح لتمنح الغفرانات وضرورتها. وادان المجمع كل من يعلم او يقبل تعاليم مخالفة.

### (2) القرارات التنظيمية لمجمع ترانت

اهتم آباء المجمع ايضا وبنوع خاص بالامور والقضايا التنظيمية. اذا كان من اهم اهداف المجمع اصلاح الكنيسة في "الرأس والاعضاء" الذي كان امل ورغبة الكاثوليك والبروتستنت على حد سواء. وصدرت من المجمع قرارات تنظيمية تخص الاكليروس والعلمانيين.

#### 1) الاكليروس:

اصدر المجمع قرارات تنظيمية تشمل السلطة الكنيسة، من الرأس، الرئيس الاعلى للكنيسة، البابا وحتى اصغر وابسط عضو في الاكليروس مبينا واجبات وحقوق كل فئة منهم:

**البابا:** - ذكّر المجمع البابا ان من واجبات مركزه، السهر والرعاية على الكنيسة الجامعة (جلسة 24). وانه يعود اليه العمل على نزع واستئصال المساوىء من الكنيسة (جلسة 24). وانه لا يمكن تجديد او تغيير شيء في الكنيسة بدون اذنه واستشارته (جلسة 25). كما وحفظ المجمع للبابا النظر في الامور المهمة المتعلقة بالاساقفة.

**الكرادلة:** - قرر المجمع ان يجب اختيار الكرادلة بقدر الامكان من كل الجنسيات والبلاد المسيحية. واوصى ان يعيش الكرادلة حياة بسيطة، بعيدة عن الترف، والابتعاد عن الاباطيل "يجب ان يتحلى الكرادلة، الذين مهمتهم مساعدة الخبر الاعظم بنصائحهم وارشاداتهم ومشوراتهم، في ادارة دفة الكنيسة الجامعة، بالفضائل الظاهرة، والعيشة المستقيمة بشكل يكونون مثالا يحتذى به الجميع" (جلسة 25).

**الاساقفة:** - شدد المجمع على مبدأ الاقامة والثبات للاسقف في ابرشيته، وان لا يتغيب الا لاسباب وجيهه، واذا تغيب ان لا يكون ذلك اكثر من ثلاثة اشهر. - ومنع منعا باتا غياب الاسقف عن ابرشيته في الازمنة الكبرى: المحيي والزمن الاربعيني... - وقد رأى آباء المجمع في واجب الاقامة والثبات للاسقف وسيلة للاصلاح، اذ بثاته يكف الاسقف عن تجميع المناصب، - والتي هي ايضا منعت في الجلسة السابعة، - كما ورأى في الثبات الوسيلة الوحيدة التي تتيح للاسقف القيام بواجبات وظيفته.

ما هي هذه الواجبات؟

(1) واجب تثقيف وتهيئة اكليروس ابرشي فاضل ومتعلم. ومن هنا على الاسقف فتح المدارس وتأسيس الكليات والمعاهد اللاهوتية لدريس اللاهوت والكتاب المقدس. وفي جلسته الثالثة والعشرين، صدرت القرارات بفتح المعاهد الاكليريكية في كل ابرشية.

(2) واجب الوعظ: على الاسقف ان يعظ يوم الاحد وايام الاعياد. وفي حالة عدم تمكنه ان يفوض عنه اشخاصا اكفاء. وان يمنع عن الوعظ الاشخاص الذين يشككون ويعلمون تعاليم خاطئة، واخذ الاجراءات القانونية ضدهم. كما ومنع المجمع الرهبان من الوعظ في الكنائس دون اذن الاسقف. كما وعلى الاسقف ان يمنع من الوعظ جابي الصدقات .

(3) فرض المجمع على الاسقف ان يقبل الرسامة ثلاثة اشهر بعد تعيينه او انتخابه. كما فرض عليه ان يمنح الرسامات دون مقابل ولاشخاص اكفاء، صالحين، ومستحقين، حائزين على الصفات المطلوبة، وبالعين السن القانوني للرسامات (جلسات 7، 14، 21، 23). كما منع المجمع الاسقف من ان يوكل رعاية النفوس لمن لم يبلغ سن الخامسة والعشرين.

(4) كما فرض المجمع على الاساقفة واجب زيارة ابرشياتهم وكنائسهم سنويا، واصلاح وصيانة اماكن العبادة، والاهتمام بالمستشفيات (جلسة 7)، ومنح الاسقف حق فتح الرعايا الجديدة في ابرشيته (جلسة 21).

(5) واجب مراقبة اكليروس ومنع ذوي السمعة السيئة منهم، وغير الكفاء من مزاوله وظائفهم والسهر على الغاء كل الاحرفات التي تم ادخالها في القديس.

(6) واجب عقد مجامع محلية كل ثلاثة سنوات، والسينودسات الابرشية كل سنة (جلسة 24). كما قرر المجمع انه على الاساقفة اعلان قرارات المجمع في السينودسات المحلية والعمل على تطبيقها، وان لا يغالي في استعمال الحرمانات

**القانونيون Les Chanoines:** - أوصى المجمع ان يتم تأليف مجلس القانونيين من اشخاص حائزين على درجات علمية. وان يواظبوا على المداومة على صلوات الخورس، اذا ما ارادوا الحصول على مخصصاتهم. كما ونظم المجمع حقوق مجلس القانونيين اثناء فراغ الكرسي الاسقفي.

**الكهنة:** - فرض المجمع على الكهنة، على مثال الاساقفة، الثبات في رعاياهم، وعلى الوعظ ايام الاحاد والاعياد، وعلى تلقين التعليم المسيحي، وان يشرحوا ويفسروا للشعب الكتاب المقدس، والاسرار، والليتورجيا. ولتسهيل الامور على الكهنة اعلن المجمع قرب صدور كتاب التعليم المسيحي الكاثوليكي.

**الاكليروس:** قرر المجمع انه يجب من الان وصاعدا تهيئة طلاب الكهنوت في معاهد اكليريكية بدل المدارس والكليات العامة.

"ان الشبان، ان لم يُربوا تربية حسنة، ينقادون بسهولة الى ملذات العالم. ولذلك، فان لم يُدرّبوا على التقوى والدين، منذ نعومة اظفارهم، حيث العادات الرديئة لم تستول على الانسان تماما، يستحيل عليهم، بدون حماية كبيرة وخاصة من لدن الله القادر على كل شيء، ان يثبتوا ثباتا تاما على النظام الكنسي. لذلك فان المجمع المقدس يقرر انه يجب على جميع الكنائس، كل واحدة بحسب طاقتها واتساع ابرشيتها، ان تربي في التقوى وتدريب على النظام الكنسي عددا من اولاد المدينة او الابرشية، او الاقليم ان كان العدد قليلا، من مدرسة يختارها الاسقف لهذا الغرض تكون قريبة من الكنائس او في مكان اخر مناسب" (الجلسة الثالثة والعشرون 1563 / 7/15).

**الرهبان:** - نظّم المجمع الحياة الرهبانية، وامام انحطاط الجمعيات الرهبانية في العصور الوسطى، والذي ظهر في ترك الكثيرين من الرهبان والرهبات الحياة الرهبانية ايام لوثر، عرضت لجنة الاصلاح التي فيها البابا بولس الثالث توصية بالغاء الجمعيات الرهبانية القديمة. الا ان المجمع قرر، دون اللجوء الى هذه التوصية المبالغ فيها، العمل على مداوة الداء قبل الهدم، فاصدر آباء المجمع، قوانين مهمة للحياة الرهبانية: العمر، شروط القبول، انتخاب الرؤساء... ولتجنب احدى المساوئ الكبيرة، وهي قبول الاطفال في الحياة الرهبانية، قرر المجمع فرض سن السادسة عشرة لقبول النذور الرهبانية للفتيان، وسن الثانية عشرة للفتيات. ومنع الرهبان من امتلاك أي شيء خاص بهم. واعاد الحصن clôture التام في ادارة الراهبات. ومنع منح رئاسة او ملكية او قيادة او ادارة الاديعة الى العلمانيين. ونظم العلاقات بين الرهبان والاساقفة.

## (2) العلمانيون

**الامراء:** - كان تدخل الامراء الدائم والمستمر في الامور الكنيسة سببا رئيسا في المساواة التي شوهت صورة الكنيسة. فقد اخذ الامراء حق التصرف على هواهم بمتلكات الكنيسة، وحق تعيين او فرض تعيين اشخاص في المناصب الكنسية، ومراقبة اعمال الكليروس، حتى اصبحت الكنيسة تابعة لهم. فمنع المجمع في جلسته الخامسة والعشرين الامراء من التدخل في الامور الكنسية، وطلب منهم العمل على تنفيذ قرارات المجمع، واحترام والعمل على احترام ممتلكات وحقوق وامتيازات الكنيسة.

**الشعب:** - دعى المجمع المؤمنين الى الذهاب الى الكنيسة ايام الاحاد والاعياد (جلسة 22). ومنع استعمال المبارزة لفض الخلافات تحت طائل الحرمان (جلسة 25). واعلن بطلان الزواج السري، وقرر ان الزواج الصحيح والشرعي هو فقط الذي يتم بحضور كاهن الرعية او من يفوضه كاهن الرعية وبحضور شاهدين.

## 4- تصديق واعلان مقررات مجمع ترانت

صادق البابا بيوس الرابع للمرة الاولى على مقررات مجمع ترانت في اجتماع مجلس الكرادلة في 30 كانون اول عام 1563، ومرة ثانية في براءته "Benedictus Deus et Pater" الصادرة بتاريخ 26 كانون ثاني 1564، وحملت امضاه هو و26 من الكرادلة. وحتى تدخل حيز التنفيذ بقي لهذه القرارات ان تعلن وتطبق.

كان اعلان هذه المقررات يعود في نفس الوقت الى الملوك والى الاساقفة، فالملوك باعلانهم لها يعطونها قوة القانون، والاساقفة يعلنونها لتسري على كنائسهم. وبالواقع فان اهم اعلان هو اعلان الملوك. وبما ان الملوك لم يكونوا راضين تماما عن هذه القرارات، تطلب اعلانها الكثير من الوقت والصبر والدبلوماسية.

قبلت جمهورية البندقية Venise، وملك البرتغال، ودوق سافوي Savoie وجميع الامراء الايطاليين مقررات مجمع ترانت بدون شروط. وازداد ملك اسبانيا تحفظا "على شرط ان لا تتعدى هذه المقررات على قوانين المملكة"، واعلنتها بولندة Pologne في عام 1564، ونشرها ماكسميليان الثاني في المانيا عام 1566.

اما فرنسا وانكلترا قد قبلت المقررات العقائدية دون تحفظ، وعارضت القرارات التنظيمية. فقد تدمرت فرنسا من هذه القرارات، واعتبرت البعض منها تعديا على حقوق وحرية وامتيازات الكنيسة الفرنسية. من هذه المقررات: حفظ الحكم في القضايا الكبيرة للبابا (محاكمة الاساقفة المتهمين بجرائم كبرى، واقالة الاساقفة غير الثابتين، والنظر في القضايا التي يمر عليها الوقت بدون البت فيها في المحاكم الابرشية، وحرمان الامراء الذين يرجعون الى المبارزة في حل خلافاتهم. كما واعتراضوا على اعلان البابا اسقف الكنيسة الجامعة، لانها تجعل من البابا اعلى سلطة من المجمع). لذلك لم يقم أي ملك باعلان مقررات المجمع في فرنسا.

لم يتبع اساقفة فرنسا، لحسن الحظ، موقف ملوكهم السيء. وحاولوا في مناسبات عديدة اما في اجتماع المجالس الكنسية او البرلمانية، دفع الحكومة على اعلان هذه المقررات مع بعض التعديلات التي يمكن ادخالها بكل سهولة. واعلن الاساقفة هذه المقررات في عدة مجامع محلية: مجمع كامبريه عام 1565، ومجمع روان عام 1581، ومجمع تور 1583، ومجمع بروج 1584، ومجمع اكس Aix 1585. وقبلت جميع ابرشيات الاساقفة الحاضرين والغائبين، في اجتماع عام للاكليروس الفرنسي بتاريخ 7 تموز 1615، الموافقة على مقررات المجمع.

## 5- نتائج تعاليم المجمع

اعطت مقررات المجمع ومن ثم تطبيقها النتائج الجيدة والمثمرة على الصعيد العقائدي والتنظيمي.

### (1) فعلى الصعيد العقائدي:

قطع المجمع بتحديد الصيغ Formules العقائدية الطريق على كل جدال. فامام تعاليم البروتستانت المتغيرة في كل قانون ايمان بين احزابها وتشعباتها وشيعها المختلفة، وحتى بين افرادها، عرض آباء المجمع بكل وضوح ودقة تعاليم الكنيسة التقليدية. فقد حدد مجمع ترانت، بعد مجمع نيقية والقسطنطينية وافسس وخلقيدونية، الذين حددوا عقيدة الثالوث الاقدس والتجسد والفداء، حدد مجمع ترانت عقيدة الكنيسة حول الكتاب المقدس، والخطيئة الاصلية، والتبرير، والاسرار. وحافظ على التعبد للعدراء والقديسين والغفرانات وعزوبية الكهنة. ولكنه عمل خصوصا على جعل

الكنيسة ملوكية Monarchie ثابتة ودستورية constituée، باعلانه البابا "راعي الكنيسة العام universel، يملك كل صلاحيات ادارة الكنيسة الجامعة". جاعلة منه الرئيس الاعلى للهيئة الكنسية، اعلى حتى من المجمع. صحيح ان هذا التعليم الاخير لم يقبل بالاجماع وخصوصا في فرنسا من قِبَل الكنيسة الغاليدانية Gallicans، الذين ارادوا خفض سلطة البابا واخضاعها لسلطة المجمع. ولكن هذا التعليم اخذ يشق طريقه رويدا رويدا حتى الانتصار والقبول التام من الجميع.

بقبول آباء المجمع برئاسة البابا على المسيحية، عملوا على توطيد مبدأ "الوحدة" الذي سيكون واحدا من اقوى عناصر قوة الكنيسة الكاثوليكية. ولتأكيد الحفاظ على هذه الوحدة اراد المجمع وشدد المجمع على الحفاظ على اللغة اللاتينية في القداس، والاعمال التقوية الاخرى كلغة مشتركة وموحدة للكنيسة.

## (2) على الصعيد التنظيمي

كونت مقرارات المجمع التنظيمية دستورا للقوانين موجهها سواء للعلمانيين او للاكليروس، هدفه تحقيق الاصلاح الاخلاقي في الكنسي. والكنيسة في تأسيسها للمعاهد الاكليريكية سيكون في وسعها الحصول على عناصر ليس فقط متعلمة مثقفة، بل مهينة بالفضائل ومستعدة لنمط الحياة المطلوب عيشه، ويليق بهم كخدام الهيكل. كهنة متعلمون ومهينون، سيكون لهم فعالية اكبر في التأثير الخلاصي على الشعب والعمل على اصلاح ممارسات الشعب المسيحي.

خرجت الكنيسة من هذه الازمة الرهيبة وربما الاكثر خطورة في تاريخها، والذي فيه خسرت جزءا كبيرا من اوروبا الذي انفصل عنها، خرجت كنيسة المجمع كنيسة منظمة ومطهرة، مليئة بالحياة، والذي ستظهر نتائجه سريعا وتزدهر في القرن السابع عشر في ظهور قديسين ورجال عظماء، واعمال باهرة. بقي علينا في الفصل التالي ان نرى من هم "عمال هذا الاصلاح" الذي وضع المجمع اساسه.

## الفصل الثاني والخمسون

### عمال الاصلاح الكاثوليكي

تعاونت ثلاثة انواع من العمال، كلٌ في مجاله ويقدر امكانياته في عملية متابعة ومواصلة وانجاح الاصلاح التي بدأت في مجمع ترانت: أ) البابوات ب) الاساقفة ج) الجمعيات الرهبانية.

#### 1) البابوات

يعود الفضل في وجود مجمع ترانت الى ثلاثة بابوات: بولس الثالث ويوليوس الثالث وبيوس الرابع. كان للاول الفضل في تدليل الصعاب التي كان تعترض دعوة وعقد المجمع، وفي ادارة اعماله من خلال جهازين: امانة سر الفاتيكان والمبعوثين البابويين، الذين كانوا على اطلاع دائم على افكار البابا. اما البابا يوليوس الثالث، ولاسباب سياسية وظروف خاصة، فقد أُجبر على تعليق اعمال المرحلة الثالثة للمجمع. اما الثالث، فقد نجح بمهارته وعزمه، في التغلب من جديد على كل الصعاب واطمام المجمع بنجاح.

ترك آباء المجمع مهمة متابعة اعماله والعمل على تطبيق قراراته على الكرسي الرسولي. وسيقوم ايضا ثلاثة بابوات آخرين، بمثابة ومتابعة متواصلة وبجهد ملفت للنظر، القيام بهذه المهمة الطويلة والشاقة وهم بيوس الخامس، وغريغوريوس الثالث عشر وسكس الخامس.

ولم يكد المجمع ينتهي (4 كانون اول 1563)، حتى بدأ البابا بيوس الرابع، بدعم كبير من ابن اخته الكردينال شارل بورمييه **Charles Borromée**، بالعمل على تطبيق قراراته. فمنع في مرسوم تصديق هذه القرارات "كل تعليق وشروح، وملاحظات، وزيادة على هذه القرارات". ثم انشأ بعد ستة اشهر "مجلس المجمع" *Congrégation du Concile*، ووكل اليه مهمة السهر والعمل على تطبيق، واذا اقتضى الامر على تأوين القرارات الجمعية. "Alias nos" (motu proprio) 2. août 1564. ولمنع انتشار العقائد المضللة، اصدر "الفهرس Index" مكملا لفهرس البابا بولس الثالث، وفيه لائحة بالكتب المنوعة وازداد اليها القواعد الصحيحة كي يستعين بها المؤمنون في اختيار ومطالعة الكتب الصحيحة.

كان آباء المجمع قد قرروا ايضا ان على الاساقفة وكهنة الرعايا، وبنوع خاص، كل من له مهمة الاعتناء بالنفوس، ان يحلفوا اليمين قبل استلامهم لمناصبهم، بالمحافظة وتطبيق قرارات المجمع، وان يدينوا الهرطقات التي ادانها المجمع، وان يؤدوا قسم الولاء للبابا. ولتسهيل هذه الاجراءات اصدر البابا بيوس الرابع ونشر في 13 تشرين ثاني 1563 "اعتراف ايمان *Professio fidei Tridentina*"، وجعله اجباريا ليس فقط على المذكورين اعلاه وانما ايضا على معلمي وطلاب اللاهوت في الجامعات.

#### 1) بيوس الخامس 1566-1572

لتحقيق القرارات الاصلاحية كان لا بد من بابا قديس، يفرض نفسه على العالم المسيحي بقداسته حياته، بابا يكون في نفس الوقت دبلوماسيا وحازما، تساهم هيئته وصرامته على التأثير على الامراء، فيحصل على دعمهم لعملية الاصلاح. وجمع بيوس الخامس هذه الصفات في شخصه. ومع ذلك فقد فوجى اهل روما بانتخابه<sup>4</sup>.

سيتخذ بيوس الخامس برنامجا اصلاحيا لولايته ينص على ان 1) يحارب المساوىء في الاخلاق وفي القوانين الكنسية والليتورجيا 2) ان يعمل على توطيد الوحدة في الكنيسة الكاثوليكية بمحاربة اعداء الكنيسة.

#### بيوس الخامس المصلح

<sup>4</sup> يقال ان البابا بيوس الخامس قال عندما علم ان اهل روما تفاجأوا اكثر مما فرحوا بانتخابه "ساعمل على ان يأسف اهل روما على موتي اكثر مما أسفوا على انتخابي".



ظهر توجه بيوس الخامس الاصلاحى منذ الايام الاولى من حبريته. فبدل ان يقدم للكرادلة والسفراء مآدبة كبيرة للاحتفال بانتخابه، كما كانت العادة، وزع على الفقراء المبلغ الذي كان سيصرفه على ذلك. مقتصدا وليس بخلا، اهتم بصالح شعبه، فقام باعمال عامة من تصليح قنوات المياه، وتابع اعمال بناء كنيسة مار بطرس، وكرس مبالغ كبيرة للخدمات الصحية ولكل اعمال البر والاحسان.

وعلى الصعيد الروحي، عمل على ابعاد المومسات من روما، وحدد لليهود الاقامة في مجعاتهم، وامرهم بتخفيض الفائدة على الديون، وفتح نوعا من بنوك الاقراض ليحد من التجاء الناس الى المرابين. وعمل على نقل التماثيل العارية المخدشة للحياء من القصور البابوية بعيدا ووضعها في المتاحف. واراد ان يلغي بعض الاحتفالات الشعبية كسباق الخيول امام كنيسة مار بطرس، واحتفال الكرنفال المثير للحواس. الا انه امام احتجاجات الشعب، استكفى بان اصدر الاحتجاجات ضدها، وانعزل اثناء الاحتفال بها في دير سانت سابين Ste Sabine الدومنيكاني، مكرسا هذه الايام للصلاة.

حارسا يقظا على الايمان كما على الاخلاق، اثار حماس مفتشي المحاكم على عقاب المجديفين ومدنسي يوم الاحد، واعاد الى الحياة احدى قرارات مجمع اللتران عام 1215، الذي يجبر الاطباء على اعلام مرضاهم بخطورة مرضهم، ويحثونهم على قبول الاسرار، تحت تهديد منع الخدمة الطبية عنهم ان رفضوا.

وجه البابا بعد ذلك همه الى محاربة المساوىء التي استعملها الاعداء حججا لانتقاد البابوية. فبدأ باكبر المساوىء واقدمها في الكنيسة "محابة الاقارب Népotisme"، مع انه عين ابن اخته ميشيل بونلي كردينال وسكرتيرا وامينا للسر، استجابة لطلب مجلس الكرادلة الذي رأى في هذا التعيين ضرورة لحفظ اسرار العلاقات الدبلوماسية، لم يعين احدا اخر من اقاربه لأي مناصب ولم يمنحهم أي شيء من ممتلكات الكنيسة. بل واصدر في 29 اذار 1567، مرسوما مشهورا "Admonet" وفيه منع مستقبلا منح أي من ممتلكات الكنيسة لاحد، وقرر وجوب اعادة الممتلكات التي تم منحها في الماضي الى الكنيسة بعد موت الاشخاص الممنوحة لهم. وكان هذا المرسوم، الذي كان على كل كردينال او بابا جديد ان يقسم عليه، من اقوى الحواجز التي وضعت للحد من "محابة الاقارب".

ومن المساوىء الاخرى التي قاومها بشدة، جشع القضاة. اراد ان يمنح القضاة عدلا مساويا للجميع، للفقراء كما للاغنياء، واستأجر محامين للدفاع عن من لا قدرة لهم. وكرس كل اخر اربعاء من الشهر كجلسات محاكم عامة مفتوحة، ترأسها هو وكردالته، ليسمع مطالب المشتكين. وكان يسمع لهم بصبر مهما طالت تشكياتهم. ودافع عن الصغار والضعفاء ليس فقط في ولايته بل وحتى في البلاد المسيحية الاخرى.

عمل بيوس الخامس ايضا بحماس وبدون تهاون على تطبيق قرارات مجمع ترانت في ولاياته البابوية وفي كل البلاد الكاثوليكية. فاخذ الاجراءات ضد الاساقفة الذين لم يحافظوا على الاقامة والثبات، فعزل المعاندين، واصدر مرسوما قرر فيه ان على المرشح للاسقفية ان يحصل على ثلثي اصوات الكرادلة ليتم تنصيبه اسقفا. وحث بواسطة مبعوثين الملوك والامراء على العمل على اعلان قرارات المجمع والسهر على تطبيقها في بلادهم. ولم تلق دعوته هذه القبول الكبير لديهم.

من اهم انجازات البابا بيوس الخامس والتي عهد اليه المجمع اتمامها اصدار، هي اصداره عام 1566 كتاب "التعليم الروماني Le Catéchisme Romain"، وكتاب "الفرض الروماني Le bréviaire romain" المجدد عام 1570، وفي عام 1678 اصدر كتاب "القداس الروماني Le Missel romain". واعلن القديس توما الاكوييني معلما للكنيسة في 11 نيسان 1567.

## محاربة اعداء الكنيسة

كان الهدف الثاني في برنامج البابا بيوس الخامس اعادة الوحدة الكاثوليكية بمحاربة تقدم البروتستنتية والاتراك.

### (1) محاربة تقدم البروتستنتية

عمل بيوس الخامس بعزم على محاربة الهرطقة في البلاد التي توطدت فيها: المانيا وانكلترا وسويسرا وهولندا. ولم تتأثر الكاثوليكية في بلاد بقدر ما تأثرت في المانيا، اذ استغل الامراء الصعوبات السياسية التي كان يتخبط بها الامبراطور (حروبه مع فرنسا وخطر الاتراك)، فعملوا على توسيع وتطوير مناطق نفوذهم. ولم يكن البابا بيوس الخامس ليتهاون في هذا الموضوع. ولكونه انسانا خلا من الطموحات السياسية، فما ان ارتقى الكرسي الرسولي حتى ارسل الى مجلس الامة المنعقد في اوغسبورغ عام 1566، طالبا منهم الطاعة لقرارات مجمع ترانت، وعدم وضع

البروتستانتية والكاثوليكية على قدم المساواة. وكان له ما اراد. واطهر بيوس الخامس نفس السلطة مع مكسيمليان، الذي كان ميالا في مجلس الامة في سبير Spire بمنح البروتستانت تنازلات اخرى، لحاجته الى مساعدتهم لمحاربة الاترك. وبنفس الوقت عمل على تشجيع المرسلين الذين بدأوا العمل على اعادة الكاثوليكية الى المانيا. وفي انكلترا، حرم البابا الملكة اليزابيث (1570) وحل اتباعها من طاعتها، وشجع الكاثوليك وزعيمهم دوق نورفولك في صراعه ضد الملكة.

وفي سويسرا ايد الدوق دي سافوى Duc de Savoie في سعيه لاستعادة جنيف من الكلفينيين. وفي هولندا، ايد الاجراءات الشديدة التي اتخذها دوق دالب Duc d'Albe ضد المتمردين البروتستانت.

## (2) غريغوريوس الثالث عشر 1572-1585

خلف الكردينال هوغو بونكوباني Hugo Buoncompagni البابا بيوس الخامس واتخذ له اسم غريغوريوس الثالث عشر. وبما انه كان يبلغ الواحد والسبعين من عمره، لم يُنتظر منه ان يقوم بالشيء الكثير، الا انه اظهر نفس الحزم والعزم في مواصلة الاصلاح كسلفه، ولكن بروح اكثر اعتدالا.

### منجزات البابا غريغوريوس الثالث عشر

عمل غريغوريوس على متابعة ومواصلة الاصلاح على الصعيدين: التعليم والاصلاح الليتورجي .

**اصلاح التعليم:** تتطلب اعادة الكاثوليكية ومحاربة البروتستانت تطوير المؤسسات التعليمية لتصبح اهلا لتحضير المرسلين ولم يسبق احد غريغوريوس في هذا المضمار. فاعاد احياء الكلية الرومانية والكلية الالمانية، وصرف المبالغ الطائلة في سبيل توسيعهما وتجهيلهما. واراد للكلية الرومانية - التي ستصبح فيما بعد وحتى اليوم الجامعة الغريغورية Université Grégorienne - ان تكون جامعة لكل الشعوب والجنسيات، فبلغ تعداد طلابها في عام 1584 ما يقارب الثلاثة الاف طالب من كل البلاد. ومن هذه المؤسسة سيخرج البابوات والكرادلة والاساقفة ومئات الكهنة والمرسلين. واعطى للكلية الالمانية التي تركها البابا بولس الرابع بدون مال ولا مدخول، قوة دفع جديد جعلت منه المؤسس الثاني لها، وزودها بالمال بسخاء. كما واهتم ودعم كلية اخرى لتعليم الانكليز الكاثوليك الذين اضطروا للنزوح عن انكلترا تحت اضطهاد اليزابيث. كما وفتح كليات اخرى منها واحدة لليونان واخرى للموارنة. واخيرا وبفضل سخاءه تم فتح اكثر من عشرين كلية في الخارج وعهدت ادارتها الى اليسوعيين.

**الاصلاح الليتورجي:** استدعى اصلاح الفرض وكتاب القداس الذي اتمه بيوس الخامس، اصلاحا اخر للتقويم الكنسي والمرتولوج (كتاب حياة الشهداء).

أوصى مجمع نيقية (325) الاحتفال بعيد الفصح بحسب التقويم القمري بحيث يكون هناك انسجام بين السنة المدنية والسنة الليتورجية والسنة الفلكية. الا ان هذا الانسجام لم يكن حاصلا. وكان التقويم اليولياني الذي تم اعتماده سنة 46 قبل المسيح من قبل يوليوس قيصر، والذي كان لا يزال قيد الاستعمال، قد حدد السنة المدنية بـ 365 يوما، وست ساعات، مما اعطى ايضا ان تكون هناك سنة كبيسة كل اربع سنوات. الا انه اتضح ان السنة الفلكية تمتد على 365 يوما وخمس ساعات و49 دقيقة و12 ثانية. من هنا ظهر ان مع انتهاء القرن السادس عشر كان هناك نقص قيمته عشرة ايام بين السنة المدنية والسنة الفلكية. كيف العمل على تلافي هذا النقص؟ اهتمت عدة مجامع بهذا الموضوع منها مجمع كونستانس وبازل والليتران الخامس، واعيد دراسته ايضا في مجمع ترانت. وفي عام 1577 انشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر لجنة من العلماء وعهد اليها مهمة ايجاد حل لهذه المشكلة، واستلهمت هذه اللجنة حلا كان قد توصل اليه العالم الفلكي لويجي ليليو Luigi Lilio، والذي ينص على انه لاعادة التوافق بين السنة المدنية والفلكية يكفي حذف عشرة ايام من السنة الجارية، ولتجنب مثل هذا التفاوت في المستقبل في السنة المدنية، من المحبذ اتخاذ قرار يجعل سنة واحدة من القرون الاربعة الاولى 1600، 1700، 1800، 1900، سنة كبيسة على ان تكون هذه السنة التي فيها ينقسم الرقمين الاولين على اربعة. واعلن البابا، بعد ان استشار عدة جامعات وحاز على رضى وموافقة البلاط الملكي في البلاد الكاثوليكية، في منشوره Inter gravissimas بتاريخ 13 شباط 1582، ان يوم 4 تشرين اول سيصبح الخامس عشر منه<sup>5</sup>. ورفض البروتستانت "التقويم

<sup>5</sup> لذلك ماتت القديسة تريزيا الافيلية في الرابع من تشرين اول عام 1582، ودفنت في الخامس عشر منه.

الغريغوري" كانه صادر من "عدو المسيح" ولم يتبعوه الا في اواخر القرن الثامن عشر، ولا يزال المسلمون والارثوذكس يرفضونه.

**على الصعيد السياسي.** واجه البابا غريغوريوس الثالث عشر على الصعيد السياسي بعض النكسات. فقد فشل كسلفه في توحيد الاسبان واهل البندقية في حلف مقدس ضد الاتراك فتوصل كل واحد منهم على حدة الى اتفاقية سلام مع السلطان. ولم ينجح في جر الامراء الكاثوليك ورائه ضد اليزابيت ملكة بريطانيا.

الا ان اكبر النكسات كانت في اداراته لولاياته البابوية. فامام المصاريف الباهظة للقيام بكل الاصلاحات وبناء المؤسسات، اصيحت خزينة الكرسي الرسولي في عجز. ولم يكن امام البابا الا فرض ضرائب جديدة او استعادة املاك الكنيسة التي وزعت او اعطيت او تم اقتطاعها. فاخترت الثانية والى لجنة تعمل على اعادة هذه الاملاك الى الكرسي الرسولي، إما بعد موت من آلت اليه، وإما بسبب عدم تنفيذ بنود الاتفاق من قبل من كانت هذه الاملاك تحت تصرفه. لم تلق هذه الاجراءات قبول الاشخاص المعنيين، فقامت ضد الكرسي الرسولي الدعاوى الكثيرة في المحاكم، والى الاقطاعيون عصابات تحت قيادة صغار الالسياد وانتشرت الفوضى والاضطراب والمذابح في الولايات البابوية.

واستولى الحزن على البابا الذي رأى نفسه عاجزا عن وضع حد لهذه الفوضى فمات في العاشر من نيسان 1585 بعد ان ناهز التسعين من عمره، وهو يصلي ان يرحم الله كنيسته: "أنهض ايها الرب وأراف بمدينتك صهيون".

### (3) البابا سكتس الخامس (1585-1590)

يقال ان الضرورات صانعة الرجال، وقد صنعت هذه الضرورة من فليتشى بيرتي رجلا من اعظم البابوات واجلهم قدرا. ولد فليتشى في الثالث عشر من تشرين الاول عام 1521 في جروتامارى، قرب انكونا، في كوخ كان سقفه مهلهلا حتى نفذت منه اشعة الشمس، قال وهو كبير وعلى سبيل المزاح انه "ولد في بيت منير". تعلم في دير للفرنسيسكان بمونتالتو، وحصل على دكتوراة في اللاهوت من بولونيا وفيرارا، ثم ارتقى سريعا بفضل بلاغته واعظا وكفايته اداريا. فلما اختير لكرسي البابوية وهو في الرابعة والستين، كان الدافع لهذا الاختيار ان مجمع الكرادلة تبين فيه الشخصية الصلبة التي تتطلبها سلامة الدويلات البابوية وكفايتها المالية.

بيد ان اقاربه تزاخموا من حوله يمدون اليه اكفهم فلم يقو على ردهم، وهكذا عادت محاباة الاقرباء ترفع عقيرتها، ولكنه في غير ما يتصل باسرتة كان رجلا صلبا لا تلين له قناة. كان في منظره ذاته ما يستوقف النظر: رجل قصير القامة، عريض المنكبين، متين البنية، واسع الجبين، ولحية بيضاء كثيفة، ضخم الحاجبين، له عينان نفاذتان قادرتان على اسكات المعارضة دون كلمة. وكان وجهه المتورد ينسجم مع عنف طبعه، ورأسه الكبير يوحى بارادة لا تنتهي. على انه مع كل صرامته كان يملك روح الدعابة والفكاهة الذكية. وكان قليل النوم شديد العكوف على العمل.

### منجزات البابا سكتس الخامس

**اعادة الامن والنظام في روما والولايات البابوية:** عقد العزم اولاً على الضرب على ايدي قطاع الطرق<sup>6</sup>. فبدأ بتنفيذ حظر مفروض على حمل الاسلحة الفتاكة. وفي اليوم السابق لتتويجه قبض على اربعة شبان لانتهاكهم هذا الحظر، وامر سكتس بشنقهم فوراً. والتمس اقرباؤهم العفو عنهم او تأجيل التنفيذ، فاجاب "ما دمت على قيد الحياة فلا بد ان يموت كل مجرم اثم". وما لبثت ان تدلت اجسادهم من مشنقة نصبت على مقربة من جسر سانتانجيلو، وسط احتفالات التتويج، فكان هذا بمثابة الخطاب الافتتاحي لسكتسوس والبيان لسياسته في امر الجريمة. وامر البابا النبلاء بطرد افراد عصابتهم المأجورين، ووعد كل قاطع طريق يسلم اليه آخر حيا او ميتا بالعفو عنه ومكافأته، اما المكافأة فتدفعها اسرة اللص الاسير او موطنه. فاذا اذاع لص منهم تحديه للامر، امر سيكستوس اسرته ان يعثروا عليه ويأتوا به او يلقوا الموت جزاء لهم. وقد ارضى دوق اوربينو البابا، عندما حمل بغالا طعاما مسموما وامر سائقها بالمرور بمخباً قاطع طريق، وسرق اللصوص الحمل واكلوا الطعام وماتوا. ولم يكن هناك أي اعتبار للمراتب الكهنوتية او الاجتماعية، فالمدنوبون من الاسر الشريفة يعدمون دون رحمة او تأجيل، وكان بين المشنوقين كاهن خارج على القانون. تعرض البابا للتذمر بسبب قسوته، الا ان السفراء اخبروه انهم "اينما ساروا في دويلاته كانوا يجتازون بلدا يرفرف عليه السلام والامن".

<sup>6</sup> يقال ان عدد افراد العصابات التي كانت تعيث فسادا وخوفا في روما والولايات البابوية بلغ بين 12 و25 الف رجل.

**تنظيم مالية الكرسي الرسولي:** استلم البابا سكستس الخامس وضعاً مالياً سيئاً، سببه تبذير سلفه. فبفضل اقتصاد حكيم، وتخفيضات في المصاريف ونفقات البلاط البابوي، وبفضل زيادة في الضرائب، استطاع سكستس الخامس أن ينظم المالية، ويضمن في خزينتها مبالغ كبيرة سمحت له القيام بأعمال كثيرة في إصلاح وتجميل روما، وفي دعم الأمراء الكاثوليك مالياً في صراعهم ضد الهراطقة.

**تعمير وتجميل مدينة روما:** كان هم سكستس أيضاً أن يؤمن لسكان روما العيش اللائق، وجعل من مدينتهم روما أجمل المدن من الناحية الفنية. فقام بالكثير من الأعمال العامة الكبيرة والصغيرة من بناء قنوات لجلب المياه، وشق الطرق والطرق، وبناء الأحياء الجديدة، والمستشفيات. وأنهى بسرعة الأعمال التي كانت قائمة في كنيسة القديس بطرس، وهو الذي رفع في وسط ساحتها المسلة المصرية، ووضع في قمته الصليب، علامة انتصار المسيحية على الوثنية. ونفخ الحياة في جامعة روما فنشطت بكل قوتها. ورغبة في تدبير المكان الكافي للعدد المتعاظم من الكتب كلف دومنيكو فونتانا بتصميم بيت جديد فخيم يضم مكتبة الفاتيكان، وزودها بمطبعة لطباعة أعمال المجامع وآباء الكنيسة. وأشرف بنفسه على طبعة منقحة من ترجمة القديس ايرونيموس اللاتينية للكتاب المقدس، تضارع في روعتها الترجمة الإنجليزية للكتاب في عهد الملك جيمس الأول.

**على الصعيد الإصلاح الديني:** لم ينس سكستس الخامس، في غمرة هذه الأعمال الكبيرة قضية الإصلاح. فقد وجد الوقت للحكم والإصلاح. فأخفى حرب المصادر التي خاضها غريغوريوس الثالث عشر مع الأشراف. ووفق بين عدوين قديمين هما إلى أورسيني وآل كولونا إذ وحد بينهما بالزواج. وأعاد تشكيل مجلس الكرادلة، بمرسومه Postquam verus ille، بتاريخ 3 كانون أول 1586، حيث حدد عدد الكرادلة بسبعين، موزعين على ثلاثة أنواع: 6 كرادلة-أساقفة، و خمسين كرادلة-كاهناً، وأربعة عشر كرادلة-شماساً، يتم اختيارهم من جميع أمم العالم، من بين رجال أكفاء جديرين بهذا المركز. كما أعاد تنظيم الكوريا البابوية Curie Romaine بمرسومه Immensa aeterni Dei، بتاريخ 22 كانون ثاني 1587. وأنشأ خمسة عشرة جمعية Congrégations، مهمتها مساعدة البابا في إدارة وحكم الدولة البابوية والكنيسة. وأمر رجال الأكليريوس باتباع جميع قرارات الإصلاح الصادرة عن مجمع ترانت، وطلب من الأساقفة تفقد الأديرة دورياً وإصلاحها.

**على الصعيد السياسي:** أما شغله الشاغل فكان السياسة الخارجية. فهو لم يفقد الأمل قط من إعادة إنجلترا والمانيا إلى الحضيرة الكاثوليكية وتوحيد كلمة العالم المسيحي ضد الإسلام. أعجبه كفاية اليزابيث في السياسة والحكم، ولكنه مد يد العون للمؤمنات التي استهدفت خلعتها. ووعده بالمساهمة في نفقات الأرمادا الإسبانية، ولكنه ارتاب في تباطؤ فيليب، واشترط في دهاء أن تكون معونته رهناً بنزول الجيوش الإسبانية فعلاً على أرض إنجلترا. وكانت فرنسا مشكلته الكبرى. فالهيجونوت الذين افترض أنهم أيدوا عام 1572 كانوا يزحفون على باريس بقيادة هنري نافار الذي لا تكل له عزيمة. وكان فيليب الثاني يمول الحلف لينقذ فرنسا من براثن البروتستانتية ويحفظها للكاثوليكية ولاسبانيا. وكان على سكستس أن يختار بين أمرين: إما أن يترك فرنسا تنحرف إلى البروتستانتية، وإما أن يعين فيليب على تحويل فرنسا إلى ولاية إسبانية. ولكن توازن القوى بين فرنسا وإسبانيا بدأ لا غنى عنه للبابوية إن أرادت التحرر من سلطان القوى الدنيوية. وفي عام 1589 وعد سكستس بالاشتراك في حرب ضد هنري، ولكنه انسحب من هذه الخطة حين تعهد هنري باعتناق الكاثوليكية. وهدد فيليب بسلخ إسبانيا من واجب الطاعة للبابا، ولكن سكستس لم يهتز، فاستقبل سفير هنري بالترحاب، وتبين آخر الأمر أنه على حق في ثقته بهنري، وقد انقذت الكنيسة فرنسا، واستمرت فرنسا ميزان قوة ضد إسبانيا.

وكان هذا آخر انتصاراته، ولعل الجهد الذي بذله فيه أضناه. فمات في السابع والعشرين من اب 1590 على أثر حمى قوية.

#### (4) البابا اربانوس السابع 15-27 ايلول 1590

مات البابا اربانوس السابع - الكردينال جان باتيست كستانيا Jean-Baptiste Castagna - بعد انتخابه باثنى عشر يوماً وقبل تنويجه.

#### (5) البابا غريغوريوس الرابع عشر

(5 كانون أول 1590 - 15 تشرين أول 1591)

ملك هذا البابا عشرة اشهر وعشرة ايام. اشتهر بتقواه وتقشفه. ابتعد عن سياسة الحياذ التي اتبعها سكستس الخامس، واتخذ موقفا معاديا لنهري دي نافار وحرمه، وانضم الى الحلف المعادي له ودعّمه بالمال والجيوش. اما في مجال الاصلاح، فقد أنشاء لجنة لمراجعة ترجمة الكتاب المقدس المعروفة "بالفولغاتة السكستية".

## (6) انوسنت التاسع

29 تشرين اول - 30 كانون اول 1951

ملك هذا البابا مدة شهرين، واتبع سياسة سلفه بالنسبة لفرنسا.

## (7) كليمنضوس الثامن (1592-1605)

خلف انوسنت التاسع، الكردينال الدوبرنديني، في العشرين من كانون ثاني 1592، واتخذ اسم كليمنضوس الثامن. ولد في عام 1536، في مدينة فانو Fano من اعمال مقاطعة فلورنسا. رفاه البابا سكستس الى درجة الكاردينالية. عُرف عنه تقواه، فقد كان يعترف كل مساء، وحياة التقشف، حيث كان يكتفي بالقليل على مائدته، وحيث كان يدعو اليها الفقراء ليشاركوه اياه، كما وعُرف عنه نشاطه وحبه للعمل.

**على صعيد الاصلاح:** اختار البابا كليمنضوس الثامن كرادلة اكفاء امثال بارونيوس Baronius، وبلارمن Bellarmin، وتوليه Tolet، وغيرهم. واتم مراجعة الفولغاتا التي عهد البابا غريغوريوس الرابع عشر الى لجنة لمراجعتها، فمنع في برأته Ad perpetuam memoriam عام 1592، نشر وقراءة الترجمة السكستية، واصدر الترجمة الكليمنتية La Bible Clémentine، التي ظلت الترجمة الرسمية للكنيسة، حتى عهد البابا بيوس العاشر. ونشر طبعات جديدة لكتاب الفرض، والقداس، والفهرس وكتب المراسيم "Pontifical et Cérémonial" وحدد القواعد الليتورجية التي يجب على كنيسة الروم الكاثوليك اتباعها. وأنشاء "مجلس المساعدة Congrégation de Auxiliis"، بهدف الحكم وانها الجدول القائم بين الدومنيكان واليسوعيين حول النعمة الفعلية "La Grâce actuelle".

**على صعيد السياسة الخارجية:** اتبع في البداية سياسة اسلافه ودعم الحلف المعادي لفرنسا. ولكن عندما اتضح له صدق ارتداد هنري نافار الى الكاثوليكية من الكالفينية في عام 1593، منحه الحل من الحرمان، ورفع عنه المنع في عام 1595. واستطاع بهذا التقارب مع فرنسا وبمساعدة هري نافار ان يعيد مقاطعة فرارا الى ولاياته، واستطاع ايضا ان يقرب بين فرنسا واسبانيا في معاهدة فرنان Traité de Vervins في عام 1589. واحتفل في عام 1600 باليوبيل الكبير، الذي جلب الى روما ما يقارب الثلاث ملايين حاج. ومات في 3 اذار عام 1605.

## (8) ليون العاشر 1 نيسان - 27 نيسان 1605

انتخب مجلس الكرادلة، الكردينال Alexander Octavius de Medicis، رئيس اساقفة فلورنسا، ليخلف البابا كليمنضوس الثامن، تحت التأثير الفرنسي، واتخذ لنفسه اسم ليون العاشر. ولكنه لم يملك سوى 27 يوما.

## (9) بولس الخامس 1605-1621

انتخب مجمع الكرادلة وبالاجماع في السادس عشر من ايار 1605، الكردينال كاميل بورجزي Camille Borghese، الذي اتخذ اسم بولس الخامس.

ولد هذا البابا في روما عام 1552، عمل محاميا، ومبعوثا بابويا في اسبانيا. عُرف بتقواه وحسن سيرته واخلاقه، كما واشتهر بسعة علمه في القانون، ومهارته السياسية. وكان يُنتظر منه ان يكون المواصل لحبرية سكستس الخامس وكليمنضوس الثامن، ولم يجيب الامال. فعلى مثالهما، بذل نشاطا كبيرا على صعيد ادارة ولاياته، وعلى الصعيد الروحي في الكنيسة، وكذلك على الصعيد السياسي.

**على صعيد ادارة وحكم الدولة البابوية:** سار على منوال البابا سكستس الخامس، فوجدت فيه العلوم والفنون نصيرا كبيرا. فامر بتنفيذ اعمال كبيرة في تجميل مدينة روما، ومد القنوات لجلب المياه اليها، وبنى وجدد الكثير من الكنائس، وعمل خصوصا على انهاء العمل في كنيسة القديس بطرس، واغنى مكتبة الفاتيكان بالمخطوطات والكتب.

**على الصعيد الروحي في الكنيسة:** سهر على تطبيق مقررات مجمع ترانت. وشدد على واجب الإقامة Residence، واجبر جميع الكرادلة والاساقفة المقيمين في روما، على الالتحاق بابرشياتهم او الاستقالة. ومنع استعمال مدخول الكنيسة في اداء مصالح شخصية. وشجع همة رعاة النفوس في الاهتمام بتعليم المؤمنين. واعطى دفعة كبيرة لحركة الارساليات والتبشير. واعلن قداسة كل من الكاردينال شارل بورمييه، وفرانسوا رومين، كما واعلن تطويب اغناطيوس دي لويولا، وفيليب نيري، وتوماس دي فليلانيف، وتريزيا الافيلية ليكونوا مثالا للمؤمنين يحتذى به. وثبت تأسيس عدة جمعيات رهبانية جديدة. وبدأت على زمنه قضية غاليلو.

**على الصعيد السياسي:** كان الصراع مع البندقية اهم حدث سياسي على زمنه. فقد تحدثت البندقية البابا، واعترفت بالملك هنري الرابع ملكا على فرنسا، بالرغم من حرمانه، ورفضت اعلان مقررات مجمع ترانت، كما منعت بناء الكنائس والاديرة والمستشفيات، او شراء ممتلكات تعود الى العلمانيين بدون اذن مسبق من السلطات المدنية. واخيرا ارادت محاكمة رجال الاكليروس ان تكون امام المحكمة المدنية ولا امام المحكمة الكنسية، كما نصت عليه الاتفاقيات. فكر البابا باعلان الحرب على البندقية، بعد ان لم تنفع فيها العقوبات الروحية من حرمان ومنع. الا ان تدخل ملك فرنسا وتواسطه بين البندقية والبابا، ادى الى حل القضية بدون حرب. كما تدخل البابا في انكلترا ومنع الكاثوليك من اداء يمين الولاء للملكة اليزابيث. كما دُعي البابا الى الانضمام الى الحزب الكاثوليكي في حرب الثلاثين عاما، التي بدأت في عام 1618، وبعد تردد، احتفل في 8 تشرين ثاني 1620، باول انتصار للكاثوليك. وفي اثناء الاحتفال اصيب بنوبة صرع، مات على اثرها بعد ثلاثة اشهر في 28 كانون ثاني 1621، بكل مشاعر التقوى والاستسلام لمشيئة الله.

## (10) غريغوريوس الخامس عشر 1621-1623

انتخب مجلس الكرادلة في التاسع من شباط 1521، الكاردينال السندرو لودوفيزي Alessandro Ludovisi، رئيس اساقفة بولونيا Bologna، بابا، بعد ان تنازل كل من الكاردينال بلارمني وفردريك بورمييه، عن قبول عن الشرف. ولد هذا البابا في بولونيا عام 1554، وكان عند انتخابه متقدما في السن، قصير القامة، منهكا من المرض، الا انه كان يشتغل بنار الغيرة الدينية. وبفضل مساعدة ابن اخيه، الكاردينال لودوفيزي، البالغ من العمر خمسة وعشرين عاما، استطاع ان يحقق في مدة حبريته القصيرة، سنتان ونصف، انجازات كبيرة وهامة على الصعيدين الديني والسياسي.

**على الصعيد الديني:** حقق البابا غريغوريوس الخامس عشر على الصعيد الديني عمليتين رئيسيتين: تجديد قوانين انتخاب البابا، وانشاء "مجلس نشر الايمان Congrégation de la Propagande".

(أ) تجديد قوانين انتخاب البابا: كان يتم انتخاب البابا حسب مرسوم البابا نقولا الثاني عام 1059، من قبل سبعة كرادلة - اساقفة، يقوم بعدها الاكليروس والشعب بالموافقة عليه، ثم يقدم للامبراطور للتصديق عليه. الغى مجمع اللتران الثالث عام 1189، ضرورة الحصول على موافقة الاكليروس والشعب، وتصديق الامبراطور، وقرر في حالة عدم اتفاق الكرادلة على مرشح ان يتم الحصول على ثلثي الاصوات. اراد البابا غريغوريوس الخامس عشر، والمعروف بعلمه القانوني، ان يحدد قانون بوضوح طريقة انتخاب البابا، واصدر في 15 تشرين اول عام 1521، مرسوما Aeterni Patris، حدد فيه ان انتخاب البابا ممكن ان يتم باحدى الطرق التالية:

(1) **التهتاف او السجود L'acclamation ou adoration:** وذلك عندما يقوم الكرادلة، وبالهام من الروح القدس، بتسمية البابا عفويا بدون انتخاب. هكذا كان مثلا بالنسبة للبابا غريغوريوس السابع. وحتى يكون هذا الاختيار سليما وصحيحا valide، يجب ان يجوز على اجماع الكرادلة.

(2) **الاتفاق Compromis:** عندما لا يتوصل الكرادلة الى اتفاق على مرشح، يتم الالتجاء الى التحكيم. هكذا كان بالنسبة لكليمنطوس الرابع، وغريغوريوس العاشر، وكليمنطوس الخامس، ويوحنا الثالث والعشرين. وحتى يكون الاختيار سليما وصحيحا، يجب ان يقبل الكرادلة بالاجماع قرار التحكيم.

(3) **الانتخاب او بالارتقاء Scrutin ou accession:** وهي الطريقة العادية، حيث يكتب كل منتخب اسمه واسمه مرشحه على ورقة. ويجب على المرشح الحصول على ثلثي الاصوات. وفي حالة عدم حصول أي من المرشحين على ثلثي الاصوات، يمكن ان يتم انتخاب احدهم بالارتقاء، أي عندما يسحب بعض المنتخبين اصواتهم ويعطوها الى مرشح اخر يمكنه ان يحصل بذلك على ثلثي الاصوات.

(ب) انشاء "مجلس نشر الايمان": بلغت عملية التبشير اوجها في بداية القرن السابع عشر، الا انه كان ينقصها التنظيم والاموال. اراد البابا غريغوريوس الخامس عشر ان يسد هذين النقصين، فأنشأ "مجلس نشر الايمان" عام 1622، المؤلف من ثمانية عشر كردينالا وبعض الاساقفة، وعهد اليه الاهتمام بالمسائل المتعلقة بنشر الايمان والتبشير وارتداد الهرطقة وعودة المنشقين. وبفضل كرم البابا وابن اخيه الكردينال لودوفيزي، وبفضل عظات الواعظ الشهير جيروم دي نارني Jérôme de Narni، استطاع هذا المجلس ان يحصل على الاموال اللازمة، مكنته من اعطاء دفعة جديدة للعمل التبشيري.

وظهرت ايضا غيرة البابا الدينية، بتشجيعه للجمعيات الرهبانية وخصوصا الجديدة منها. واطهر تقديره لليسوعيين، الذين تعلم على ايديهم، باعلان قداسة كل من اغناطيوس دي لويولا، وفرانسوا كزافييه، وتطويب كل من لويس دي غونزاغا، ستانسلاس كوستكا. كما واعلن قداسة فيليب نيري، وتريز الافيلية وغيرهم. وشجع التعبد للقديس يوسف، وبدون ان يتخذ موقفا من الجبل بلا دنس، منع أي جدال ومنع ان ينفي احد سواء علانية او بالاجتماعات الخاصة، الاعتقاد العام حول هذا الامتياز المريمي.

**على الصعيد السياسي:** استطاع البابا غريغوريوس الخامس عشر بمهارته السياسية ان يحصل على نتائج ايجابية على الصعيد السياسي في المانيا وفرنسا.

تدخل في المانيا بحرب الثلاثين عاما، ودعم بالاموال الامبراطور فرديناند الثاني. فبعث هذا اليه بجزء من مكتبة الامير المختار المهزوم لمقاطعة البلاتينا Palatinat، وعُين الامير مكسميليان دي بافير الكاثوليكي اميرا منتخبا لهذه المقاطعة، مما زاد في الاصوات الكاثوليكية في مجلس الامة الالمانى: خمسة على سبعة.

وارتبط بعلاقات حسنة مع الملك الفرنسي لويس الثالث عشر، عندما رقى كرسي اسقفية باريس الى رئاسة اسقفية مستقلة. وحظى على استحسان ورضى الملكة الوصية على العرش ماري دي مديتشي، بتعيينه كردينالا لمرشدها، ارماند ريشليو Richelieu، الذي سيدبر دفة السياسة الفرنسية. وحصل بواسطة هذه العلاقة الطيبة ان تقوم فرنسا بحماية مسيحي الشرق بعد اغتيال السلطان عثمان الثاني ودخول تركيا في فوضى دموية.

مات البابا غريغوريوس الخامس عشر في الثامن من تموز 1623.

## (11) اربان الثامن 1623-1644

خلف غريغوريوس الخامس عشر، الكاردينال مافيو بربيريني Maffeo Barberini، واتخذ اسم اربان الثامن. ولد في عائلة كبيرة من فلورنسا في عام 1568، فكان في السن الخامسة والخمسين عند ارتقائه الكرسي البابوي. تلميذا لليسوعيين، اشتهر بثقافته العالية، الا ان طبعة الشخصي والمسيطر، سبب له الكثير من المشاكل مدة حكمه الذي دام واحد وعشرين عاما، مما سبب في خفض هيبة الكرسي الرسولي.

**على الصعيد الديني:** اظهر اربان الثامن الكثير من الغيرة، في تصليح المساوىء وانجاح مقررات الاصلاح. فاعاد مراجعة المرسوم In Coena Domini، الذي اعلن مقررات مجمع ترانت، واعطها شكلها النهائي بمرسومه Pastoralis Romani Pontificis vigilanda، في نيسان 1627، وامر بقراءته كل سنة في يوم خميس الاسرار.

اظهر اربان الثامن ايضا اهتماما كبيرا بالاراساليات، فمدد في امتياز "مجلس نشر الايمان" وبني عمارة خاصة مركزا لهذا المجلس مع كلية لاهوتية Collège Urbain، لتحضير وتهيئة و تثقيف اكليريكيين من كل انحاء العالم ومن كل الالوان والجنسيات، وارسالهم الى حقول التبشير المختلفة في البلدان المختلفة.

اعلن البابا اربان الثامن، قداسة اليزابيت البرتغالية، واندريا كورسيني، وطوب فرانسوا دي بورجا، وجيتان دي تين، واندريا افيليني.

وفي المجال الليترجي، عمل على مراجعة كتاب الفرض الالهي، وادخل اليه الكثير من القديسين، وجدد الكثير من الاناشيد.

**على الصعيد الزماني:** كانت سياسة اربان الثامن وخيمة العواقب وسيئة لسطة الكرسي الرسولي وللمصالح الكاثوليكية.

فحتى يجد من توسع قوة وسلطة ال هابسبورج، التي رأى فيها خطرا على ايطاليا والولايات البابوي، وبدافع من انحيازه الى السياسة الفرنسية التي قادها ريشليو، فقد شجع تقريبا انتصار الحزب البروتستنتي في حرب الثلاثين عاما،

واثار عليه غضب الامبراطور فرديناند الثاني، الى درجة التهديد بغزو روما. وفي اواخر حكمه، اثار البابا عليه لا غضب الامبراطور فقط، بل وغضب ريشليو الذي دخل معه في صراع حول موقفه من حرب الثلاثين عاما. وساءت علاقته مع جمهورية البندقية، ومع ملك البرتغال الذي رفض الاعتراف به خوفا من اسبانيا.

وحدثت في اواخر حكمه حادثتان اسهمتا في تكدير حياته وعملت في تسريع موته في السابع من تموز 1644، وهما قضية غاليليو، وما دعي "بحرب كاسترو" التي جرته اليها عائلته ال بريريبي التي اظهر نحوها الكثير من الضعف.

## (12) انوسنت العاشر 1644-1655

انتخب الكاردينال جان باتيست بامفيلي Jean-Baptiste Pamphili، خلفا للبابا اربان الثامن في الخامس من ايلول 1644، واتخذ اسم انوسنت العاشر. وكان هذا البابا كهلا في السبعين من عمره، سهل التعامل، ذا طبع مرح، وقلب كبير كريم، مما جعل له شعبية كبيرة بين مواطنيه.

**على الصعيد الديني:** تابع انوسنت العاشر بكل غيرة عملية الاصلاح. فسهر على تطبيق مقررات المجمع، وشجع الوعاظ على الوعظ والتعليم لاعادة تجديد الكاثوليكية بين الاوساط الشعبية. وادان اثناء حكمه البنود الخمسة للجنسينية Jansénisme.

**على الصعيد الزمني:** عمل بحزم وشدة على اعادة الهدوء والنظام في روما والولايات البابوية الاخرى، التي عكرت صفوها سياسة البابا اربان الثامن العائلية في اواخر حياته. واقام المحاكم ضد عائلة باريريبي، التي بدافع من الجشع والطمع، اثارت حولهم الكثير من الحقد. ولما رأى الشعب انه تم ايقافهم وتجديدهم من كل ممتلكاتهم ومناصبهم، صفق استحسانا لصرامة البابا ضد المستغلين. الا ان عائلة باريريبي استطاعت ان تهرب الى فرنسا، واستجارت بحكومتها، فاقففت المحاكم، واستعادت عائلة بربريني تقريبا كل ممتلكاتها. وكان البابا في ذلك الوقت بحاجة الى من يغض النظر عنه، اذ كان قد اغدق بعطاياه الكثير من افراد عائلته.

كان انوسنت العاشر محبا للفخامة، فتابع اعمال البابا بولس الخامس، بان امر بتنفيذ مشاريع كبيرة في سبيل تجميل روما. وعهد الى بريني Bernini، مهمة تزيين داخل كنيسة مار بطرس، وبناء الاعمدة الضخمة في ساحة القديس بطرس، وجدد ايضا كنيسة القديس يوحنا للتران وجمالها وزينها. وفي عهده تم تشييد قصر دوريا، والنبع الرئيسي في ساحة نافونا، وكنيسة القديسة اغنيس.

اما في السياسة الخارجية، فتم في عهده توقيع اتفاقية "سلام وتسفليا La Paix de Westphalie" (1648)، التي اتمت حرب الثلاثين عاما، وجاءت في اكثرية بنودها الدينية ضد موقف الكنيسة الكاثوليكية. واعلنت في بندها الخامس، مساواة جميع الطوائف المسيحية، وتفوق السلطة الزمنية، وهما مبدآن معارضان لتعليم الكنيسة. ووضعت الحكومات هذه البنود حيز التنفيذ، وقامت هي بأخذ المبادرة بتنفيذ الاصلاح، فدبرت مشكلة املاك الكنيسة بدون الرجوع الى البابا، واعطت الامراء البروتستنت حق تملك الكثير من املاك الاديرة والكنائس، والغاء الكثير من الاسقفيات التابعة لسلطة البابا.

اعترض البابا بشدة على هذه البنود واعلنها "باطلة، وغير صحيحة، وظالمة، ومرفوضة... كل بنود الاتفاقية التي تسيء الى الديانة الكاثوليكية، وللعبادة الالهية، وللكرسي الرسولي الروماني، ولكل الكنائس التابعة له" (مرسوم Zelus Domus meae سنة 1648).

ولم يُسمع احتجاج البابا كثيرا في الخارج لعلم الجميع بمشاكله الداخلية. فقد اصبح البابا تحت تأثير امرأة وابناء اخيه، واثار "بمحابة الاقارب" استنكار الاحزاب القديمة، وخصوصا عائلة بربريني، ولم يحظ حتى ولا على عرفان جميل هؤلاء الاقارب، اذ عندما توفي في السابع من كانون ثاني 1655، رفضت زوجة اخيه وابناؤها، ان يتكفلوا بمصاريف جنازته.

## (2) الاساقفة

وجد البابوات في نخبة كبيرة من الاساقفة معاونين اكفاء مخلصين في عملية الاصلاح الكاثوليكي. ومن بين الذين لعبوا دورا رئيسا في هذه العملية يجدر بنا ان نذكر: (1) الكاردينال البولندي، ستانسلاس هوسوس Stanislas Hosius (1504-1579)، الذي جعل منه البابا بيوس الرابع احد رؤوساء مجمع ترانت، وكان من اقوى المدافعين



عن الايمان الكاثوليكي في بولندا وبروسيا، بنشاطه الرعوي وكتابه اللاهوتية. (2) القديس توما دي فيلانيف Thomas de Villeneuve (1488-1555)، رئيس اساقفة فلانز، الذي عمل بقوة للاصلاح، لدرجة انه دُعي "الرسول الجديد لاسبانيا". اختاره شارل الخامس واعطا للبلاط الملكي، فترك كتابات وعظية رائعة. (3) برتولومي دي مارتير Barthélemy des Martyrs (1514-1590)، وكان في الفترة الثالثة من مجمع ترانت، من انشط الاعضاء في العمل على اصلاح الاكليروس. وهناك جوقة من الاساقفة من كل انحاء العالم الكاثوليكي التي عملت اما على الصعيد الكنسي اما على الصعيد الفردي، وساهم كل واحد منهم بقدر ما في عملية التجدد الكاثوليكي. من كل هؤلاء نكتفي هنا بالحديث عن اثنين من اشهرهم:

## (1) شارل بورميه St. Charles Borromée

ولد شارل في ايطاليا في مدينة ارونا Arona في الثاني من تشرين اول 1538. وكان الابن الثاني للكونت جيبرتو Giberto ومارغريتا دي مديتشي Margherita de Medici اخت البابا بيوس الرابع. ومع انه تنقصنا المعلومات عن سنين حياته الاولى، الا انه عُرف عنه منذ صغره تقواه ووداعته، كان تحضير الهيكل وتقليد الكهنة في احتفالتهم الدينية التسلية المفضلة لديه.

دخل في سن الثامنة السلك الاكليريكي، واصبح بمقدوره ان يحصل على منصب يدر عليه مدخولا. وتنازل له عمه جوليو بورميه في عام 1550 عن منصبه كرئيس دير سان غراتسيانيانو وفيلينو Sts. Gratiano et Felino بهذا اصبح وهو على عمر 11 عاما مدبرا لدير مهم واطهر في ذلك كفاءة عالية وهمة لا تعرف الكلل وضمير حي، ومحبة بلا حدود، واذ ما عمل على جعل ايراداته اكبير انما ليعطي الفقراء اكثر.

دخل في عام 1552 جامعة بافيا Pavia وتخرج منها بعد سبع سنوات دكتورا في العلوم القانونية. وعندما أُنتخب عمه بعد ذلك ببعض اسابيع (31 كانون ثاني 1560) بابا باسم بيوس الرابع، استقدمه الى روما، وجعل منه كردينا لا وامينا لسره، ثم عينه بالتوالي رئيس اساقفة ميلان، ومبعوثا الى بولونيا Bologna، وعضوا في اللجنة التي أنشأها البابا لمساعدته في ادارة الدولة البابوية. لم تفأجىء تكديس هذه المسؤوليات والمناصب على شاب لم يبلغ بعد العشرين عاما، في عصر اشتهر "بمحابة الاقارب". الا ان هذه المرة كان المعين على قدر كبير من المسؤولية. ورأينا العمل الكبير الذي قام فيه مع عمه البابا بيوس الرابع في سبيل متابعة ومواصلة اعمال مجمع ترانت وفي اعداد قراراته وخصوصا في نشر كتاب التعليم المسيحي التريدينيني.

لنقي في هذه الصفحات نظرة على ما قام به هذا الاسقف القديس بعد اختتام مجمع ترنت.

عاد الاسقف شارل بورميه في الثالث والعشرين من ايلول 1565 الى ابرشيته، واتخذ من ميلانو مقرا دائما، معطيا بذلك المثل على الاقامة والثبات، وهي احدى قرارات المجمع. ودشن عمله بدعوة الى عقد مجمع اقليمي حضره احد عشر من اساقفته المساعدین Suffragants، اعلن في خلاله قرارات مجمع ترانت. ثم بعد غياب عدة اشهر قضاه قرب عمه البابا بيوس الرابع المريض، الى ان لفظ انفاسه، وبعد ان ساهم في انتخاب خلفا له البابا القديس بيوس الخامس، عاد من جديد الى ابرشيته الواسعة والشاسعة، حيث كانت تضم بجانب الجزء الايطالي جزءا من سويسرا ومن جمهورية جنوى، وكانت تضم 15 اسقفية تابعة. وفي هذا الحقل الواسع عمل شارل مدة 19 عاما على اصلاح الاكليروس العلماني والرهباني وعلى تقويم اخلاق الشعب المسيحي.

(1) عمل هذا الاسقف القديس اولا على احاطة نفسه بكهنة صالحين ليعمل معهم في عملية الاصلاح. عرف هذا الرجل القديس اهمية الاعتماد على نخبة من المعاونين الكفاء المخلصين لادارة ابرشية. وذهب في البحث عنهم في كل مكان، ولم يستنكف في بعض المرات عن اختطافهم من الابشيات الاخرى. واتصل بالخصوص بجمعيات الاكليروس الرهباني الجديدة والشابة، كالتياتين والبرنابيت واليسوعيين ليجد عندهم مثل هذه العناصر والتعاون. وفي عام 1565، سلم الى اليسوعيين ادارة الاكليريكيات الصغرى التي أنشأها في عدة مناطق من ابرشيته، كما وسلم اليهم فيما بعد الاكليريكية الكبرى.

(2) اعترف ايضا هذا القديس باهمية وجود اكليروس صالح محضر ومهيأ، فلم ييخل بشيء في سبيل تجنيد واختيار وتهيئة الاكليروس الابرشي. وأنشأ في سبيل ذلك "كلية بورميه" في بافي، و "كلية ارونا" لتأمين الاكليروس لسويسرا، وفي ميلانو الاكليريكية Helvétique.

(3) وعرف هذا القديس ايضا ان لا يكتفي بان يحيط نفسه بمعاونين اكفاء مخلصين، ولا بتهيئة اكليروس، وانما يلزم ايضا ان يعهد لهم الوظائف الملائمة وان يلزمهم باعطاء اكبر قدر من النتائج والثمار. من هنا لزوم مركزية الادارة مع حملات تفتيشية متكررة لشحذ همم وغيره الكهنة ولابعاد وتجنب كل اهمال. فجمع الثمائم رعية في ستين مركزا doyennés، وضع على رأس كل واحدة منها نائبا اسقفيا، مهمتهم السهر في مقاطعتهم على تطبيق مقررات المجمع المحلية. ولم يكتف شارل

بورمييه بالاستعانة بمؤلاء النواب وانما قام هو بنفسه بزيارة رعايا ابرشيته الشاسعة، حتى اصغر وابعده رعية منها، مستفسرا عن احوال واحتياجات الشعب والمؤمنين، مطالعا على التقدم الحاصل. وعقد خمسة مجامع اقليمية واحد عشر مجمعا ابرشيا اصدر خلالها القرارات التي رآها ضرورية ومهمة لابرشيته وتقدمها الروحي والمادي.

بهذا نرى ان نشاطه توجه دائما نحو نفس الهدف وهو تحقيق الاصلاح اولا لدى من هم مدعوون لأن يكونوا المثال والدليل للشعب المؤمن.

(4) اهتم أيضا الاسقف شارل بورمييه بأن يتم الاصلاح ليس فقط في الاكليروس الابريشي، وانما ايضا في الاكليروس الرهباني. فقد رأى ان الكثير من الاديرة اصابها روح التراخي، وخصوصا لدى اديرة النساء. وبما ان مجمع ترانت كان قد قرر ان يتم "اشباك" صالات الاستقبال لجميع اديرة الراهبات وترك فتاحات صغيرة يتم من خلالها محادثة الزائرين، فقد امر شارل بتنفيذ هذا القرار، مضطرا في بعض الاديرة وضع هذا "الاشباك" على حسابه الخاص امام ترددها ورفضها.

لاقى الاسقف شارل بورمييه في هذا المهمة الصعوبات ودخل في صراعات مع الرهبان. وبالخصوص مع رهبنة "المتواضعين Humiliates"، الذين كدسوا الاموال واصبحوا من الاثرياء واخذوا يعيشون عيشة البذخ، فرفضوا الانصياع الى اوامر الاسقف، الذي طلب منهم العودة الى اصول الحياة الرهبانية، وحرّم عليهم الامتلاك الفردي، الى حد ان احدهم اطلق النار على الاسقف وهو يصلي فجرحه جرحا بسيطا، ولكن ذلك زاد من احترام وتقدير الناس له، مما اعطى دفعا اكبر للاسقف لتخطى الصعاب ومواصلة عمله الاصلاحية.

(5) كان هدف شارل بورمييه من التشديد على الاهتمام بالاكليروس كهنة ورهبانا وراهبات، رغبته في ان يكونوا ادوات تقديس للشعب المؤمن. اظهر هو نفسه ذلك من خلال عيشة مثالية، اتصفت بالتقشف والصلاة وبذل الذات وتفان بلا حدود. وكان يواظب على الوعظ والتعليم المسيحي، مؤسسا لذلك "مدارس التعليم المسيحي"، حيث كان يجتمع في ايام محددة وساعات محددة ببناء الرعايا كل في رعيته، وكان كاهن الرعية يلقي خلالها دروسا في العقيدة المسيحية بأسلوب سهل وواضح. واراد شارل ان تكون هذه المدارس ايضا واسطة لجذب المؤمنين لممارسة الاسرار المقدسة وخصوصا المناولة، التي ارادها ان تكون يومية، وواسطة لتهديب اخلاق الشعب بالفضائل والاخلاق المسيحية، ويبعدهم عن اللهو البذيء من مسارح ورقص واحتفالات تنكرية وخصوصا حفلات الكرنفال.

(6) في عام 1578، حقق شارل بورمييه فكرة كانت تراوده من مدة، وهي تأسيس جمعية كهنوتية خاصة به. اذ وجد ان الجمعيات الرهبانية التي التجاء اليها بهدف مسانده ومساعدته، لم تتجاوب معه بالشكل الصحيح والكافي، وانما حافظت تجاهه على كثير من الاستقلالية<sup>7</sup>. فعمل على جمع نخبة من كهنته في نوع من الاخوية، هدفها مسانده في اعادة الحياة الدينية في ابرشيته. دعيت هذه الاخوية اولا باسم Oblats de St. Ambroise وبعد موته سميت باسمه Oblats de St. Charles. وكان اعضاء هذه الاخوية الكهنوتية، يتعهدون - بدون ندور دائمة - بعيش المشورات الانجيلية، وقسم يمين الطاعة الكاملة للاسقف، الذي في استطاعته ان يعتمد على غيرهم وحماسهم لاية مهمة يعهد بها اليهم.

هذه باختصار بعض اعمال هذا الاسقف القديس الذي مات ولم يكمل يبلغ بعد السادسة والاربعين. ففي اواخر شهر تشرين اول عام 1584، وبعد رياضة روحية قضاه في مزار فرالو الشهير (Varallo)، اصابته نوبات من الحرارة، مات على اثرها في الرابع من تشرين ثاني من السنة نفسها، منهكا من ثقل المسؤوليات التي القيت عليه، تاركا ذكرى حياة مليئة بالاعمال الجليلة، والتي ظهرت نتائجها، ليس فقط في ميلانو وايطاليا، وانما ايضا في العالم المسيحي وخصوصا فرنسا، حيث كان بريل Berulle وبوسيه Bossuet والقديس فرانسيس دي سالس François de Sales من اكبر المعجبين به.

اعلنه البابا بولس الخامس قديسا في الاول من تشرين ثاني عام 1610.

## 2) القديس فرنسيس السالسي اسقف مدينة جنيف 1567-1622

### St. François de Sales

ولد فرنسيس في بلاد سافويا، في قصر سالس، في الحادي والعشرين من شهر آب سنة 1567. وكان والداه من اشراف تلك البلاد. وكا ابوه يدعى فرنسوا ويُلقب بامير سالس، اما والدته فرانسواز فكانت ابنة الامير دي بوازي، وكانت امرأة فاضلة تقية، واميرة كريمة غنية بالصدقات والاعمال الصالحة.

بدأ فرنسيس دروسه في مدرسة قريبة من قصر والديه، ثم ارسل الى المدرسة الاعدادية في انسي Ancey حيث بقي خمس سنوات، واطهر من النبوغ ما جعله يتفوق دائما على اقرانه في العلم والفضيلة. ومن أنسي ارسله ابوه الى باريس الى مدرسة كليرمون التي كان يديرها الآباء اليسوعيون، حيث اكب على درس البيان والفلسفة فلمع بذكائه وادبه وتقواه. فاحبه الجميع، وكان كلما ازداد علما ازداد فضيلة. وكانت في المدرسة اخوية على اسم العذراء مريم، وكانت تضم خيرة التلاميذ،

<sup>7</sup> لاحظ ان الجمعيات التي اتتمنها على اكليريكياته كانت تعمل على جذب وتحويل العناصر الجيدة الى جمعياتهم.

فاشترك فرنسيس فيها واضحى من اكثر الشبان عبادة وكراما ومحبة للعدراء. وسوف يبقى طول حياته الابن الكثير الحب لمريم البتول، بل سوف يكون الرسول الغيور على نشر عبادتها، وحمل الشعوب على كرامها والالتجاء الى حمايتها.

في هذه الفترة مرَّ فرنسيس بتجربة قاسية، وهي تجربة اليأس والقنوط. فقد انتشرت فكرة البروتستنت عن الاختيار وادت الى ازمت ضمير بين الكثير من اصحاب الضمائر الحية. فصار فرنسيس يرى نفسه من الهالكين، لا امل له في السماء. وصار يتخبط في دياجير ليل حالك، لا يدري كيف ينجلي عنه. الا انه رغم مخاوفه واضطرابه وذبول صحته، كان امينا مثابرا على الصلاة والاماتات، وكان على الاخص يبتهل الى العذراء ام الله لكي تشفع له لدى ابنها، وتخلص نفسه من الامها ومن قيودها. ومن فرط حبه لله كان يقول: "يا الهي، اذا كنت تحرمني محبتك في الابدية بسبب خطاياي وجهالات حياتي، فاعطني على الاقل ان تحبك نفسي في هذه الحياة الدنيا قبل مماتي". الا ان نعمة النجاة من هذه الازمة الخطيرة اتته من مريم العذراء ام الرجاء. لانه ما كاد يسجد امام تماثلها وينذر لله حفظ البتولية على الدوام ويعدها بتلاوة المسبحة الوردية كل يوم اكراما لها، حتى شعر في داخله بتغيير فجائي، وعادت اليه صحته رويدا رويدا، وعاد الى مألوف عاداته وعبادته وقرائه.

وبعد ان اتم فرنسيس علومه في باريس واكمل تهذيب قلبه واخلاقه على يد كبار رجال الرهبانية اليسوعية، عاد الى بيت ابيه شابا مكتملا مزينا باجمل مزايا العقل والقلب. فاشار عليه ابوه ان يدرس الحقوق، ففتفتح امامه ابواب الوظائف الرئيسية في الدولة. فذهب الى مدينة بادوفا، وفيها درس الحقوق واللاهوت، واكب على مطالعة مؤلفات توما الاكوييني وبونفنتورا، مع كتب الآباء الاقدمين، ونال فيها شهادة الدكتوراة في الحقوق، وعاد الى ذويه وكان قد صار ابن خمس وعشرين سنة.

### فرنسيس الكاهن

اراد له والده ان يدخل في السلك الحكومي حالما له بمستقبل كبير. الا ان فرنسيس اختار ان يسمع لدعوة الله. فعبر عن رغبته في ان يصبح كاهنا، وكان ابوه رجلا مؤمنا، فرضخ لارادة الله. وبما انه لم يكن هناك اكليريكات في مقاطعة سافوى بعد، استعد فرنسيس لقبول الرسامة الكهنوتية برياضة روحية استمرت شهرا واحدا في قصر سالس، قبل على اثرها الروتب الصغرى، ثم سيم كاهنا في 18 كانون اول 1593. وحالا بعد رسامته، بدأ فرنسيس حياته الرعوية. فكان يزور المرضى ويساعد المحتاجين ويعزي المتألمين ويغفر للتائبين الذين اموا كرسي الاعتراف الذي كان يشغله. ولكنه بالاخص كان يعظ.

كانت مدينة جنيف في تلك الايام معقل الشيعة البروتستانتية الكلفينية. وكانت البلاد التي تجاورها قد فقدت الكثير من ايمانها الكاثوليكي. فرسم الاب فرنسيس لذاته خطة رسولية كبرى وراح يحققها. كان عليه ان يجيي الايمان المقدس في قلوب المؤمنين، وان يرد الى حظيرة الرب الوف البعيدين عنها من المسيحيين. فبدأ بالقاء المواعظ الرسولية اولا في مدينة آنسي، وفي القرى المحيطة بها. فبرع في الخطابة وصار الناس يقبلون اليه معجبين، مغرمين بفضاحته وقداسته.

كانت مقاطعة "الشبله" Chablais الواقعة الى جنوب مدينة جنيف قد هاجمها البروتستانت الكلفينيون سنة 1536 ايام الحرب التي قامت بين ملك فرنسا وامير سافويا، وخربوا كنائسها وهدموا اديارها وشتتوا كهنتها، وفرقوا المؤمنين الكاثوليك فيها. ثم بثوا قسوسهم في كل مكان وابدوا الايمان الكاثوليكي في تلك البلد. فلما عاد هذا الاقليم من جديد الى اماره سافويا، رغب الدوق شارل عمانوئيل الى اسقف جنيف ان يبعث بمرسلين غير الى تلك البقاع، ليعيدها الى الايمان الكاثوليكي. وكانت المهمة خطيرة اذ كان الكاثوليك معرضين للقتل من قبل العصابات الكلفينية. ولم علم فرنسيس ان الاسقف يطلب مرسلين متبرعين لتلك المهمة الخطرة والشاقة، قدم نفسه. وسافر يرافقه ابن عمه لويس دي سالس، ولم يأخذ معه سوى كتاب الصلاة وبعض الكتب الدفاعية.

اخذ فرنسيس يصوم ويصلي ويلقي المواعظ في كل مكان في القرى والارياف، وعلى الاخص في مدينة تونون، حصن الشيعة الكلفينية. ورغم كل ما بذله من الجهود، قضى اشهرا طويلا بلا فائدة، وكمن له يوما ما بعض الاشرار ليقعوا به، ويتخلصوا من مواعظه، لكنه نجا منهم برباطة جأشه، وعدوبة كلامه. الا انه لم يقنط ولم يجزع، بل بقي متوكلا على الله، مثابرا في عمله. قرر فرنسيس ان يستعمل اسلوبا اخر، فبدأ بتحرير منشورات، اجاب فيها على اعتراضات البروتستنت، وعلقها في المدينة، ووزعها على البيوت. واخيرا بدأت ثمار اعماله تظهر، عندما ارتد عن الكلفينية اثنان من الطبقة الارستقراطية: البارون دافلاي Baron d'Avelay والمحامي بونسة Poncet، تبعهما رئيس المجلس Syndic السيد فورنييه Pierre Fournier. ولما احس بنفسه القدرة على مجابهة علماء البروتستنت، دعى الى محاوره علانية بينه وبين القسيس البروتستانتى. وافق هذا اخيرا مرغما بعد عدة محاولات تهرّب. كانت نتيجة هذه المحاوره التي دامت ثلاث ساعات واجاب فيها فرنسيس على كل التساؤلات، لصالحه. وما كادت تنتهي السنة الرابعة على تلك الرسالة الشاقة، حتى كان الاب فرنسيس يقول: كنت لا اجد في اقليم الشبله لدى وصولي اليه سوى خمسة عشر نفرا من الكاثوليك، ولا اكاد اجد فيه اليوم خمسة عشر من البروتستانت الكالفينيين".

فلما رأى اسقف جنيف ما كان من نجاح الاب فرنسيس، طلبه من دوق سافوى معاونا له في ادارة ابرشيته. فارسله الى روما واصحبه برسائل الى الحبر الاعظم ليستلم منه وثيقة التصديق. سُرَّ البابا كليمنضوس الثامن لسماع ما عمله فرنسيس واعجبته وداعته وتقواه وعلمه، فعمل هو بنفسه له الامتحان اللازم قبل القبول الاسقفية، ثم عينه، رغم ممانعته، معاونا لاسقف جنيف في ادارة ابرشيته، على ان ينال الدرجة الاسقفية ويخلفه بعد وفاته. وتعرف فرنسيس في روما على بعض كبار كتبة ومفكري ذلك العصر، امثال برونوس المؤرخ الكبير، وبلرمينوس اللاهوتي الشهير، وغيرهما، وتوثقت بينه وبينهم عرى صداقة قوية صادقة دامت مدى الحياة.

وعاد فرنسيس الى اسقفه، وقام بأعباء المهمة التي وُكلت اليه، بما عُرف به من تقوى وغيره ونشاط. وارسله اسقفه الى بلاط ملك فرنسا هنري الرابع، لتسوية بعض الامور، ونجح نجاحا كبيرا في مهمته، ودُعي مرارا الى الخطابة في كنائس العاصمة الفرنسية، وامام الملك، واعاد الى حظيرة الايمان الكاثوليكي اناسا كثيرين من عليية القوم.

### فرنسيس اسقف جنيف

توفي الاسقف غرانيه، اسقف جنيف، فخلفه فرنسيس، وقبل الرسامة الاسقفية يوم الاحد 8 كانون الاول عام 1602. واكب بكل قواه على العمل الرسولي في تلك الابرشية الكبيرة الصعبة المترامية الاطراف الكثيرة المشقات. ومن اهم اهتماماته:

(1) التعليم: كان تعليم الشعب احدى الاعمال المحببة والمفضلة لفرنسيس. ولم يكتفي بان اسس في كل ابرشيته دروس الدين المسيحي، وبان وصى كهنته، وحتى الرهبان منهم، ان يكونوا على استعداد دائم لمؤازرة كهنة الرعايا في تعليم الدين، بل قام هو بنفسه بهذه المهمة بكل غاية. كان كل يوم احد، يدعو سكان مدينة انسي، اغنياء وفقراء، للحضور لسماع دروس التعليم المسيحي، التي كان يلقيها بأسلوبه البسيط الجذاب، الممزوج بالقصص والحكايات والتشابه والاسئلة التي كان يوجهها بكل لطافة ونعومة للاطفال. ولاقى اسلوبه هذا ودروسه اعجاب ورضى الكثيرين، وجذبهم الى المداومة على هذه الدروس وابعادها كبيرة.

(2) تنشئة الاكليروس: اهتم فرنسيس ايضا وبكل غاية على تنشئة الكهنة. وبما انه لم يكن يملك الوسائل المادية لفتح معاهد الاكليريكية في ابرشيته، حاول التعويض عن ذلك بوسائل اخرى: كالمحادثات الروحية، والاعترافات، وفحص دعوة المرشحين رافضا بكل شدة من اراد التقدم من الكهنوت بهدف ارتقاء المناصب او كسب الاموال. وقام هو بنفسه بفحص فضائل وعلم المرشحين للكهنوت. وشدد على التعليم لدي الكاهن فقال في ذلك: "الجهل عند الكهنة اكثر خطورة من الخطيئة. لانه بالجهل لا يفقد الكاهن نفسه، بل ويخط من شأن الكهنوت... العلم عند الكاهن هو بمثابة السر الثامن في الكنيسة. ومن اكبر مآسي الكنيسة جاءت من كون العلم كان في ايد غير ايدي الكهنة... واذا كان الهراطقة قد عاثوا فسادا في الكنيسة، ذلك يعود الى استغلالهم لاهمالنا باننا حتى الان لم نفهم الكتب المقدسة". ونفذ قرار مجمع ترنت، يجعل منح المناصب الكهنوتية يتم بالمسابقة بين المرشحين لتجنب الوساطات والدسائس.

وقام فرنسيس ايضا يطوف المدن والقرى، يعلم وينشر، ويلقي المواعظ، ويرشد النفوس، ويساعد الفقراء، ويصلح احوال الاديرة معيدا اليها تقواها القديمة ونشاطها، وينشيء الاخويات التقوية والجمعيات الخيرية. فاخذ المئات من البروتستانت يعودون الى احضان الكنيسة الكاثوليكية.

### القديس فرنسيس السالسي والقديس حنة دي شنتال

التقي القديس فرنسيس سنة 1604 في مدينة ديجون بالبارونة حنة دي شانتال، وكانت سيدة شابة ذات ثقافة عالية وتقوى نيرة، وفكر سديد. فما كادت هذه السيدة تسمع القديس فرنسيس يلقي اول عظة من مواعظ الصوم الاربعيني حتى اعجبها اسلوبه وتقواه. وشعرت في نفسها ان الله ارسله اليها ليكون مرشدا لحياتها. فالتجأت اليه، وكاشفته بمكنونات قلبها وضميرها. سُرَّ فرنسيس لدى رؤيته الكنوز الثمينة المخبأة في ذلك القلب، ووجد فيها ما كان ينشده من زمان بعيد، في امرأة فاضلة يستطيع ان يكل الى عنايتها مشروع انشاء رهبانية للنساء وللبنات، على اسم زيارة العذراء. وغايته من ذلك ان يسهل الحياة الرهبانية للارامل وللبنات المسنات، ويؤلف منهن جمعية تتخصص لمساعدة المرضى الفقراء، فتزورهم وتساعدهم في امراضهم وشدائدهم. ففاتح البارونة دي شنتال في ذلك، فرضيت بلا تردد ان تكون ساعده الايمن في هذا المشروع الجليل. ولما كانت ارملة، وحررة طليقة، فاتمها رتبت امور بيتها واولادها، وخصصت قواها ومواهبها واموالها لهذا المشروع العظيم، فنشأت رهبانية "الزيارة" Les Soeurs de la Visitation، وكانت مدام دي شنتال رئيستها الاولى. ونجحت هذه الرهبانية بفضل وقداة فرنسيس والسيدة دي شنتال، وانتشرت وكثر عدد راهباتها وتعددت اديرتها. وقد جمعت راهبات الزيارة ارشادات الاسقف فرنسيس السالسي في كتاب دعونه "المحادثات الروحية" Entretiens spirituels. وثبت الحبر الاعظم البابا بولس الخامس هذه الرهبانية سنة 1618، وصادق على قوانينها وفرائضها المستوحاة من قوانين القديس اوغسطينوس. ومنها خرجت القديسة مرغريتا مريم الاكوك ناشرة عبادة قلب يسوع.

## كتابات القديس فرنسيس السالسي

وضع هذا الاسقف العالم تأليف شائقة حملت الحبر الاعظم البابا بيوس التاسع على ان يضعه في مصاف "معلمي الكنيسة" في سنة 1877. واهم كتاباته:

1. التوطئة في الحياة الروحية *L'introduction à la vie dévôte* وقد صادف هذا الكتيب نجاحا باهرا واثار في الكنيسة موجة من التقوى. ولا يزال الكثير من النفوس المكرسة تستعمل هذا الكتاب. وقد نُقل الى العربية بعنوان "مدخل العبادة".

2. بحث في محبة الله: Traité de l'amour de Dieu وهو من عيون الكتب اللاهوتية والروحية.

### وفاته واعلان قداسته

كانت الالتهاب والاسهال والاسفار قد اضنت جسمه واضعفت قواه، اذ كان لا يزال في مقتبل العمر. ففي شتاء سنة 1622 دعاه الامير دوق دي سافويا لمرافقته الى مدينة افنيون. فلبى الدعوة رغم اوجاعه. وفيما كان عائدا من تلك السفرة الشاقة وصل الى مدينة ليون، واصيب هناك بمرض الفالج. وفي اليوم التالي رقد بالرب في 27 كانون اول سنة 1622، ولم يكن له من العمر سوى خمس وخمسين سنة. فحُمل جسده الى مدينة انسي، بحسب وصيته الاخيرة، ودفن في كنيسة "راهبات الزيارة". اما قلبه، فارسل الى ليون، الى اول دير لرهبانية زيارة العذراء. ومن هناك نقلته راهبات معهن الى البندقية، الى الدير الذي انشأه فيها من بعد الثورة الفرنسية. واعلن البابا الكسندروس السابع قداسته في سنة 1665.

### 3- الجمعيات الرهبانية

ساهمت الجمعيات الرهبانية القديمة منها والحديثة والتي ستنشأ بعد المجمع، في عملية التجديد في الكنيسة الكاثوليكية، حسب مقررات مجمع ترانت.

كانت الجمعيات الرهبانية من اكثر المؤسسات الكنسية التي تعرضت لنقد الثورة الدينية التي قام بها لوثر في بداية القرن السادس عشر. وحتى قبل لوثر، كان الاصلاح في الكنيسة يقتصر على اصلاح الاديرة، اذ كانت مساوية وشكوك الرهبان في الاديرة اكثر المساوية انتقادا.

الا انه يتضح للمؤرخين، ان الاصلاح في الجمعيات الرهبانية، بغض النظر عن ثورة لوثر بل وحتى قبل لوثر، كان قد بدأ بدافع من الغيرة الدينية لدى بعض الاشخاص، في بعض الجمعيات القديمة، وفي تأسيس الجمعيات الرهبانية الجديدة، كما رأينا في بداية هذا الفصل.

ستساهم مقررات مجمع ترانت في مواصلة تجديد واصلاح الجمعيات الرهبانية الجديدة، كالبندكتية، والفرنسيسكانية، والاغسطينية وغيرها، كما وستواصل الجمعيات التي ظهرت قبل او اثناء مجمع ترانت، في تطورها ونموها، وستثبت بتثبيت قوانينها وطرق عملها الرسولي، بدعم من البابوات، كما وستظهر جمعيات جديدة اخرى لتتجاوب مع متطلبات الحقبة الجديدة من فترة ما يسمى بما "بعد مجمع ترانت".

### أ) الجمعيات القديمة

من الجمعيات القديمة التي ستعمل على اصلاح نفسها وستساهم في العمل في تجديد الكنيسة:

#### الرهبانية الكرملية والقديسة تريزيا الافيلية 1515-1582

##### Ste Thérèse d'Avila

كان تجديد الرهبانية الكرملية، التي أنشئت اساسا للحياة التأملية والصلاة، من اوائل الرهبانيات التي خضعت للتجديد، لتتجاوب مع متطلبات عصر ما بعد مجمع ترانت، الا وهو اعطاء الحياة التأملية والصلاة الاولوية من جديد في حياة الكرمل دون اهمال الجانب الرسولي. هذا ما يتضح من دستور الكرمل المجدد (1661): "ان الهدف الاساسي للمؤسسة (الكرملية) هو حياة التأمل، ومحبة الامور الالهية، والهدف الثاني، هو العمل، خصوصا فيما يتعلق بخلاص النفوس".

وكانت القديسة تريزيا الافيلية هي التي عهدت اليها العناية الربانية في ان تكون المصلحة الكبيرة لرهبانيات الكرمل.

## حداثتها

وُلدت القديس تريزيا في مدينة افيللا، احدى مدن مملكة كستيليا في اسبانيا في الثامن والعشرين من اذار سنة 1515. وكان ابوها الفونس دي سيبيدا وبياتريس دي اهومادا، من اشراف تلك البلاد. تربت تريزيا هي واخوتها تربية مسيحية حسنة، حتى انها منذ نعومة اظفارها، كانت قد تعودت ان تجلس مع اخيها الصغير في احد اركان بيت ابيها، وتطالع واياه سير الشهداء والابرار القديسين، وتتأمل طويلا في صورهم وادوات عذاباتهم، واكوخ نسكهم. فحملتها تلك القراءة على شيء كثير من العبادة وعلى الرغبة في ان تسفك دمها هي ايضا لاجل المسيح، لتحظى نظير الشهداء باكليل الانتصار في السماء. وفي ذات يوم خرجت خلصة من البيت برفقة اخيها الصغير، وسارت واياه ممسكة بيده تريد بلاد المغرب طمعا في ان يموتا من اجل المسيح وينالا اكليل المجد. ولكن ما كاد الولدان يخرجان من المدينة حتى لقيهما عم لهما. فدهش لرؤيتهما لوحدهما في تلك الارض. فلم علم منهما ما عزم عليه ضحك وطيب خاطرهما، واعادهما بلطف الى البيت. فلما رأيا ان قد حبط مسعاهما، رغبا في ان يعيشا عيشة النساك الابرار بحسب ما كانا قد قرأ عنهم في سير حياتهم. فاتخذوا لهما زاوية صغيرة في الحديقة، وجعلها منسكا بأويان اليه، وينصرفان فيه للصلاة والعبادة. وامتازت تريزيا منذ حداثتها بعبادة بنوية لوالدة الاله، فكانت تتلو السبحة كل يوم مع اخيها في منسكها.

وما كادت تبلغ العاشرة من عمرها حتى كانت فتنة للنظرين بجمال طلعتها واعتدال قوامها. واخذت امها تعنى بزينتها، فصارت هي تبالغ في اظهار جمالها ومواهبها، حتى فقدت تقواها، وجعلت جل اهتمامها في تجعيد شعرها وتعطير ثيابها وامتناع عقلها بقراءة سير ابطال الحب والحروب.

ثم ماتت والدتها وتركها ابنة اثنتي عشرة سنة. فحزنت جدا على فقدها، وذهبت وانطرحت عند قدمي البتول، وصلت بحرارة ودموع، وطلبت اليها ان تكون هي امها. ولكن سرعان ما انقضت ايام الحزن حتى صار البعض من ابناء عمها، ويتوددون لها ويقضون الاوقات الطويلة بصحبته. فاستسلمت للهو وضياح الوقت. وتزوجت اختها الكبرى فارسها ابوها الى دير للرهبانيات الاوغسطينيات، وهناك عادت اليها تقواها وحرارتها وحرصانها. واثرت فيها تأثيرا عميقا قراءة رسائل القديس ايرونيموس، وعزمت عزمها اكيدا على الزهد في الدنيا وغرورها، وعلى انتحال العيشة الرهبانية.

## تريزيا الراهبة الكرملية في دير التجسد

دخلت تريزيا دير التجسد لراهبات الكرمل في مدينة افيللا سنة 1535، وكان لها من العمر ثمان عشرة سنة. ولما كانت ذات طبيعة رصينة كريمة، كثيرة العواطف شديدة الارادة، عزمتم عزمها اكيدا على ان تكون لله بكل قواها. الا ان حياة الكرمل في تلك الايام كانت حياة هينة. كانت الراهبات لا يأفنن من السعي وراء ما يروق لهن من الملابس والمأكول والاجتماعات وقبول الزيارات والخروج من الدير. وكانت لهن الحياة الرهبانية حياة تقوى عادية، لا تتجاوز ما يمارسه عامة الناس الاتقياء، ما عدا البتولية. اما الحياة الرهبانية الصحيحة المبنية على التجرد والامانة والتواضع والتفرغ للصلاة العقلية والطاعة الكاملة، فكانت شيئا نادرا، خصوصا ببعض الافراد. فعاشت تريزيا تلك الحياة الهنيئة الهينة مدة اثنتين وعشرين سنة. واوشكت تلك الحياة العادية ان تعرضها للتراخي والسقوط.

ومرضت تريزيا مرضا شديدا اوشكت من جرائه على الموت، ولم تنج منه الا باعجوبة وبشفاعة القديس يوسف. وكان ايضا لها نسبية راهبة تقية فاضلة، فكانت تردعها عن كثرة قبولها للزيارات وعن تعلقها بالخلائق. وقبض الله لها ان قرأت كتاب اعترافات القديس اوغسطينوس، فانفتحت عينها للحقائق الابدية، وبدأت حياة الحرارة والتواضع والامانة والتجرد، والموت الكامل للخلائق، لتكون لله وحده دون سواه.

بدأ الله يظهر لعقلها وقلبها باجاءات وانوار سماوية، ويعلمها كيف تصلي، وكيف تتأمل، وكيف تمارس الصلاة العقلية التي سوف تصبح فيها المعلمة الكبرى. فصارت تجدد عزاءها في تلك الصلوات، وتقضي في ممارستها الساعات الطوال، حتى انها خشيت ان تكون تلك اللذة القلبية والراحة الداخلية التي تشعر بها من عمل الشيطان، مريدا بذلك ان يغرها ويخدعها ويُسقطها. لكن مرشدها القديس فرنسيس دي بوجيا، من الراهبانية اليسوعية، طمأنها بقوله انها ما دامت تسير في طريق التواضع وتبدأ صلاحها بالنظر الى يسوع المصلوب، فلا خوف عليها من الغرور.

واخذ الرب يسوع يظهر لها تارة بنوع حسي، وتارة بانوار الهية يفيضها في عقلها وفي قلبها، حتى ظن من كان آنذ يرشدها انها مغرورة. فصار مرشدوها يشددون عليها، ويعنفونها، ويمنعونها من الانصراف للصلاة العقلية. فكانت تخضع لاوامرهم، وتنقاد بكل سذاجة لارشاداتهم. لكن الرب يسوع كان يتراءى لها ويقويها، ويؤكد لها ان ما تشعر به، وما تراه، وما تسمعه، انما هو آت حقا منه. وانها مع ذلك حسنا تصنع بطاعتها وانقيادها لاوامر رؤسائها ومرشديها.

الا ان الفادي الالهي ما لبث ان اضرم في قلبها نار حبه الالهي، وصب في نفسها شوقا عظيما الى رؤيته، حتى ان حياتها على الارض اضححت موتا متكررا متواصلا مستديما. ومع ذلك كانت تشعر بلذة قلبية وطمأنينة داخلية لا توصف. ومرارا عديدة كانت تشاهد احد الملائكة السرافيم يدنو منها ويطنعها بحربة نارية كانت تخترق احشائها وتضرمها بنار من الحب لا تكاد تحتل لظاها. فكانت تدوب من الالم ومن الحب ومن العذوبة القلبية في آن واحد. وقد حكم اربعة من كبار

علماء الروح في اسبانيا ان ما تشعر به تريزيا من الآلام، وما يثور في دواخلها من العواطف، وما تنعم به من العذوبة القلبية العميقة، وما يتصعد من قلبها من الاشواق المضطربة فيرفع حتى جسدها عن الارض ويتركه احيانا قائما في الفضاء، انما هو آت من قوة مفاعيل نعمة الروح القدس. وكانت هي تسيير بارشادات هؤلاء العلماء القديسين: القديس لويس برتران، والقديس بطرس القنطاري، والاب بوخنا دافيل، والاب لويس الغرناطي.

### عمل تريزيا في اصلاح رهبانية الكرمل

بدأت دعوتها الى حمل رؤية الاصلاح تتضح حوالي عام 1560، على اثر رؤية، رأت فيها جمهورا كبيرا من الناس يُجرون الى جهنم نتيجة تعاليم لوثر، وحياة الرهبان السيئة، التي ان لم تكن السبب في تمرد لوثر، على الاقل كانت الحجة التي تدرع بها. وحملتها محبتها للسيد المسيح على اعادة رهبانية الكرمل الى فرائضها الاولى وجمالها القديم، من فقر كامل، وامتناع دائم عن اكل اللحوم، وحياة الوحدة والصلاة. فاندفعت في هذا الميدان الخطير، وقامت تحقق ذلك العمل العظيم. فلاقت من المصاعب اهوالا. فكان هذا دليلا جليا على ان عملها هو الهي سماوي. فاضطهدها الناس، وناصرها الشيطان العدا ليعرقل مساعيها ويهبط عزائمها. لكنها مضت في سبيلها بارادة جبارة، معتمدة على الصلاة والصيام والدموع والتواضع، والطاعة لارشادات رجال الله القديسين الذين ارسلهم اليها الله ليسدوا خطاياها، ولا سيما بعض الآباء الدومنيكين واليسوعيين، وخصوصا الفرنسيسكاني القديس بيير دالكانترا Pierre D'Alcantara. فنجحت في عملها نجاحا عظيما. فانشأت اولاديرا في افيل، دير القديس يوسف عام 1562. وقامت تدير شؤونه وترشد رهبانه في طرق الكمال الكرمل بحسب الفرائض القديمة الشديدة.

اخذت تريزيا تنتقل من مدينة الى مدينة في بلاد اسبانيا الواسعة، وتنشئ الاديار، وتدير شؤونها بكل غيرة وعناية ومحبة، ولكن بكل تواضع وصبر وطول اناة وسداد رأي، ومضاء عزيمة، وثبات، وحكمة فاقت مشاهير الرجال. وكانت رغم اشغالها الوافرة، ومهامها الشاقة لايفارقها فكر الله، ولا يسلاه قلبها لحظة واحدة. وكانت تحافظ على الفرائض والصيامات في اسفارها وحلها وترحالها بكل دقة وامانة، كما لو كانت بين اسوار دير من اديارها.

وظهر لها الرب يسوع وشجعها في عملها، وشكر لها اعادة رهبانية "سيدة الكرمل" الى بھائها القديم ورونقها الجميل. ووضع على رأسها اكليلا من الذهب. ثم تراءت لها البتول مريم وجعلت عليها وعلى بناتها رداءها، وسترتهن به للدلالة على انها تأخذهن جميعا تحت كنف حمايتها.

وهي التي نشرت في اديرتها اولاديرا، ثم في الكنيسة جمعاء، العبادة البنوية للقديس يوسف. وعلى اسمه شيدت اول دير من اديرة اصلاح الكرمل، ومن بعده اكثر الاديرة.

وما لبث الرؤساء ثم الاحبار الرومانيون ان وافقوا على هذا العمل الجليل. فتعددت الاديرة من هذا النوع للنساء، ثم للرجال، حتى ملأت بلاد اسبانيا، ومن هناك امتدت في حياة تريزيا، الى سويسرا والمكسيك، ومن بعدها الى جميع انحاء العالم. ولقد دعاها التاريخ "معلمة الصلاة العقلية". فقد مارستها في كل انواعها، وعلمتها لراهباتها، وكتبت عنها كتابة شائقة ضارعت بها كبار المعلمين الروحيين.

### وفاتها وكتابتها

كانت القديس تريزيا ابنة سبع وسبعين سنة عندما دعاها الله اليه، في الرابع من تشرين اول 1583، ودفنت في اليوم الثاني 14 تشرين اول (بسبب تغيير التقويم الغريغوري). وكانت قد اسست 32 ديورا منه 17 ديورا للراهبات و15 للرهبان. وقد اعلن قداسها البابا كليمنطوس الخامس في عام 1622.

تركت القديسة تريزيا الافيلية كتابات كثيرة جعلتها في مصف كبار الكتبة الكنسيين، وائمة معلمي الروحيات القديسين. منها تاريخ حياتها، وطريق الكمال، وتاريخ انشاء الاديرة التي بنتها، وكتاب "القصر الداخلي" وهو ابداع ما خرج من قلبها ومن قلمها، ورسائل عديدة، وايضاحات كثيرة عن النعم التي نالتها. اما كتاباتها الروحية فلم تكتبها الا بامر رؤسائها ومرشديها.

### القديس يوحنا الصليبي الكرمل 1542-1591

#### St. Jean de la Croix

كان القديس يوحنا الصليبي الكرمل مرشد القديس تريزيا الافيلية، ومشجعها وتلميذها ورفيقها في الجهاد. فما كاد يسمع من تريزيا ما عزمته عليه من اصلاح الحياة الرهبانية في الكرمل، واعادتها الى رونقها السابق، حتى انضم اليها، وسار تحت لوائها، وبدأ هو باصلاح فرع الرجال.

## نشأته

ولد يوحنا في فنتيبورس من اعمال كستيليا القديمة، في اسبانيا، سنة 1542. وكان ابواه من عامة الناس، ولكن جدوده كانوا من اشراف القوم في ايامهم. فقضى حداثته بين المدارس الابتدائية والاشغال اليدوية. واضطر لكي يعيش ان يتعاطى تارة الحياكة، وتارة النجارة والنقش. وكان كثير العبادة، وكانت امياله تدفعه دائما الى حياة اسمى واكمل. فدخل مدرسة الآباء اليسوعيين في مدينة "الكاميو" وبقي ست سنوات يتبع فيها الدروس الاعدادية حتى برع فيها. ولما بلغ العشرين من عمره ترك الدنيا، وذهب فانتحل العيشة الرهبانية في دير للآباء الكرمليين في تلك المدينة عينها.

## يوحنا الراهب

وقضى يوحنا سنتين في الابتداء في الرهبانية الكرملية، وكانت قد تركت الشيء الكثير من فرائضها الاولى ومن كمالها الاصلية. فكانت نفس يوحنا تتوق الى حياة كمال افضل من حياة الكرمل.

فلما نذر ندوره، ارسله رؤساؤه الى مدينة سلمنكا، ليتعلم اللاهوت في جامعتها الشهيرة. وما كاد يتم درس اللاهوت حتى رُسم كاهنا. حينئذ اخذ يفكر بجد في ترك رهبانية الكرمل، لكي يذهب فيدفن نفسه في صومعة من صوامع الآباء الكرتوزيين، فلا يعيش الا لله وحده ولا يتحدث الا معه.

وفي غضون ذلك كانت القديسة تريزيا الافيلية قد بدأت باصلاح رهبانية الكرمليات. وكانت تفكر في نشر ذلك الاصلاح في اديرة الرهبان ايضا. وكانت تصلي وتطلب الى الله ليرسل لها الرجل الذي يختاره للقيام بهذا العمل العظيم. وكانت قد سمعت بالاب يوحنا وبروح الكمال الذي يمتاز به. فلما اجتمعت به وجدت فيه ضالتها المنشودة. فقالت له: "يا ابت وابني، دعك من الرهبانية الكرتوزية، وتعال نُصلح رهبانيتنا الكرملية". فرضي الاب يوحنا بما عرضته عليه الام تريزيا، وبدأ بالاصلاح، اعنى باتباع فرائض الفقر والصلوات والامانات القديمة. فاتخذ له ولاثنين من رفاقه بيتا حقيرا خريا فجعله ديرا، وقام يمارس معهما اسمى الكمالات الكرملية. وكان ذلك برأي وسمح الرؤساء، ثم بتشجيعهم.

## الاب يوحنا واصلاح الكرمل

وارسل الله اليه تلاميذا حذوا حذوه، فانتعشت بهم رهبانية الكرمل الاصلية. وقد ساعد الاب يوحنا بالاكثر على عمله ما دبرته له العناية الالهية من حياة الاختلاء، بالقرب من القديسة تريزيا. لان هذه المصلحة الكبيرة لرهبانية الكرمل، لما تسلمت رئاسة دير التجسد في مدينة افيليا، طلبت ونالت ان يكون الاب يوحنا مرشدا روحيا لراهبات ذلك الدير. وهكذا قضى في الخلوة خمس سنوات، كان فيها تلميذا لتلك التي كان يسمع اعترافاتها، فارشدته هي الى اسمى درجات القداسة والاتحاد بالله.

ولما رأى بعض رهبان ورؤساء الكرمل ان طريقة الاصلاح سائرة بخطى جبارة، خافوا على انفسهم ان يتلاشى كيانهم. فاثاروا على الاب يوحنا زوبعة هوجاء وهاجموه ذات ليلة من ليالي كانون الاول المظلمة الباردة من سنة 1577، وانتزعوه من خلوته واختطفوه قسرا وذهبوا به الى مدينة طليطلة Tolède، حيث سجنوه في غرفة ضيقة مظلمة في دير لهم هناك، ووضعوا الحرس على بابه لئلا يفلت من بين ايديهم. وظنوا انهم في عملهم هذا يخنقون الاصلاح في مهده.

فقضى يوحنا في ذلك السجن سبعة اشهر، كانت نفسه في اثنائها تسبح في بحر من التعزية القلبية والتسلية الروحية، فوضع اذ ذاك قصائده الروحية التي سوف يشرحها في خلوة اخرى، في مؤلفات بديعة ستخلد اسمه الى الابد، وتفيد النفوس. لكن الرؤساء عادوا فاطلقوه، وانشأوا اقليما رهبانيا خاصا بالاصلاح، مستقلا عن سائر الاقاليم الكرملية ذات الفرائض المخففة. الا ان اديار الاصلاح تعددت، وجموع رهبانها تكاثرت، الى حد ان الكنيسة فصلت بسلطانها الاعلى بين فرع اصلاحي والفرع الآخر، وجعلت لكل منهما رئاسته العامة، وادارته الخاصة، سنة 1593، على عهد البابا كليمنطوس الثامن، بعد وفاة الاب يوحنا بستين قط.

## سنواته الاخيرة وكتاباته وموته

قضى الاب يوحنا الصلبي بقية ايامه يتقلب في الوظائف الرهبانية. فكان تارة رئيس المدرسة اللاهوتية في يائيزا، وطورا رئيس غرناطة وسيغوفية، واخرى نائب رئيس اقليمي. ولكنهم عمدوا دائما الى اقصائه عن الوظائف الكبرى العالية، اما لانهم اذ لم يوافقوا بين الاشخاص اللامعين الذين حملتهم القديسة تريزيا على انتحال طريقة الاصلاح، من كان اقدر على تحمل مسؤوليات الرئاسة والادارة.

ولما تسلم الاب دوريا الرئاسة العامة على الرهبانية، اقصى الاب يوحنا عن كل وظيفة، واعاده الى صف الرهبان العاديين. فانزوى هذا الاب الوديع المتواضع من جديد في صومعته، وقام يمارس اعمال النسك والتأليف بكل راحة قلب، وطمأنينة فكر، وحرية عمل. فكانت له تلك الوحدة ولرهبانية الكرمل، وللكنيسة جمعاء، ينابيع نعم وانوار. لانه تفرغ فيها لوضع مؤلفاته الرائعة عن الطرق الروحية العالية، والكمالات الرهبانية، التي وضعته بين كبار اساتذة الروح، وحملت الكنيسة



على تسميته معلما من معلميهها. ومن مؤلفاته الرائعة: "الصعود الى جبل الكرمل La montée du Carmel" و"النشيد الروحي La Cantique Spirituel".

لم يعمر طويلا لان الاصوام والسهر والاسفار في سبيل انشاء اديرة الكرملين والكرمليات كانت قد انهكت قواه. فرقد في الرب وهو في عزلته، في بلاد الاندلس، سنة 1591، ولم يكن قد تجاوز التاسعة والاربعين من عمره.

## ب) الجمعيات الجديدة

قبل ان نتكلم عن الجمعيات الجديدة التي ظهرت في بداية العصور الحديثة (القرن السادس عشر)، يجدر بنا ان نلقي نظرة على النقاط الرئيسية التي ميزت هذه الجمعيات الجديدة.

### مميزات الجمعيات الجديدة

1) أنشئت تقريبا اكثرية هذه الجمعيات بهدف الرسالة L'Apostolat. لم تبحر العادة في العصور الاولى للكنيسة، أن تنشأ جمعيات الا على طراز الحياة الرهبانية التوحيدية او الجماعية، بغية حياة النسك والتأمل والصلاة، وبهدف خلاص نفس الناسك او الراهب. اما العصور الوسطى، فقد قطعت هذا التقليد الطويل، بأنشاء جمعيات جديدة وبروح جديدة، عُرفت "بالجمعيات المزدوجة Ordes mixtes" التي جمعت بين الحياة التأملية والعملية. من هذه الجمعيات "الرهبانيات المتسولة Les Ordres Mendiants" كالدومينيكان والفرنسيسكان.

اما الجمعيات الجديدة التي بدأت تنشأ في منتصف القرن السادس عشر، فقد أنشأت تقريبا كلها بهدف الرسالة بجميع اشكالها. ويمكننا ان نصنّف اهداف الرسالة هذه في ثلاثة انواع: (1) تهيئة الاكليروس والتبشير، (2) تربية وتعليم وتهذيب الشبيبة، (3) اعمال المحبة (مستشفيات، ملاجىء، ميتم...).

2) ومن فكرة الرسالة اتت الميزة الثانية، وهي ان هذه الجمعيات الجديدة، ليست جمعيات رهبانية بالمعنى الحصري، وانما جمعيات اكليروسية-رهبانية Clercs Réguliers، كالتياتين، والبرنايت، واليسوعيين، نوع وسط بين الرهبان moines وبين الاكليروس العلماني او الابرشي prêtres séculiers. وكوّنت بعض هذه الجمعيات جمعية ابرشية Congrégations séculières، أي مجرد مجموعات من الكهنة، اتحدوا لتقديس نفوسهم ونفوس غيرهم، والعمل بمثلهم وتعليمهم على تحديد وتهيئة الاكليروس. وتجنبت كل هذه الجمعيات ان تركز بيوتها او اديرتها، كما كان يفعل الرهبان قديما، في المناطق النائية، طلبا للوحدة والهدوء، بل اختاروا اديرتهم في المدن والقرى، واقرب ما يكون الى الناس، ليعيشوا حياتهم، حتى يستطيعوا ان يأتروا على المجتمع، ويقودوه ويجموه من الفساد ومن تأثيرات الهرطقات السيئة.

3) تميزت هذه الجمعيات ايضا بميزة ثالثة، وهي انهم حاولت في سن قوانينها، ان تتجنب قدر المستطاع ما من شأنه ان يعرقل او يأخر او يتنافى مع عملها الرسولي. فمثلا تم الغاء صلاة الفرض الجماعية، التي تربط الكاهن وتمنعه من حرية الحركة، والفقر الكامل، الذي يمنع تطور هذه الجمعيات ومؤسساتها. واجتنب المظاهر الرهبانية التقليدية والملفتة للنظر في اللباس او طريقة العيش، وذلك للتقرب اكثر من حياة الاكليروس الابرشي، ومشاركته في حياته ما عدا المساوىء، ولبس لباسه، اذا ما ارادت تحقيق هدفها الرئيسي وهو اصلاح الاكليروس وتنشئته ليكون على مستوى دعوته الكهنوتية ورسالته الراعوية.

## 1) جمعية "الاوراتورين" أي كهنة المعبد: القديس فيليب دي نيري 1515-1595

St. Philippe de Néri

### الحدائة

ولد فيليب في مدينة فلورنسا، عاصمة الفنون الجميلة في ايطاليا، في 26 تموز سنة 1515. كان ابواه فرنسوا دي نيري ولوكريسيا سولدي من اشراف البلاد، ومن الناس الاتقياء الصالحين. وامتاز فيليب منذ سني الطفولة بوداعة الطبع ونعومة الخلق حتى لُقّب بالطفل اللطيف. وماتت امه قبل ان يبلغ سن الرشد، فتزوج ابوه ثانية، فاحبته امرأة ابيه لوداعته ولطافته، فاعتنت به كأنه ولدها. وكان ابن ثماني و تسع سنوات لما وقاه الله باعجوبة من خطر الموت، اذ سقط من مكان مرتفع هو وفرس لابييه محملة اثمارا فجاء تحتها. فظنوه قد هلك، فركضوا اليه، فوجدوه سالما ولم يُصب بأذى. فرأى فيليب في

ذلك يد الله، فقال: اراد الله ان يحفظ لي حياتي، فسوف اجعلها وقفا على محبته وخدمته. وصار يتردد على رجال الله والرهبان في مدينة فلورنسا ويأخذ عنهم. فشغف بطريقة حياتهم، وصار يتوق الى عيشة الصلاة وخدمة القريب نظيرهم. ولما كبر وانهى دراساته الاولى في دير القديس مرقس للآباء الدومنيكان، ارسله ابوه الى مدينة "القديس جرمانس" بجوار جبل كاسينو ليتخرج في طرق التجارة عند خال له كان من اصحاب الثروات الضخمة، ولم يكن له ولد. فُسحر هذا الحال باخلاق ابن اخته الوديعه الناعمة، فاحبه، وعُني عناية كبرى به، وجعله وريثه، ووضع بين يديه امواله. لكن فيليب كان يصبو الى غير هذا الغنى، وخاف ان تضيق ايامه في اللهو والغرور، فترك بيت خاله سرا، وسافر مشيا على الاقدام يريد مدينة روما (1533). ولكي يعيش صار يستعطي على الطريق، فرحا في ان يكون فقيرا. فلما وصل الى ابواب العاصمة الخالدة دبر له الله احد مواطنيه، رجلا يدعو غالوتو غاكيسا، فاضافه بضعة ايام، ثم ترك له مخدعا في بيته ليقوم فيه على الدوام. فاتخذ فيليب تلك الحجرة الصغيرة منسكا قام يمارس فيه اسمى الكمالات الانجيلية. فبدأ بالامانات والاصوام، فصار لا يأكل سوى الخبز الناشف، ولا يشرب سوى الماء. وكان في ايام الاحاد والاعياد يضيف الى كسرة الخبز قليلا من الاعشاب، او حبات معدودة من الزيتون. ومرارا كان يقضي اياما متتابعة من غير ان ياكل شيئا. وصار يخصص للصلاة اكثر ساعات الليل.

بدأ في روما دراسة الفلسفة على يد اقدر الفلاسفة الماهرين، وتعلم اللاهوت باتباعه الدروس العلنية التي كانت تلقى في كلية الآباء الاوغسطينيين. فنال من تلك العلوم حظا وافرا. ثم اكب على دراسة الكتاب المقدس، وعلى التأمل في آياته. الا انه، فجأة، عام 1538، وعلى عمر 23 سنة، قرر ان يترك الدراسة ليكرس حياته، على حسب ما وعد به الرب، بالخدمة الرسولية، وكان لا يزال بعد علمانيا. قام فيليب يخدم الله في شخص القريب، بكل ما أوتي من شباب وقوة ونشاط وعلم وتقوى وعاطفة. وجدَّ في خدمة ومساعدة المرضى والفقراء والخطاة والجهال والاحداث والشبان، لا يوفر لنفسه او لراحته ذرة من وقته. فصار يقضي ايامه في زيارة المرضى في المستشفيات وفي البيوت، يؤاسيهم ويخدمهم. وكان يسهر على المنازعين ويقوي عزائمهم، ويعينهم في ساعاتهم الاخيرة الاليمة، ويهيئ نفوسهم للمثول امام منبر المسيح. وكان يطلب الشبان البعيدين عن الله، ويرشدهم بلطف، ويعيدهم الى واجباتهم. وكان يتفانى في مساعدة البنات الفقيرات، ويوجد لهم المال اللازم لجهازهن وزواجهن.

اما عنايته الخاصة فكان يوجهها الى الشبان والاولاد. فكان مع الشبان الرفيق الطيب المعشر، والصديق اللذيذ الحديث، يث فيهم روح الرب، ويعيدهم عن اخطار العالم. وكان يجد نعيمه في مخالطتهم والاجتماع معهم. فكان يطوف شوارع روما ويجمعهم ويشاطرهم العاجم، ويتفنن في استنباط انواع التسليات لهم، حتى اذا تمكن من ثققتهم به ومحببتهم له، عمد الى زرع بذور الفضائل المسيحية في قلوبهم، واعددهم لحياة الجهاد والصلاح. فتألفت حولة اسرة روحية كبرى كانت موضوع اهتمامه اليومي. وكانت هي تتراكم اليه فتجد فيه الاب الحنون العطوف. وكان يبذل ما في وسعه ليجد للفقراء من اولئك الاحداث ما يكفيهم لسد عوزهم، ويضع بعضهم في المدارس على نفقته، وبعضهم في مصانع الشغل، ليكفل لهم مستقبل الحياة.

ولما كان يخيم المساء كان يأوي الى مخدعه، ويقوم يناجي الفادي الالهي بالصلاة العقلية والتأمل، ويقضي هكذا ساعات طوالا من الليل يغذي نفسه، وينشط قواه، ليعود عند الصباح الى متابعة اعمال رسالته. وكان يبدأ النهار بحضور القداس وتناول جسد الرب، ثم يذهب الى عمله وتقانيه وغيرته.

### فيليب الكاهن الغيور

فلما رأى مرشد فيليب ما كان عليه من الفضائل والعلم الصحيح والغيرة الرسولية، اعز اليه ان يقبل الرسامة الكهنوتية، لتكون اعمال غيرته ومحبته اوقع في القلوب، واكثر فائدة للنفوس. فدخل فيليب في سلك الكهنوت عام 1551، وكان له من العمر ست وثلاثون سنة. ودخل فيليب في جمعة كهنة القديس ابروموس او "جمعة المحبة". وكانت تتألف من كهنة غير، لا تربطهم ببعضهم بعض سوى روابط الغيرة الكهنوتية، بغية توحيد القوى الرسولية وتوجيهها الى غاية معينة، للوصول الى الهدف المتبعي. فوكلوا اليه التفرغ لسماع الاعترافات. فصار يقضي الساعات الطوال كل يوم في منبر التوبة، يصلح جمهور المؤمنين مع الله. فصار تلاميذه واصدقاؤه والمعجبون بعلمه وفضائله يفدون اليه، ويطرحون همومهم واوزارهم بين يديه. كما وتابع اعمال غيرته القديمة مع المرضى والفقراء.

فرجع الى الله على يده مئات من الخطاة ومن الهراطقة ومن الملحدين. وحمل الكثيرين من الشبان على ان يقفوا حياتهم لله ويدخلوا في احدى الرهبانيات. وكان القديس اغناطيوس دي لويولا مؤسس الرهبانية اليسوعية يعجب به ويحمله. وعمل كثيرا ليضمه الى جمعيته. لكن فيليب كان لا يجد في نفسه الكفاية ليكون واحدا من اولئك الرهبان. فكان القديس اغناطيوس يسميه "الجرس المقدس"، يريد بذلك ان فيليب كان يحمل الاخرين على الدخول في الاديبة فيما كان يبقى هو خارجها. فذاع صيته في روما، وصار الناس من كل الطبقات يأتون اليه طالبين انواره. واهتدى على يده ثلاثة من كبار

الملحدين. فسرت في روما كلها موجة سرور واعجاب لا توصف حتى ان الحبر الاعظم البابا كليمنطوس الثامن نفسه، لشدة فرحه بهم، منحهم بيده سر العماد المقدس.

كان فيليب على استعداد دائم لقبول الناس، في الليل وفي النهار وفي اية ساعة من الساعات. وكان لا يأنف ان يترك الصلاة والتأمل لسماع اعتراف هذا او ارشاد ذلك، او للخروج مع فرقة من الاولاد او الشبان الى الزهرة واللعب. لانه كان من عادته ان يقول: "لا بأس علينا ان نترك الله لاجل الله". واعتاد الشبان ان يجتمعوا عنده ويغشوا مخدعه، ويملأوا الارض من جلبتهم. فكان لا يأنف من ضوضائهم، بل يجد لذة موسيقية في اصواتهم وضجيجهم. ولما سأله احد اصدقائه كيف يستطيع ان يحتمل مثل تلك الجلبة اجابه فيليب على الفور: ما داموا لا يهينون الله، يطيب لي ان ينشروا الخشب على ظهري.

### تأسيس جمعية الاوراتوريين

ولما تكاثرت عدد تلاميذه ومريديه، صار يجمعهم كل مساء في معبد صغير Oratoire فيتلو الصلوات معهم، ثم يقوم يرشدهم. وكان كلامه مشعرا بروح الوداعة المسيحية والعذوبة الانجيلية. فاشتهر في روما ذلك المعبد وذلك الاجتماع، وصار الرومانيون، من كل الطبقات، يذهبون اليه قائلين بعضهم لبعض: "هيا بنا الى "المعبد". فلما رأى بعض الغير على خلاص النفوس هذا الاقبال الكبير على اجتماعات "المعبد" ورأوا ما تجنيه فيه الجماهير من ثمار الخلاص، حركتهم نعمة الروح القدس ليكونوا من العملة المجدين في هذا الحقل الرسولي، ويساعدوا فيليب في عمل تلك الرسالة المجيدة. فتتلمذوا له، ووضعوا بين يديه قواهم ومواهبهم. وهكذا نشأت جمعية "الاوراتوريين" أي كهنة المعبد، وظهر بين صفوفها اناس اعلام قديسون، اشتهر بينهم الكردينال بارونيوس، المؤرخ الكنسي الكبير. ووضع فيليب لجمعيةه قانونا حكيما قال فيه بارونيوس انه مستقى مما جاء في رسائل القديس بولس الى اهل كورنتس من الفرائض والوصايا. وصادق البابا غريغوريوس الثالث عشر على هذا القانون في 15 تموز 1575.

يتضح من هذه القوانين ان فيليب لم يكن ينوي تأسيس جمعية جديدة، بقدر ما كان يريد ان يمنح الكهنة العلمانيين Prêtres séculiers، امتيازات الحياة الجماعية، وان يجدوا افضل الوسائل ليعملوا بكل حرية وبكل قواهم، لتقديس نفوسهم ونفوس الاخرين. فلم يكن الاوراتوريين مربوطين بأي نذر، بل بإمكانهم مغادرة الجمعية بأي وقت، الا ان فيليب شدد على ان طالما كان الكاهن منضما الى هذه الجمعية عليه ان يحافظ على نظامها بكل دقة وبامانة.

### موت فيليب نيري

وبلغ فيليب شيخوخة جلييلة. ولما دنت منيته علم برؤيا سماوية ان سراج حياته لن يلبث ان ينطفئ، استعد لذلك اليوم، ولما جاء اليوم المعين، احتفل عند الصباح بالقداس الالهي، وكان السرور باديا على محياه. ثم سمع اعتراف بعض الحاضرين، وناولهم جسد الرب بيده. فكان هذا العمل الرسولي آخر اعماله. لان الدماء انفجرت بعد قليل من صدره واشرف على الموت. فاجتمع حوله اولاده، فباركهم واسلم الروح بهدوء وسلام في 26 ايار سنة 1595. واجرى الله على ضريحه عجائب كثيرة وباهرة. وبعد وفاته بسبع سنين وجد جسده كاملا صحيحا، ولم يكن قد اعتراه شيء من الفساد. وفي سنى 1622 رفعه البابا غريغوريوس الخامس عشر الى مصاف القديسين.

## 2) الجمعية اللعازرية: القديس منصور دي بول 1576-1660

### St. Vincent de Paul

اسس القديس منصور دي بول جمعية "كهنة الارساليات" او اللعازريين في عام 1674، بهدف تبشير الارياف. الا اننا سنرى، ان اللعازريين تعدوا هذا الهدف، وتخصصوا في ادارة الاكليريكيات، وفي التبشير في بلاد الارساليات.

ولد منصور في قرية بوي Pouy القريبة من مدينة دكس، في الجهات الجنوبية الغربية من فرنسا، على حدود التلال المطلة على مدينة بوردو، في 24 نيسان سنة 1576<sup>8</sup>. وكان ابواه يوحنا دي بول وبرترانده دي موراس، من عامة الناس الذين الذين ياكلون خبزهم بعرق جبينهم. لكن مخافة الله واعمال التقوى كانت ثروة كبرى لهم، وبقي منصور حياته كلها

<sup>8</sup> يعزو بعض المؤرخين اليوم مولد منصور الى عام 1581 وانه سيم كاهنا على عمر 19 سنة.

يذكر وضاعة نشأته، ويعيد على مسامع الناس ولا سيما في ايام مجده ورفعته، انه فلاح ابن فلاح، وانه كان يرعى الخنازير في حادثته. وجبل منصور من رقة وحنان وعاطفة سخية.

وعني ابوه يوحنا بتعليمه فارسله الى مدرسة الآباء الكوردلييه Cordeliers في مدينة دكس. فامتاز بتقواه ونباهته واجتهاده. ونجح في الدروس نجاحا كبيرا، فكلفه احد المحامين ان يدرس اولاده. فعاش في بيته ولم يعد عبئا على والديه. وبقي يعلم اولئك الاولاد، ويتابع هو دروسه، حتى صار ابن عشرين سنة. وكان ما اتصف به من الرصانة والتقوى والحنان على الفقير وحسن القيام بواجباته قد كسب له عطف من عرفه. لكنه عاف ضوضاء العالم ومطامعه، وشعر في نفسه ان الله يدعوه الى خدمته. فعزم على الدخول في سلك الكهنوت، والتفرغ لخدمة الله والنفوس. فقبل في عام 1596 الرتب الصغرى، وغادر الى مدينة تولوز لمواصلة دراسته.

### منصور دي بول الكاهن

درس منصور الفلسفة واللاهوت مدة سبع سنوات على اساتذة مدينة تولوزا في فرنسا ومدينة سرقسطة Saragosse في اسبانيا. وفي سنة 1600 رُقي الى درجة الكهنوت المقدسة. ولما كانت ثقافته عالية ومتمينة عينه رؤساؤه استاذا في الكلية اللاهوتية في تولوز. وهكذا بدأ حياته الرسولية بالتعليم.

وذهب الاب منصور في عام 1605 الى مدينة مرسيليا على شاطئ البحر الابيض، ليتسلم ميراثا كان يعود اليه. وعند عودته سلك طريق البحر. واذا بالقراصنة ينقضون على المركب الذي هو فيه ويسرقونه بماله ورجاله وركابه الى مدينة تونس في افريقيا الشمالية. وهناك باعوه هو ورفاقه بيع العبيد الارقاء. فصبر هذا الكاهن الجليل على محنته هذه الشديدة الاليمة، وسلم امره الى الله، وقام بخدم نظير سائر العبيد في بيوت ومزارع اسياده. ثم اشتراه احد قدماء المسيحيين، وكان من الذين جحدوا دينهم وانتحلوا الاسلام، والتحقوا بامراء تلك البلاد. فاعاده منصور الى الايمان المسيحي وحمله على هجر البلاد التونسية والعودة الى فرنسا مسقط رأسه. فعادا كلاهما معا، ودعاها وكيل السفير البابوي في افنيون الى زيارة روما بصحبته ليقابلا البابا. واقام في روما ردحا من الزمن في ضيافة الوكيل البابوي. ولما كان خالي من الاشغال تفرغ من جديد للدرس والمطالعة، ولا سيما للصلاة.

ومن روما ارسله البابا بولس الخامس الى باريس، الى الملك هنري الرابع، في مهمة ذات شأن. فقام بها خير قيام. وحظى باعجاب الملك فعينه مرشدا لامرأته السابقة مرغريت دي فلوا Margatite de Valois. طلب منصور من الآباء الاوراتوريين ان يقبلوه في ديرهم بصفة ضيف عندهم، فقبلوه وكان رئيسهم اذ ذاك الاب دي بيرول Mr. De Bérulle، الكاهن القديس والمعلم الجليل في الروحيات. فاتخذ منصور مرشدا له.

### خادم رعية كليشي 1612-1613

كليشي قري صغيرة قريبة من باريس تعد 600 نفسا كلهم فلاحون على كثير من التدين. خدمها من 2 ايار 1612 ال ايلول 1613، نزولا عند رغبة الاب دي بيرول، الذي استدعى خادمها الاب بورغوان لينظم معه شؤون جمعية الاوراتور. عمل الاب منصور في هذه الرعية على اصلاح الكنيسة وتوسيعها، وكرس معظم وقته في التعليم الديني ومساعدة الفقراء والاعتناء بالمرضى وتأسيس الاخويات.

### الاب منصور عند عائلة دي غوندي 1613-1625

اوجد له الاب دي بيرول وظيفة لدى الجنرال فيليب عمانوئيل دي غوندي. وكان هذا الجنرال مدير السجون البحرية Les Galères، واخ الكردينال دي ريتز De Retz رئيس اساقفة باريس. وكان من الرجال العظام، تميز باخلاقه وأدبه وتقواه وشجاعته، عينه الملك ايضا قائدا اعلى للاسطول الملكي. فاسكنه هذا في بيته ووكل اليه تهذيب وتثقيف اولاده. وكان للجنرال زوجة تقية فاضلة، وكانت رغم وجودها في البلاط الملكي، ومخالطتها للسيدات الشريفات المستسلمات لانواع اللهو والغرور، قد حافظت على عبادات وتقوى حداتها. فلمحت هذه السيدة الشريفة ما كان عليه الاب منصور من ثقافة عالية، وتقوى راهنة، وروح رسولية صادقة، وتواضع عميق، فاتخذته مرشدا له، وسلمت اليه ادارة نفسها واعمال رحمتها. فانفسح الافق امام القديس منصور وبدأ منذ ذلك الحين حياته الرسولية الكبرى، حياة الرحمة التي دعاها الله اليها.

### اوائل حركة التبشير Les Missions

كان الاب منصور يرافق عائلة غوندي الى اراضيها الواسعة وقراها العديدة، فلمس في تلك الزيارات لمس اليد حال الشعب الروحية البائسة.

وزار في احد المرات في قرية "غان Ganes" احد القرويين، وكان مشرفا على الموت وقد رغب في ان يعترف. كان في الستين من عمره وكان معروفا عند الجميع بالفضل والتقوى. حثه الاب منصور على الاعتراف العام، ففعل. ولما حضرت السيدة دي غوندي قال لها امام الجميع: "سيدتي! لو لم يعرفني الاب منصور لكنت هالكا لا محالة. كان ضميري مثقلا

بخطايا فظيعة استحييت دوما من ان اقولها للكاهن. اشكر فضلك سيدتي وفضل الاب منصور". كان ذلك في اوائل كانون الثاني سنة 1617.

بلغ من السيدة التأثير حدا جعلها تقول للاب منصور: "ما هذا يا ابت؟ ماذا نسمع؟ اذا كان المعروف عنهم بالفضل والتقوى في هذه الحال، فما عساها تكون حال الكثيرين ممن يعيشون بعيدا عن الله والاسرار؟ كم من النفوس تهلك ولا من يقيها شر الهلاك! فما الدواء لهذا الداء؟". وطلبت من الاب منصور ان يعظ في يوم الاحد حول الاعتراف العام. وفي 25 كانون الثاني 1617، الواقع فيه عيد اهتداء مار بولس، القى منصور في كنيسة فولفيل Folleville عظة في الاعتراف العام، وظهر لهم اهمية هذا العمل وفوائده "فبارك الله كلامي، من اجل سلامة قلب تلك السيدة، ومن اجلي انا الخاطيء الكبير. عاد كلامي بالمنفعة على الجميع فارادوا كلهم ان يقوموا باعتراف عام. فاضطرت ان ابقى عندهم لاعلمهم وارشدهم واسمع اعترافاتهم. كنا كاهنين ولكننا، بالنظر الى الاقبال العظيم، عجزنا عن ان نقوم وحدنا بتلك المهمة. فطلبنا النجدة، فاتانا بعض الآباء اليسوعيين من مدينة اميان. وبعد فولفيل انتقلنا الى غيرها من القرى، وكان الله يبارك جميع اعمالنا" (من محاضرة القاها في 25 كانون الثاني سنة 1655، محادثات روحية صفحة 123). ورأى بعض المؤرخين في هذا البداية البعيدة لتأسيس كهنة التبشير Les Prêtres de la Mission.

### منصور كاهن رعية شاتيون 1617

وفجأة غادر منصور عائلة غوندي، واستلم العناية باحدى الرعايا الصغيرة البعيدة Châtillon Les-Dombes. كانت هذه الرعية قد تركزت في حالة مزرية. فقد خربتها الحروب الدينية ماديا، وعاث الهراطقة البروتستنت فيها فسادا روحيا، بحيث اختفت منها كل مظاهر الحياة الكاثوليكية. وصل الاب منصور دي بول اليها في الاول من آب 1617، وفي مدة خمسة اشهر، استطاع ان يعيد الامور الى نصابها. اكتفى في البداية ان يكون هو ومعاونه الاب لويس جيرار مثلا صالحا للجميع. فرأت شاتيون كهنة يعيشون حياة جماعية، لا هم لهم الا الخدمة الكهنوتية، يزورون الرعية لا سيما المرضى، يدرسون ويطلعون مؤلفات كنيسة، ويقومون حفلات دينية متقنة وفخمة وجميلة وخاشعة. ونظم النشاطات الرعوية من وعظ وتعليم مسيحي، ولمساعدة المحتاجين ماديا، اسس "اخويات المحبة" والتي منها ستخرج مستقبلا جمعية "راهبات او بنات المحبة Les Filles de la Charité". ولم يطل الزمن حتى انقلبت الاوضاع وامتلأت الكنيسة وكثرت الاهتداءات.

### منصور دي بول ومشاريعه الكبرى

لم يمض عام على ذلك حتى عاد الاب منصور الى باريس تحت الحاح مدام دي كوندي، التي لم ترض عن فقدان مرشدها ومررى اولادها. وكرس منصور هناك وقته بجانب وظيفته كمربي، في الاعمال الراعوية. فاتبع زيارته للمرضى والفقراء والمرضى، واسس اخويات المحبة على جميع الاراضي التابعة لعائلة كوندي. واسس في عام 1619 اول اخوية محبة للرجال.

### منصور مرشدا للسجون 1619

ولما رأى الجنرال دي كوندي ما كان عليه هذا الاب الغيور من المزايا الرفيعة والصدر الرحب والعاطفة الفياضة، عينه مرشدا روحيا اول للسجون البحرية، ووكل الى غيرته الرسولية اسعاف السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة على المراكب البحرية الشراعية، لان حالة هؤلاء التعساء كانت تدعو الى الشفقة والرحمة. فبرز الاب منصور في عمل الرحمة هذا، فبنى للمرضى من سجناء المراكب مستشفى في باريس وآخر في مرسيليا. وتبنى هؤلاء التعساء واخذ على عاتقه تخفيف مصائبهم واثقالهم. وصار يزورهم ويغني بامرهم ويقبل قيودهم، ويسلي همومهم ويعيد الى قلوبهم عواطف الايمان والصبر والتسليم. ويحكي انه اطلق يوما واحدا منهم ليعود الى امراته واولاده، وقام هو مكانه، وحمل قيوده.

### منصور المؤسس

#### (1) جمعية كهنة الرسالة او التبشير Les Prêtres de la Mission

ذكرنا ان زوجة الجنرال دي كوندي، سلمت ادارة نفسها الى يد القديس منصور دي بول. فقادها هذا الربان الحكيم في طريق الرحمة نحو القريب، والاحسان الى البائس المسكين. فصارت تنثر الحسنات على يده بسخاء حاتمي. وكان هو يُصحب الدرهم بكلمة طيبة روحية تسحر القلوب وتقودها صاغرة الى اقدام العلي.

فقادته ملكة التفكير، ومزية الابتكار، وعاطفة الشفقة، الى عمل التبشير Les Missions في الارياف، حيث يسود الاثم ويكثر. فنجحت هذه الرسائل الروحية نجاحا كبيرا، واقبل الناس عليها بشغف، واخذوا يتذوقون عدوتها ويتعودون الاقتراب الى الاسرار، لدى سماعهم مواعظها.

واوقفت زوجة الجنرال المحسنة الكبيرة مبلغا كبيرا من المال لكي يرصد ريعه على عمل الرسائل في كل القرى التابعة لامارة زوجها. وارسل الله الى الرسول منصور كهنة غيرا، وضعوا علومهم وقواهم في خدمة تلك الرسائل. وهكذا نشأت "جمعية كهنة التبشير Les Prêtres de la Mission" وانتشرت في 17 نيسان 1625. وسرعان ما حظي هؤلاء المرسلون

برضى الاساقفة، لا سيما رئيس اساقفة باريس. وبعد مرور سنتين على تأسيس الجمعية، اصدر الملك لويس الثالث عشر براءة ملكية تمنح الجمعية صفة شرعية (ايار 1627).

كانت الغاية الاولى من هذه الجمعية القاء المواعظ في الارياف. ثم تعددت اعمالها، واتسعت مشاريعها، وامتدت اغصانها في الدنيا كلها. وهي اليوم من كبريات الجمعيات الرسولية في بلاد كثيرة. ويدعى هؤلاء الآباء اليوم "الآباء اللعازيين" نسبة الى البناية الكبرى التي كانت على اسم "القديس لعازر" بين باريس وسان دنيس، والتي قدمها اصحابها للقديس منصور لتكون مسكنا له ولكهنته في اول امرهم، فقطنوا فيها ودرج اسمها عليهم، فاضحى لقبها لهم.

اسس القديس منصور جمعيته على روح الايمان والاتضاع والتضحية والشفقة، وهي الفضائل الكبرى التي امتاز بها في حياته كلها. وكان قد اعتاد ان يدعو جمعيته هذه "الجمعية الصغرى" "الجمعية الحقيرة". وكان يوصي كهنته ان يروا الفادي الالهي في شخص من يخدمونه في روحياته او في زمنيته، لكي تنتصر خدمتهم على المصاعب البشرية ويكون ثوابها الوحيد في الحياة الابدية.

## (2) اخوية سيدات المحبة Les Dames de la Charité

انتشرت اخويات المحبة في جميع انحاء فرنسا، وتأسس بعضها في ايطاليا: شبكة متشعبة ومترامية الاطراف، فكان لا بد من هيئة ادارية مركزية تخطط وتدبر، تجمع وتوزع. وهكذا كانت فكرة اخوية "سيدات المحبة". وكان الاب منصور قد اسسها، في البداية، للاعتناء بامور مستشفى اوتيل دو في باريس، اذ كان في حال يرثى لها من حيث سوء الادارة، واهمال القائمين عليه، وعدم الاهتمام اللازم بالمرضى في اجسادهم وفي انفسهم.

تألفت الاخوية من بعض النساء والانسات الغيورات والمنتميات الى الاسر الشريفة والغنية. وما ان انتشر خبر هذه الاخوية، حتى ائملت على الاب منصور طلبات الانضمام حتى اصبح عدد المشتركات، في اقل من اربعة اشهر، مئة وعشرين، وكان اغلبهن من العائلات النبيلة. منهن سيختار الاب منصور اعضاء الهيئة الادارية المركزية التي ستدير جميع اعماله الخيرية في سبيل البؤساء والسجناء واللقطاء والمنكوبين... وكان الاب منصور رئيسها الاعلى، يحضر كل الاجتماعات، يصغي الى التقارير، يصحح، يوجه، يحرض، يأمر. ما من استغاثة الا وجده متجاوبا.

## (3) راهبات المحبة 1633 Les Soeurs de la Charité

اخاف ذلك التهافت الغريب من قبل سيدات المحبة الاب منصور، وزرع في قلبه التخوف من ان لا يكون ذلك الا اندفاعا سطحيًا، وولعا بموضة، يدوم ما يدوم الولع وما تدوم الموضة. اذا بدأت تأتيه اخبار عن سيدات اخذن ينجلن من حمل الاكل الى المرضى في البيوت، او يتذرعن بالانشغال في البيت، ويرسلن عنهن الخادما... فرأى الاب منصور انه من الضروري جدا ان يعين لخدمة المرضى ممرضات قويات لا ينجلن من خدمتهم، بل ويتفرغن كليًا لذلك، فيجمعهن في اخوية او جمعية منظمة، لا بل يجعلهن راهبات من طراز جديد، راهبات غير محصنات، راهبات في وسط العالم. وتقدمت فتاتان مرغريت نازو Nazeau وماري جولي Joly، وعهد امر ادارة هذه البداية الى لويز دي مريك، التي تفرغت بعد موت زوجها لخدمة الفقراء وزيارة المرضى، تم تبتهما اربع صبايا، ثم غيرهن...

ينص القانون الذي وضعه الاب منصور بالاشتراك مع لويز دي مريك، على ان تحفظ "الراهبات" ليسهن البسيط، الذي كان لهن في العالم، وان يكن بلا ندور رهبانية، ولا تحصن، وان يقال عن اديرتهن "بيوت"، وعن زمن الابتداء "اختبار" وان لا يكن لهن معابد خاصة بل تكون كنيسة الرعية معبدهن، وان تُدعى المسؤولة لا رئيسة بل "الاخت الخادمة".

## اصلاح الاكليروس

اراد منصور دي بول ان يقدم للشعب خبز الروح فكانت "كهنة الرسالة" والرسالات. واراد ان يقدم خبز الجسد فكانت اخويات المحبة. هذه الاخويات استدعت جمعية "سيدات المحبة". سيدات المحبة استدعت "راهبات المحبة". اما مشروع الرسالة (التبشير) فكان لا يزال ناقصا لافتقار الكنيسة الى اكليروس كفؤ. كان الاكليروس، ولا سيما في الارياف، في حال يرثى لها من الجهل والانحطاط. كانت الحياة الاكليريكية مهنة يمارسها من لا مهنة له، او من كان يطمح باموال الكنيسة. كان بعض الكهنة يذهبون الى الخمارة بعد الكنيسة وهم لا يزالون في حلة القديس، لا يطيعون الاساقفة، يجهلون صورة الحل في الاعتراف، يقصدون كل على هواه فيغيرون ويبدلون ويخترعون.

## (1) الرياضات الروحية التحضيرية للمرشحين للكهنة Exercices pour Ordinands

استخدم الله القديس منصور بول وكهنته اللعازيين ليصلح بهم رجال الاكليروس في بلاد فرنسا، لان القديس منصور بدأ بمشروع جليل باشارة اسقف بوفة Beauvais، فصار يجمع الاكليريكيين قبل رسامتهم الكهنوتية باسبوعين او ثلاثة، يقوم هو وكهنته بارشادهم وتوجيه قواهم الى خدمة العلي. وكانت هذه الرياضات تشمل على احاديث روحية تليها حلقات

نقاش، ثم دروسا ملخصة في اللاهوت الادبي والليتورجيا والرعايات والروحانيات. وامتدت عادة هذه الرياضات الروحية الى العلمانيين، ولاقت اقبالا كبيرا. فصاروا يجتمعون في دير الآباء العازريين، ويقضون بضعة ايام في الاختلاء. وكانت تتلاقى هناك كل طبقات المجتمع.

## (2) محاضرات الثلاثاء Conférences du mardi

كان تحضير المرشحين للكهنوت وتهيئتهم للعمل الرعوي، وازهار عظمة ومسؤولية الكهنوت لهم، بالنسبة للاب منصور امرا ضروريا ومهما، الا انه لم يكن كافيا. يجب العمل على ان يستمر الكهنة ويثبتوا على هذه الاستعدادات الطيبة. فنظم الاب منصور للاكليروس ابتداء من سنة 1633، "محاضرات الثلاثاء"، حيث كان يجمع نخبة من الكهنة في دير القديس لعازر ويؤشغلهم ببرنامج عمل معين: حلقات دراسية حول حياة الكنيسة، يليها جلسة عممة للتداول في الوسائل الفعالة للتمرس بالفضائل الكهنوتية. ومن باريس انتقلت "محاضرات الثلاثاء" الى سائر المدن الفرنسية، باشراف "محاضرات" باريس ورياسة الاب منصور العامة.

## (3) ادارة الاكليريكيات Direction des Séminaires

كانت الرياضات للمرشحين تدوم خمسة عشر يوما، وما كانت تكفي لتهيئة كهنة اكفاء. فقرر الاب منصور وضع مقررات مجمع ترانت موضع التنفيذ، وخصوصا التي تقضي فيها بتنشئة الطلاب الاكليريكيين منذ سن الثانية عشرة، متذكرا كلام صديقه ادريان بوردواز Bourdoise القائل: "الرسالات في القرى والجبال مفيدة، ولكن المدارس الاكليريكية اكثر افادة. الرسالة مائدة يوم واحد متنوعة الاطعمة تُمد لفقير يتضور جوعا. اما المدرسة الاكليريكية فهي مطعم دائم. فمتى ما قدسنا الشعب ولقناه قواعد الدين والواجبات، يبقى ان نوكل امرهم الى كهنة افاضل وقديسين. وهذا لا يمكن ان يحصل دون المعاهد الاكليريكية". واستنادا الى ذلك فتح منصور دي بول سنة 1636، ابواب مدرسة Bons-Enfants لاستقبال عدد من الفتيان الذين كان قد تبين عندهم دلائل الدعوة. كان وكهنته يهتمون بتعليمهم وتثقيفهم وتربيتهم. ولكنه سرعان ما انتبه الى ان هذا لعمل غير كاف وغير مرض. اذ ان خلط طلاب الكهنوت والطلاب العاديين كان يجعل الكثيرين منهم يعدلون ويتركون بعد تحصيلهم بعض العلم. كما كان اسلوب التربية يختلف ما بين طلاب عاديين، وبين طلاب يستعدون للكهنوت. فقرر منصور ان يفصل بين هذين النوعين من الطلاب. وأنشأ فرعا ثانيا في مدرسة بونزنفان للطلاب الاكليريكيين الكبار (1642) ضم في البداية 12 طالبا، ثم انضم اليهم غيرهم. وارسل الاكليريكيين الصغار الى مدرسة سان لازار Saint Lazare، وراحت تلك المدارس تنتشر في سائر الابريشيات. وانشأوا المدارس الاكليريكية في ابرشياتهم، وسلموا ادارتها الى الآباء اللعازريين كهنة القديس منصور دي بول.

هذه بعض ما قام به الاب منصور دي بول، وهناك ايضا اعمال ومشاريع لا تقل اهمية، ولكن لا يسمح لنا المجال هنا ان نتكلم عنها باسهاب نكتفي بتسميتها: "ديوان الضمير" حيث كان منصور عضوا فيه، ومهمته اختيار الاساقفة لتولي الابريشيات، خدمة اللقطاء (1638)، خدمة السجناء، خدمة المتسولين، مساعدة المناطق المنكوبة، اصلاح طرق الوعظ، الميامم، المدارس الصغيرة للاحداث...

## وفاة القديس منصور

عمر القديس منصور دي بول حتى بلغ خمس وثمانين سنة، واضحى آية دهره والمرجع الاكبر للكنيسة ورجالها واعمالها الروحية والخيرية في بلاد فرنسا وسواها. وسقط هذا الجندي الكبير في ساحة القتال وهو يجاهد جهاد الابطال في 27 ايلول سنة 1660. اعلنت الكنيسة قداسته في 16 حزيران سنة 1737.

## (ج) جمعيات اخرى

الاوراتوار دي فرانس L'Oratoire de France: - اصلاح الكهنة، كان السبب الرئيسي لتأسيس بيير دي بيرول Pierre de Bérulle، اوراتوار دي فرانس عام 1611، والذي انتشر ليعم ما يقارب الاربعين مدينة، وساهم لمدة ثلاثة قرون في تجديد روحانية الاكليروس الفرنسي.

جمعية يسوع ومريم - الاديست Les Eudistes: - أسسها القديس جون ايد Jean Eudes (1601-1680)، مؤسس العبادة لقلب يسوع. كان من اعضاء الاوراتوار دي فرانس قبل ان يؤسس عام 1643 جمعية يسوع ومريم المعروفة اليوم بالاديست، المكرسة للتبشير الشعبي، وادارة المعاهد الاكليريكية.

السلبيسين Compagnie de Saint-Sulpice: - اسس هذه الجمعية عام 1642، كاهن رعية سان سلبيس Saint-Sulpice، الاب جان-جاك اوليه Jean-Jacques Olier (1608-1657)، تلميذ القديس منصور دي بول، حيث

قام بتأسيس معهد اكليريكي في رعيته، كان بداية مؤسسة كبيرة من الكهنة، تخصصت في ادارة المعاهد الاكليريكية وتهيئة الاكليروس.

**كهنه العقيدة المسيحية Les Pères de la Doctrine Chrétienne**: المعروفين باسم Doctrinaires. اسسها في افنيون عام 1592، المكرم قيصر دي بو César de Bus (1544-1607)، بهدف التعليم المسيحي في المدارس والكليات.

**الكاملين Les Camilliens**: اسسها في روما عام 1584، القديس كاميل دي ليلس Camille de Lillis (1550-1614) للعناية بالمرضى.

**كهنه ام الله Les Clercs Réguliers de la Mère de Dieu**: اسسها في ايطاليا عام 1583، القديس جان ليوناردي Jean Leonardi (1541-1609) لتعليم الاولاد، الوعظ والتبشير.

**البياريست Les Piaristes**: اسسها في روما عام 1597، الكاهن الاسباني يوسغ كلزانس Joseph Calasanz (1556-1648)، بهدف التعليم المسيحي، وتعليم اولاد الفقراء.

**البرتلميت Les Barthélemites**: اسسها في البافير Bavière في المانيا عام 1640، برتلميو هولزهاوسر Barthélemy Holzhauser، وهي مجموعة من الكهنة توحدوا لتقدیس نفوسهم وتقديس الاكليروس.

**جمعية رهبان سان جان دي ديو Saint-Jean de Dieu**: المعروفين Fate-bene-fratelli. اسسها في اسبانيا عام 1540، الكاهن البرتغالي جان دي ديو Jean de Dieu (1495-1550) للعناية بالمرضى وخصوصا في المستشفيات. يتعهد اعضاء هذه الجمعية بالنذور الثلاث التقليدية: الفقر والعفة والطاعة، ونذر رابع هو العناية بالمرضى.

#### (د) الجمعيات الرهبانية النسائية

لاقت الجمعيات الرهبانية النسائية انطلاقة قوية في النصف الاول من القرن السادس عشر، ظهر في الاصلاحات التي تمت في الجمعيات القديمة، وخصوصا في الاديرة الكرملية والبندكتية، كما رأينا في بداية هذا الفصل، وفي ظهور جمعيات جديدة، بأسلوب جديد، ولغايات جديدة، كالتربية والعناية بالمرضى. من هذه الجمعيات:

**راهبات الزيارة Les Visitandines**: (راجع ص. 199).

**راهبات المحبة Les Filles de la Charité**: (راجع ص. 212).

**الاورسلين Les Ursulines**: اسستها في بريشيا (ايطاليا) عام 1535، القديس انجيلا مريشي Angela Merici، للاهتمام باعمال المحبة وتعليم البنات. وضعوا انفسهم تحت حماية القديس اورسولا Ursula.

**راهبات ضيافة المحبة نوتردام Les Soeurs Hospitalières de la Charité de Notre-Dame**: اسستها في فرنسا عام 1624، المكرمة فرانسواز دي لا كروا Françoise de la Croix، على مثال جمعية سان جان دي دي Saint Jean de Dieu، للاعتناء بالمرضى في المستشفيات.

**راهبات سيدة الملجأ Les Soeurs de Notre Dame de Refuge**: اسسها ايضا في فرنسا عام 1644، القديس جون ايد John Eudes للعناية بالبنات المنحرفات.

**السيدات الانكليزيات Les Dames Anglaises**: اسستها في فرنسا عام 1609 مع مجموعة من السيدات الانكليزيات ثم امتدت الى انكلترا ومانيا والنمسا، الراهبة الكرملية سابقا ماري وارد (1585-1645)، بهدف الاهتمام بتعليم الشبيبة على مثال اليسوعيين.



## الفصل الثالث والخمسون

### الارسلالات والتبشير

#### LES MISSIONS

ان الكنيسة الكاثوليكية التي فقدت الكثير من اعضائها، بسبب الانشقاقات البروتستنتية، اخذت على عاتقها التعوض عن ذلك. فظهرت في القرن السابع عشر نشاطا تبشيريا لا مثيل له، سواء في البلاد المسيحية او غير المسيحية، بشكل يسمح بوصف هذا القرن بحق "قرن الارسلالات Le Siècle de l'Apostolat". وفتح هذا القرن الطريق للقرون التالية. وتنافست بكل حماس في حمل هذه الرسالة التبشيرية الرهبانية القديمة والجديدة: الفرنسيين واليسوعيين والكبوشيون وكهنة الاوراتور واللعازريون والاديبست. وبذلك استطاعت ان تكسب في هذه البلاد ما خسرت في اوروبا. وساهمت البابوية بقسط كبير في هذا النشاط: ففي سبيل تنظيم حملات التبشير واعطاء المبشرين الغيورين توجيهات عامة ومشتركة، اسس البابا غريغوريوس الخامس عشر، سنة 1622 و "مجمع التبشير Congrégation de la propagande"، وبعد عدة سنوات، سنة 1927، بنى البابا اوربان الثامن، كلية سماها "الكلية الاربانية Urbanianum"، الذي اصبح معهدا لتحضير المبشرين. تبع تلك الكلية كليات اخرى مثل "Séminaire des Missions étrangères" سنة 1663، و "Séminaire du Saint-Esprit" سنة 1703، والاثنتان في باريس.

#### 1) الارسلالات والتبشير في البلاد المسيحية

كانت غاية التبشير في البلاد المسيحية محاربة الجهل الديني وفساد الاخلاق، وفي مناطق كثيرة محاربة الهرطقات والانقسامات.

##### فرنسا:

شهدت فرنسا اكبر وانشط حركة تبشير قام بها الرهبان اليسوعيون والكبوشيون والاوراتوريون واللعازريون والاديبست. ومن اشهر هؤلاء الوعاظ، اليسوعي القديس جان فرانسوا ريجيس Jean-François Régis، الذي استطاع مدة حياته القصيرة (43 سنة) ان يرد الى الكنيسة الوف البروتستنت. وقام الكبوشيون بحملة تبشير ووعظ في كل انحاء فرنسا، ونجحوا في غرب فرنسا، حيث الاكثرية البروتستنتية، الى اعادة ما يقارب الخمسين الفا منهم الى حضن الكنيسة الكاثوليكية. وساهم اللعازريون ايضا بشكل فعال في هذه الحركة، اذ ينسب الى مؤسسهم القديس منصور دي بول، تأسيس هذه الحركة التبشيرية بتأسيسه "كهنة التبشير"، والذين دعوا في ما بعد باللعازريين. وكان من انشط الوعاظ ومن اشهرهم الاب لوجين Lejeune (1592-1672)، الذي فقد نظره وهو في سن التاسعة والثلاثين، ووعّض عن ذلك بحياة امتازت بالتقوى والصلاة وببلاغة في الوعظ وحماس للرسالة، لدرجة انه شُبه بالقديس فرانسوا ريجيس. وقام الاديبست بالتبشير في منطقة النورماندي وبريتاني Normandie et Bretagne، وكان مؤسسهم القديس جون ايد Jean Eudes من اشهر الوعاظ المبشرين.

ولم يلع ايضا بعض الكهنة الابريشيين Séculiers، في حركة التبشير، واشهرهم الاب ميشيل دي نوبلتز Michel de Nobletz. وكان مبشرا وواعظا مبتكرا، ادخل اساليب جديدة على الوعظ والتعليم. فالف في لغة البلاد ترانيم واغان دينية، حوت العقائد المسيحية، كما وابتكر الصور الملونة لشرح حياة المسيح. وتابع بعده تلميذه اليسوعي الاب Maunoir اسلوب معلمه، بتنظيم التطوفات مع اناس يمثلون الشخصيات والحوادث الانجيلية وخصوصا الصلب، وبعد ان يلفت نظر الناس بهذه التظاهرات ويلتفون حوله كان يعظ فيهم ويعلمهم.

**سويسرا:** رأينا سابقا في دراستنا للقديس فرانسيس دي سالس، ان منطقة الشبله Chablais، التي كانت قد انتقلت الى الكلفينية، قد تمت اعادتها الى حضن الكنيسة الكاثوليكية، بوعظ وتبشير القديس فرانسيس دي سالس.

**كورسيكا La Corse:** تم تبشير كورسيكا على يد اثنين من اليسوعيين، وهم لانديني Landini ومونته مايور Monte Mayor عام 1553، وخصوصا على يد القديس اسكندر سألوي Alexander Sauli، الذي بشر فيها مدة عشرين سنة من عام 1571-1591. وعندما اصبح اسقف الريا Aleria، ضاعف عمله بعقد السينودسات الابرشية، وفتح المدارس والمعاهد الاكليريكية.

**المانيا:** تم اعادة قسم من المانيا الى حضن الكنيسة الكاثوليكية بواسطة الآباء اليسوعيين والكبوشيين. فقد ارسلت الجمعية اليسوعية، بعد مدة قصيرة من تأسيسها، مرسلها الى المانيا، ففتحو الجامعات والكليات، واصبحوا معلمي ومرشدي ومعرفي الامراء الالمان الكاثوليك. وحدثت عملية تجديد كاثوليكية كبيرة بدعم من البابوات المصلحين للمرسلين والمبشرين.

**هولندا:** كانت هولندا باكملها قد انضمت الى الكلفينية في اواخر القرن السادس عشر. فجاء اليها اليسوعيون والدومنيكان والفرنسيسكان، وقاموا بعملية من التبشير والوعظ استطاعوا كسب قسم من ما خسرت الكنيسة. الا ان هذه الحركة التبشيرية أوقفت، في اواخر القرن السابع عشر، بسبب هجرة البروتستنت الفرنسيين، الذين التجأوا الى هولندا بعد منشور نانت (1675)، وبسبب النزاعات الجنسية التي قسّمت الحزب الكاثوليكي. ولم تعاود حركة الارتدادات الا في القرن التاسع عشر.

## (2) الارساليات والتبشير في البلاد غير المسيحية

بينما كانت الكنيسة تخسر اما وشعوبا في اوربا بسبب حركة الاصلاح، اذ بها تتعوض عنها باكتساب شعوب جديدة في الشرق والغرب لا سيما بعد اكتشاف افريقيا والصين والهند وامريكا.

ادت السفرات البحرية التي قام بها العديد من المستكشفين الى اكتشاف ما دُعي بالعالم الجديد. وأدت السفرات الاولى الى احتلال اراضي واسعة من هذه البلاد. ففي عام 1500، استطاع كريستوفر كولمبوس مع رفاقه احتلال جزر الانتيل. وفي عام 1500، نزل المستكشف البرتغالي الفارز كبرال Alvarez Cabral، بلاد البرازيل. واستولى الاسباني دياز دي سوليس Diaz de Solis على لابلاتا La Plata عام 1516. وفتح فرديناند كورتز Ferdinand Cortez المكسيك عام 1519، واسس فيها مدينة فيرا كروث Vera Cruz (الصليب الحقيقي). واستولى الاسبان على بعض البلاد الى الجنوب من المكسيك: يكوatan، وجويتمالا، وهندوراس، ونيغراغوا (1523-1526). واخضع فرانسوا بيزار François Pizarre البيرو في عام 1531، وفتح مساعده، الماغرو Almagro ولوقا Luque، التشيلي في نفس الوقت.

وهكذا في اقل من نصف قرن استطاع الاسبان والبرتغال ان يفتحوا ويخضعوا تحت سلطتهم كل امريكا الوسطى وامريكا الجنوبية.

ولم يتأخر المرسلون في الحضور الى هذه البلاد حاملين معهم البشري الانجيلية.

## (3) تنظيم الارساليات

### (1) الوصاية

خلال القرن الخامس عشر، منح الكرسي الرسولي ملك البرتغال، في سلسلة من البراءات، الولاية الزمنية والروحية على الاراضي المكتشفة والتي ستكتشف. فأدى اكتشاف البلدان الهندية الغربية (امريكا) على يد كريستوفر كولومبوس سنة 1492، الى حالة من التوتر بين البرتغال واسبانيا. وفي سنة 1493، حُكّم البابا اسكندر السادس بين الطرفين، فحدد حقل الاكتشافات: الغرب لاسبان والشرق للبرتغاليين. وتخلّى البابا، لصالح الملكين، كل في اراضيه، عن مسؤولية تنظيم الكنيسة: من تحديد الابريشيات، وتعيين الاساقفة، فاصبح الملكان الى حد ما، رئيسي الكنائس الجديدة. واكتفى البابا بالتصديق على التعينات، من دون ان يتدخل مباشرة. جميع هذه التنازلات تشكل حق الوصاية، ولا شك ان هذه الوصاية لم تكن تخلو من الجوانب السيئة. فقد كان التبشير يخضع لتقلبات الاستعمار والسياسة. ولقد اظهر البلدان حرصا وغيره على حقوقهما، حتى يوم كانا عاجزين عن القيام بواجبهما. كان عدد سكان البرتغال مليوناً ونصف المليون فقط، فلم يكن بوسعها ان يلبي احتياجات الكنيسة في نصف العالم. ومع ذلك كان الزاميا على جميع المرسلين الاجانب ان يمروا بلشبونة. اما ملوك اسبانيا فكانوا اشد وسوسة. لكن عددا كبيرا من الامم الاخرى كفرنسا، اندفعت الى فتح العالم، فكان فرانسوا الاول يقول متهكما: "اود ان أرى في وصية آدم البند الذي يستبعدني عن تقاسم العالم".

## (2) مجمع انتشار الايمان

جعلت هذه المتاعب الكرسي الرسولي يتولى زمام التبشير، فانشأ سنة 1622، مجمع انتشار الايمان، وكلفه ايضا بمهذبة المسيحيين المنفصلين في اوروبا وفي الشرق الاوسط. ومع ذلك، كان عدول الدول عن حقوق الوصاية امرا عسيرا، فازداد عدد الخلافات في ما يتعلق بالولاية الكنيسة.

كان مجمع انتشار الايمان عبارة عن وزارة تهتم بالارساليات. وبمبادرة من امين سره الاول، اطلق عملية تحقيق واسعة عن النشاط الارسالي في العالم، وقدم للارساليات بعض الامكانيات: مطبعة متعددة اللغات واكليريكايات وجامعات. كما أنشأ نظام "النواب الرسوليين"، وهم اساقفة مرسلون مرتبطون مباشرة بالبابا.

## (3) عوائق التبشير

لاقى التبشير في هذه البلاد الجديدة عوائق وصعوبات كثيرة وصعبة، من اهمها:

(1) **عادات واعتقادات هذه الشعوب**:- عبادة الاصنام، تعدد الزوجات، التضحيات البشرية، اكل لحوم البشر. عادات كان من الصعب استئصالها بسهولة وتبديلها بعبادات واخلاق الانجيل.

(2) **تصرف الفاتحين والمستوطنين مع اهالي البلاد الاصليين**:- مما لا شك فيه ان بعض هؤلاء جاؤوا بدافع من الغيرة الدينية ولايصال البشري الانجيلية لهذه الشعوب. الا ان القسم الاكبر لم يكن عنده هذه النوايا النبيلة. فكان معظمهم من المغامرين، الذين جاؤوا وراء المغامرة، وجمع الذهب، والاعتناء السريع، بدون وازع ولا ضمير، وانما بالسيف والعنف. فاستعملوا لتحقيق هذا الهدف كل اساليب العنف، من قتل ومذابح جماعية، واغتيال، بحجة التغلب على مقاومة الهنود سكان البلاد، ومن ثم لاستغلالهم واستعبادهم للعمل في زراعة الاراضي التي استولوا عليها، او العمل الشاق في المناجم. فلا عجب ان قابل الهنود بالرفض والازدراء حضارة وثقافة وديانة هؤلاء المستوطنين.

(3) **طبيعة البلاد**:- كما وساهمت طبيعة البلاد الجبلية الوعرة الواسعة، ذات المساحات الشاسعة والادغال الكثيفة، والتي يقطنها مئات القبائل المختلفة، والبعيدة عن بعضها البعض، وذات لهجات ولغات مختلفة، في صعوبة ايصال الرسالة الانجيلية.

## (4) بلاد الارساليات

### (1) تبشير امريكا الوسطى والجنوبية

بالرغم من هذه العوائق التي ذكرناها وغيرها، الا ان المسيحية انتشرت في امريكا الوسطى الجنوبية، وتكلفت مساعي وجهود المرسلين بالنجاح، ولكن ليس بدون التضحيات الكثيرة والمصاعب وحتى الاستشهاد. وتنافس في البداية ثلاث جمعيات رهبانية في هذه الرسالة، الدومنيكان والفرنسيسكان اولا في النصف الاول من القرن السادس عشر، ثم اليسوعيون في النصف الثاني منه. استعملوا في سبيل هداية الوثنيين، الوسييلتين العاديتين: التعليم والمؤسسات الخيرية. فبدأوا بفتح المدارس الابتدائية، ومن ثم الثانوية، حيث كان ابناء المستوطنين الاسبان وابناء اهل

البلاد الاصليين، يتلقون بجانب مبادئ الديانة المسيحية، الدروس العادية، والاعمال اليدوية. ومن ثم اقاموا الجامعات في المدن الكبرى: مكسيكو، وليما، وفردوبا... واعطى المبشرون ايضا اعمال المحبة والرحمة دورا هاما، فاسسوا المؤسسات الخيرية من مستشفيات وملاجئ للمسنين ومياتم للاطفال. وازداد اليسوعيون عند مجيئهم وسيلة ثالثة، هي التجمعات Réductions التي هي اشبه بالقرى التعاونية.

### جزر الانتيل

رافق كرسطوفر كولمبوس في رحلته الاولى (1493-1496) مرسلون برئاسة، برنارد بول Bernard Boyl الذي قلده البابا اسكندر السادس سلطة النائب البابوي. فشيدوا في عام 1494 اول كنيسة مسيحية في "جزر الاسينيول" (هايتي-سان دومنيك، كوبا...). وفي رحلته الثالثة (1498-1500)، رافق كولمبوس هذه المرة الآباء الفرنسييسكان، وتبعهم في عام 1510 الدومنيكان. وفي عام 1511، كان التبشير قد وصل في جزر الانتيل درجة كافية لتأسيس اسقفيتين في جزيرة هايتي في سان دومنيك، والكونسبسيون دي لافيغا Conception de la Vega، وثالثة في سان جوان Saint-Juan في جزيرة بورتوريكو Puerto Ricco. وأسس الدومنيكان في عام 1512، اول دير لجمعيتهم، اصبح مقرا ومركزا للمرسلين الاسبان. واصبحت جزر الانتيل نقطة انطلاق المرسلين الى سائر انحاء امريكا.

### المكسيك

بشر الآباء الفرنسييسكان والدومنيكان المكسيك، التي تم اكتشافها عام 1519. وفي منتصف القرن السادس عشر، كان عدد المسيحيين يربو على الستة ملايين، وعدد الاسقفيات خمسة. وساهم في نشر المسيحية، ظهور العذراء مريم، في مظهر بنت هندية، على صخرة Tepeyac، قرب مكسيكو عام 1531، حيث اقيم لاحقا مزار العذراء "سيدة غودالوبه" Notre-Dame de Guadalupe، الذي جذب سنويا الاف الحجاج.

ومن اشهر المرسلين الى المكسيك: (1) الفرنسييسكاني جوان دي زمارغا Juan de Zumarrga. الذي اصبح اسقف مدينة مكسيكو، ودافع بشدة عن حرية الهنود، اهل البلاد الاصليين، ضد تسلط المستوطنين. (2) الدومنيكاني برتلماوس دي لاز كازاز Barthélémy de Las Casas، اشهر مرسلي المكسيك. كان اولاً من المستوطي نين، ثم اصبح راهبا دومنيكيا، واصبح من اكبر المدافعين عن حرية اهل البلاد الاصليين. عبّر المحيط ستة مرات ليذهب الى اسبانيا، ويدافع عنهم امام مجلس الملك، فسانده الملك شارل الخامس وفيليب الثاني، واصدرا تعليمات صارمة في هذا الشأن الى الحكام، مما اثار ضده الحكام والمستوطنين، فاضطر الى التخلي عن منصبه الاسقفي. وادى الدفاع عن اهل البلاد الاصليين، الى جلب المستوطنون بدلا منهم، ايدي عاملة اخرى، وهم العبيد الافارقة.

ومن المكسيك انتقلت المسيحية الى البلاد المجاورة: في الشمال، كاليفورنيا، والى الجنوب، جوتيمالا، وهندراس، ونيغارغوا.

### جرنادا الجديدة (كولومبيا) وفنزويلا

بشر هذه البلاد اولاً الدومنيكان ثم الفرنسييسكان. فقد خرجت مجموعة من الدومنيكان بقيادة الاب توماس اورترز Thomas Ortiz، من سان دومنيك عام 1525، بصحبة البحارة الاسبان. واتجهوا الى الجنوب الغربي، واكتشفوا ارضا جديدة، سُميت بسانتا مارتا Santa Martha، وبنوا مدينة، رفعها البابا كليمنضوس السابع فورا الى مركز اسقفية، مع اورترز كاول اسقف عليها.

من اشهر المرسلين الذين بشروا جرنادا الجديدة (كولومبيا اليوم): (1) توماس دي تورو Thomas de Torro اول اسقف لمدينة كارتاجين Carthagène، واشتهر بدفاعه عن اهل البلاد الاصليين. (2) لويس برترن Louis Bertrand، الذي ميزه الله بمواهب اللغات والعجائب والتنبؤ على مثال القديس فرانسيس كسفاريوس، والذي في سبع سنوات من 1562-1569، رد اكثر من مئة وخمسين الف هندي من سكان البلاد.

اما فنزويلا، فقد بشر فيها اولاً الفرنسييسكان ثم اليسوعيون. ومن اشهر المرسلين اليها الاب ساندوفال Sandoval والقديس بيير كلافر Pierre Claver المدافعين الشجعان ورسولا حماية وتحرير العبيد.

### البيرو

كان الدومنيكان والفرنسييسكان من اوائل المبشرين ايضا في البيرو. فأسس الدومنيكان في عام 1532، اول كنيسة كاثوليكية في سان ميشيل دي بيورا Saint-Michel de Piure. وفي السنة التالية، جاءت دفعة اخرى من الدومنيكان، بقيادة الاب جان دي اولياس Jean de Olias، ذهبت مجموعة منهم وبشرت شمال البيرو، بينما اتجهت

مجموعة اخرى نحو الجنوب وبشروا هناك، فحولوا في مدينة Cuzco الهيكل الوثني الى كنيسة وتوابعه الى دير. وتوطن الدومنيكان مع الآباء الفرنسيين في عام 1535، في مدينة ليما، المبنية حديثا، والتي ستشتهر بالفضائل البطولية للقديس روزا دي ليما Rosa da Lima (+ 1617)، والقديس مارتن دي بورس Martin de Porres (+ 1639)، الذي كرس حياته لخدمة العبيد الافارقة.

ومن اشهر مرسلي البيرو القديس الفونس توريبه Saint Alphonse de Turibe، اسقف مدينة ليما، الذي في مدة اسقفيته التي استمرت من عام 1580-1606، زار ثلاث مرات ابرشيته الواسعة الشاسعة، وعقد ثلاث مجامع اقليمية، واربعة عشر سنودسا ابرشيا، وبنى الكنائس، وانشاء المعاهد الاكليريكية والمستشفيات، ولُقب بجدارة "القديس شارل بورميه لبيرو". كما وكان من المدافعين المتحمسين عن الهنود.

### الاكوادور

اصطدم المرسلون في هذه البلاد مع قبيلة Jibaros المحاربة، التي قاومت التبشير بشدة. الا ان المرسلين استطاعوا ان يردوا الكثير من سكان البلاد الاصليين. من اشهر المرسلين في هذه المنطقة، الدومنيكاني، الفونس دي مونتغرو Alphonse de Montenegro، الذي بشر Guayaquil وكويتو Quito. وستشتهر الاكوادور في بداية القرن السابع عشر بفضائل البتول الشابة الدومنيكانية، الطوباوية ماريان ليسوع دي بارس Marianne de Jésus de Paredes (1618-1645)، التي لُقب "بزنبقة كويتو Lis de Quito"، والتي امضت حياتها في تلقين الاطفال التعليم المسيحي.

### التشيلي

لم يكن تبشير التشيلي أسهل من الاكوادور بسبب وحشية القبائل التي سكنتها. وكان الدومنيكان من اوائل المبشرين، الذين اسسوا من عام 1540 الى عام 1550، في كل من كونسبسيون Conception، وفيلار ريكا Villa-Ricca، وازورو Osoro، اديرة اصبحت مراكز ارساليتهم. واستشهد الكثير منهم على ايدي قبائل Araucanos. وصادف الفرنسيين ايضا، الذين جاؤوا بدورهم عام 1560، نفس العناء في تبشير بعض القبائل. وتابع اليسوعيون في اواخر القرن السابع عشر عمل الدومنيكان والفرنسيين، ودفعوا الثمن غاليا بالارواح، الا انهم حصلوا على نتائج كثيرة ودائمة.

### البرازيل

بشر الفرنسيين سكان البرازيل منذ بداية القرن السادس عشر، الا ان النتائج الفعلية لم تبدأ تعطي ثمارها الا بمجيء اليسوعيين في عام 1549. جلبت معها هذه الجمعية عناصر شابة متحمسة، وادخلت في عملية التبشير في امريكا الجنوبية اساليب جديدة، ومن اهمها: "التجمعات Réductions".

### البراغواي والاوروغواي Le Paraguay et l'Uruguay

تم تبشير هذين البلدين التي تم اكتشافهما في الثلث الاول من القرن السادس عشر، بواسطة الآباء الفرنسيين، دون نجاح يذكر. استدعى الاسقف اليسوعيين، فجاءت مجموعة منهم عام 1588، وبعد ان عملوا مدة دون نتيجة، توصلوا الى ان التبشير لن ينجح الا اذا ما تم اولا الغاء العوائق التي تعترض قبول الانجيل. وتشمل هذه العوائق عادات واخلاق اهل البلاد الرُّحَل، وطبعهم الميال الى الخمول والكسل. ومن الناحية الاخرى تصرفات العنيفة والقاسية واللااخلاقية للمستوطنين الاسبان والبرتغاليين، الذين ارادوا استبعاد السكان الاصليين لخدمتهم، ومن ثم هجمات القبائل المتوحشة، اكلة لحوم البشر. ورأى اليسوعيون ان الحل يكمن في تجميعهم في تجمعات مغلقة، يمنع دخولها على المستوطنين وعلى أي غريب، وتثبيت هذه القبائل الرُّحَل على ارض معينة، وتشجيعهم على العمل، وتعليمهم الحرف الضرورية لمعيشتهم، وطريقة استعمال السلاح للدفاع عن انفسهم ضد المعتدين.

قدمت هذه الدراسة حول "الجمهورية المسيحية" الى البلاط الملكي الاسباني في عام 1610، ووافق عليها الملك فيليب الثاني، وسلّم اليسوعيين السلطة كحكام مدنيين وروحانيين لهذه التجمعات تحت حماية ملك اسبانيا. فأسس اليسوعيون نحو الثلاثين من هذه التجمعات، احتوت ما يقارب 120000 هندي. وقام اليسوعيون بتثقيفهم، فتعلموا بناء مساكنهم، واستعمال السلاح، وزراعة الارض.

كان السكان الاصليون معتادين على الحياة الجماعية، فتم تنظيم هذه التجمعات على شكل "اشتراكية جماعية"، حيث كان المنتج الزراعي والصناعي، يبقى ملكا للجماعة، يوزع على كل واحد حسب احتياجاته بواسطة موظفي الدولة، الذين كانوا المرسلين انفسهم. وكرست بعض الاراضي ودُعيت "مسكن الله Domaine de Dieu" حيث

كان السكان يقومون بالعمل فيها، كل واحد حسب دوره، ورصد مدخول هذه الاراضي للاعمال الخيرية. وكان لكل مجتمع مدارسه ومستشفياته الخاصة.

## الارجنتين

بشر الدومنيكان والفرنسيسكان الذين اتوا من تشيلي، الارجنتين في بداية القرن السابع عشر. ومن اشهر المرسلين اليها، الفرنسيين، القديس فرانسوا سولانو François Solano، الكاهن النشيط النابغة، الذي استطاع ان يتعلم اللغات العامية لهذه القبائل المختلفة، والف في لغاتهم الترانيم والصلوات، ووضع لها الموسيقى، ورغمما هو بمصاحبة القيثارة. الا ان التبشير لم يعطي ثماره الا في منتصف القرن السابع عشر، عندما جاء اليها اليسوعيون، ووضعوا لها نظام "التجمعات".

## (2) امريكا الشمالية وكندا

تبع اكتشاف امريكا الجنوبية بوقت قصير اكتشاف امريكا الشمالية. وكان الفرنسي جان شابو Jean Chabot، والبرتغالي كورته ريال Corte Real، قد بدأ باكتشاف جزيرة الارض الجديدة Terre-Neuve، وسواحل اللابرادور Labrador، لحساب انكلترا. الا ان الانجيل لم يدخل هذه المناطق الا بعد ذلك بكثير.

كانت كندا من اوائل البلاد التي نجح فيها التبشير واستمر. وكان اكتشاف هذا البلد الواسع الشاسع، يعود للفرنسي جاك كرتيه Jacques Cartier، الذي قام من عام 1533 الى عام 1543، بثلاث رحلات استكشافية، فاكتشف منطقة سان لوران Saint Laurent، والاراضي التي قامت عليها فيما بعد المدن كويك Québec، ومونتريال Montréal. الا ان التبشير لم يبدأ في هذه المناطق الا في القرن السابع عشر. وسيكون هذه المرة على ايدي المرسلين الفرنسيين. فقد دعى ميشيل شمبلان Michel Champlain، بعد ان اسس كويك عام 1608، المرسلين Récollets، وفي عام 1615، اليسوعيين، وتبعهم بعدها الكثير من المرسلين الفرنسيين بتشجيع من الكاردينال الوزير ريشليو Richelieu.

ولم تكن مهمتهم اسهل من امريكا الجنوبية، فقد واجه المرسلون قبائل لا تقبل وحشية مثل ال Hourons و Algonquis، و Montagnais، وخصوصا قبيلة ال Iroquois الاكثر وحشية. وبدأ اليسوعيون بتبشير قبائل الهورون، الحضر، المزارعين، وكانوا متعددي الزوجات ويمارسون السحر، ويؤمنون بالخرافات. وكانوا يرون دائما في المرسلين السبب لكل ما يحل بهم من كوارث. وللتقرب منهم قام المرسلون ببناء مستشفى في كويك، واحضروا اولاً راهبات Hospitales de Dieppe، للاهتمام بالمرضى، وراهبات الاورسلين Les Ursulines، لتعليم البنات. واسس بنفس الوقت اليسوعيون في كويك اول كلية.

ومن كويك، التي اصبحت مركزا للارساليات، انطلق اليسوعيون، لتبشير باقي القبائل الرحل، الذين كانوا يعيشون من صيد الحيوانات والسمك والغزو. واستعملوا اسلوب التجمعات لتوطين الهنود قرب التجمعات الفرنسية، واسسوا اول مدينة Saint-Joseph de Sillery.

وكانت مدينة مريم او مونتريال من اهم المدن التي أسست. فقد قام اوليه Olier، مؤسس السلبسيين Les Supliciens، مع مجموعة من العائلات الفرنسية بتأسيسها في جزيرة مونتريال على نهر سان لوران، واحضر الراهبات للعناية بالمستشفيات والمدارس.

ولم تتم عملية التبشير بدون شهداء. ومن اهمهم القديس Isaac Joques والقديس Jean de Brébeuf.

بعد مجيء السلبسيين بسنتين، كان التبشير قد وصل الى مرحلة متقدمة، كافية لتبدأ روما بتأسيس السلطة الكنسية فيها. فعين البابا اسكندر السابع في عام 1659، المونسنيور دي مونترنسي لافال Mgr. Montmorency-Laval، نائبا بابويا في كندا. ففتح هذا المعاهد الاكليريكية الصغرى والكبرى، واسس بعض الرعايا خارج كويك.

لم تمنع الصعوبات المرسلين، ولم تقف حركة التبشير، بل استمرت الى اكثر من قرن، حتى وضعت "اتفاقية باريس" (1763) كندا تحت سيطرة انكلترا البروتستنتية. فدخلت العناصر البروتستنتية في صراع مع العناصر الكاثوليكية الفرنسية، الا ان الكاثوليك ظلوا متمسكين بايمانهم وتقاليدهم وبانتمائهم الى فرنسا.

وانتقل التبشير من كندا الى مناطق عديدة من امريكا الشمالية. فاستوطن في عام 1634، الكاثوليك الانكليزي لورد بلتمور Lord Baltimore، مع بعض العائلات الانكليزية، منطقة اطلق عليها اسم ماريلند Maryland،

ارض مريم. الا ان مستوطنته الكاثوليكية سقطت تحت اضطهاد البروتان او التطهريين Les Puritains الانكليز البروتستنت.

واكتشف الكاهن اليسوعي ماركت Marquette في عام 1673 لويزيانا Louisiana وجزر الميسيسيبي Isles de Mississippi. وبعد عشرين عاما جاء اليها المرسلون واسسوا ولاية اورليان الجديدة Nouvelle Orléans في عام 1717.

### (3) اسيا

كانت اسيا في القرن السادس عشر قارة معروفة من مدة طويلة لدى الاوروبيين. فقد دخلها المرسلون الفرنسيون منذ القرن الثالث عشر. وعندما اكتشف البرتغاليون الطرق البحرية التي تقود الى الشرق الاقصى، وباقاماتهم المستوطنات، ساعدوا على تسهيل الوصول الى هذه المناطق، وساهموا في تسهيل وصول المرسلين الذين بدأوا يتوافدون عليها. ففي بداية القرن السادس عشر، بدأ الاخوة الاصاغر بالتبشير ولاقوا نجاحا باهرا، واستطاعوا ان يأسسوا جماعات مسيحية في كل من غوا Goa، Cochinchina، Calicut، Cranganor، واصبح في عام 1532، الفرنسيون Jean d'Albuquerque اول أسقف على غوا.

الا ان عملية التبشير لاقت عوائق اهمها المثل السيء للفاتحين البرتغاليين، الذين كان معظمهم من حثالة الشعب، مغامرين دون ايمان ولا قانون، جاؤوا يركضون سعيا وراء الغنى والربح والتفتيش عن الذهب، فعاشوا حياة استهتار، ومارسوا تعدد الزوجات والزنى والطلاق. وجد الابهاء الفرنسيون انفسهم عاجزين عن التبشير بالاخلاق المسيحية في هذا المحيط المسيحي السيء. عند ذاك التجأ الملك جون الثالث، ملك البرتغال الى جمعية اليسوعيين المؤسسة حديثا، ولا يزال اعضائها من الشباب المتحمس الغيور. فعين اغناطيوس دي لويولا فرانسيس كسفاريوس، رئيسا لهذه الحملة التبشيرية. وسيصبح كسفاريوس من اكبر المبشرين اطلاقا في العصر الحديث، وستجعله سفراته الثلاث الى الهند واليابان والصين، وقداسته وقوة عجايبه وعظمة عمله الكبير، على مستوى القديس بولس.

### القديس فرانسيس كسفاريوس St. François Xavier (1505-1552)

خرج القديس فرانسيس كسفاريوس من اسرة اسبانية شريفة، من مملكة نفار، وكان سادس اخوته. وكان ابوه يوحنا مستشارا في مجلس المملكة. فلما ثارت الحرب بين فرنسا واسبانيا، امتاز اخوة فرانسيس ببسالتهم. ولما وضعت الحرب اوزارها، سنة 1525، كان فرانسيس قد صار ابن تسع عشرة سنة، فذهب الى باريس، وتخرج على اساتذتها، وبرع في شتى العلوم، ونال شهادة الفنون العالية من جامعتها، مع المأذونية بالتعليم العالي. وما لبث ان حصل على كرسي للتدريس فيها.

كانت العناية الالهية قد دبرت لكسفاريوس اكاليل مجيدة غير اكاليل الدنيا. فارسلت اليه الى باريس اغناطيوس دي لويولا. فما كاد يلقي فرانسيس هناك ويجتمع به حتى عرف ما هي الكنوز الثمينة المخبأة في ذلك القلب الكبير. فاراده الله لا للدنيا. فبدأ بمهاجمته، ولكن بنوع لطيف... وكان حينما بعد حين يكرر عليه ويقول: "ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه" (متى 16: 26).

كان كسفاريوس في بادىء الامر يسمع له ولا يكثر لكلامه. ثم اخذ يستسيغ حديثه. ثم جعل يفكر تفكيرا عميقا بما كان اغناطيوس يقول له. وبقي اغناطيوس يحاصره وينازله ثلاث سنوات متوالية، ووالدته تدعو له وشقيقته الراهبة تقدم الابتهالات الى الله لاجله، حتى ظفروا به. فترك الدنيا وانضم الى الفرقة التي كان اغناطيوس بدأ يؤلفها ليهاجم بها الدنيا، ويقودها الى طاعة المسيح.

وفي الخامس عشر من شهر آب يوم عيد انتقال السيدة الى السماء، سنة 1534، كان كسفاريوس ساجدا امام هياكل كنيسة مون مرتر Montmartre، يلفظ ندوره مع اغناطيوس ورفاقه، ويبدأ معهم الجمعية اليسوعية التي سوف يكون لها الشأن العظيم، ويكون لها في الدنيا الاثر الذي لا يزال الى يومنا هذه حيا قويا ساطعا جبارا.

ثم اجتمعت تلك الفرقة في مدينة البندقية، لتقلع من هناك الى الاراضي المقدسة الفلسطينية، وتخدم مصالح المسيحيين الروحية في تلك البلاد النائية. لكن الحرب التي كانت اذ ذاك مستعرة بين البندقية والسلطنة العثمانية، منعتهم من السفر. ففترغوا لخدمة المرضى في المستشفيات. وكان كسفاريوس شعلة غيرة وتфан، حتى ان المرضى الذين كان يهرب الجميع من تنانة قروحهم، كان هو يركض اليهم ويخدمهم ويقبلهم. فكانت ايامه ولياليه مقسمة بين الصلاة والخدمة والصوم وكل انواع الامانات.

## كسفاريوس الرسول

ذهب اغناطيوس وكسفاريوس وسائر الرفاق الاثني عشر الى روما، لينالوا تثبيت الخبر الاعظم في رسالتهم في بلاد الشرق. فاستقبلهم البابا بولس الاول بعطف ابوي وشجعهم، وثبتهم في دعوتهم. فعادوا الى البندقية للابحار منها الى بلاد فلسطين. وفي غضون ذلك قبل كسفاريوس الرسامة الكهنوتية، ثم قام يستعيد لاقامة الذبيحة الالهية الاولى. فقضى اربعين يوما في خلوة عميقة، صائما مصليا متضرعا الى الله والى البتول مريم لكي يؤهلاه للاحتفال بقداسه الاول. ثم خرج من خلوته وتفرغ مدة شهرين لخدمة المرضى ليقرن الحياة العقلية بالحياة العملية.

وفي سنة 1539، طلب يوحنا ملك البرتغال الى الخبر الاعظم ان يعطيه بعضا من آباء الرهبانية اليسوعية الجديدة، ليرسلهم الى بلاد الهند الشرقية، بغية نشر بشارة الانجيل في تلك المستعمرات البرتغالية القاصية. فوقع الاختيار على كسفاريوس. فذهب الى البرتغال ليقنع من هناك الى الهند على المراكب الملكية. فمر في طريقه بالقرب من قصر والدته واخوته، فاشار عليه سفير الملك ان يعرج عليهم ويودعهم. الا انه ابى ذلك، مضحيا بتلك التعزية القلبية الكبرى في سبيل استنزال بركة الرب على عمله الرسولي الجديد. وكان يعلم العلم اليقين ان لا عودة له الى بلاده من بعد ذلك السفر الطويل، ولا امل له برؤية اهله وذويه من بعد في هذه الدنيا. وقبل السفر اتاه من الخبر الاعظم براءة بابوية بها يعينه سفيرا بابويا في بلاد الشرق كلها.

### الى الهند

وفي السابع من شهر نيسان سنة 1541، اقلع اسطول برتغالي مؤلف من خمسة مراكب الى بلاد الشرق الاقصى. وكان نائب الملك والاب كسفاريوس على المركب الرئيسي الاول المدعو القديس يعقوب Santiago. وبعد ستة اشهر، رست السفينة في مياه المزامبيق لفترة قصيرة قبل ان تعاود ابجارتها. اغتتم خلالها فرانسيس الفرصة لتبشير اهل الموزامبيق. واضطر فرانسيس الى ملازمة فراش المرض بين شهري آب 1541 وشباط 1542 بسبب اصابته بالحمى. وعندما اضطر للمغادرة ترك فيها رفيقيه على ان يلحقا به في اول فرصة سانحة. ورافق الحاكم على متن سفينة تجارية، متجهة الى الهند. رست السفينة في مرفأ ميلند Melinde، حيث تعرف فرانسيس للمرة الاولى الى الدين الاسلامي. ومنها غادرت السفينة ورست في مياه سوكتوراا لتتزوّد بالماء. وكان يعيش في المدينة عدد كبير من المسيحيين الاميين الذين لا يملكون أي ثقافة دينية، اذ كانوا يجهلون تلاوة الصلوات وماهية الاسرار، رغم وجود عدة كنائس وقام فرانسيس يعلمهم قواعد الايمان المسيحي، ويشرح لهم الكتاب المقدس، فطلب اليه الاهالي البقاء معهم، لكن الحاكم اصر على الرحيل، واصطحب فرانسيس معه على متن السفينة التي وصلت اخيرا الى غوا Goa في 6 ايار 1542. وفور وصول السفينة، زار فرانسيس اسقف المدينة وقدم له اوراق اعتماده بصفته سفيرا بابويا، ووضع نفسه تحت تصرفه بوصفه مبشرا.

### غوا Goa

كانت غوا مدينة مسيحية في الظاهر فقط. فقد كانت مدينة يعمها الفساد ويخاط سكانها بين عبادة الاله الواحد وعبادة الاوثان. وراح فرانسيس يعمل فيها دون كلل، فكان يجتاز الساحات والاماكن العامة، وهو يحمل بيده جرسا صغيرا لم يفارقه طوال رسالته، داعيا الناس لسماع تعاليمه. وقد دفع هذا الاسلوب الطريف العديد من اهالي غوا الى الالتفاف حوله، واللاحاق به الى الكنيسة حيث كان يعلمهم الاناشيد والصلوات الاساسية. وعلى الصعيد الانساني، كان فرانسيس يهتم بالجيش والبحارة ويشاطرهم همومهم، كما كان يزور المرضى في المستشفيات ويعزي الحزاني ويساعد الفقراء ويدفن الموتى... وفي كل يوم احد، كما يحتفل بالذبيحة الالهية امام المصابين بالبرص.

### الكوموران

استمرت اقامته الاولى في غوا خمسة اشهر، ثم اضطر الى مغادرتها بناء على طلب النائب الاسقفي الذي رغب في ارساله الى ساحل الصيادين في الكوموران، الواقعة في جنوب الهند، حيث يقيم سكان البارافير، وهم طبقة منبوذة في الهند، يعمل افرادها في البحر حيث يغطسون لصيد الجواهر الثمينة. وفي نهاية ايلول 1542، اتجه فرانسيس الى ساحل الصيادين، يحمل الانجيل المقدس، وكتاب الصلاة، وشمسية تقيه الحر القوي، يرافقه ثلاثة رهبان اسوييون كمتترجمين. وهناك وجد فرانسيس نحو ثلاثين الفا يعبدون فيشنو، وهو اله صنم له ثلاثة رؤوس تمثل ذكائه، واربعة اذرع ترمز الى قوته، وستة ارجل تشير الى سيطرته على الفضاء. وفي منطقة الكوموران، ولاكثر من سنة كاملة، بقي فرانسيس وحيدا يبشر في ثلاثين قرية اناسا يتحدثون لغة لا يستطيع فهمها. ووجد نفسه رجلا ايضا منعزلا وسط عالم ملون بالشمس والرمل. وانكب على درس المالابارية حتى استطاع مخاطبة السكان المحليين بلغتهم، ولكنه عانى



كثيرا من خدمة نحو عشرين الف وثنى وهدهم الى المسيحية، وكان عليه وحده ان يعطيهم خبز الحياة، وخصوصا انه وجدهم متعطشين الى الايمان الحق. واحبه الصيادون لانه كان يعيش معهم، كواحد منهم، يفترش الارض مثلهم ويكتفي بتناول السمك المجفف واللبن.

## الارخبيل الكبير

نزولا عند رغبة الاسقف، قرر فرانسيس ان يبحر الى جزر الارخبيل الهندي لمتابعة اعلان البشرى. ودامت الرحلة نحو شهر كامل. وفي 15 شباط 1546، وصل فرانسيس الى جزيرة امبوان Amboine، ومكث فيها شهرين. وفي 17 ايار 1546 ابحر الى جزيرة ترناتا Ternate، ومكث فيها ثلاثة اشهر، غادرها من ثم الى جزر المورس Mores، او جزر الموت، حيث يتواجد اكلة لحم البشر، ويتفق الوثنيون والمسلمون، بالرغم من خلافاتهم الكثيرة، على اضطهاد المسيحيين واغتيالهم بالسم. وفي هذه الجزر، كان فرانسيس يعمد اربعمائة وثنيا في الشهر، وهدى سبع قرى الى المسيحية. وعلى الرغم من المخاطر الكبيرة، كان يتجول حافي القدمين ويشفي المرضى ويعزي الحزاني.

تعرض فرانسيس خلال رسالته في الهند وجزرها الى مخاطر حقيقية. ففي رسالة الى الاب اغناطيوس في روما، كتب يقول: "... على الصعيد المناخي، الحياة قاسية جدا هنا، فالحرارة مرتفعة الى درجة عالية في الصيف، والرياح والامطار غاتية في الشتاء... وعلى الصعيد الروحي، الهندي مغمور بالروحانيات الشرقية، ومن الصعب جدا ان يرتد الى ديانة اخرى... ويحتاج المبشر هنا الى امتلاك الكثير من الفضائل، لا سيما الطاعة، كي يصبح محبوبا لدى مختلف السلطات الدينية، والعلمانيين الذين يحكمون البلاد، بحيث لا يلحظون في شخصه أي نوع من الكبرياء، بل الكثير من التواضع، مما يحملهم على محبتنا... وبالنسبة الى المسيحيين الجدد، هنالك مخاطر كثيرة على المرء ان يتحملها. فالخروج عن الديانة الهندوسية يدفع طائفته الى حرمة، فليس هناك من ديانة اشد تطرفا وأكثر وطنية في الوقت نفسه من الهندوسية... والطلب من الهندي ان يتعمد امر يجرح كرامته". لكن فرانسيس حمل الى الشرق قلبه الكبير المفعم بالمحبة والخدمة، فكان يخبر الناس عن اله محبة يختلف تماما عن الهتهم المتعددة. لذلك آمن بالله كثيرين، خصوصا بعدما كان هؤلاء شهود عيان لعدد من العجائب التي اجتريتها، خاصة وان الهندوسي يعتقد ان العجائب ضرورية لظهور قداسة الانسان، الى أي ديانة انتمى.

ولأن إيمان فرانسيس كان بحجم حبة الخردل، كانت العجائب في الهند وجزرها تحصل على يديه بالعشرات امام الناس، اذ كان يقيم الموتى، ويشفي المرضى... ولعل اغرب اعجوبة هي اعجوبة سرطعان البحر. ففي اثناء مغادرته جزيرة امبوان الى ترناتا، هبت في البحر عاصفة قوية كادت تغرق المركب والركاب، فوقف فرانسيس بهدىء من روعهم، فحمل صليبه وانحنى على حافة المركب يلامس به الامواج الهائجة حتى هدأ البحر، لكن الصليب افلت من يده وغرق في القعر. وحزن فرانسيس حزنا قويا، وبكر في صباح اليوم التالي نحو الشاطئ يفتش عن الصليب قبالة الموضع الذي سقط فيه. وفجأة رأى على الشاطئ سرطعانا بحريا يهرع اليه حاملا الصليب المفقود، فاقترب فرانسيس وجتا على ركبتيه وتناول منه الصليب، وعاد السرطعان من حيث اتى.

## اليابان

عاد فرانسيس الى مالاكا بعد قضاء ثلاثة اشهر في "جزر المو". وفي مالاكا قابله شاب ياباني يدعى اونجيرو قصده ليراه ويسمع كلامه ويتوب الى الله على يده، نادما على خطاياها، فعمده فرانسيس وسماه بولس. وبعد حديث طويل شائق قرر فرانسيس ان يذهب مع اونجيرو ليُبشر في اليابان، واتفقا على ان يقوم اونجيرو بترجمة التعاليم المسيحية الاساسية الى اللغة اليابانية.

وقبل ان يرحل فرانسيس الى اليابان، جمع عددا من الرجال التقاة الذين كرسهم في الهند، ووزعهم لخدمة المسيحيين في المناطق التي عمد سكانها. وفي كل منطقة من هذه المناطق عين مسؤولا وزوده بتوجيهات واضحة حول اساليب المحافظة على الرعية وادارتها. اما في غوا فقد عين اثني عشر خادما برئاسة انطونيو غوميز.

ابحر فرانسيس الى اليابان في 15 نيسان 1549، وكان يرافقه في الرحلة كوسماس دو توريس، وهو كاهن من فالنسيا التحق حديثا بالربانية اليسوعية، والاخ خوان فرنانديز، وثلاثة شبان اهتموا الى المسيحية، وصيني تعمد تحت اسم مانويل، ومسيحي من ساحل الصيادين يدعى امادور.

وفي القرن السادس عشر، لم يكن احد يعرف تاريخ اليابان، على عكس الصين التي كان الغرب قد قرأ شيئا عنها بفضل كتابات ماركو بولو. وقد وصلت المعلومات الاولى عن اليابان الى الغرب بواسطة رسائل فرانسيس

كسفاريوس. وربما كان فرانسيس اول شخص يعطي الغرب فكرة واضحة عن اليابان، حين وصفها بأنها عبارة عن "مجموعة جزر"، وكان وصفه اكتشافا جغرافيا في تلك الفترة.

في اليابان، نزل فرانسيس ورفاقه في ضيافة عائلة اوتجيرو. وفي تلك الفترة، كانت البلاد مقسمة الى مناطق نفوذ مستقلة، يسيطر عليها ستة حكام كبار.

وبعد فترة من الراحة، قرر فرانسيس زيارة الحاكم الياباني في مياكو، فاستقبله غو-نارا-تينو Go-Nara-Tenno وهو الحاكم الخامس بعد المئة من سلالة الشمس، وسمح له بالتبشير، لكن فرانسيس ورفاقه لم يلقوا أي نجاح لا في الساحات العامة ولا في الجامعات بسبب المعارضة الشرسة التي واجههم بها الرهبان البوذيون. ولما انتقلوا الى ياماغوشي، اعدوا الكرة لكنهم لاقوا الاخفاق نفسه.

وفي تلك الفترة، كان اليابانيون ينظرون الى المسيحية والحضارة الغربية نظرة ملؤها الكره والبغض. وهم يعتبرون، مثل البراهمانيين، ان الارتداد الى المسيحية يشكل انحطاطا خلقيا، فيما كان عدد من اليابانيين يحسبون المسيحية شيعة من الشيع البوذية، يستطيع ان انسان ان يعتنقها اذا ما اقتنع بها.

وعلى الرغم من عدم نجاح التبشير في اليابان، ابدى فرانسيس اعجابا شديدا بالشعب الياباني. وفي 25 تشرين الثاني 1549، وجه الى اخوته في روما رسالة بلغ عدد كلماتها نحو عشرة الاف كلمة، وهي الرسالة الاطول التي كتبها في حياته، ومما جاء فيها: "...اعتقد انه، من بين غير المؤمنين، لا نجد مثل اليابانيين. اذ يملك هذا الشعب عادات نبيلة جدا، فرجاله يتعاملون بكل طيبة وبدون خبث. انه شعب يملك احساسا مدهشا بالشرف، ويقدر الاحترام اكثر من أي شي".

لم ييأس فرانسيس من متابعة الرسالة في اليابان، فذهب هذه المرة برفقة بولس الى كوكوبو، على بُعد 15 ميلا من كاغوشيما، بناء على طلب الحاكم تاكاشيزا، احد الستة الكبار، الذي استدعاه بعدما وصلته اصداء البشارة الجديدة، فاختار فرانسيس لهذه الزيارة تمار 29 ايلول، عيد مار مخائيل، باعتباره الد اعداء الاصنام. وقد اصطحب فرانسيس رفيقه بولس لزيارة الحاكم. وحول هذه الزيارة كتب فرانسيس: "كان الحاكم لطيفا مع بولس، فسأله عن البرتغال والمسيحية، واجابه بولس بطريقة ارضت فضوله. وكان بولس يحمل معه لوحى للسيدة العذراء وهي تحمل طفلها، فتأثر الحاكم كثيرا حير رأها، وسجد امامها مظهرا احتراما عظيما. ثم جاءت والدة الحاكم وابدت دهشتها امام اللوحة. وبعد مرور عدة ايام على الزيارة، ارسلت والدة احد النبلاء الى بولس تطلب منه موجزا عن العقيدة المسيحية".

اتصل فرانسيس، هذه المرة، بالرهبان البوذيين بواسطة بولس. وفي رسالة الى اخوته في روما قال: "... كان البوذيون يبدوون دهشتهم حين يعلمون اننا اتينا من البرتغال لنحدثهم عن الرب الاله ونبشرهم بان الشعوب لا تخلص الا بعد ايمانها بالسيد المسيح".

وغالبا ما كان فرانسيس يجلس على رصيف احد الاديرة البوذية ويقرأ بصوت عال ترجمة بولس لعدد من التعاليم المسيحية. وكان البعض يسخر من لكنته واخطائه اللغوية، وآخرون كانوا يشفقون عليه، لكن عددا من بينهم كانوا يبدوون دهشتهم حتى ولو لم يفهموا شيئا مما كان يود ان يوصله اليهم.

مع الوقت شعر الرهبان بخطر فرانسيس على ديانتهم، فاقنعوا الحاكم بطرده واعطاء اوامره بوقف الارتداد الى المسيحية تحت طائلة الموت، وكذلك نظمو حملة قوية لاضطهاد البوذيين المرتدين والعمل على اعادتهم الى البوذية.

في هيرادو، وفي كاغوشيما، كما في ياغاموشي، لم تنجح حملة فرانسيس كما يأمل، فقرر الذهاب الى كيوتو حيث يقيم اقوى حكام اليابان. وكان فرانسيس يحلم ان هذا الحاكم سيقنع اليابانيين كلهم بالارتداد الى المسيحية. وحصل اللقاء ولم يتحقق الحلم. فقرر العودة الى الهند، تاركا بولس في كاغوشيما. وهناك رواية تفيد ان بولس سقط شهيدا على ايدي الرهبان البوذيين بعد مرور ستة اشهر على مغادرة فرانسيس المدينة.

## الصين

وصل فرانسيس الى غوا، فاستقبله الناس بفرح عظيم. ودعاه احد حكام "البونغو" الى زيارته، ولبي فرانسيس الدعوة وبشر في بلاده، وعمد الكثيرين، الا ان الحاكم لم يقبل سر العماد الا بعد مضي 27 سنة على دخول المسيحية بلاده. وقد اتخذ اسم فرانسيس وساهم بقوة في انتشار المسيحية في بلاده.

ومع مرور الايام، اخذ فرانسيس يفكر انه اعطى ما يكفي في الهند واليابان، فشرع يستعد للتبشير في الصين. وقبل سفره اليها، عرج على غوا، ثم قرر الابحار الى الصين في 17 نيسان 1552، تاركا وراءه عشر سنوات من العمل المضني في الهند واليابان واندونيسيا. واخذ فرانسيس قبل ذهابه رسائل توصية من الحاكم ومرسوما بتعيينه رئيسا على بعثة رسمية لزيارة امبراطور الصين. وفي بداية ايلول 1552، وصلت السفينة سانتا كروز الى جزيرة سانسيان Sancian على بُعد عشرة كيلومترات من شاطئ الصين. واخذ ينتظر وصول مركب يحرر الى داخل الصين.

### وفاة كسفاريوس

بانظار حضور مركب مبحر الى الصين، وقع فرانسيس طريح الفراش اثر احتفاله بالصلاة عن نفس روح شخص مات حديثا في الجزيرة. وقويت عليه الحمى، فاخذه تاجر برتغالي الى غرفته، وهو يحتمل انه بكل هدوء وصبر. وعلى الفراش رفع صوته عاليا يخاطب السيد المسيح، بمختلف اللغات التي يعرفها، وعيناه نحو السماء. وبقي على هذه الحال حتى الاثنين في 28 تشرين الثاني. وفي اليوم الثامن لمرضه، فَقَدَ النُّطق، وبقي صامتا طوال ثلاثة ايام حتى ظهر الخميس، حيث لم يعد يتعرف على احد، ولا يأكل أي شيء.

استعاد فرانسيس وعيه يوم الخميس، ولم يكن يتكلم الا ليذكر المسيح والعذراء والروح القدس. ثم ردد قائلا: "يا يسوع ابن داود، ارحمني". واضاف: "ايتها السيدة العذراء ام الله اذكريني". وبقي يردد هذه العبارات طوال ليل الجمعة. ووقد بالرب في اليوم الثالث من كانون الاول 1552، وله من العمر ست واربعون سنة فقط. وفي 17 شباك 1553، وبعد مرور عشرة اسابيع على دفنه، اعاد البرتغاليون الجثمان على متن احد المراكب ووصلوا به الى مالاکا في 22 اذار، حيث لاقى ترحيبا حارا، واصطحبته الجموع الغفيرة الى كنيسة العذراء، وبقي الجثمان فيها مدة خمسة اشهر. فهرع صديقه القديم خوان ده بيرا، الى الجزيرة لينقل الجثمان الى مدينة غوا. فدخل واصدقاؤه ليلا الى الكنيسة على ضوء الشموع وحملوا الجثمان سرا الى منزل بيريز ووضعوه في تابوت مغلف بالحرير الصيني.

وفي 25 تشرين الاول 1619، اعلن البابا بولس الخامس فرانسيس كسفاريوس طوباويا، ورقاه البابا غريغوريوس الخامس عشر الى درجة القداسة مع رئيسه ورفيقه اغناطيوس دي لويولا في 12 اذار 1622. وفي فترة لاحقة منحه البابا بندكتوس الرابع عشر لقب شفيع الهند والشرق، ثم اصبح شفيع الرسائل كلها.

### مواصلة التبشير بعد كسفاريوس

**في الهند:** - تابع اليسوعيون والفرنسيسكان والدومنيكان عمل كسفاريوس التبشيري، فوصل عدد المؤمنين في النصف الثاني من القرن السادس حوالي 300000 شخص. ورفعت منزلة غوا الى منزلة رئاسة اسقفية يتبعها مجموعة من الاسقفيات المساعدة. الا انه بالرغم من نجاح التبشير، فقد بقي محصورا في الطبقات الوسطى والسفلى، ولم ينجح في الوصول الى الطبقات العليا من المجتمع الهندي.

فمن المعروف ان مجتمع الهند كان ينقسم الى عدة طبقات Castes، ولكل طبقة اتباعها وقوانينها وامتيازاتها وطقوسها الخاصة. وكانت هذه الطبقات مغلقة الواحدة على الاخرى، لا يستطيع احد الدخول فيها ولا ان يرتبط معها برباط، ولا حتى بتناول الاكل معها.

كان الهندي من الطبقة العليا، من جهة اخرى، يزدري الطبقات الوسطى والسفلى، كما كان يزدري الاوروبيين والمرسلين لاختلاطهم بالطبقات السفلى، ويأكلون من طعامهم، فيتنجسون باتصالهم بهم.

ما العمل لا يصل بشري الانجيل والحقائق المسيحية لكل هذه الطبقات؟ ما العمل لكي يقبل هؤلاء الاخلاق والتعاليم المسيحية، التي تنادي ان كل البشر هم ابناء الله ومتساوون وهم اخوة فيما بينهم؟ كان هذا الموضوع خطير وبجاجة الى حل. وكان الاب نوبلي Nobili اليسوعي اول من وجد حلا، وان لم يكن كاملا، على الاقل كان جيدا بما فيه الكفاية لاحتراز النجاح.

### طريقة الاب نوبلي Nobili التبشيرية

كان الاب روبرتو نوبلي من اسرة شريفة من روما، وهو ابن اخت الكردينال بلارمينو. عمل مبشرا يسوعيا في مملكة مادوره Maduré، حيث توصل الى اقتناع الى وجوب ايصال البشري الانجيلية ايضا الى الطبقات العليا من المجتمع الهندي، اذ ما أريد للتبشير بالانجيل ان يستمر ويثمر. وتوصل الى انه لتبشير هذه الطبقات، يجب ان يصبح المبشر واحدا منهم، وان يعيش على نمط حياتهم، فاتشح برداء البراهمة Brahmas، واصبح هندوسيا بين الهندوس، وتبنى عادات طبقة المتعفيين (saniassis/continents). اكثر طبقة احتراماً، واختلى باحدى الاكواخ، وعاش فيها كناسك،

ممتنعا عن اكل اللحم وشرب الخمر، مستكفيا باكل الخضار وشرب الماء، متجنبنا مجتمع الطبقات الوسطى والسفلى. وتعلم لغة السنسكريت Sancrit، ودرس الكتب المقدسة والتقاليد الهندوسية. ولم يلبث ان حصل على قسط واسع من هذه العلوم، اصبح بواسطتها على مقدرة ان يجادل العلماء البراهمة.

انجذب البراهمة الى دماثة اسلوبه وطريقة معاملته وبفصاحته والاستشهادات من كتبهم المقدسة، التي كان يتلوها عن ظهر قلب بكل دقة، وبدأوا يأتون اليه لاستشارته وللتحدث معه وعرض مشاكلهم ولطلب ايضاحات وتفسيرات حول بعض النقاط الغامضة في معتقداتهم.

لاحظ الاب نوبلي في احدى قراءاته في كتبهم المقدسة "Védas الفداس" ان احدى تعاليمهم تقول بوجود اربع طرق للوصول الى الحقيقة وللخلاص. وكان الطريق الرابع مفقودا. فاعلن لهم انه بواسطة دراسته استطاع ان يكتشف هذا الطريق. وعلى مثال القديس بولس مع اهل اثينا و"الاله المجهول"، فسر نوبلي للبراهمة ان الطريق الرابع هو المسيحية. لاقى هذا التفسير القبول لدى الكثير منهم، وفي سنة 1609، كان حوالي السبعين من هؤلاء البراهمة قد ارتدوا الى المسيحية، وعلى مثالهم ارتد الكثير من جميع طبقات المجتمع في مادوره وفي ممالك اخرى. وسمح لهم نوبلي بالحفاظ على الكثير من عاداتهم الدينية غير موسومة بالخرافات او بعبادة الاصنام، معتبرا اياها عادات محلية وطنية.

لم يرق اسلوب الاب نوبلي للمرسلين الاخرين وخصوصا الفرنسيين وحتي بعض اليسوعيين، واعتبروا التنازلات التي اعطاها نوبلي للبراهمة في الحفاظ على عاداتهم تنازلات مبالغ فيها، فرفعوا الامر الى روما. وبعد دراسة مستفيضة اعطى البابا غريغوريوس الخامس بمرسومه Constitutio Romanae Sedis الصادر بتاريخ 31 كانون ثاني 1523، موافقته على اسلوب نوبلي وشجعه علمواصلة اسلوبه وقتيا. وتم تطوير هذا الاسلوب، بتأسيس نوعين من المرسلين: - البراهمة Brahmas - للطبقات العليا، واخرين - Padras - للطبقات السفلى. وعندما توفي الاب نوبلي كفيفا، عام 1656، بعد خمسين عاما من الرسالة، كانت ارسالية مادوره تعد اكثر من مئة الف مسيحي.

تابع يسوعيون اخرون عمل نوبلي بعد وفاته، وكان اهمهم الطوباوي جون دي بريتيو Jean de Britto، من نبلاء البرتغاليين، اذ كان ابوه نائب ملك البرازيل، فوصل الى مادوره عام 1665، وعمل بغيرة كبيرة، وحصل على نجاح كبير، اثار عليه حفيظة الوثنيين، فقطعوا رأسه في 4 شباط عام 1693.

**في اليابان:** - تواصل عمل التبشير الذي بدأ به فرانسيس في اليابان على يد يسوعيين آخرين، وتم تأسيس جماعات مسيحية في مدن مختلفة من اليابان. وارتد عام 1560، خمسة عشرة من الرهبان البوذيين - البونز Bonzes - كما وتبعهم مجموعة من الزعماء Daimyos مع عائلاتهم واتباعهم. وازدادت عملية التبشير ابتداء من عام 1565، بعد اعتلاء الامبراطور Nobunga الحكم، فظهر عظفا على المرسلين، وتسامحا نحو المسيحية، دون ان يرتد هو نفسه. وبفضل هذه الحماية تطورت كنيسة اليابان، واصبح عدد اعضائها يناهز ال 200 الف في 300 كنيسة، وفتح اليسوعيون لهم اديرة، وبدأوا بالعمل على تأهيل اكليروس محلي.

وفجأة بدأت حملة من الاضطهادات على المسيحيين، قام بها الامبراطور Taicosama، الذي اطاح بـ Nobunga، واستولى على الحكم. فامر جميع المرسلين الاوروبيين بمغادرة اليابان في مدة عشرين يوما، وهدم ستين كنيسة. وكان الدافع وراء هذا الاضطهاد هو رد فعل ضد سياسة التسامح التي انتهجها الامبراطور السابق، وثانيا خوفا من استيلاء الاجانب على الحكم في اليابان، وثالثا لان فتاتين يابانيتين مسيحيتين رفضتا ان تكونا ضمن حريم الامبراطور. واجه اليسوعيون هذه الموجة من الاضطهادات بحكمة ومهارة، فتركوا اماكن عملهم، الا انهم لم يتركوا اليابان، بل التجأوا الى بعض الزعماء Daimyos، الذين اظهروا عظفا نحوهم، وانتظروا هناك بصبر الى حين مرور العاصفة. ثم عمل الاب Valignano على الحصول على لقب سفير نائب الملك في الهند، وحضر امام الامبراطور وقدم له الهدايا الثمينة، وعمل على تبديد شكوكه ومخاوفه. فاعاد عملية التبشير، واعطت ثمارا كبيرة نظرا لما تحلى به المرسلون والمسيحيون من صبر وجلد امام الاضطهاد. وفي نهاية القرن السادس عشر كان عدد المسيحيين قد جاوز ال 300000 يديهم 134 راهبا.

اندلعت الاضطهادات مرة ثانية عام 1596، وكانت اعنف من الاولى. اثار هذه الموجة الثانية من الاضطهادات التصرف غير الحكيم للمرسلين الفرنسيين، وللتصرف غير المسؤول للتجار الاسبان. فقد حضرت الى اليابان مجموعة من الاخوة الاصاغر، قادمة من جزر الفلبين، وبدأوا بالتبشير بصورة ظاهرة وعلانية في المدن الكبيرة، لدرجة لفتت اليهم نظر اعداء الكنيسة. وفي نفس الوقت، جنحت سفينة اسبانية على احد شواطئ اليابان، وحاول القبطان منع اهالي البلاد من الاستيلاء على حمولة السفينة الغارقة كما كانت تقتضي العادة في ذلك

الوقت. ولارهاب اليابانيين، اخذ يعلن ان ملك اسبانيا يستعد للاستيلاء على اليابان كما استولى على عدة بلاد في آسيا، وان المرسلين ما هم الا عملاء للتحضير لهذا الغزو. ولما علم الامبراطور بهذا استشاط غضبا، واعطى امرا بعمل لائحة باسماء المسيحيين، وصلب 23 فرنسيسكانيا و3 يسوعيين في الخامس من شباط عام 1597. ولم تهدأ هذه الحملة من الاضطهادات الا بموت الامبراطور في السنة التالية، مما اتاح فترة من الهدوء من 1598-1612، جاهد فيها المرسلون لكسب المزيد من الارتدادات بلغت المئة الف.

اندلعت موجة ثالثة من الاضطهادات وهي الاطول والأعنف، حوالي عام 1613، واستمرت مع بعض فترات من الهدوء حتى سنة 1660، وفاقته في وحشتها اضطهادات القرون الاولى. اثار هذه الموجة من الاضطهادات هذه المرة البروتستنت الهولنديون والانكليز، الذين بدافع المنافسة التجارية، دفعوا اليابانيين الى طرد الاسبان والبرتغاليين من البلاد بحجة ان هؤلاء انما يأتون تحت ستار التجارة والتبشير استعدادا للاستيلاء على البلاد. فقام الامبراطور بطرد جميع المرسلين وهدم الكنائس، وفرض على المسيحيين انكار دينهم تحت طائل عقوبة الموت. وكانت حصيلة الشهداء لعام 1624 فقط ما يقارب الثلاثين الف، والكثير من المرسلين الدومنيكان والفرنسيسكان واليسوعيين احرقوا احياء. وزادت حدة هذا الاضطهاد في عام 1637، عندما اتهم البروتستنت الهولنديون المسيحيين بانهم ياترون ضد الامبراطور. فطرد هذا المسيحيين المحليين من البلاد، ومنع دخول الغرباء لليابان. وسمح فقط للتجار الهولنديون بدخول البلاد، ولكن تحت الشرط المذل بعدم القيام بأي شعائر دينية مسيحية وبالهدوس على الصليب<sup>1</sup>.

**في الصين:** - رأينا سابقا كيف ان القديس كسفاريوس توفي وهو على ابواب الصين في عام 1522. وبعد ذلك بربع سنين استطاع الدومنيكاني كسبار دي لا كروا Gaspard de la Croix الدخول اليها، ولكن تم طرده منها مباشرة. لذلك سيعود الفضل الى اليسوعي ماتيو ريتشي، ليكون اول رسول لهذه الامبراطورية الشاسعة.

### ماتيو ريتشي Mathieu Ricci (1552-1610)

ولد ماتيو ريتشي في السادس من تشرين اول عام 1552، من عائلة نبيلة من مدينة ماشراتا Macerata، احدى الولايات البابوية. دخل عام 1571 جمعية الآباء اليسوعيين، وكان استاذه الاب Valignano الذي اثار فيه حب الارساليات. اكتشف رؤساؤه عنده موهبته للعلوم، فقرروا ان يدرس بجانب الفلسفة واللاهوت، الرياضيات، وعلم الكون cosmographie، وعلم الفلك. ولما انهى دروسه أرسل مع يسوعي آخر الى الصين عام 1583.

كانت الصين ومنذ ثلاث قرون واقعة تحت حكم طبقة "المثقفين Lettrés". فاراد ريتشي ان يكسب هذه الطبقة اولا كما فعل الاب نوبلي في اليابان مع طبقة البراهمة. وادرك الاب ريتشي انه لكي يكسب هذه الطبقة المتكبرة والتي تعتقد باقتناع انه لا يوجد أي حضارة في العالم تساوي حضارتهم، عليه ان يضاهاها ويجذبها بروعة العلم والمعرفة. فدرس ادابهم وعاداتهم وسلوكهم، وبرع في لغتهم، وترجم اول ست كتب لكليد Euclide، وكتب نوعا من التعليم المسيحي في اللغة الصينية العامة، وقام باختراع الساعات الزمنية، والساعات الشمسية، ورسم خرائط للكورة الارضية واخرى للصين ارقى وادق من تلك التي عملها المثقفون. ثم قام وقدم هذه الاعمال هدية للامبراطور. فأثارت اعجابهم وسمح لهم بالاقامة في عاصمته (1600). فاعتنم الاب ريتشي عطف وترحيب الامبراطور وبدأ فوراً في التبشير.

### اسلوب ريتشي بالتبشير

كانت طبقة المثقفين علماء، فعمل ريتشي على ان يقدم لهم الانجيل دون ان يجرح كبريائهم ودون ان يتعرض او يهاجم معتقداتهم. وبنى اسلوب تبشيره على فكرتين: الاولى، عرض العقيدة المسيحية مبتدئا بالعقائد الاسهل قبولا. والثانية، ان يتسامح مع عقائد وعادات وطقوس اهل الصين والتي لا تتعارض او التي يمكن ملائمتها مع العقيدة المسيحية.

كان في الصين آنذاك ثلاثة اديان رئيسية:

(1) التويزم Taoisme: وهي عبارة عن ديانة متعددة الالهة وخليط من الخرافات.

(2) البوذية Boudisme: وتتميز بعقيدتها الملحدة والغنوصية.

<sup>1</sup> لاجبارهم على الهدوس على الصليب، رسم اليابانيون رسم الصليب على ارضة جميع الموانئ بحيث لا يمكن لأي مسافر المرور دون ان يمشي ويدوس على الصليب، وكان هذا العمل في نظر اليابانيين بمثابة انكار الدين.

3) الكنفوشوسية Confucianisme: والتي كانت اقرب الى فلسفة اخلاقية منها الى ديانة، وترتكز طقوسها على عبادة كنفوشوس وتكريم الاجداد.

وبما ان طبقة المثقفين كانت تنتمي باكثريتها الى الديانة الكنفوشوسية، وكانوا على عداء مع الديانات الاخرى، هاجم الاب ريتشي وقاد حربا مفتوحة على هاتين الديانتين، وظهر كثيرا من التسامح نحو الديانة الكنفوشوسية، وحاول تقريب عقائدها من المسيحية، مبينا ما في الديانتين من تشابه ومشترك. وقيل ريتشي عادات وبعض طقوس الكنفوشوسية، اذ بعد دراسة وافية لها، توصل الى ان هذه الطقوس من سجود وتبخير وتحيات، ليست اعمال سجود بالمعنى الحصري، وانما عبارة عن حركات تدل على التقدير والاحترام البنوي للآباء والاجداد. فترك للمرتدين الحرية في الاشتراك بالاحتفالات على شرف كنفوشوس والاجداد معتبرا اياها عادات وطنية اكثر منها طقوس دينية.

بفضل هذا التسامح الذي اظهره الاب ريتشي استطاع ان يجعل الديانة المسيحية اكثر قبولا. وعندما توفي في عام 1610، منهكا من العمل العقلي والجسدي، استطاع ان يرد الى المسيحية حوالي الالفين من الصينيين، وعددا من المثقفين ومن كبار الموظفين الصينيين. وتابع من بعده اليسوعيون عمله التبشيري ولاقوا النجاح الكبير.

### مشكلة "الطقوس الصينية"

تعرض نجاح تبشير اليسوعيين لمجادلات حول ما دُعي "بالطقوس الصينية". كان الاب لونغبارد Longobardi خليفة الاب ريتشي، قد عارض تنازلات الاب ريتشي، فمنع باسلوب حذر، دون اثاره ضجة، الموعوظين الجدد من الاشتراك في الاحتفالات او الطقوس الكنفوشوسية، فمر هذا المنع دون اثاره مشاكل. ولكن عندما وصل عام 1631، مرسلون من الجمعيات الاخرى، وخصوصا الدومنيكان والفرنسيسكان، وارساليات باريس الاجنبية Les Missions Etrangères. رأوا في قبول تلك الطقوس تنازلا لصالح عبادة الاصنام. فرفعوا الامر الى الكرسي الرسولي، فاصدر "مجمع الايمان" مرسوما، صدّقه البابا انوسنت العاشر في 12 ايلول 1645، منع فيه هذه الممارسات. الا ان اليسوعيين تابعوا النضال، وقدم الاب اليسوعي مارتن مارتيني Martin Martini، القضية بشكل اوضح لحكم البابا اسكندر السابع، وحصل من "المجمع المقدس" مرسوما، يميز بين الطقوس المدنية والطقوس الوثنية، سماحا بممارسة الاولى، وناهيا عن الثانية. الا ان المجادلات استمرت حول هذا الموضوع الى منتصف القرن الثامن عشر، عندما ادان ومنع البابا بندكتوس الرابع عشر ممارسة الطقوس الصينية، في مرسومين الاول عام 1742 والثاني 1744.

### 4) التبشير في انحاء اخرى من آسيا

#### فيتنام كمبودج وسيام

لم يقتصر التبشير على الهند والصين واليابان، بل تعداه الى مناطق اسيوية اخرى. فلما اضطهد اليابانيون اليسوعيين، اتوا فاقاموا في كوشنشين Cochinchine وكمبودج وسيام. واخذ اليسوعيون يهتمون بهذه المناطق ابتداء من سنة 1615. فكتبوا اللغة الفيتنامية بالاحرف اللاتينية. وعلى مدى عشرين سنة (1525-1642)، كانت فيتنام في مقدمة اهتمامات اليسوعي الكسندر دي رودس Alexander de Rhodes، مع انه لم يستطع ان يقيم فيها باستمرار. وكان دي رودس يرى ان أسس التبشير هي اتقان اللغة وتدريب ملقني التعليم المسيحي الذين يؤمنون الاستمرار المسيحي، وحسن تفهم العادات وأنشأ اكليروس محلي.

#### جزر الفليبين

بدأ التبشير في جزر الفليبين، التي اكتشفها ماجلان Magellan عام 1521 لحساب اسبانيا، عام 1577 على يد الآباء الدومنيكان، واهمهم الاب Dominique de Salazar، الذي اصبح اول اسقف محلي على مانिला Manille عام 1579. وفي اواخر القرن السادس عشر كان عدد المعمدين الفليبين يناهز ال 400 الف شخص. ازداد هذا العدد عندما حضر مرسلون آخرون من جمعيات اخرى كالفرنسيسكان والاغوسطينيين واليسوعيين.

#### كنيسة علمانية في كوريا

في القرنين السابع عشر والثامن عشر، اكتشف بعض المثقفين الكوريين الدين المسيحي انطلاقا من كتب اتت من الصين. وفي سنة 1784، كان احدهم مارا بيكين، فقبل سر المعمودية. وعند عودته الى كوريا، اعد مع مثقف اخر علم لاهوت مسيحي، انطلاقا من التقليد الكنفوشي، ونظم هو نفسه جماعة مسيحية، بما فيها المعمودية والاعتراف والقداس. لكن الشك استولى عليه، فطلب كاهنا من بيكين. الا ان الاضطهاد قضى على هذه الجماعة الاولى من المسيحيين الكوريين.

## اسيا الروسية

بفضل الانتشار نحو الشرق والفتح التدريجي لسبيريا، تمكنت الكنيسة الروسية الارثوذكسية ان تبشر البلدان النائية. ففي القرن السادس عشر، هدى رؤوساء اساقفة كازان القبائل التتية التي كانت تحيط بالمدينة. ثم ارسل متروبوليت توبولسك Tobolsk فيلاريتس بعض المرسلين الى كمتشاتكا Kamtchatka (1705) والى ياكوتسك Yakoutsk (1724). كما واوفد بعثة الى الصين (1714). شكل الاسرى الروس في بيكين، منذ سنة 1689، جماعة ارثوذكسية. وفي نهاية القرن الثامن عشر، اقام بعض رهبان بحيرة لادوغا Ladoga في الاسكا وأنشأوا جماعة فيها.

## (5) افريقيا

جاء الانتشار البرتغالي على طول شواطئ افريقيا استمرارا للفتوحات الغربية، فامتد من افريقيا الشمالية (المغرب، الجزائر، تونس وليبيا سنة 1425)، الى رأس الرجاء الصالح (1486) والى موزمبيق (1498) فالكونغو (1491) والحبشة ومدغشقر (1644).

### (1) افريقيا الشمالية

كانت افريقيا الشمالية، ومنذ القرن السابع تقبع تحت الحكم الاسلامي. عمل الدومنيكان والفرنسيسكان، ابتداء من القرن الثالث عشر، بغيره، على تبشير هذه المناطق، بدون جدوى، ولم يحصلوا سوى على كوكبة من الشهداء. وفي القرن السابع عشر، اهتم المرسلون اكثر بالاعتناء بالاسرى المسيحيين، والحيلولة دون نكرانهم دينهم. اذ من المعروف ان سفن العرب المسلمين كانت تجوب البحار، وتهاجم السفن، وتستولي على حمولتها، وتأسر ركابها لبيعهم كعبيد، او تتركهم في السجون. وكان هؤلاء التعساء يفضلون امام حالتهم السيئة ومعاملة اسيادهم القاسية، اما الانتحار واما الانضمام الى الاسلام. وكان مثل هؤلاء المرتدين يعدون بالآلاف في الجزائر وتونس وطرابلس الغرب. وقد تعرف القديس منصور دي بول على هذا الوضع عندما أسر. فارسل ومنذ عام 1645، كهنة الارساليات، واستوطنوا المدن الرئيسية، حيث كانت اكثرية العبيد المسيحيين. وبفضل الدعم الذي حصلوا عليه من القناصل الفرنسيين، استطاعوا ان يقوموا برسالتهم، اما بتثبيت المسيحيين على ايمانهم، واما بالتعاون مع الرهبنة الثالثة Trinitaires ورهبنة الرحمة Mercédares في اعتناق هؤلاء العبيد مقابل مبالغ من المال

### (2) الكونغو

كانت مملكة الكونغو، لمدة من الزمن، محط اكبر الامل، فقد عمّد المرسلون البرتغاليون الملك سنة 1491، وازدهرت الكنيسة الكونغولية في عهد افسو Afonso الاول (1506-1545)، فنظم الملك مملكته على غرار البرتغال، وكان ابنه اول اسقف اسود (1521). وفي سنة 1596 اصبح العاصمة سلفادور كرسيا اسقفيا. و اراد ملوك الكونغو ان يحافظوا على استقلالهم السياسي والاقتصادي، فارسل سفيرا كونغوليا الى روما (1612). لكن البرتغاليون دخلوا في نزاع مع الملك انطونيو الاول، وقطعوا رأسه (1665)، ثم تركوا الكونغو، لكن التبشير استمر بصورة متقطعة، وارسل مجمع انتشار الايمان الكبوشيين لمواصلة التبشير وتركوا تقارير كثيرة عن نشاطهم فيها. الا ان تجارة العبيد شوهت وجه التبشير الى اقصى حد.

### (3) مدغشقر

انطلق المرسلون الفرنسيون بدورهم في القرن السابع عشر، ف جاء المرسلون اللعازريون الى مدغشقر وبشروا فيها. الا انهم لم ينجحوا في الاقامة طويلا فيها (1648-1674)، بسبب طقسها غير الصحي.

### (4) موزمبيق

بشرها الفرنسيين والاعسطينيون والدومنيكان واليسوعيون بدون أي نجاح يذكر. وبعد مرور القديس فرانسيس كسفاريوس وتوقفه فيها، اثناء مروره الى الهند، فتح الآباء اليسوعيون لهم عدة منازل، الا انهم كانوا ضحايا للتعصب الاسلامي.

## 5) الحبشة

بشر القديس Frumentus الحبشة عام 330، وكان هذا القديس تلميذا للقديس اثناسيوس. ثم اعتنقت الحبشة في القرن الخامس الهرطقة المونوفيزية. ولما ساعدت البرتغال الحبشة في التحرر من الحكم الاسلامي، سادت بينهم علاقات ودية، خصوصا بين الاسر المالكة لكلا البلدين. فارسل القديس اغناطيوس دي لويولا كهنة من جمعيته، منهم الاب Nugenz، الذي مُنح لقب البطريك (1555). واستقبلتهم الحبشة بكل حفاوة. فعمل هؤلاء بكل حماس وغيره على اعادة المونوفيزيين الى الاتحاد مع الكنيسة الكاثوليكية. ولكن بعد نجاحات وقتية، لاقى عملهم معارضة من الامبراطور كلود، احد اكبر مؤيدي المونوفيزية. استطاع الاب Pierre Paez بعد ذلك بثلاثين عاما حصد ثمار عمل الآباء اليسوعيين (1582-1622)، اذ كان هذا اليسوعي الاسباني ذا علم واسع، يتكلم لغة البلاد بكلطلاقة، جعلت بوسعه ان يدير مجادلات لاهوتية مع لاهوتي المونوفيزية، استطاع ان يكسب عطف الامبراطور Za-Denghelk، وجعله ينكر الهرطقة المونوفيزية (1589). واستمرت منذ ذلك الوقت وكثرت الارتدادات، وزادت على زمن ابنه Socinios، الذي حلف يمين الولاء للبابا امام اليسوعي Alphonse Mendez، الذي عينه البابا غريغوريوس الخامس بطريكا لاثيوبيا (1624)، واعطى هذا الامبراطور كل الحرية لليسوعيين لممارسة نشاطهم التبشيري. فعاد مئات الالوف من الهراطقة الى الايمان الكاثوليكي.

وعندما اراد البطريك مندوز ان يغيّر في الليتورجيا الاثيوبية المستعملة، واعادة سيامة الكهنة لعدم صلاحية رسامتهم، وفرض العزوبية عليهم، والغاء بعض العادات كالحختان وحفظ يوم السبت، قامت ثورة عارمة، اعتزل الامبراطور على اثرها، ونفى خليفته، زعيم المعارضة، الامبراطور Basilide، البطريك مندوز وكل اليسوعيين، واغلق بلاده امام كل المرسلين اللاتين، مما سبب فشل الاصلاح الكاثوليكي في اثيوبيا.

## 6) المرسلون في الشرق الاوسط

بعد جلاء الصليبيين عن الشرق، بقي الآباء الفرنسييسكان كحراس للاراضي المقدسة سنة 1230. ومنذ سنة 1525 اقام الملك فرانسوا الاول علاقات دبلوماسية مع الباب العالي مما كان له الاثر الكبير على مسيحي الشرق الاوسط. فوصل اليسوعيون الى القسطنطينية، ثم الى اورشليم وقبرص سنة 1553. وتبعهم الكبوشيون الى حلب سنة 1625 حيث وصل ايضا الكرمليون سنة 1626. ولحق بهم الفرنسييسكان.

انما النهضة التي عرفتها الارساليات اللاتينية ظهرت في القرن السابع عشر على يد مجمع نشر الايمان الذي تأسس سنة 1622 وعلى يد ريشيليو Richelieu اذ كانت فرنسا على علاقات طيبة مع الباب العالي.

انتشر الكبوشيون من اليونان الى ايران، فساعدهم ريشيليو من جهة والسفارات الغربية من جهة اخرى، حيث اعطاهم السلطان والشاه حرية التنقل بين البلدان الخاضعة لهم، شرط الا يبشروا المسلمين. فاهتموا بالكنائس الارثوذكسية والارمن ولم يحالفهم الحظ دائما.

منذ سنة 1600 اقيمت قنصليات لفرنسا في هذا البلدان فكان لها تأثير خاص في بطريكية انطاكية. ولم يكن هناك قوانين واضحة بالنسبة الى عمل المرسلين قبل القرن التاسع عشر، فكان المسؤولون المحليون يتصرفون بحسب اهمية الرشاوي.

جميع هؤلاء المرسلين عملوا لاجل اتحاد الكنائس. سنة 1644 فتح اليسوعيون مدرسة في دمشق حيث قامت نواة لكنيسة ملكية كاثوليكية. عادت كنيسة انطاكية الملكية الى الاتصال بروما، بعد ان كان الحكم العثماني قد قطع كل صلة بين الكنيستين. اما الموازنة فبقوا على علاقة بالكرسي الرسولي بالرغم من الصعوبات والحواجز التي اقامتها الدولة العثمانية. وقد كانت لهم اليد الطولى في استقبال اخوانهم الشرقيين الذين اتحدوا بروما من سريان وروم كاثوليك وارمن.

لم يكن عمل المرسلين مثمرا دائما. كما انهم اضفوا السمة اللاتينية على الكنائس الشرقية، فيما يتعلق بالليتورجية والقوانين والانظمة. لكن ذلك لا ينقص من اهمية رسالتهم التربوية والتعليمية التي لا تزال نقطف ثمارها الى اليوم.



## الفصل الرابع والخمسون

### الحروب الدينية<sup>1</sup>

كان الاصلاح الديني في اوروبا حدثا من الحوادث الرئيسية الهامة في تاريخ القرن السادس عشر. فقد قاومت الكنيسة جميع هزات العصر الوسيط، غير انها ما لبثت ان تمزقت دون مقاومة. ولا شك في ان الاصلاح الكاثوليكي اتى متأخرا وبطيئا، ولكنه افاد الكاثوليكية، وادخل في حظيرة الكنيسة قسما من المحتجين، او على الاقل، ابقى وحافظ على البلاد التي ما زالت تعتنق الكاثوليكية دينا. وبالرغم من ان مجمع ترانت سجل نقطة انطلاق في نشاط الكنيسة الكاثوليكية وفي استرداد ما فقدته من قوة، فقد اخذت الاوضاع الدينية تتعارض مع بعض، وقامت الخلافات المسلحة وسط غليان الافكار واصطدام العقائد والمذاهب وتنافس الاطماع، وانبثقت عنها الحروب الدينية.

بلغت شدة هذه الحروب منتهى العنف والفظاعة، وأصاب فرنسا ما أصابها من اخطار جسيمة مع انها لم تكن عاملا وموطنا لها. كان لوثير المانيا، وكان كالفن فرنسا، غير انه وان كتب بالفرنسية ويعتبر من اكبر الكتاب باللغة الفرنسية، ففي جنيف، أي في خارج فرنسا، كان مركز عمله وقطب انتشار مذهبه. ولقد اجتاحت العاصفة الدينية فرنسا ولكنها تماسكت و"ظلت ابنة الكنيسة البكر".

#### 1) بوادر الحروب الدينية

لم تمض ثلاث سنوات على توقيع معاهدة كاتو-كامبريزي الا ودخلت فرنسا في حروب اهلية فظيعة، مبعثها الاهواء والاحقاد الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت، او كما كانوا يسمون انفسهم بابويين وهوغوت<sup>2</sup>. وقد دامت هذه الحروب اكثر من ثلاثين عاما من (1562-1593).

لم تنفع سياسة الردع الصارمة التي انتهجها هنري الثاني على القضاء على الكالفينية، بل انتشرت هذه الهزات بسرعة في فرنسا، واعتنقت هذا المذهب الاصناف المتواضعة والبورجوازيون مع عدد عظيم من الاشراف وخاصة في جنوب فرنسا وغربها. واعتناق النبلاء فكرة الاصلاح يعتبر حدثا عظيم الهمية، لان العمال والصناع والبورجوازيين لا يمكنهم مقاومة الاضطهاد الا بالاستسلام والرضا بالامر الواقع. اما النبلاء، وهم جنود من ولادتهم، فيقاومون بالسيف. وبعد ان توطن السلام بين فرنسا واسبانيا قل نشاطهم الحربي واصبحوا بدون عمل. وباعتناقهم الكالفينية دينا اصبح الحزب الكالفيني حزبا سياسيا عسكريا متهيئا للحرب في سبيل الذود عن ايمانه. ومن هنا نشأت الحروب الدينية.

<sup>1</sup> من كتاب "تاريخ عصر النهضة الاوروبية" للدكتور نور الدين حاطوم، ص. 238-257.

<sup>2</sup> ان كلمة هوغوت Huguenots لقب اطلق على البروتستانت من اتباع كالفن، وهو مأخوذ من الكلمة الالمانية Eindgenossen وتعني "المتحدين".

وفي مثل هذه الظروف القلقة المضطربة كانت فرنسا بحاجة الى ملك قوي الشكيمة، ولكن بعد ان توفي هنري الثاني فجأة عام 1559، شهدت فرنسا عهدي وصاية متوالين، ذلك لان فرانسوا الثاني كان صغير السن وله من العمر عشر سنين. ولا شك ان في هذه الظروف توقظ حتما الاطماع والتنافس والمكاييد لتملك السلطة وتشكل الاحزاب التي تمثل المنافع الشخصية والسياسية الدينية. وقد وجدت آنذاك ثلاث اسر كانت تدعى باسماها في حكم الملكي، وهي: آل بوربون، آل منمورانسي، آل غيز.

اما آل بوربون *Bourbons* فهم من نسل القديس لويس (لويس التاسع) أي امراء بالدم. وكان كبيرهم انطون بوربون ضعيف الشخصية متردد الطبع، وقد اصبح ملك نافار بزواجه من جان دالبريت بنت مارغريت انغوليم. وكان الابن الثاني شارل مطران روان وكردينالا. وكان الثالث لويس طموحا مشاغبا يلقب بأمر كونده وقد اعتنق واخوه انطون الكالفينية منذ عام 1558.

وكان آل مونمورانسي *Montmorency* عريقين في نبلهم وثروتهم وعلاقاتهم الزوجية ويؤلفون اعظم اسرة واقواها بين أسر الامراء في المملكة ويسمون انفسهم باعتزاز وفخر "بارونات المسيحية الاوائل". وزعيم هذه الاسرة القائد العام مونمورانسي الشيخ، وكان مستشارا للملك فرانسوا الثاني الذي كان يسترشد برأيه ويعمل بنصيحته، وكذا الحال في عهد هنري الثاني. وكان هو واولاده كاثوليكين متحمسين وغيورين على كاثوليكيتهم. غير ان اثنين من ابناء اخيه وهما الاميرال كوليني *Coligny* وانديلو زعيم المدفعية العام اشتهرا مجبهما للجندية واعتنقا، كأمر كونده واخيه انطون، المذهب الكالفيني (1558).

وكان آل غيز *Guises* احفاد ادواق اللورين، من اصل اجنبي، لان اللورين كانت مرتبطة بالامبراطورية الجرمانية، ولكن اراضيهم كانت في فرنسا، وامهم من آل بوربون اميرة بالدم، وسبق لابيهم ان خدم فرانسوا الاول بشجاعة وبسالة. وكسب كبيرهم فرانسوا غيز مجده بالدفاع عن ميتر واخذ كاليه. وكان اخوه الاصغر منه شارل، كاردينال اللورين مطران رنس، ويعتبر اغنى حبرا في فرنسا. وقد تقاسم الاخوين مع مونمورانسي ثقة الملك هنري الثاني. وكانا شديدي التعلق بالكاثوليكية ولا يقل طموحهما الشخصي عن هواهما الديني. وقد قربت وحدة الايمان آل بوربون من كوليني، واعترف بهم الكالفينيون زعماء عليهم. كما ان وحدة الايمان كان يمكن لها ان تقرب آل مونمورانسي من آل غيز، غير ان تنافس الاطماع حال دون هذا الاتحاد. وكان لكل اسرة سياستها الدينية. وقد ظهر آل غيز منذ البدء كاثوليكين متعنتين، وآل مونمورانسي على الاكثر معتدلين متسامحين.

### فرانسوا الثاني ومؤامرة آمبواز

جعل اعتلاء فرانسوا الثاني ابن هنري الثاني عرش المملكة آل غيز سادة فرنسا. فقد تزوج فرانسوا الثاني من ماري ستيوارت قريبته، واستطاعت هذه ان تسيطر على الملك فترك الى عميه الدوق والكاردينال التبعة في كل شيء. وكان آل غيز يطبقون المراسيم الصارمة الشديدة ضد البروتستانت. فمن ذلك ان آن بورغ، احد المستشارين في برلمان باريس، ندد بسياسة الاضطهاد في حضرة هنري الثاني، وتجراً على لومها بشجاعة، فكان جزاؤه الشنق والحرق. غير ان البروتستانت لم يستسلموا للاضطهاد بلا مقاومة، ودبروا مؤامرة يتزعمها شريف بسيط يدعى لا رينودي *La Renaudie*، وزعيمها السري امير كونده، وكانت هذه المؤامرة ترمي الى خطف فرانسوا الثاني لاقصائه عن نفوذ آل غيز. وقد علم كالفن بمجريات الامور في هذا المشروع، وعثا حاول ايقافه، وقال في هذا الصدد "ان نقطة الدم التي تسفك ستسيل منها انهار تغمر فرنسا". وبالرغم من ذلك فان هذا المشروع ظل حيا، ولكنه اخفق بسبب خيانة احد المتآمرين. وعند ذلك وضع آل غيز الملك في قصر آمبواز آمنا وقبض على المتآمرين واغرق من اغرق وقتل من قتل (1560). وسلك آل غيز سياسة صارمة ليقطعوا دابر كل خطر يهدد بالحرب الاهلية، ووقفوا كونده، واحالوه الى المحكمة، فحكم عليه بالموت للخيانة العظمى، ولم ينج الا بموت الملك الذي توفي اثر مرض مفاجيء على عمر خمسة عشر عاما (كانون الاول 1560).

### سياسة المصالحة

احدث هذا العمل استياء عاما وهدم سلطة آل غيز. وكان الملك الجديد شارل التاسع، الابن الثاني لهنري الثاني، صغير السن وله من العمر عشر سنوات. واستطاعت الملكة الام كاترين دوميدتشي بحذاقتها ان تقصي امير النسب، انطون بوربون، وتستولي على الوصاية. وحتى هذا التاريخ لم تلعب كاترين دوميدتشي أي دور سياسي، وكان لها من العمر اربعون سنة وتتمتع بشهرة طيبة، ولكنها كانت تحب السياسة التي أبعدت عنها ولا تعرف للدين أي وازع ولا رادع. وكانت عاطفتها المسيطرة عليها وحبها الاموي وارادتها تدفعها الى جعل كل شيء في مصلحة

اولادها، و ارادت ان تؤمن لنفسها كل ذلك بهدوء فسلكت سياسة التوازن، واعتمدت على آل بوربون ضد آل غير وقربتهم اليها بعفوها على امير كونده. وادركت من جهة ثانية أن الاهواء الكالفينية والاهواء الكاثوليكية يمكن ان تهدد السلطة الملكية، فحاولت ان تسلك سياسة مصالحة وتساهل. وكان مستشار الملكة في هذه السياسة الجديدة ميشيل دولوبيتال Michel de l'Hôpital، وكان رجلا عاقلا معتدلا انضجته السنون وحكته التجارب، مخلصا للملكة. وجعل همه توطيد احترام السلطة الملكية.

### حوار بوازي Le Colloque de Poissy 9 ايلول - 18 تشرين اول 1561

ولتهيئة المصالحة الدينية عقد الاساقفة والرعاة مجمعا دينيا في بوازي (ايلول 1561). وكان ممثل الكالفينيين تيودور دي بيز صديق كالفن، وممثل الكاثوليك كاردينال اللورين. غير انهم اختلفوا على نقطة اساسية تتعلق بالعتيقة الافخارستية، فجعلت كل تفاهم غير ممكن. ومع هذا فقد اذاعت كاترين مرسوم التسامح في (كانون الثاني 1562)، وبموجبه منح البروتستانت حقوق الاحتفال علانية بعبادتهم خارج المدن وفي الارياف.

### مذبحة فاسي Vassy (1 اذار 1562)

لكن سياسة الاعتدال لم تنجح ايضا كسياسة الشدة والصرامة، فضلا عن ان فكرة التسامح والتساهل كانت غريبة ولم يرض عنها عدد كبير من الكالفينيين والكاثوليك. ونسي زعماء العائلات الكاثوليكية نزاعتهم، وألفوا حلفا ثلاثيا (Triumvirat) بهدف ايقاف تقدم الكالفينية، والحد من تنازلات الحكومة، التي رأوا فيها ميلا نحو الكالفينية. اما البروتستانت فقد رأوا ان سياسة التسامح لا تمنحهم ما يكفي من الحقوق، فاطهروا اعتدادا بالنفس، وعداوة وعنفا اكثر نحو الكاثوليك، وذهب بعضهم ابعد من ذلك بالهجوم على الكنائس واعاقوا الاحتفالات الدينية فيها، وقاطعوا العظات، ونهبوا ما وصلت اليه ايديهم، وحرقوا الصور وهدموا التماثيل واتلفوا الذخائر. ففي جنوب فرنسا، حيث كانت الاكثرية بروتستانتية، عمل الكالفينيون القوة ضد الكاثوليك. ففي مونبليه دنسوا الكنيسة واغلقوها وقتلوا فيها نحو ثلاثين شخصا (تشرين الاول 1561)، وكانت المشادات الدموية تقوم في كل مكان. وبعد شهر تقريبا من اعلان مرسوم التسامح الانف الذكر، مر دوق غير في فاسي في مقاطعة الشامانيا، فقامت مشادة بين رجال حاشيته وجماعة من الكالفينيين كانوا يحتفلون بعبادتهم في احدى القرى. وما لبثت هذه المشادة ان انقلبت الى مذبحة وقع فيها اكثر من مائة كالفني بين قتيل وجريح. ومذبحة فاسي، التي احتفل بها الكاثوليك كنصر وظفر لهم، اثارت الاحقاد والكراهية وكانت باذرة للحرب الاهلية.

### (2) الحروب الدينية الثمانية صفات الحروب الدينية

يقدر عدد الحروب الدينية بثمانى حروب: اربع منها في حكم شارل التاسع (من 1562 الى 1574)، واربعة منها تحت حكم هنري الرابع (من 1574 الى 1593) وكانت هذه الاخيرة اكثر تعقيدا من الاولى لان القضايا السياسية والسلاية تدخلت في القضية الدينية.

كانت هذه الحروب، وخاصة الاولى، فظيعة وفي منتهى الهمجية والفظاعة. لان كلا من الجانبين كان يحاول ان يثار لنفسه ولم يتوان عن ارتكاب القتل دون اشفاق، وكانت هذه الاعمال تقوم فيها بشكل مذابح وشنق وقتل اكثر منها واقعة حربية حقيقية. ومن جهة ثانية كانت لهذه الحروب الدينية صفة سياسية، لان مبدأ السلطة الملكية اختلف فيها واصبح منازعا، ففي بعض مناطق الجنوب كانت الحركة البروتستانتية في الوقت ذاته حركة ديمقراطية. وعندما تشكلت العصبة قامت افكار مماثلة عند الكاثوليك وزعموا بانهم يريدون ان يعيدوا الى المملكة حرياتها القديمة.

واندفعت الاهواء الدينية فبلغت ذروة اختفت امامها العاطفة القومية. لان كلا الجانبين كان يدعو الاجنبي لندجته، وذلك اما بطلب معونة الملوك مثل اليزابيت وفيليب الثاني وامراء المانيا، واما باستتجار المرتزقة الايطاليين والسويسريين والامان ممن لا يباليون بالدين ولا يتورعون من الانتقال من معسكر لآخر في سبيل اجر اعلى. ففي واقعة ايفري كان نصف فرقة الفرسان في الجيش الكاثوليكي يتألف من فرسان من الفلامانديين والاطاليين والالبان والاسبان ومطلقي الرماح الفاللون والامان.

ولم تؤد أي حرب من حروب الدين الى نتائج حاسمة لأن كلا الخصمين لم يكن في حالة يستطيع معها الاجهاز على الخصم وضربه الضربة القاضية. فقد كان الكالفينيون اقلية ولم يستطيعوا ان يظفروا على سواد الامة

الكاثوليكية. ولم يستطع الكاثوليك ان يقضوا على الكالفينيين لان هؤلاء كانوا موزعين في كل انحاء فرنسا. وكان جنوب فرنسا، يضم حوض اكيثانيا واللانغدوك، موطن مقاومتهم الاصلي. وفيما عداه نجدهم في الاوفيرن وبورغونيا ونيفرنيه. ولم يكن هنالك مركز حيوي يمكن لضربة واحدة ان تقضي عليهم. وهذا ما ساعد على استمرار المقاومة.

### الحرب الاولى

دامت الحرب الاولى عاما من 1562 الى 1563. وفيها شايحت كاترينا دوميدتشي حزب الكاثوليك وطلبت مساعدة ملك اسبانيا. كما طلب زعيما الجيش البروتستانتى، كونده وكولينى، نجدة اليزابيت ملكة انكلترا، ومقابل هذه المساعدات اخذت ميناء لوهافر في ايلول 1562. وجرت العمليات الاساسية بين نهر السين واللوار. اما ملك نافار فقد ارتد الى الكاثوليكية واصابه جرح وقضى نجبه في حصار روان. ووقعت الواقعة الكبرى في درو Dreux وكان غيز فيها غالبا ووقع كونده اسيرا.

وبعد بضعة اسابيع وبينما كان فرانسوا غيز يحاصر اوليان رماه بروتستانتى اسمه بولترو دو ميره بسهم فارداه قتيلا، وقام هنري غيز ابن الضحية واتهم كولينى بتدبير هذه الجريمة، فاحتج كولينى مستعلبا ولم يمنعه هذا من الفرار بموت خصمه. وانتهت الحرب بمرسوم أمبواز (اذار 1563)، وكان هذا المرسوم اقل حرية من مرسوم كانون الثاني الذي سبق ذكره، الا انه جعل فرنسا تتمتع بالسلام مدة اربع سنوات. ولتوثيق الصلح بين الكاثوليك والبروتستانت اندفع الجانبان لاسترجاع لوهافر من ايدي الانكليز.

### الحرب الثانية 1567-1568

غير ان الحسد بين الزعماء الكاثوليك والبروتستانت وسوء ظنهم ببعضهم البعض في البلاط الملكي ادى في العام 1567 الى معاودة الحرب. وقتل مورنوراسي في واقعة سن دوني St. Denis لتخليص باريس بعد ان حاول كونده حصارها. وعاد السلام في العام 1568.

### الحرب الثالثة 1568-1570

وما لبث ان انفصمت عرى هذا السلام، وتجمع الكالفينيون هذه المرة في جنوب غربي نهر اللوار وغلبوا على امهم مرتين في جارانك وفي مونكونتور 1569. وظلت الحرب دون نتيجة. وقد جرح كونده في جارانك واستسلم، الا ان ضابطا من ضباط دوق أنجو اخو الملك شارل التاسع، قتله. ولكن كولينى بقى متين الاعصاب متماسكا واصلح جيشه وعادوا الحرب. ثم حصل اعياء تام، وملت كاترينا فعادت الى سياسة السلام. وفي 8 آب 1570، وقعت مرسوم سان-جرمن حولت بموجبه البروتستانت اربعة مواقع امينة يقيمون فيها حامياتهم وتسمى "مواقع الامن"، واهمها مونتوبان ولاروشيل التي اصبحت عاصمة فرنسا الهوغنوتية.

ويبدو ان كلا الطرفين جنح لسياسة التسامح والسلام، وجرت مفاوضات ادت الى عقد زواج مارغريت فالوا اخت الملك وابنة كاترين بالملك الشاب هنري نافار زعيم الحزب الكالفيني وله من العمر خمسة عشر عاما. واستدعى الملك شارل التاسع كولينى الى مجلسه. واستطاع هذا بما اوتيته من خبرة سياسية وحكمة في الحروب وبُعد نظر، ان يزيد في نفوذه لدى الملك الشاب.

وكان من جملة المشاريع التي كان يغذيها كولينى لدى الملك، المشروع الذي يرمي الى معاودة النضال ضد آل هابسبورغ. اشار كولينى على الملك ان يلقي بجنوده في ارتوا والفلاندر ويضع يده بيد الثوار في هولندا التي كانت تناضل في سبيل استقلالها. فلقي هذا المشروع رضى شارل التاسع. الا ان المشروع الذي اخاف كاترين اكثر من ذلك، هو انها فقدت كل نفوذ على ابنها كما فقدت سلطتها. فاتفقت مع هنري غيز عدو كولينى الالذ ولم تتردد في الالتجاء الى الجريمة في القضاء على هذا الخصم. وفي يوم الجمعة الموافق 22 آب 1572 أي بعد اربعة ايام من زواج هنري نافار بمارغريت فالوا اطلق عيار ناري على الاميرال كولينى الا انه اخطأه، فحنق الملك على هذا العمل واقسم ان ينتقم له دون رأفة او رحمة.

### مذبحة سان بارتلمي

وعن محاولة الاغتيال هذه خرجت جريمة من افطع الجرائم التي عرفها التاريخ. فقد امر الملك باجراء تحقيق للكشف عن المسبب بالضرر، وخافت كاترينا ان يصل اليها التحقيق فلم تر بُدأ، للخلاص من هذه المشكلة، من مذبحة عامة لزعماء البروتستانت. ووسوست للملك حتى جعلته يعتقد ان الهوغنوت يدبرون المؤامرة على حياته وان السلام غير ممكن ان لم ييدهم جميعا. وبعد ان قاوم الملك طويلا انتهى به الامر الى ان قال "اقتلهم جميعا حتى لا

يقي احد منهم يؤخذني على ذلك". وعندئذ اتفق دوق غيز مع بلدية باريس واتخذ جميع الاستعدادات الضرورية على ان تبدأ المذبحة في الساعة الرابعة صباحا من يوم الاحد قي 24 آب 1572، يوم عيد القديس بارتلمي. وفي الليل، حوالي الساعة الثانية صباحا، ارتاب بعض البروتستانت من حركة الجنود، التي كانت تجري، فاقتربوا من قصر اللوفر، فاطلقت عليهم النار وكانت هذه اشارة الخطر.

وفي اللوفر امر شارل التاسع بقتل اشراف البروتستانت الذين كانوا في ضيافته لحضور زواج هنري بوربون دونافار بمارغاريت فالو اخت الملك. وسيق هنري نافار الى غرفة شارل التاسع وخير بين الموت والكاثوليكية فارتد لانقاذ حياته. وكانت الخطة مدبرة لقتل الزعماء الا ان الاوباش من الشعب انضموا الى الجنود واعملوا القتل بالبروتستانت واصبحت المذبحة عامة، ولم يستثن منها النساء والاطفال. وما حل وقت الظهر الا وبلغ عدد القتلى الالفين وصحب النهب والسلب اعمال القتل. وحاول الملك عبثا ايقاف هذه الفظائع التي دامت الى يوم الثلاثاء في 26 منه.

وحدت المدن الاخرى حذو باريس: فقد دام القتل في اورليان ثلاثة ايام. وفي ليون كان عدد القتلى بين 700 و 800 قتيل. ومن الصعب تحديد عدد القتلى جميعا، ولكن عددهم تجاوز ثلاث الاف ضحية. على ان بعض حكام الملك رفضوا تنفيذ اوامره فحاولوا دون سفك الدماء.

### الحرب الرابعة

ولكن هذه المذابح لم تأت بالنتيجة المتوخاة منها وهي القضاء على الحروب الاهلية. وبالرغم من ان الكالفينيين حرموا من زعمائهم فلم يياسوا، بل شكوا السلاح ودافعوا عن انفسهم واضطر شارل التاسع الى ان يعقد معهم الصلح ويمنحهم الحرية الدينية (1573). وبعد ذلك بعام واحد أي في 30 ايار 1574 توفي شارل التاسع، اثر نزاع بينه وبين نفسه من جراء مذبحة بارتلمي التي بقي تحت ضغط كابوسها، وهدد السل كيانه حتى قضى عليه.

### هنري الثالث

وبعد وفاة شارل التاسع اعتلى العرش هنري الثالث، ثالث اولاد هنري الثاني، وهو دوق أنجو سابقا، وكانت كاترين ميدتشي تفضله على غيره من اخوته. وقد انتخب ملكا على بولونيا، وعندما علم بنبا وفاة اخيه غادر كراكوفيا بسرعة وعاد الى فرنسا واخذ اسم هنري الثالث. كان عمر هنري الثالث آنذاك ثلاثا وعشرين سنة. كان ذكيا متحدثا لبقا معروفا بذوقه السليم وثقافته الفكرية، الا انه كان جشعا، لا حول له ولا قوة، منتقلا من حياة التقوى والزهد الى حياة الخلاعة والمساخر، وقد ادت رقة طباعه ووقاحة محظيه الذين يسمون "مينيون" الى كره الناس له واحتقارهم اياه.

### الحرب الخامسة

بالرغم من نصائح كاترين ميدتشي، فان المملكة وقعت في ظل هذا الملك الضعيف في فوضى تامة. وزادت الامور تعقيدا منذ مذبحة سان برتلمي وانفجرت عن حرب دينية خامسة (1574-1576).

فمن جهة نظم الكالفينيون قواهم ليحسنوا الدفاع عن انفسهم، والتفوا حول "الاتحاد الكالفيني". وكان هذا الاتحاد ينقسم الى عدة "حكومات" ولكل حكومة زعيمها الحربي ومجلسها المكلف بدارتها وجباية ضرائبها. وهنالك مجالس عامة تعقد لتأمين الارتباط بين مختلف الحكومات. وكان البروتستانت على هذا النحو، يؤلفون في داخل المملكة، نوعا من جمهورية اتحادية. وكما قال من بعد ريشليو "دولة داخل دولة".

ومن جهة ثانية، انقسم الكاثوليك الى قسمين: فالى جانب الكاثوليك المتعنتين Intransigeants، الذين يوجههم آل غيز ويريدون اباداة البروتستانت، قام كاثوليك آخرون معتدلون اثارهم المذابح وخافوا على المملكة من الدمار والخراب من وبال الحروب الاهلية. وكان هؤلاء الوطنيون المتبصرون بعواقب الامور يرغبون العودة الى نظام التسامح والسلام الديني، فألفوا حزب المستائين او السياسيين، ومن زعمائهم احد ابناء مونمورانسي واسمه دامفيل حاكم اللانغدوك، وفرنسوا دوق آنسون آخر اخوة هنري الثالث.

وتألب الساسييون والبروتستانت واشتد ساعدهم واستطاعوا ان يفرضوا على هنري الثالث مرسوم السلم في بوليو Beaulieu (1576) وبموجبه يخول البروتستانت حرية العبادة في كل فرنسا، عدا باريس وثمانية مواقع، على ان يكون عددهم في البرلمان نصف عدد الكاثوليك. وفوق ذلك قلد هنري نافار حكومة غويين، وامير كونداه الشاب حكم بيكارديا. كما حصل دوق آنسون على أنجو وتورين وبيري.

## العصبة الكاثوليكية La Ligue Catholique

وما ان علمت اكثرية الكاثوليك بمرسوم بوليو حتى اعتبرته مجحفا وضارا بمنافع المملكة ومصالح الدين. فمن ذلك ان سكان بيكارديا اعتصموا ليحولوا دون دخول كوندو وتولي حكم لمقاطعة، ودعوا في الوقت ذاته جميع كاثوليكى فرنسا لتأليف "الاتحاد المقدس" المسيحى لخدمة الله المقدسة وطاعة صاحب الجلالة". وهذا هو اصل تشكيل العصبة (1576).

واستجيب لدعوة عصبة بيكارديا. وشكلت الرباطات في كل مكان وتكتلت في اتحاد فدرالي، وكان زعيم العصبة هنري غيز فارسا لامعا وزعيما صالحا وقد لقب ب "الاشج" اثر جرح اصابه في وجهه خلال الحرب السابقة. غير ان هنري الثالث راي من الحكمة ان يعترف بالمنظمة الجديدة وينادي بنفسه زعيما لها. ومما لا شك فيه ان تشكل هذه العصبة يؤلف خطرا على المملكة، لأن رجال العصبة الفوا حزبا سياسيا يرمي الى تحديد السلطة الملكية وتهديم الحكم المطلق. وكانت لهم منظماتهم العسكرية وزعمائهم المختارون وقد بايعوهم على الطاعة التامة، وحاولوا كالبروتستانت تأليف "دولة داخل دولة".

### الحرب السادسة والسابعة

في اجتماع مجلس الامة المنعقد في بلوا Blois في 6 كانون اول 1576، كان النواب الحاضرون وعددهم 392 كلهم من العصبة الكاثوليكية، واصلوا انهم لا يقبلون الا "بايمان واحد وقانون واحد"، وطلبوا الغاء مرسوم بوليو Beaulieu. كان هذا سببا للحرب السادسة. استأنف هنري الثالث القتال ضد البروتستانت دون حماس. وكان على رأس هؤلاء البروتستانت الملك الشاب هنري نافار، فقد فر من البلاط، في شباط 1576 بعد تهديده، وارتد الى الكالفنية وكان عمره آنذاك ثلاثا وعشرين عاما وعنده من الشجاعة والقوة والجرأة ما يجعله الزعيم المنشود دون منازع.

وكان من الصعب الحفاظ على الاتحاد بين البروتستانت والسياسيين وقامت حرب سادسة (1577) وسابعة (1579-1580) دون نتيجة. واضطر البروتستانت الى قبول سلم اقل فائدة من مرسوم بوليو. ومع هذا فقد دام السلم اربعة اعوام. غير ان موت دوق آلنسون عام 1584 اثار جميع الاهواء. وبموته اصبح هنري نافار الهراطقي المرتد وريثا شرعيا للتاج، واضطرب لهذا الاحتمال جميع الكاثوليك.

وبالمقابل نمت "العصبة" من جديد وعظم شأنها واخذ سكان المدن بتأثير الدعاة يدخلون فيها افواجا. واخذ هنري غيز على عاتقه امر تنظيمها وادارتها وعارض الوريث البروتستنتي بوريث شرعي كاثوليكي وهو الكريدينال بوربون. اما في الواقع فكان غيز يحلم بالتاج لنفسه. واخذ ينشر لوائح يذكر فيها صلة القرابة البعيدة بين امراء اللورين وشارلمان، وان الكابسين مغتصبين. وفي الوقت ذاته كان غيز يفاوض فيليب الثاني وعقد معه حلفا سرى، واستحصل من البابا سيكست الخامس على مرسوم يصرح فيه ان هنري نافار غير اهل لتسلم عرش فرنسا. واخيرا ارسلت العصبة الى الملك انذرا واجبرته على منع الديانة الكالفينية في فرنسا (1585).

### الحرب الثامنة ويوم المتاريس

انطلقت من هذا الانذار الحرب الثامنة والاخيرة ودامت ثماني سنين (1585-1593) وتدخل الاجنبي فيها بصورة نشيطة. ولم تمر فرنسا منذ حرب المائة عام بأزمة كهذه الازمة التي اجتازتها لان وحدتها واستقلالها وسلامتها القومية كانت عرضة للخطر.

وما فتىء نفوذ هنري غيز وشعبيته في ازدياد عظيم. وقد قال احد المعاصرين "ان فرنسا كانت مأخوذة بهذا الرجل، ومن القليل جدا ان نقول انها كانت عاشقة له". وقد ظفر هنري نافار على جيش الدوق جويوز Joyeuse احد محظيي الملك في واقعة كوترا (1587)، الا ان هنري غيز احرز انتصارين على البروتستانت في شامبانيا ومجده الفرنسيون كأنه "المكابى الجديد وسند الكنيسة".

وفي باريس خاصة، حيث كان العصبويون كتلة قوية، فكر الكثير منهم بخلع هنري الثالث. وقد احس الملك بالخطر فمنع الدوق من الهجاء الى باريس ولكن انصاره دعوه سرا. وتخطى غيز منع الملك، واستقبلته باريس استقبال الظافرين. وعندما اتى الملك بجنوده وادخلهم المدينة قامت فيها مشادة حقيقية. ففي 12 ايار 1588 الذي سمي

"يوم المتاريس" حمل الباريسيون السلاح واقاموا المتاريس في الشوارع واحاطوا بجند الملك وقتلوا منهم ما يقرب من ستين رجلا ودفنوا بمتاريسهم حتى ابواب اللوفر. واضطر هنري الثالث، لتهدئة الحالة، الى الاستنجد بدوق غيز، ثم فر من باريس وذهب الى شارتر.

وفقد الملك نفوذه على عاصمته واعيته الحيلة امام قوة منافسه بعد ان اخذ شأن هذا الاخير يعظم يوما عن يوم. ولم يكن في وسع هنري الثالث الا ان يلجأ الى الخداع وان يطلب الصلح، وسمى دوق غيز نائب المملكة العام. كان هنري بحاجة الى المال فاضطر الى دعوة مجلس المملكة العام في بلوا (تشرين الاول 1588). وبدا فيه هنري غيز ملكا حقيقيا. وكانت اخته السيدة موبانسية تظهر، كما يقولون في كل مناسبة، المقص الذي ستجز به ناصية هنري الثالث يوم خلعه واسكانه الدير. وشاعت اقوال عن خطف الملك ونقله الى باريس. غير ان هنري الثالث وجد انه لا يستطيع الامان على نفسه الا بالجرمة. وقبل وقفة عيد الميلاد، في 23 كانون الاول، دعا هنري غيز الى مجلسه فقام اليه اشرف حرسه وطعنوه بخنجر ارداه قتيلا، وفي اليوم التالي قُتل اخوه الكردينال لويس دي غيز.

### مقتل هنري الثالث

وفي يوم الجناية كتب هنري الثالث الى مفوض البابا "انا الملك الآن وقد صممت الا احتمل السباب والاذى والاكره". وفي مساء اليوم قامت ثورة باريس وتألقت فيها حكومة ثورية من ستة عشر عضو يمثلون احياء المدينة وعقدوا مجلسا اعلنوا فيه سقوط هنري الثالث الحانث، القاتل، المجدف، الهرطوقي، السيموني، الساحر، مبدد الخزينة العامة وعدو الوطن، واعترفوا بالكاردينال بوربون ملكا، ولما كان هذا سجيننا عند هنري الثالث، عينوا اخ هنري غيز، دوق ماين Mayenne، نائب المملكة العام. وانضم القسم الاعظم من المقاطعات الى هذا القرار الذي اتخذته (1589).

ولم يبق امام هنري الثالث الا ان يتصالح مع هنري نافار وانضم الى الحزب البروتستنتي، وتم الاتفاق بينهما واتى الملكان لحصار باريس. وفي غرة آب 1589 تقدم راهب متعصب اسمه جاك كليمان ودخل على هنري الثالث وطعنه طعنة نجلاء في بطنه كانت القاضية. واعتبر هذا الجرم تأرا للعصبة.

وموت هنري الثالث انطفاة اسرة فالوا. واعترف الملك قبيل وفاته بأن وارثه الشرعي هو هنري بوربون ملك نافار. وقد اخذ الناس يتساءلون أي العاطفتين اقوى واعلق في نفوس الفرنسيين: التعلق بالملك الشرعي او التعلق بالديانة التقليدية.

### هنري الرابع والعصبة

حاول الملك الجديد، هنري الرابع عبثا، بتصريح رسمي اعلن فيه عزمه بقاء الديانة الكاثوليكية والاستئناس برأي "مجمع صالح شرعي". فتخلى عنه كثير من الامراء الكاثوليك، كما تخلى عنه نظرا لتصريحه، قسم من الكالفينيين. وتناقص عدد جيشه فبلغ النصف واضطر الى رفع الحصار عن باريس.

كان خصمه، فيليب الثاني، يدعم العصبة ويقدم لها الجنود والمال، فاصبحت اقوى من قبل. وكانت الى جانبها باريس ومعظم المدن الكبرى في المملكة مع البرلمانات. ولكن هنري الرابع لم يكن الرجل الذي يدخل اليأس قلبه. فقد كان يضم، الى صفاته الروحانية والحربية، حسا دبلوماسيا ناعما وجرأة عسكرية، واستطاع ان يتغلب على اكبر المصاعب بفضل قوته وصبره واعتداله ومرونته.

فكر هنري الرابع اولا بالانسحاب نحو الجنوب حيث كانت قوى الكالفينيين الاساسية. غير ان احد ضباطه قال له: "ومن يظنكم ملك فرنسا، عندما يرى ارادتكم مؤرخة في ليموت؟" وعندها انسحب الى نورمانديا. وهذا ما جعله في متناول المساعدات الانكليزية، وفي متناول باريس ايضا، لأن امتلاكها كان اساسيا بالنسبة اليه لانها عاصمة المملكة وحصن خصومه.

ولاحقه دوق ماين الا انه كُسر في آرك بالقرب من ديب (ايلول 1589) وحاول بعدها ان يهجم على باريس الا انه اخفق. وفي السنة التالية (آذار 1590) احرز نصرا مبينا في ايفري، وفي حملة شديدة خرق صفوف ماين وجعله في حالة لا يستطيع معها القتال. وهذا الظفر ساعد هنري الرابع على التقدم لمحاصرة باريس. ورأى أخذ المدينة بقطع طرق المواصلات وتهديدها بالجماعة. غير ان جنوده كانوا قليلي العدد لفتحها عنوة. ودام الحصار اربعة اشهر، ولم يكن لدى الباريسيين من المؤن ما يكفيهم سوى شهر واحد فاستماتوا في الدفاع، وهذا ما ساعد دوق

بارما الكسندر فارنيز على المحييء من البلاد المنخفضة مع جيش اسباني لنجدة الباريسيين، الامر الذي اضطر هنري الرابع الى الانسحاب الى نورمانديا مرة ثانية.

ولم يكن كل من الحزبين على درجة كافية من القوة ليستطيع بها سحق الآخر، ودامت العمليات العسكرية مدة عامين. واستفاد الاسبانيون من ذلك فاقاموا في فرنسا. وبطلب من مجلس الستة عشر اقاموا حامية في باريس (1591). وقام الكسندر فارنيز بحملة ثانية ضد هنري الرابع في نورمانديا واجبره على رفع الحصار عن روان (1592)، ولكنه لم يستطيع ان يفيد منه بشيء حاسم وجرح في واقعة كوديبك ومات متأثرا بجراحه. وظلت الحالة مضطربة. مات ملك العصبة، شارل العاشر، كاردينال بوربون في عام 1590. وعمل فيليب الثاني ما في وسعه للمناداة بابنته ايزابلا ملكة، وكانت هذه حفيدة هنري الثاني. وانقسم رجال العصبة على انفسهم امام هذه المزايم الاجنبية. فقد كان المتعصبون يقدمون الدين على الوطنية، ولكن الاكثرية لم تر هذا الرأي.

### ارتداد هنري الرابع الى الكاثوليكية (25 تموز 1593)

على ان المزايم الاسبانية كان منها ان اذكت العاطفة القومية وقسمت رجال العصبة. فاستفاد من ذلك هنري الرابع. وعندما انعقد مجلس المملكة العام في باريس عام 1593، بناء على دعوة مابين ليقيموا خلفا لشارل العاشر، رأى هنري الرابع ان يفيد من هذه الفرصة السانحة. وبينما كان فيليب الثاني متعنتا في دعوته الى انتخاب ايزابلا ولم يقبل بزواجها بامير فرنسي قبل ان تتوج ملكة، قام هنري الرابع واعلن، على لسان مطران بوج، عزمه على اعتناق الكاثوليكية. وفي 25 تموز 1593 ارتد علنا بين يدي مطران بوج في كنيسة سن دوبي St. Denis.

وبدلت الردة كل شيء، فقد هدمت آمال فيليب الثاني واحداثت الاضطراب في صفوف العصبة. اما فرنسا فلم تكن لتريد شيئا اكثر من السلام، وما كان منها الا ان رحبت بهذا الخبر السار، واعترف قسم كبير من المملكة بالملك هنري الرابع. وقد رأى هذا الا يستمر في القتال واشترى خضوع الباقيين بالمال ولو كلفه غالبا. فمن ذلك ان دوق بريساك حاكم باريس سلمه المدينة مقابل عصا الماريشالية ومنتتي الف ليرة، ودخل هنري الرابع باريس دون حرب.

اما فيليب الثاني فلم يحارب في فرنسا حتى الآن الا كمساعد للعصبة، ولكنه اخذ بعد ذلك يقاتل على حسابه الخاص. فاعلن هنري الرابع عليه الحرب. وانقلبت الحرب الدينية الى حرب نزاع بين البيت الفرنسي والبيت النمساوي، ودامت هذه الحروب ثلاثة اعوام وكانت ميادينها بورغونيا ثم بيكارديا. وبالقرب من ديجون Dijon، رد هنري الرابع حملة الاسبان المستبسلين (1595)، غير ان الجيش الفرنسي غلب في دوللان في بيكارديا. ونضبت قوة الخصمين، ولم يعد بالامكان متابعة القتال للحصول على نصر حاسم، ففضلا للمفاوضة وعقدا معاهدة فيرفن Vervins (2 ايار 1598) التي وطدت من جديد بنود معاهدة كانو - كامبريزي.

### 3) السلام الديني ومرسوم نانت

ولكن القضية الدينية ما زالت بحاجة الى حل. وكانت تسويتها من اصعب المشاكل، لانه كان من الصعب تهدئة الخواطر داخل المملكة بعد اربعين عاما في الحروب الاهلية والكره والقتل والدماء. وانفض الاتحاد الكالفيني من حول هنري الرابع، بعد ان ارتد عن دينه، ووقف منه موقفا معاديا. وبعد مفاوضات شاقة دامت طويلا توصل هنري الرابع الى اقتناعه بقبول مرسوم نانت.

لقد اذيع المرسوم قبل صلح فيرفن بشهر أي في 13 نيسان 1598. وهو يضمن للبروتستانت حرية الوجدان وحرية العبادة في جميع المملكة، والمساواة المطلقة مع الكاثوليك في الوصول الى جميع الوظائف، وايجاد مجالس نصفية في البرلمانات مؤلفة من قضاة نصفهم كاثوليك والنصف الاخر بروتستانت.

وتنازل هنري الرابع للبروتستانت عن ضمانات سياسية وعسكرية. فقد ترك لهم الحق، خلال ثمانية اشهر من احتلال مائة موقع حصين لهم، وعقد مجالس عامة للحزب. وهذه الامتيازات، التي لم تذكر في مرسوم نانت، لا تخلو من الخطر لانها كانت تساعد الكالفينيين على بقائهم حزبا منظما في قلب المملكة.

ولقد قيل عن مرسوم نانت انه يستحق ان يعتبر تاريخا في تاريخ العالم لأنه دشن عهد التسامح والتساهل الديني. وفي الواقع ان الرعايا في جميع الدول: في المانيا وانكلترا واسبانيا كانت مضطربة، تحت طائلة النفي، ان لم يكن



تحت طائلة الموت، ان تدين بديانة مليكها كاثوليكية كانت ام بروتستانتية. اما فرنسا فكانت الاولى التي تبنت نظام الحرية الدينية ولقد قبلت فرنسا بهذا النظام، لا عن احترام حقيقي لحقوق الضمير، بل لانها كانت مضطرة لقبوله بحكم العقل والفتنة للذين امتاز بهما هنري الرابع. على ان مرسوم نانت، وان كان عادلا وموفقا في احكامه الاساسية، الا انه لم يلق حسن القبول من كثير من الكاثوليك، حتى ان هنري الرابع بذل كل ما في وسعه من رجاء وتهديد لدى البرلمانات حتى حصل على حق التسجيل لهذا المرسوم. واضطر ان يمنح الكاثوليك امتيازات، كما هي الحال في عام 1601 عندما استدعى اليسوعيين الى العودة الى المملكة بعد ان طردوا منها.

## الفصل الخامس والخمسون

### حرب الثلاثين عاما 1618-1648

كانت حرب الثلاثين عاما اخر واهم الحروب الدينية، وكان سببها الوضع الديني والسياسي للامبراطورية الالمانية، ما بين 1555، تاريخ معاهدة "سلام اورغسبورج" وبين عام 1618 تاريخ بدء الحرب.

#### 1) الاسباب الدينية

كانت اهم الاسباب الدينية التي اثارت حرب الثلاثين عاما، هو البغض العميق الذي اثار الكاثوليك والبروتستانت ضد بعضهم البعض، ويعود في اصوله الى تاريخ بدء الاصلاح، الا ان اسبابا اخرى ومختلفة، ادت ومنذ عام 1556، الى اذكاء نار هذا التباغض.

1) كانت معاهدة السلام التي وقعت في اورغسبورج تحتوي في ذاتها على بذور التفرقة والتنازع، وخصوصا فيما يختص ببند "المحمية الكنسية" Réservat Ecclésiastique، والتي منعت فيه الاستيلاء على املاك الكنيسة، والزمّت أي حاكم او اسقف او كاهن، يتحول الى البروتستانتية ان يتنازل عن حكمه او منصبه الى الكنيسة التي تركها. ولم يقبل البروتستانت هذا البند الا مرغمين. لذلك لم تتم مراعاة هذا البند، ولم يمتنع البروتستانت عن الاخلال به، تحت حكم كل من فرديناند الاول (1556-1563) ومكسميليان الثاني (1564-1576)، بسبب اظهارهما الكثير من التعاطف نحوهم، ولكنهم خسروا هذا التعاطف في عهد الامبراطورين رودولف الثاني (1576-1612)، وماتياس (1612-1616)، المؤيدين للكاثوليكية، مما ادى الى ظهور صراعات محلية خرج البروتستانت منها مهزومين. وهذا ما حصل مثلا لرئيس اساقفة كولون Cologne جبرهارد Gebhard Truchsess، الذي انضم الى الكلفينية في عام 1574، واراد الحفاظ على منصبه كناخب Electeur، وقام الكاثوليك بطرده.

ومن جهة اخرى كانت معاهدة اورغسبورج قد منحت حرية العبادة للوثريين، ومنعت الحركات والشيع الاخرى: الكالفينية والهوسية واللامعمدانية وغيرها. الا انه وفي منتصف القرن السادس عشر، انتشرت الكلفينية سريعا على حساب اللوثرية، خصوصا، ابتداء من عام 1562، عندما اعتنق الكلفينية، فردريك الرابع التقي Frédéric IV le Pieux، حاكم مقاطعة البلاتان Palatin، واصبح الكالفينيون اكثر تطلبا، فطالبوا بالحصول على نفس الحقوق كاللوثرين، مما زاد النزاع والانقسام بين اللوثرية والكلفينية.

2) الا ان السبب الذي اثار اللوثرين اكثر هو التقدم الكبير الذي احرزه الاصلاح الكاثوليكي، وكان اليسوعيون العمال النشطين لهذا الاصلاح. فلما تمّض مدة قصيرة على تأسيس هذه الجمعية الرهبانية، حتى ارسلت مرسلها الى المانيا، ففتحو الجامعات والكليات، واصبحوا اساتذة ومعلمي ومربي ومعرفي الامراء الكاثوليك. وبدعم

وتشجيع البابوات المصلحين، وبفضل نشاط الرهبان، تمت عملية إعادة تجديد وانتعاش كاثوليكية نشطة ادت الى ثمار كبيرة.

في غداة معاهدة سلام اوغسبورج كان الجزء الاكبر من المانيا قد انضم الى اللوثرية، وحتى في البلاد المجاورة لها كالنمسا، وبافاريا ومقاطعات كولون وماينز وتريف، التي كان حكمها كاثوليك، كانت الافكار اللوثرية قد وجدت الكثير من المؤيدين.

الا انه وفي اواخر القرن السادس عشر، استطاع المرسلون ليس فقط على ايقاف الغزو البروتستنتي، وانما على إعادة جزء كبير من الاراضي التي انفصلت. كما واستعاد الامبراطور رودولف الثاني سلطته وبالتالي أعاد الديانة الكاثوليكية الى بعض المقاطعات التي كانت تعتبر مقاطعات وراثية لعائلة هابسبورغ الكاثوليكية.

ادرك البروتستانت، امام تقدم الكاثوليكية، ان انقساماتهم الداخلية هي السبب في خسارتهم، فألف عدد من الامراء البروتستانت اتحادا من الاقاليم البروتستانتية (1608)، عُرف باسم "الاتحاد الانجيلي"، لحماية انفسهم ومواقعهم، واتخذوا زعيما لهم حاكم مقاطعة البلاتان، فردريك الرابع التقي. وبقي حاكم الساكس اللوثرية خارج الاتحاد بسبب كرهه للكلفينية. وتعهد الملك هنري الرابع ملك فرنسا بدعمهم في أي عمل يقومون به ضد الامبراطور رودولف الثاني.

وفي عام 1609، الف عدد من الحكام الكاثوليك، يتزعمهم مكسمليان الاول دوق بافاريا، اتحادا كاثوليكيا، عُرف "بالحلف الكاثوليكي" او "الحلف المقدس"، انضمت اليه كل الدويلات الكاثوليكية، وعرضت اسبانيا ان تقدم لهذا الحلف المعونة العسكرية.

## (2) الاسباب السياسية

كانت حرب الثلاثين عاما ايضا نتيجة طموحات سلالة هابسبورج الكاثوليكية، التي حلمت ان تعيد سلطتها المطلقة على المانيا، ومحويلها من امبراطورية انتخابية واقطاعية، الى امبراطورية وراثية مركزية على مثال فرنسا. وسيحاول فرديناند الثاني 1609-1637، تحقيق هذا الهدف بفضل الصراعات الدينية. وعندما اصبح امبراطورا بعد موت الامبراطور ماتياس عام 1619، بدأ بتحقيق هذا الحلم. وبما ان اكثرية الامراء كانوا قد انضموا إما الى اللوثرية وإما الى الكلفينية، فقد رأى في الصراع ضد الهرطقة حجة لهدم استقلال هؤلاء الامراء، ومن ثم استخدامهم لاعادة السيادة المطلقة لعائلة هابسبورج في كل اوروبا.

اثار هذا الطموح مخاوف البلاد المجاورة مثل فرنسا، مما دفعها الى تأييد الامراء البروتستانت، وتحويل حرب الثلاثين عاما، الالمانية والدينية، الى حرب سياسية واوربية.

## (3) السبب المباشر لحرب الثلاثين عاما

كان حادث القاء مندوبي الامبراطور من النافذة في براغ عام 1618، الشرارة التي اشعلت حرب الثلاثين عاما. فقد تم اختيار فرديناند الكاثوليكي عام 1617، ليخلف الامبراطور ماتياس حاكم بوهيميا، لانه لم يكن له وريث شرعي.

وكانت بوهيميا ارضا خصبة لتغلغل الافكار اللوثرية بسبب تحضيرها بتعاليم جون هوس. فاحرزت اللوثرية تقدما كبيرا في بوهيميا واعطاهم رودولف الثاني، ليضمن انتخابه امبراطورا، امتيازات خاصة في رسالة سُميت "رسالة الجلالة Lettre de Majesté"، اعترف فيها لهم بحرية الضمير، وبناء المعابد، وفتح المدارس وانتخاب 24 نائبا، يدعون "حامى الايمان" ليتابعوا الحفاظ على هذه البنود وتطبيقها من قبل الحكام.

تغير الوضع بعد موت رودولف واعتلاء ماتياس العرش. فقد حاول الحكام وجميعهم من الكاثوليك المحافظين، الحد من تقدم اللوثرية، وفسروا وطبقوا بنود "رسالة الجلالة" بشكل لا يوافق اللوثرين. وللحفاظ على حقوقهم عقد اللوثرين اجتماعات للتداول، وانتخبوا زعيما لهم، احد الاشراف الطموحين، الكونت هنريك فون ثورن Conte de Thurn.

وفي عام 1618، القى البروتستانت مندوبي ماتياس من نافذة القلعة مع سكرتير لهم، فسقط ثلاثتهم نحو خمسين قدما، لكنهم وقعوا على كومة من الاقدار، فتلوثوا اكثر مما تأدوا. وكان هذا اللقاء من النافذة تحديا للامبراطور وللملك الكاثوليكي. وطرده ثورن رئيس الاساقفة واليسوعيين، وشكل حكومة ثورية، ودعا كل حلفائه في

الخارج لمساندته. وعندما مات ماتياس في السنة التالية (1619)، انتخب البوهيميون فردريك الخامس ليكون حاكما لبوهيميا. وسيصطدم البوهيميون مع خصم عنيد هو فرديناند الثاني الذي انتخب امبراطورا في 26 آب 1619. واتخذ فرديناند حجة النزاعات الدينية، لفرض الوحدة الدينية كأساس للوحدة الوطنية.

مرّت الحرب التي نتجت عن هذه الحوادث في اربع مراحل:

### (1) المرحلة البوهيمية اوالبالاتينية *La Période Palatine 1618-1623*

كان اطراف هذه الحرب الامبراطور فرديناند ومعه مكسمليان ملك بافاريا من ناحية، وفردريك ومعه البوهيميون من الناحية الاخرى.

وفي تموز عام 1620، عبر جيش امبراطوري قوامه 25 الف رجل النمسا الى بوهيميا بقيادة جوهان تللي، والتقى بالجيش البوهيمي بالقرب من الجبل الابيض، الى الغرب من براغ، وهزمهم هزيمة نكراء. وهرب فردريك مع حاشيته، واحتل مكسمليان براغ، وسرعان ما اعيدت الكاثوليكية، واعيد وضع الصور والتمائيل في الكنائس. واستدعى مكسمليان اليسوعيين، ووضع التعليم تحت اشرافهم، لم يسمح الا الديانة الكاثوليكية واليهودية.

### (2) المرحلة الدانمركية *la période danoise*

جرت معارك هذه المرحلة ما بين 1625 و 1629. وكان هدفها حماية المقاطعات الشمالية البروتستانتية في المانيا من المصير الذي لاقته بوهيميا. جاء ملك الدنمارك كريستيان الرابع تحذوه الرغبة في ضم مناطق جديدة لنفوذه الى جانب رغبته في مساندة البروتستانتية، ولكنه لقي هزيمته على يد قوات الامبراطور فرديناند الثاني بقيادة القائدين الماهرين تللي والنشتاين Telly et Walenstein.

واصدر الامبراطور مرسوما يقضي باعادة الوضع الى ما كان عليه. وامر بان يعاد تسليم اراضي الكنيسة الكاثوليكية التي استولى عليها البروتستانت عام 1552، وبأن يطرد البروتستانت من المناطق الخاضعة لحكم الامراء الكاثوليك.

### (3) المرحلة السويدية *La période Suédoise*

كان لدخول غوستاف ادولف ملك السويد مسرح الاحداث سببا لنجاح البروتستانت. كان غوستاف يعتبر القائد الاول في عصره، وألف جيشا من الطراز الاول، فاق الجيوش الاخرى بالنظام والادارة والانضباط. وكان لوثرنا متحمسا، وكان يرى في الحرب حملة صليبية للدفاع عن الايمان. وكملك طموح اراد ان يوسع اراضيه بشكل يؤلف في المانيا الشمالية امبراطورية بروتستانتية يكون هو رئيسها.

وفي معركة جرت في لوتزن Lutzen في 16 تشرين ثاني 1632، هزم البروتستانت قوات الامبراطور فرديناند الثاني، بقيادة النشتاين، الا ان مقتل الملك جوستاف في هذه المعركة، ادى الى فوضى بين قواته، استغلها الامبراطور، واستعاد من السويديين مقاطعات في جنوب وغرب المانيا، كان السويديون قد احتلوها سابقا. وحصلت السويد على المناطق التي كانت تريد الحصول عليها في شواطئ بحر البلطيق.

### (4) المرحلة الفرنسية

وكانت المرحلة النهائية للحرب. وجرت ما بين 1635-1648، وشهدت تدخل فرنسا الكاثوليكية في صف البروتستانت، حيث كان ريشيليو يطمع في ضم اراض جديدة الى فرنسا. وكان يريد بنفس الوقت مضايقة ملك اسبانيا الذي كان يحكم ايضا الامبراطورية الرومانية المقدسة.

### (4) معاهدة صلح وستفاليا *Westphalia*

بدأ الامبراطور فرديناند الثالث، الذي اصبح امبراطورا بعد موت والده عام 1637، وامام خطر احتلال عاصمته من قبل الجيوش الفرنسية-السويدية، يفكر بعقد اتفاقية سلام وانهاء الحرب.

وكان البابا اربان الثامن قد عرض منذ عام 1636 وساطته بين الدول المتحاربة لانهاء الحرب، الا ان البروتستانت رفضوا هذه الوساطة.

توصلت جمهورية البندقية وملك الدنمارك عام 1641، الى اتفاق مبدئي بعقد مؤتمر مزدوج، واحد في مونستر Munster، تلتقي فيه فرنسا مع الامبراطورية لمعالجة مشاكلهما في ظل وساطة البابا والبندقية، واخر في اوسنابروك Osnabruck، على بُعد ثلاثين ميلا من مونستر، تلتقي فيه فرنسا والامبراطورية مع السويد في ظل وساطة كريستيان الرابع ملك الدانمرك.

وبسبب عدم وجود نية طيبة بين الاطراف، ونتيجة اجراءات الامن وقواعد البرتوكول، لم تبدأ هذه المفاوضات الا في عام 1641. وتلكا المندوبون في المفاوضات او عجلوا بها، على قدر ما كانت جيوش كل فريق تنتصر او تهزم، لكي يتسنى لكل فريق ان يعرض الشروط التي تناسبه اكثر.

وقعت معاهدة وستفاليا اخيرا في مونستر وانسبورك في نفس الوقت في 24 تشرين اول 1648. واستمر سفك الدماء تسعة ايام اخرى، حتى وصلت الانباء الى جهات القتال، وتعالق هتافات "الشكر لله" من الوف المدن والقرى.

واجهت هذه المفاوضات مشكلات معقدة، ولكنها عملت على تسوية المطالب المتعارضة، بقدر ما سمحت به الكراهية والغرور والكبرياء والقوة والسلطة التي سيطرت على المجتمعين.

احتوت هذه المعاهدة، التي اعادت تشكيل اوروبا من جديد، على ثلاثة انواع من القرارات: اقليمية وسياسية ودينية. نكتفي بعرض القرارات الدينية التي تهمنا في موضوعنا هذا.

### 5) القرارات الدينية لمعاهدة وستفاليا

- ثبتت معاهدة وستفاليا، بنود معاهدة "سلام اوغسبورغ" ووسعتها. واعترفت بحرية الضمير والعبادة ليس فقط للوثنية وانما ايضا للكاليفينية، شريطة ان لا يمنع الامراء ممارسة شعائر العبادة للكنائس الاخرى في مقاطعاتهم، حسب ما كان عليه سنة 1624، التي اعتبرت السنة الاساسية او العادية<sup>2</sup> Normale، ومن لم يكن له حقوق قبل سنة 1624، ولا يريد ان يتبنى العبادة الرسمية، عليه ان يهاجر.

- قررت معاهدة وستفاليا ان تتخلى الكنيسة عن اعادة الاملاك الكنسية التي استولى عليها البروتستنت، وان تعود الى الوضع الذي كانت عليه ممتلكاتها في عام 1624.

- وضعت معاهدة وستفاليا جميع الكنائس المسيحية على قدم المساواة.

- قررت هذه المعاهدة في فقرة صغيرة من البند السابع تفوق السلطة المدنية على السلطة الدينية، عندما اعلنت ان الامراء يملكون بجانب الحق على الارض، الحق ايضا على اصلاح الدين le jus reformandi، والذي كان يخالف مقررات مجمع ترانت الذي اعلن ان للسلطة الدينية وحدها وبنوع خاص للمجامع القانونية، ان تصلح الاخلاق وصيغ الايمان.

فلا عجب اذن ان رفض ممثل البابا الكاردينال Chigi ان يوقع المعاهدة. وفي 20 تشرين ثاني 1648، اعلن البابا انوسنت العاشر في براءته Zelo domus Domini، ان المعاهدة "غير شرعية، وغير ملزمة، ملعونة، بغیضة، ليس لها أي اثر او نتيجة على الماضي او الحاضر او المستقبل". وتجاهلت اوروبا هذا الاحتجاج.

<sup>3</sup> طلب الكاثوليك ان تكون سنة 1629، هي السنة الاساسية او العادية، لانها تاريخ مرسوم الاعادة Restitution، واراد البروتستانت ان تكون سنة 1648، وتصلوا اخيرا الى سنة 1624 كحل وسط بين التاريخين.

## المراجع (1) مراجع في اللغة العربية

الدكتور عزت زكي: "تاريخ المسيحية" الجزء الثالث "المسيحية في عصر الاصلاح"، دار التأليف والنشر الاسقفية، القاهرة، 1977، 200 ص.

- جون لوريمر – ترجمة عزرا مرجان: "تاريخ الكنيسة" الجزء الرابع، دار الثقافة، القاهرة 1990، 335 ص.
- جون لوريمر – ترجمة عزرا مرجان: "تاريخ الكنيسة" الجزء الخامس، دار الثقافة، القاهرة 1992، 213 ص.
- الاب جان كمبي: "دليل تاريخ الكنيسة"، دار المشرق، بيروت، 1986، 405 ص.
- القس ليب مشرقي: "حديث مع جون كالفن" دار نوبار للطباعة، 1985، 172 ص.
- القس فايز فارس: "اضواء على الاصلاح الانجيلي"، دار الثقافة، القاهرة، 1984، 100 ص.
- هاري ايرتس – ترجمة وليم وهبة بباوي: "مصلح في المنفى، جون كالفن"، دار الثقافة، 1982، 202 ص.
- القس حنا جرجس الخضري: "المصلح مارتن لوثر حياته وتعاليمه"، دار الثقافة، 1983، 187 ص.
- ايرل كيرنز: "المسيحية عبر العصور"، الناشر ICI، نيقوسيا، 1981، 610 ص.
- القس حنا جرجس الخضري: "جون كالفن"، دار الثقافة، 1989، 256 ص.
- الاب جميل السقلاوي العازري: "مار منصور 1581-1690"، 1981، 216 ص.
- القس منيب يونان: "اقرار اوغسبورغ"، القدس، 1993، 130 ص.
- الابوان صبحي حموي وانطوان الغزال (ترجمة): "تاريخ الكنيسة المفصل" 2003، الجزء الثالث 9 ص (9-62).

## (2) مراجع في اللغة الفرنسية

- Daniel Oliver et Alain Patin: "Luther et la Réforme", Ed. De l'Atelier, 1997., 186 p.
- Goerges Tavard: "Le Protestantisme", je sais-je crois, Ed. Fayard, 1958, 119 p.
- Chanoine Cristiani: "Brève Histoire des Hérésies", Je sais-je crois, Ed. Fayard, 1956, 124 p.
- O. De LA Brosse et autres: "Histoire des Conciles Oecuméniques" Tome 10 et 11, Ed. De l'Orante, Paris, 1975.
- C. Bihlmeyer – H. Tuchle: "Histoire de l'Eglise", Tom III, Ed. Mulhouse et autres, 588 p.
- Daniel-Rops: "L'Eglise de la Renaissance et de la réforme: La Réforme Catholique", Ed. Fayard, 1955, 569p.
- Daniel-Rops: "L'Eglise de la Renaissance et de la réforme: La Réforme Protestante", Ed. Fayard, 1955, 615p.
- J.M.Mayeur et autres: "Histoire du Christianisme" Tome 7, Desclée, 1994, 926 p.
- Georges Blond: "Les Enragés de Dieu", Ed. Grasset, Paris, 1970, 379 p.
- Fliche et Martin: "Histoire de l'Eglise: La crise religieuse du XVIe siècle" Tome 16, Ed. Bloud & Gay, 1950, 461 p.
- Fliche et Martin: "Histoire de l'Eglise: Concile de Trente" Tome 17, Ed. Bloud & Gay, 1948, 495 p.
- Fliche et Martin: "Histoire de l'Eglise: La Restauration catholique" Tome 18, Ed. Bloud & Gay, 1960, 488 p.
- Bernard de Vaulx: "Les Missions: leur histoire", je sais-je crois, Ed. Fayard, 1960, 126 p.

Chanoine Cristiani: "*L'Insurrection protestante*" Je sais-je croix", Fayard, 1961, 124 p.

Emile G. Léonard: "*Histoire Générale du Protestantisme*, Tome 1, La Réformation", Ed. Presses Universitaires, 1961, 402p.

L'Abbé A. Bolenger: "*Histoire Générale de l'Eglise: Tome III, Vol. VII, La Réforme protestante*", Paris, Librairie Catholique Emmanuel Vitte, 1938, 290 p.

L'Abbé A. Bolenger: "*Histoire Générale de l'Eglise: Tome III, Vol. VII, La Réforme Catholique*", Paris, Librairie Catholique Emmanuel Vitte, 1940, 729 p.

Robert Grimm: "Luther et l'expérience sexuelle", 1999, 431p.

### (3) مراجع في اللغة الإيطالية

Federico Alessandro Rossi: "*Lutero cinque secoli dopo*", Ed. NED, 1998, 160 p.

Jacques V. Pollet: "*Zwingli, Biografia e Teologia*", Ed. Morcelliana, 1994, 150 p.

James Atkinson: "*Lutero la parola scatenata, L'uomo e il pensiero*", 1992, 488 p.

Alister E. McGrath: "*Il pensiero della Riforma*", 1995, 400 p.

### (4) مراجع في اللغة الانكليزية

Hilaire Belloc: "*How the Reformation happened*", Ed. Tan Books and publishers, 1992, 180 p.